فاضل الربيعي

غزال الكعبة الذهبي

النظام القرابي في الإسلام



Jadawel جداول

الكتاب: **غزال الكعبة الذهبي النظام القرابي في الإسلام**
المؤلف: **فاضل الربيعي**

جداول
للنشر والتوزيع
الحمرا - شارع الكويت - بناية البركة - الطابق الأول
هاتف: 746638 1 00961 ـ فاكس: 746637 1 00961
ص.ب: 5558 - 13 شوران ـ بيروت ـ لبنان

e-mail info@jadawel.net
internet site www.jadawel.net

الطبعة الأولى
نيسان / أبريل 2011
ISBN

جميع الحقوق محفوظة © جداول للنشر والتوزيع:
لا يجوز نسخ أو استعمال أي جزء من الكتاب في أي شكل من الأشكال أو بأية وسيلة من الوسائل سواء التصويرية أم الإلكترونية أم الميكانيكية، بما في ذلك النسخ الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو سواها وحفظ المعلومات واسترجاعها دون إذن خطي من الناشر.

طبع في لبنان

Copyright © **Jadawel** S.A.R.L
Hamra Str. - Al-Barakah Bldg.
P.O.Box: 5558 -13 Shouran
Beirut - Lebanon
First Published 2011 Beirut

تصميم الغلاف:

المحتويات

الفصل الأول

الفصل الثاني

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الفصل الخامس

الفصل الأول

منْ سرق غزال الكعبة؟

﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾

قرآن كريم

[سورة المسد 111]

أبو لهب هذا، هو أبو لهب بن عبد المطلب سيّد مكة العظيم، ابن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب، عمّ النبي ﷺ واسمه عبد العزى.[1] أما امرأته التي وصفها القرآن بأنها حمّالة الحطب، فهي أم جميل بنت حرب بن أمية، عمّة الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان واسمها فاختة[2]. ويُقال في

(1) ابن حبيب، محمد بن حبيب البغدادي: **المنمق في أخبار قريش**، صححّه وعلق عليه خورشيد أحمد فارق، دار عالم الكتب، بيروت 1985- لبنان، ص: 57-69، وكذلك طبعة حيدر آباد الدكن 1964، ص 534، وابن كثير، أبو الفداء إسماعيل: **السيرة النبوية**، تحقيق مصطفى عبد الواحد، 1976 ج 1-225. والزبيري، أبو عبد الله بن المُصعّب بن عبد الله بن المُصّعب: **نسب قريش**، نشرة ليفي بروفينسال، دار المعارف المصرية، دون تاريخ نشر 1/ 18، **والروض الآنف** [ص 208] : (تعني أبو لهب، الرَّائعُ الجَمال. ويقال كُنِيَ بأبي لهب لجماله أو ماله) والدته لُبنى بنت هاجر بن عبد مناف بن خاطر- وفي روايات أخرى ضاطر- بن حُبشية بن سلول من خزاعة. وكتب التاريخ تصنفه كواحد من أجمل رجالات قريش. (وَأُمّ أَبِي لَهَبٍ لُبْنَى بِنْتُ هَاجِرِ بْنِ عَبْدِ مَنَافِ بْنِ ضَاطِرِ بْنِ حُبْشِيّةَ ابْنِ سَلُولَ بْنِ كَعْبِ بْنِ عَمْرِو الْخُزَاعِيّ).

(2) **ثقات ابن حبان** 3/ 118 وعند ابن كثير: **السيرة** 1/ 462 اسمها أروى.

كتب الرواة، أن والده **عبد المطلب**[1] كناه **أبا لهب**، لتلهب وجهه **وشدة جماله**[2] وأنه كُني **بهذه الكنية لماله**. والآية الكريمة التي نزلت بحقه وبحق امرأته كذلك، وكرّست إلى الأبد صورتيهما كمخلوقين تعيسين ارتكبا الخطيئة، تتضمّنُ كلّ مدلولات ومعاني الجحيم السماوي، حين تُقّطع الأيدي ويُجرجرُ الخاطئون من أعناقهم **بالحبل**. لكن، لماذا استخدم النصّ القرآني، وصفًا محددًا واستثنائيًا، يتضمن عبارة اختصّت بالدعاء على **اليد أن تُقطع**، **والمال أن يتبّدد ويضيع ويقطع**؟ وهل ترتبط هذه الآية بحادثٍ ما، يتصلُ بعداءِ **أبي لهب للإسلام**، أم أنها تشيرُ إلى ما يمكن اعتباره حادثًا تاريخيًا لا نعرف عنه الشيء الكثير، ولكنه هزّ وجدان العرب في الجاهلية، وظل في ذاكرات القبائل حتى مطلع الإسلام؟ ثم، لماذا استخدم القرآن تعبير **حمّالة الحطب** في توصيف المرأة التي يُفترض أن زوجها، كان من **أثرياء قريش وابن سيّد مكة**، وهل كانت تعمل في **جمع الحطب حقًا**، أم أنها كانت تقوم فقط، بجمعه

---

(1) الفاكهي، الإمام أبي عبد الله محمد بن اسحاق بن العباس المكيّ : **أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه**، دراسة وتحقيق د. عبد الملك بن عبد الله بن دهيش، دار خضر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1994 1/ 1014. سميَ عبد المطلب نسبة إلى عمّه المطلب، شقيق هاشم الأكبر الذي أعاده إلى قريش بعدما عاش بين أخواله بني النجار بعد وفاة والده في غزة أثناء رحلة تجارية. وهذا الاسم، عبد المطلب، كما تقول روايات الإخباريين أطلقته قريش عليه، فهي عرفته باسم(عبد) المطلب، لأن المطلب عندما سُئِل عن الصبي الذي جاء به، قال هذا عبدي، ولم يقل أنه ابن هاشم أخيه الذي تزوج في بني النجار، وخلف ولدًا هناك ثم ذهب في تجارته ومات. إن سرد أسطورة عودة عبد المطلب إلى أعمامه بعد غربته الطويلة في مضارب أخواله، وإخفاء نسبه وتصويره كعبد، له صلة عميقة بما سوف يؤلفه الإخباريون من روايات وقصص عن تحنث عبد المطلب في غار حراء، وما يعرف في الإخباريات العربية- الإسلامية بدين عبد المطلب، يُدلل على ذلك بقوة. لكن هذا السرد من زاوية أخرى، سيبدو أكثر أهمية مما نعتقد، لأنه يعطي مؤشرات دقيقة عن طبيعة صراع القرابات، فالصبي على غرار جده قصي، سوف يترك مضارب أخواله ليعود إلى أعمامه. والقصة الشيقة عن عودته كعبد إلى مضارب أعمامه، تكرار لقصة عودة جده الأعلى قصي.

(2) ابن حمدون، محمد بن الحسن بن محمد بن علي، **التذكرة الحمدونية**، تحقيق: إحسان عباس وبكر عباس، دار صامد، بيروت 1996 / 8-301:(أبو لهب كنيتُه وقعت عليه لحمرة لونه).

لترميه في طريق النبي ﷺ بهدف إيذائه؟ من المؤكد أن قصة صراع **أبي لهب**[1] **وأم جميل**[2] ضد نبي الإسلام، تتخطى حدودها الفردية المتصلة بالقرابات الدموية ـ من الدم ـ، وهي تعكس على الأرجح، صراعًا أعمّ حول مكة خاضته قبائل متنافسة وطموحة.

إن منظورًا أنثروبولوجيًا جديدًا للمروية العربية القديمة، يتخطّ روح الاحتقار التي بثّها الاستشراق الألماني[3] في الثقافة العربية، يمكنه أن يكشف عن **المخفيّ والمسكوت** عنه في الآية الكريمة. ولعل دخول الشعراء على خط هجاء **أبي لهب** وامرأته والتشهير بهما، هو ممّا يمكن اعتباره، تفاعلًا وجدانيًا عنيفًا مع هذا الجانب من تاريخ الإسلام. مثلًا، قال **الأحوص**[4] وهو يعيد صياغة صورة **أم جميل** في الجحيم السماوي:

ما ذات حبلٍ يراها الناس كلهم — وسط الجحيم ولا تخفى على أحدِ

ترى حبال جميع الناس من شَعْر — وحبلها وسط أهل النار من مسدِ

فردَّ عليه حفيدها **الفضل بن العباس**[5] **بن أبي لهب** قائلًا:

---

(1) الفاكهي، **أخبار مكة** 1/ 1014، ابن كثير، 1-225.

(2) الثعالبي النيسابوري، أبو منصور عبد الملك بن محمد إسماعيل: **ثمار القلوب في المُضاف والمنسوب**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف - مصر، بلا سنة نشر، ص302 . (حمّالة الحطب هي أم جميل بنت حرب وأخت أبي سفيان التي ذكرها الله تعالى في سورة ﴿تَبَّتۡ يَدَآ﴾ يُضرب بها المثل في الخسران) ـ و ـ (يقال: أخسر من حمّالة الحطب).

(3) دأب المستشرقون الألمان، باستثناء نولدكه على رفض المرويات العربية الكلاسيكية، وبشكل أوضح ساهموا في تقديم قراءة مخيالية للنصّ القرآني، تنطلق من أرضية فهم خاطئ لمسألة وجود اليهود في الجزيرة العربية، وتصوير التشريعات اليهودية كمصدر إلهام. إن ما يقوله ك. سيل: تطور القرآن التاريخي
Canon Edward Sell ـ The Historical Development برلين 1932 وكريسنو لوكسنبرغ: **معاني القرآن في ضوء علم اللسان**، دار الكتاب العرب، برلين 2000 مثلًا، يندرج في إطار هذه المقاربة الرائجة في مؤلفات المستشرقين.

(4) البلاذري، الإمام أحمد بن يحيى بن جابر: **أنساب الأشراف**، حققه وقدّم له: الأستاذ الدكتور سهيل زكار، والدكتور رياض زكار، دار الفكر- دمشق، سورية 1996، ص: 1/ 88، الميداني، مجمّع الأمثال: 1/ 113 الزبيري: **نسب قريش** 1/ 31، 125 .

(5) الزبيري: **أنساب قريش**، ج/ 3، 90.

ماذا تريدُ إلى شتمني ومنقصتي أم ما تعيّر من حمّالة الحطبِ
غرّاء سائلة في المجد غرّتها كانت سلالة شيخٍ ثاقب الحسبِ

وقال **الحُزين الديلي يهجو الفضل**[1]:

إذا ما كنتَ مُفتخرًا بجدٍ فعرّجهنّ أبي لهب قليلا
فقد أخزى الإله أباك دهرًا وقلّدَ غُرسهُ حبلًا طويلا

يتضح من هذا الرد الغاضب، أن التشهير **بأبي لهب وامرأته** اتخذ بُعدًا جديدًا مع انتصار الإسلام، يتصل عضويًا بنمطٍ من صراع **قرابات أسرية قديمة** داخل مجتمع **مكة الديمقراطي**، تفجرّ على خلفية ظهور دين جديد وقويّ، فرض على العرب بكل قبائلهم تقبّل **فكرة أن يعيدوا تعريف أنفسهم كجماعة موحدّة**، تترابط **بعلاقات قرابيّة** جديدة[2]. كانت فكرة وجودهم داخل **أمة جنينية** قابلة للتشكلّ كأمّة تاريخية، مفاجأة لوعي القبائل لنفسها. كما ظهرت في إطار هذا التفجرّ وتداعياته ونتائجه، مفارقات ثقافية محيّرة، **فالحفيد المسلم** بعد مرور عقود طويلة على الحادث، وتبلور وعي العرب لأنفسهم كأمّة موحدّة، لا كقبائل مبعثرة تحرّكها عصبيات قرابيّة تخطاها الإسلام وتقاليده الروحية، سيجد نفسه مضطرًّا إلى الدفاع عن **جدته الكافرة، وهذا وضع محيّر بالفعل. يروي الأصفهاني**[3] كيف أن هذا التوتر في القرابات استمر حتى الدولة الأموية، فقد زار **الفضل بن العباس**

---

(1) الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسن بن محمّد: **الأغاني**، دار الكتب المصرية- القاهرة 1923 -4/ 307.

(2) ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد: **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، دراسة وتحقيق محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، راجعه وصححه نعيم زرزور، دار الكتب العلمية ـ لبنان الطبعة الأولى 1992، ص 313/ 1 وتزوج عبد المطلب (هالة وزوج ابنه عبد الله: آمنة في مجلس واحد فولد حمزة، ثم ولد رسول الله ﷺ فأرضعتهما ثويبة مولاة أبي لهب بلبن ابنها مسروح ولذلك قال رسول الله ﷺ حين عُرضت عليه ابنة حمزة ليتزوجها: « إنها لا تحل لي، إنها ابنة أخي، أرضعتني وإياه ثويبة».

(3) الأصفهاني، **الأغاني**، 4/ 307.

حفيد أبي لهب، بلاط الخليفة الأموي وكان راغبًا في تذكيره **بصلة الرحم** بينهما، لكن بعض جلساء الخليفة سخروا من شعره. يقول **الأصفهاني إن الفضل بن العباس بن عتبة ابن أبي لهب، دخل على عبد الملك بن مروان،** فأنشده وعنده **ابن لعبيد الله بن زياد.** ويبدو أن الخليفة وبتحريض من أحد جلسائه لم يبدِ ما يشير إلى اهتمامه **بالقرابة التي تجمعه مع الفضل** فلما كان العشيّ راح إليه **الفضل**، فوقف بين يديه، ثم قال: يا أمير المؤمنين:

أتيتك حالًا وابن عم عمةٍ ... ولم أك شعبًا لاطه[1] بك مشعب

فَصلٌ واشجاتٍ بيننا من قرابة ... ألا صلة الأرحام أبقى وأقرب

ولا تجعلني كامرئ ليس بينه ... وبينكم قربى ولا منتسب

أتحدب من دون العشيرة كلها ... فأنت على مولاك أحنى وأحدب)[2]

وهذه الواقعة، تؤكد أن توتر القرابات، كان لا يزال متواصلًا حتى العصر الأموي[3]. وبخلاف ما نصّت عليه الآية، وبخلاف ما قام به النبي ﷺ نفسه، استنادًا **إلى القرآن**، حين اعتبر **عمُه كافرًا**، كان هناك أحفاد وأقارب **لأبي لهب** من المسلمين، يضطرّون إلى الدفاع عنه. وكان أمرًا محيّرًا أكثر، أن يضفي **الحفيد المسلم على جدته الكافرة**، أوصافًا لا تستحقها، وفقط من أجل أن لا يبدو هذا التشهير **مسًّا بقرابته الدموية المباشرة**. لقد كانت

---

(1) **الروض الآنف** : 3/ 50 (لاطَ لَهُ أَيْ أَرْبَى لَهُ وَكَذَلِكَ جَاءَ اللّيَاطُ مُفَسّرًا فِي غَرِيبِ الْحَدِيثِ لِلْخَطّابِيّ وَهُوَ قَوْلُهُ ﷺ فِي الْكِتَابِ الّذِي كَتَبَهُ لِثَقِيفٍ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دِينٍ لا رَهْنَ فِيهِ فَهُوَ لِيَاطٌ مُبَرّأٌ مِنْ اللّهِ. وَقَالَ أَبُو عُبَيْدٍ وَسُمّيَ الرّبَا لِيَاطًا، لأَنّهُ مُلْصَقٌ بِالْبَيْعِ وَلَيْسَ بِبَيْعٍ، وَقِيلَ لِلرّبَا لِيَاطًا لأنه لاصق بِصَاحِبِهِ لا يَقْضِيهِ ولا يُوضَعُ عَنْهُ وَأَصْلُ هَذَا اللّفْظِ مِنْ اللّصُوقِ).

(2) الأصفهاني، **الأغاني** : كذلك.

(3) التقي الغزي، **الطبقات السنية في تراجم الحنفية** 1/ 44 وقد أنشد الخطيب الخوارزمي في هذا المعنى، وأجاد، فقال:

إلى التُقَى فانْتَسِبْ إن كنتَ مُنْتَسِبًا ... فليس يُجديكَ يومًا خالِصُ النَّسَبِ

بِلالٌ الحبشيُّ العَبْدُ فَاق تُقىً ... أحرَارَ صِيدِ قُرَيشٍ صَفْوَةَ العَرَب

غَدَا أبُو لَهبٍ يُرْمَى إلى لَهَبٍ ... فيه غَدَتْ حَطَبًا حَمَّالَةُ الحَطَبِ

الآية، بما حملته من تنديدٍ قاسٍ يمّس قرابات النبيّ ﷺ ودون مواربة، بمثابة مفاجأة كبرى لمجتمع قبائل حديثة العهد بالإسلام، وهي اعتادت في حياتها اليومية ومعاركها وصراعاتها وأشعارها وتقاليدها البطولية، أن تفرد للقرابات العائلية مكانة خاصة، لأن هذه القرابات هي التعبير الوجودي عن القبيلة؛ بل إن **القبيلة هي بالضبط، هذا الشكل المُعقدّ والمتشابك من القرابات**، وليست أي شكل آخر. وقد تكون المفاجأة حدثت بصورة أدّق وأوضح، عندما بدا أن الهجاء القرآني جاء ليحمل هذا المجتمع، بكل بتقاليده الصارمة والراسخة ومن دون تردد على قبول هذا المتغيّر في تقاليده وأعرافه ومعتقداته، ومن بين ذلك، أن هذه القرابات، ليست ولم تعد نظامًا ثقافيًا مستقلًا أو قائمًا بذاته، له مكانته و«قدسيته» ؛ وأنها أضحت منذ الآن، جزء من نظام قرابات جديدة، تُعيد تشكيل **وعيه لهوّيته**، عقيدة روحية سماوية؛ وأن بُنى القرابات القديمة بذاتها لم تعد لها إلا أهمية محدودة، وأنها سوف ترتبط بأفكار ورؤى الإسلام وبتصوّراته الديناميكية التي يصبح فيها، خصمان لدودان، مثلًا ومن قبيلتين عاشتا عداء طويلًا، أخوين حميمين في الدين. وهذه أشكال من العلاقات البديلة التي لم يألفها مجتمع القبائل. **والنبي ﷺ** بنفسه، يُوحى إليه أن يبّلغ، بأن **عمّه أبو لهب وامرأته هما في النار**، وأن هذه القرابة الحميمة ليست شفيعًا لأحد. لكن في المقابل، سوف يكتسب نظام القرابات الأسرية القديم، بُعدًا أعمق، ولن يزول أو يتلاشى أو يتمّ تحطيمه، **لأن الإسلام** لم يسع إلى إزاحته أو التخلص منه، وإنما إلى إعادة صياغته لينسجم مع نظام قرابات روحية مختلفة وخاصّة بالعرب، تصبح فيها **صلة الرحم** أكثر ارتباطًا بالإيمان المشترك للجماعة المسلمة. ولذلك كانت الآية تتخطىّ في مضامينها مسألة الهجاء. بيد أنَّ التباسًا من نوع ما، سرعان ما شاع في أوساط الجماعة المسلمة الصغيرة، ثم في مجتمع الإسلام بعد وقت طويل من انتصاره، مصدره الفهم الخاطئ لآية «**حمّالة الحطب**»؛ ومفاده أن المقصود به أنها **كانت ترمي الحطب في طريق النبي** ﷺ[1]. ولم يكن ذلك

(1) الطبري، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري، **جامع البيان في تأويل القرآن** [224 - 310 هـ] المحقق : أحمد محمد شاكر، الناشر : مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، 2000م -ج19/ 407 (صعد رسول الله ﷺ ذات يوم

صحيحًا بأي شكل من الأشكال. كانت أم جميل، طبقًا لمقاصد الآية، حمّالة حطب، بمعنى الماشية في النميمة بين الناس، فتلقي بينهم العداوة وتهيج نارها، كما توقد النار في الحطب. والعرب تسمي النميمة (الحطب) يقال: فلان يحطب على فلان إذا كان يُغري به[1].

الصفا، فقال: يا صباحاه. فاجتمعت إليه قريش، فقالوا: ما لك؟ قال: أرأيتُ إن أخبرتكم أن العدو مصبّحكم أو ممسيّكم، أما كنتم تصدقونني، قالوا: بلى؛ قال: فإني نذير لكم بين يدي عذابٍ شديد، فقال أبو لهب: تبًا لك، ألهذا دعوتنا– أو جمعتنا. فأنزل الله عز وجل: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: 1] والروض الآنف [ص 135 وَذَكَرَ أُمّ جَمِيلٍ بِنْتَ حَرْبٍ عَمّةَ مُعَاوِيَةَ وَذَكَرَ أَنّهَا كَانَتْ تَحْمِلُ الشّوْكَ وَتَطْرَحُهُ فِي طَرِيقِ رَسُولِ اللّهِ ﷺ فَأَنْزَلَ اللّهُ فِيهَا : ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ﴾ قَالَ الْمُؤَلّفُ فَلَمّا كَنّى عَنْ ذَلِكَ الشّوْكِ بِالْحَطَبِ، وَالْحَطَبُ لا يَكُونُ إلا فِي حَبْلٍ، مِنْ ثُمّ جَعَلَ الْحَبْلَ فِي عُنُقِهَا، لِيُقَابِلَ الْجَزَاءُ الْفِعْلَ . وَقَوْلُهُ ﴿مِن مَّسَدِۭ﴾ هُوَ مِنْ مَسَدْتَ الْحَبْلَ إذَا أَحَكَمْت فَتْلَهُ، إلا أَنّهُ قَالَ مِنْ مَسَدٍ وَلَمْ يَقُلْ حَبْلُ مَسَدٍ و لا مَمْسُودٍ لِمَعْنَى لَطِيفٍ ذَكَرَهُ بَعْضُ أَهْلِ التّفْسِيرِ، قَالَ: الْمَسَدُ يُعَبّر بِهِ فِي الْعُرْفِ عَنْ حَبْلِ الدّلْوِ. وَقَدْ رُوِيَ أَنّهُ يُصْنَعُ بِهَا فِي النّارِ مَا يُصْنَعُ بِالدّلْوِ، تُرْفَعُ بِالْمَسَدِ فِي عُنُقِهَا إلَى شَفِيرِ جَهَنّمَ، ثُمّ يُرْمَى بِهَا إلَى قَعْرِهَا هَكَذَا أَبَدًا، وَقَوْلُهُمْ أَنّ الْمَسَدَ هُوَ حَبْلُ الدّلْوِ فِي الْعُرْفِ صَحِيحٌ فَإِنّا لَمْ نَجِدْهُ فِي كلام الْعَرَبِ].

(1) **الروض الآنف**، 137 (قَالَ أَبُو الدّرْدَاءِ لامْرَأَتِهِ يَا أُمّ الدّرْدَاءِ إنّ لِلّهِ سِلْسِلَةٌ تَغْلِي بِهَا مَرَاجِلُ جَهَنّمَ، مُنْذُ خَلَقَ اللّهُ النّارَ إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَقَدْ نَجاك مِنْ نِصْفِهَا بالإيمان بِاَللّهِ، فَاجْتَهِدِي فِي النّجَاةِ مِنْ النّصْفِ الآخر بِالْحَضّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ. وَكَذَلِكَ قَوْلُ مُجَاهِدٍ : إنّهَا كَانَتْ تَمْشِي بِالنّمَائِمِ لا يَنْفِي حَمْلَهَا الشّوْكَ وَهُوَ فِي كلام الْعَرَبِ سَائِغٌ أَيْضًا، فَقَدْ قَالَ ابْنُ الأسلت لِقُرَيْشٍ حِينَ اخْتَلَفُوا :

وَنَبّئْتُكُمْ شَرْجَيْنِ كُلّ قَبِيلَةٍ ... لَهَا زُمّلٌ مِنْ بَيْنِ مُذْكٍ وَحَاطِب

فَالْمُذَكّي الّذِي يُذَكّي نَارَ الْعَدَاوَةِ وَالْحَاطِبُ الّذِي يَنُمّ وَيُغْرِي كَالْمُحْتَطِبِ النّارَ وَمِنْ هَذَا الْمَعْنَى، وَكَأَنّهُ مُنْتَزَعٌ مِنْهُ قَوْلُ النّبِيّ ﷺ: «لا يَدْخُلُ الْجَنّةَ قَتّاتٌ» وَالْقَتّاتُ هُوَ الّذِي يَجْمَعُ الْقَتّ وَهُوَ مَا يُوقَدُ بِهِ النّارُ مِنْ حَشِيشٍ وَحَطَبٍ صِغَارٍ. و(الْجِيدِ وَالْعُنُقِ وَقَوْلُهُ فِي جِيدِهَا، وَلَمْ يَقُلْ فِي عُنُقِهَا، وَالْمَعْرُوفُ أَنْ يُذْكَرَ الْعُنُقَ إذَا ذُكِرَ الْغُلّ، أَوْ الصّفْعُ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ أَغۡلَٰلٗا﴾ [يس: 8] وَيُذْكَرُ الْجِيدُ إذَا ذُكِرَ الْحُلِيّ أَوْ الْحُسْنُ، فَإِنّمَا حَسُنَ هَهُنَا ذِكْرُ الْجِيدِ فِي حُكْمِ الْبَلاغَةِ لأنها امْرَأَةٌ، وَالنّسَاءُ تُحَلّي أَجْيَادَهُنّ. وَأُمّ جَمِيلٍ لا حُلِيّ لَهَا فِي الآخرة إلا الْحَبْلُ الْمَجْعُولُ فِي عُنُقِهَا، فَلَمّا أُقِيمَ لَهَا ذَلِكَ مَقَامَ الْحُلِيّ ذُكِرَ الْجِيدَ مَعَهُ فَتَأَمّلْهُ فَإِنّهُ مَعْنًى لَطِيفٌ).

قال الشاعر[1]:

من البيض لمَ تضْطد على ظهرِ سوءةٍ ولم تمشِ بين القومِ بالحطبِ الرطبِ

وبهذا المعنى فقط، كانت **أم جميل** طرفًا أساسيًا ضالعًا في عمل مناهض للإسلام، ولم تكن مجرد **حمالة حطب**. كما يعني سلوكها هذا، أنها أعادت تأجيج صراع قديم، ثار ذات يوم، وكان **أبو لهب**، ضالعًا فيه أيضًا، وأدّى فيما أدّى إلى تأجيج وتصعيد **صراع قرابات أسرية**، قديم ومنسيّ بين **الخزاعيين أخوال النبي** ﷺ **وبين أعمامه القرشيين**، سرعان ما صار **موضوعه السيطرة على مكة**، ولم يعد يتصل بمسألة حماية **ابن الأخت من أعمامه**، وهذا ما سنراه تاليًا بوضوح شديد حين نسرد حادثة **سرقة غزال الكعبة الذهبي**. كان هجاء النصّ القرآني البليغ، **يَنْبَني إذًا على واقعة قديمة**، أعاد سلوك **أبو لهب وزوجته**، **تفجير مكنونها الرمزي والديني والاجتماعي**. وبذلك، يكون سلوكهما متجاوزًا لحدوده الفردية وحتى الأسرية الضيّقة. وهذا هو برأينا المضمون العميق للآية. وفي هذا السياق، فإن كلمة **مسّد** في النصّ القرآني، تفيد نوعًا من **الشجر** تُفتل منه **حبال**، **واحدتها مسّده**. وغالبًا ما وصف الشعراء **حيواناتهم وبهائمهم وهي تُجرجر بواسطة حبل من مسّد**، وهذا ما يدّلل على الأثر العميق الذي تركته الصورة في نفوس أجيال من المسلمين. ولعل صورة المرأة وهي **تُجرجر في الجحيم السماوي، بحبلٍ مشدودٍ إلى جيدها مثل البهيمة**، تعبّر بجلاء عن طبيعة وجوهر الصراع. لقدْ سعى الإخباريون والفقهاء المسلمون عبثًا إلى التقليل من حقيقة، أن **صراع القرابات الأسرية** داخل مجتمع مكة، **الحائر والمشوش إزاء الحدث التاريخي الذي فاجأه**، كان صراعًا محتدمًا بأشكال مختلفة، وبالطبع عبر التركيز على الدلالات المباشرة لصورة **امرأة تجرجر كالبهيمة في الجحيم السماوي**، وهي صورة شديدة القسوة، بالنسبة لمجتمع يُفرد للقرابات مكانة خاصّة. ولم يكن هذا مقصد الآية قط. إن مضمونها الحقيقي يكمن كليًّا في

(1) النابغة الذبيّاني، **الديوان**، شرح وتعليق: د. حنا نصرّ الحتيّ، دار الكتاب اللبناني- بيروت 1991، ص: 47. أي أن تمشي بين الناس بالكلام الذي لا يهيج المشاعر ولا يثير الفتن. وهذا هو الحطب الرطب.

الطريقة التي عالجت فيها محنة صراع القرابات الأسرية مع الإسلام، فالمرأة المهجوّة هي **امرأة عمّ النبي**، وزوجها هو ذاته **العمّ** الذي حماه ووقف إلى جانبه في لحظة شديدة الحسّاسية، حين وجد النبي ﷺ بعد وفاة عمّه **أبي طالب**، نفسه وحيدًا **دون سند أو حماية من أشرار قريش**[1]. وهو أمر مثير، فالشخص الذي هجاه القرآن، ووصف امرأته بأقسى الأوصاف، لم يجد مناصًا من **نجدة ابن أخيه**، حين بدا له أن أساس القرابة القائم بينهما، سوف يتصدّع أو يُجلل بالعار، إنْ هو تخلى عنه. وحين سألته **قريش** بفزع عن موقفه هذا قال: **إني خشيتُ على ابن أخي أن يُضام**[2]؟

---

(1) النويري: شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري، **نهاية الأرب في فنون الأدب**، دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ 1424 هجرية –2004م، تحقيق: مفيد قمحية وجماعة 9/ 203، 16/ 197 (لما هلك أبو طالب، نالت قريش من رسول الله ﷺ ما لم تكن تناله في حياة عمه. قال محمد بن سعد : فبلغ ذلك أبا لهب، فجاءه فقال: يا محمد، امض لما أردت، وما كنتَ صانعًا إذا كان أبو طالب حيًا فاصنعه، لا واللات، لا يُوصلُ إليك حتى أموت. قال: وسب ابن الغيطلة النبي ﷺ فأقبل عليه أبو لهب فنال منه، فولى وهو يصيح يا معشر قريش، صبأ ـ أبي لهب ـ، فأقبلت قريش حتى وقفوا على أبي لهب فقال: ما فارقت دين عبد المطلب، ولكني أمنع ابن أخي أن يضام، حتى يمضي لما يريد، قالوا : قد أحسنت وأجملت ووصلت الرحم، فلبث رسول الله ﷺ كذلك أيامًا يذهب ويأتي، ولا يعترض له أحد من قريش، وهابوا أبا لهب).

(2) فيما بعد، سوف يتفجرّ خلاف عنيف بين النبي ﷺ وعمّه، وهذه المرّة على خلفية موقف الإسلام من القرابات، وبشكل أخص رأي النبي ﷺ بمدخل (موقع) عبد المطلب في الآخرة. وقد أجاب النبي ﷺ حين سئل عمّا يتعلق بموقفه من جده وبوضوح تام، أنه (في النار). وهذا هو أول صدام حقيقي مع (دين عبد المطلب) . يروي النويري، **نهاية الأرب**: 16/ 197، أن الخلاف نشب بعد وشاية من عقبة بن أبي معيط، وأبو جهل بن هشام، وأنهما قالا لأبي لهب: (أخبرك ابن أخيك أين مدخل أبيك ؟) ثم زعما أنهما سألا النبي ﷺ عن ذلك، وقالا له : يا محمد أين مدخل عبد المطلب ؟ قال : مع قومه (فخرج أبو لهب إليهما فقال: قد سألته فقال: مع قومه، فقالا : يزعم أنه في النار) ثم عادا للقول، بينما كان أبو لهب يسترق السمع: يا محمد، أيدخل عبد المطلب النار ؟ فقال : نعم، ومن مات على مثل ما مات عليه عبد المطلب دخل النار. فقال أبو لهب: والله لا برحت لك عدوًا أبدًا وأنت تزعم أن عبد المطلب في النار (فاشتد عليه هو وسائر قريش، فخرج رسول الله ﷺ إلى الطائف).

قال النابغة الذبياني[1] **يصف حبل المسّد الذي تُجرجر به البهيمة:**

مقذوفة بدخيس النحض[2] **بازلها**[3] **له صريفٌ صريف القعو**[4] **بالمسد**

يقول ابن هشام[5]، إن **أمّ جميل**، حين سمعت ما نزل فيها وفي زوجها من القرآن، أصيبت بالهلع، ولذا أتت رسول الله ﷺ وهو جالس في المسجد عند الكعبة، ومعه **أبو بكر** ـ رضي الله عنه ـ وفي يدها فِهر من حجارة، فلمّا وقفت عليهما، أخذ الله ببصرها عن رسول الله ﷺ فلا ترى إلا أبا بكر، لأنها كانت عوراء. فقالت: **يا أبا بكر** أين صاحبك، فقد بلغني أنه يهجوني. والله لوجدته لضربته بهذا الفهر. والله **إني لشاعرة**. ثم ارتجزت:

مُذمَّا[6] **عصينا وأمره أبينا**

ودينه قلينا

---

(1) ابن هشام- **السيرة النبوية**، حققها وضبطها وشرحها مصطفى السقا، وإبراهيم الأبياري، وعبد الحفيظ شلبي، القاهرة، بلا سنة نشر، ج/ 1: 355 بلا دار نشر وتاريخ، انظر كذلك، **الروض الآنف** [ص 136] [ص 137] [ص 138] [ص 139] : ([ص 135] نَزَلَ فِيهِ الْقُرْآنُ فِي عَامّةٍ مَنْ ذَكَرَ اللّهُ مِنْ الْكُفّارِ فَكَانَ مِمّنْ سُمّيَ لَنَا مِنْ قُرَيْشٍ مِمّنْ نَزَلَ فِيهِ الْقُرْآنُ عَمّهُ أَبُو لَهَبِ بْنُ عَبْدِ الْمُطّلِبِ وَامْرَأَتُهُ أُمّ جَمِيلٍ بِنْتُ حَرْبِ بْنِ أُمَيّةَ حَمّالَةَ الْحَطَبِ وَإِنّمَا سَمّاهَا اللّهُ تَعَالَى حَمّالَةَ الْحَطَبِ ؟ لأنها كَانَتْ - فِيمَا بَلَغَنِي- تَحْمِلُ الشّوْكَ فَتَطْرَحُهُ عَلَى طَرِيقِ رَسُولِ اللّهِ - ﷺ - حَيْثُ يَمُرّ، فَأَنْزَلَ اللّهُ تَعَالَى فِيهِمَا : ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۞ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۞ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۞ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۞ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ [المسد: 1 ـ 5] قَالَ ابْنُ هِشَامٍ : الْجِيدُ الْعُنُقُ . قَالَ النّابِغَةُ الذّبْيَانِيّ - وَاسْمُهُ زِيَادُ بْنُ عَمْرِو بْنِ مُعَاوِيَةَ:

مَقْذُوفَةٍ بِدَخِيسِ النّحْضِ بَازِلُهَا لَهُ صَرِيفٌ صَرِيفَ الْقَعْوِ بِالْمَسَدِ

(2) ابن هشام : **السيرة**: 1: 355، يصف النابغة في قصيدته هذه (ومطلعها يا دار ميّة) الناقة القوية كثيرة اللحم (المسّد شجر يُدّق كما يُدّق الكتان فتفتل نته الحبال).

(3) البازل: البعير الصغير.

(4) الصريف: الصوت القوي، الصياح.

(5) ابن هشام : **السيرة**، كذلك

(6) الأزرقي، **أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار**، تحقيق رشدي الصالح ملحسن، دار الأندلس، بيروت 1993، و ط / قم - إيران، دار انتشارات بلا سنة نشر، مجلد 1: 126، فصل الجلوس في الحجر وما جاء في ذلك. (عن أسماء بنت أبي بكر الصديق

ويبدو أن قصة الهجاء هذه، ذاع صيتها مبكرًا وبسرعة مدهشة في الإسلام، واستمرت لوقت طويل في مجتمع مكة ومجتمع القبائل العربية، فبعد أن أسلمت **دُرّة ابنة أبي وهب**، وكانت تسير ذات يوم في طرقات مكة، واجهها رجل من المسلمين، وأشار إليها بسخرية، هذه ابنة **عدو الله**. وحين اشتكت للنبي ﷺ رفض بحزم، إساءة معاملة مسلم بجريرة أحد أفراد أسرته الكافرة[1]. وفي نطاق

رضي الله عنه قالت: لما نزلت ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ﴾، جاءت أم جميل بنت حرب بن أمية، امرأة أبي لهب ولها ولولة، وفي يدها فهر فدخلت المسجد ورسول الله -ص- جالس في الحجر، ومعه أبو بكر رضي الله عنه، فأقبلت وهي تلملم الفهر في يدها وتقول: مذممًا أبينا، ودينه قلينا، وأمره عصينا، قالت: فقال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله هذه أم جميل، وأنا أخشى عليك منها وهي امرأة فلو قمت، فقال: إنها لن تراني. ثم قرأ ﴿وَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ جَعَلۡنَا بَيۡنَكَ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ حِجَابٗا مَّسۡتُورٗا﴾ [الإسراء: 45] قلت: فجاءت حتى وقفت على أبي بكر رضي الله عنه وهو مع رسول الله ﷺ ولم تره فقالت: يا أبا بكر فأين صاحبك ؟ قال: الساعة كان ها هنا قالت: إنه ذكر لي انه هجاني، وأيم الله إني لشاعرة وإن زوجي لشاعر، ولقد علمت قريش إني بنت سيدها، قال سفيان، قال الوليد في حديثه، فدخلت الطواف فعثرت في مرطها، فقالت: نفس مذمم، فقال النبي ﷺ ألا ترى يا أبا بكر ما يدفع الله تعالى به عني من شتم قريش، يسمّوني مذممًا وأنا محمد، فقالت لها أم حكيم ابنة عبد المطلب: مهلًا يا أم جميل، إني لحصان فما أكلم، وثقاف فما أعلم، وكلتانا من بني العم، ثم قريشُ بعد أعلم). ومُذمّم معكوس محمد.

(1) ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**، بيروت لبنان دار الفكر/ 1995، مجلد 16/ 233: يغزو ابن عساكر سبب نزول الآية إلى فترة هدم معبد العُزّى (هدمها لخمس ليال بقين من رمضان سنة ثمان وكان سادنها أفلح بن النضر الشيباني من بني سليم، فلما حضرته الوفاة دخل عليه وهو حزين فقال له أبو لهب: ما لي أراك حزينًا؟ قال: أخاف أن تضيع العزى من بعدي. قال أبو لهب: فلا تحزن فأنا أقوم عليها بعدك. فجعل كل من لقي قال : إنْ تظهر العزى كنت قد اتخذت يدًا عندها بقيامي عليها، وإنْ يظهر محمد على العزى ولا أراه يظهر فابن أخي. فأنزل الله عز وجل ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ﴾ [المسد: 1] وقد سعى النبي ﷺ بعد وقت قصير من نزول آية ﴿تبت﴾ إلى تطويق ردود أفعال المسلمين إزاء أسرة عمّه. وفي هذا الصدد ينفرد ابن عساكر برواية ذات دلالة، فقد (مرت دُرة ابنة أبي لهب برجل فقال: هذه ابنة عدو الله أبي لهب. فأقبلت عليه، فقالت: ذكر الله أبي لنباهته وشرفه، وترك أباك لجهالته. ثم ذكرت للنبي ﷺ ما سمعت. فخطب الناس فقال: لا يؤذين مسلم بكافر).من المؤكد، أن دوافع القرابات الأسرية التقليدية في هذه اللحظة، لعبت

ردة الفعل هذه، روى سعيد بن أبي سعيد المقبري عن أبي هريرة، أن **سبيعة**[1] **بِنت أبي لهب** جاءت إلى رسول ﷺ فقالت: إن الناس يصيحون بي يقولون: **إني ابنة حطب النار**؟ فقام رسول الله ﷺ وهو مُغْضَب شديد الغضب فقال: **ما بال قوامي يؤذونني في نسبي وذوي رحمي، ألا، ومَن آذى نسبي وذوي رحمي فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله عَزَّ وجَلّ**[2]. وفي رواية **(أسد الغابة)**[3] يبدو أن النبي ﷺ عاد للتأكيد أمام جموع المسلمين، أن شفاعته لأقربائه كنبيّ، كانت وما تزال تتصل بموقفهم من الإسلام، وأن الذين أصبحوا مسلمين لا يجوز بعد الآن المسّ بقراباتهم التي ذمّها القرآن في مناسبة محددة. كانت **دُرَّة بِنْت أبي لهب بن عَبْد المُطَّلِب بن هاشم** القُرَشِيَّة الهاشمية، بِنْت عم النَّبِيّ ﷺ قد أسلمت وهاجرت إلى المدينة، وكانت **عند الحَارِث بن نوفل بن الحَارِث بن عَبْد المُطَّلِب**، فولدت له عُقْبَة والوليد وأبا مسلم. روى مُحَمَّد بن إسحاق عن نافع وزيد بن أسلم، عن ابن عُمر، وعن سعيد بن أبي المقبري، وابن المنكدر عن أبي هريرة، وعن عَمَّار بن ياسر، قالوا: قدمت **دُرَّة بِنْت أبي لهب** المدينة مهاجرةً، فنزلت في دار رافع بن المعلّي الزرقيّ، فقال لها نسوة جلسْنَ إليها من بني زريق: **أنتِ ابِنة أبي لهب الذي يقول الله له**: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾[4] **فما يغني عنكِ مهاجرتكِ**؟ فأتت دُرَّة النَّبِيّ ﷺ فذكرت له ما قلن لها، فسكّنها وقال: اجلسي. ثم صلى بالناس الظهر، وجلس على المنبر ساعةً ثم قال: أيها الناس، ما لي أُوذى في أهلي؟ فو الله إن **شفاعتي لتنال بقرابتي، حتى** إن صُداءَ وحكما وسلهمًا لتنالها يوم القيامة[5]. وهذه الإشارة تتضمن تأكيدًا أن شفاعة

لصالح هذا الموقف، وليس الباعث الديني وحده، ففي النهاية، لا يمكن للنبي ـ ﷺ ـ أن يصمت عن إساءة معاملة ابنة عمه.

(1) في بعض الروايات سبيعة، والصحيح دُرّة.

(2) ابن الأثير، **أسد الغابة**: 3/ 363 . إن بعض الروايات، وأحيانًا في الرواية الواحدة تنسب الحادثة لسبيعة وليس إلى درّة. وقد روى مُحَمَّد بن إسحاق وغيره، عن سعيد، عن أبي هريرة فقال: قدمت دُرَّة بِنْت أبي لهب.

(3) ابن الأثير، أسد الغابة : 3/ 374.

(4) سورة المسد، الآية: 1.

(5) هذه أنساب يمنية. صداء جد أعلى في أنساب حمير، وحكم جد أعلى في أنساب كنانة. وساحل كنانة في اليمن يعرف ببني حكم (بلد حكم).

النبي لقراباته مشروطة بإيمانهم. ولعل القصة القرآنية، بردود الأفعال التي خلقتها، تحولت مع نشوء الدولة الإسلامية إلى مادة لنمط من التشهير المتبادل، الغرض منه المسّ بالقرابات الأسرية[1]، لمسلمين اختلفوا وتصارعوا حول الخلافة وشؤون الدولة، ولكن هذه المرة من دون توظيفه في الصراع على مكة، لأن الآية ثم انتصار الإسلام العظيم، حسما هذا الصراع نهائيًا، وأعادا إدراجه في نسق ثقافي جديد. ومع ذلك، عاد النقاش مع نشوء الدولة الإسلامية ومن جديد، ليتخذ فقط، طابع التشهير بالأفراد وقراباتهم، ولكن من دون أن يكون له المضمون القديم نفسه. والغريب أن هؤلاء الأفراد لم يكونوا من قرابات **أبي لهب أو أم جميل أو النبي** ﷺ وإنما كانوا بوجه العموم قرشيين. وهذا تحول مدهش، يكشف عن درجة التأثير الذي تركته الآية في مجتمع المسلمين. يقول **وهب بن منبه**[2]: استعمل علينا **عبد الله بن الزبير** رجلًا منّا، وكان ذميمًا يُلقب **بعجوز اليمن**. فقدمتُ على **ابن الزبير** في وفد **اليمن** وعنده **عبد الله بن أُسيد**، فقال: **كيف عجوز اليمن**[3]؟ فلم أجبه. فأعادها مرارًا، فلمّا أكثر قلت: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[4]، فما فعلت عجوز قريش؟ **قال: وما عجوز قريش؟ قلت: أم جميل حمّالة الحطب في جيدها حبل من مسّد**. فضحك **ابن الزبير**، وقال ـ مخاطبًا نديمه ـ أسأت المسألة وأحسن الجواب.

قال الشاعر[5] يضرب مثلًا في خسران الدنيا والآخرة معًا:

جمعت شيئًا ولم تحرز له بديلًا لأنت أخسرُ من حمّالة الحطب

وفي العصر الأموي استمرت قصة حمّالة الحطب، وأضحت مادة للهجاء

---

(1) الثعالبي: **ثمار القلوب في المضاف والمنسوب**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. دار المعارف سلسلة ذخائر العرب- بلا عام نشر، ص 302.

(2) الثعالبي: **ثمار القلوب**: 301.

(3) الثعالبي : **ثمار القلوب** 454، أراد بعجوز اليمن الوالي الذي عينه ابن الزبير، بينما أراد وهب بعجوز اليمن بلقيس وأشار إلى قصتها في القرآن.

(4) سورة النمل، الأية: 44.

(5) الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد النيسابوري الميداني، **مجمع الأمثال** ـ بيروت، مكتبة الحياة بلا سنة نشر1/ 93.

المتبادل بين الشعراء، فقد نقل **ابن عساكر**[1] عن الفرزدق قوله: أتيت **الفضل بن العباس** (اللهبي أي ابن أبي لهب) وهو يميح بدلوٍ من زمزم ويقول:

وأنا الأخضر من يعرفني أخضر الجلدة في بيت العرب

من يساجلني يساجل ماجدًا يملأ الدلو إلى عقد الكرب

ورسول الله جدي جده وعلينا كان تنزيل الكتب

قال: (قلت مَنْ يساجلك فرجلي في كذا من أمه. قال: أتعرفني لا أم لك؟ قال: **وكيف لا وقد فرغ الله في أبويك سورةً من كتابه**. فقال جل وعز» ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ﴾ فضحك وقال: أنت **الفرزدق**؟ قلت: نعم. قال: قد علمت أن أحدًا لا يحسن هذا غيرك. ومعنى قوله فرغ: أي ليس في السورة غير ذكر أبي لهبٍ وذكر امرأته. وأكثر من ذلك، أن قصة أبي لهب وامرأته دخلت في شعر الغزل في العصر الإسلامي[2] قال ابن النبيه:

لو لم تكن ابنة العنقود ريقته لما غدا خدّه القاني أبا لهب

تبت يدا عاذلي فيه ووجنته حمالة الورد لا حمالة الحطب

إن هذا النسق الثقافي الجديد للنقاش حول نظام القرابات الذي أعاد الإسلام تشكيله، يكشف عن حقيقة أن الآية تركت تأثيرًا مدوّيًا حتى وقت متأخر من الإسلام، وان وصايا النبي ﷺ **أن لا يُؤذى مسلم بكافر**، لم تحظ بالتزام كافٍ من المسلمين. ولعل تحليل مضمون الآية لغويًا، قد يكشف عن المعاني الملتبسة، وهي بالفعل، كانت تُفهم جراء التأويلات الفقهية التقليدية بطريقة ناقصة. إن كلمة﴿تَبَّتۡ﴾ الأولى في آية ﴿تَبَّتۡ يَدَآ﴾ تنصرف إلى معنى قطع اليدين، فيما الثانية يمكن أن تنصرف إلى معنى **خسران المال أو قطعه** ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾ فهل يعني ذلك، أن الآية تخبرنا عن

(1) ابن منظور، **مختصر تاريخ دمشق** لابن عساكر6/ 276 الأصفهاني، **الأغاني** : 4/ 306، وجمهرة **الأمثال** للعسكري، 1- 99/ 104 يروى البيت على النحو التالي:

جمعت شتى وقد فرقتها جُملًا لأنت أخيرُ من حمّالة الحطب

(2) الصفدي، **نصرة الثائر على المثل السائر**: 1/ 79 موقع الوراق http:// www.alwarraq.com.

العقاب في الجحيم السماوي، أم أنها تتحدث عن **حادث** (أرضي، دنيويّ **تاريخي**، شكلّ صورة **أبي لهب** الاجتماعية وبلور شخصيته الدينية، قبل أن يبزغ فجر الإسلام، وأن العرب كانت تعرف صورته هذه من قبل أن تنزل الآية، وأنهم كانوا يحتفظون في ذاكراتهم، منذ عقود، **بصورة لأبي لهب** وهو مطلوب **لقطع يده؟**

ويبدو من قراءة معمّقة وجديدة في المرويات العربية القديمة وكتب التفاسير والمرويات التاريخية كذلك، أن وصف القرآن البليغ هذا، باستخدام عبارة اختصت « **بيد**» ثم بمال **أبي لهب** وما كسب، يشير إلى ما هو أبعد بكثير من مسألة معارضته أو موقفه من الإسلام. وبطبيعة الحال، فهو وصفٌ يشيرُ إلى ما هو أبعد كذلك من الكشف عن شخصية أحد أقرباء النبي ﷺ، ممن لعبوا دورًا استثنائيًا في مقاومة الإسلام، ويمكن أن يكون متصلًا بمسألة الكشف عن جانبٍ مسكوت عنه من **عبادات ومعتقدات قريش والعرب، وصلته بنظام القرابات، بأكثر مما هو متصل بمشكلة شخصين عارضا النبي.** وبكلام موازٍ لم تعد المسألة، **أن أبي لهب رفض دعوة النبي وحسب ـ فقد كان هناك كثيرون ممن عارضوه**[1] **بقسوة ولم يندد بهم القرآن بهذه الصورة ـ بل غدت مسألة تخصّ رمزية الهجاء وتفاعلاته داخل نظام القرابات الدموية المباشرة.** لهذا السبب، ولأسباب أخرى كثيرة، يتوجب علينا القيام بتحليل

(1) ابن سعد، محمد بن سعد بن منيع البصري الزهري المعروف بابن سعد : **الطبقات الكبرى**، م/1: 200 تضمّ قائمة أعداء ﷺ عددًا كبيرًا من أشهر رجالات قريش، بينهم عدد من أقربائه المباشرين، لكن هؤلاء لم يكونوا على نفس الدرجة من العداوة، فإنهم كانوا أقل قسوة من قريش: (وكان أهل العداوة والمباداة لرسول الله ﷺ وأصحابه الذين يطلبون الخصومة والجدل، أبو جهل بن هشام، وأبو لهب بن عبد المطلب، والأسود بن عبد يغوث، والحارث بن قيس بن عدي، وهو ابن الغيطلة، والغيطلة أمه، والوليد بن المغيرة، وأمية وأبي ابنا خلف، وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة، والعاص بن وائل، والنضر بن الحارث، ومنبه بن الحجاج، وزهير بن أبي أمية، والسائب بن صيفي بن عابد، والأسود بن عبد الأسد والعاص بن سعيد بن العاص، والعاص بن هاشم، وعقبة ابن أبي معيط، وابن الأصدى الهذلي، والحكم بن أبي العاص، وعدي بن الحمراء، وذلك أنهم كانوا جيرانه والذين كانت تنتهي عداوة رسول الله ـ ﷺ ـ إليهم أبو جهل وأبو لهب وعقبة بن أبي معيط، وكان عتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأبو سفيان بن حرب).

منفصل لكلٍ من سورة **المسّد وسورة الشُّعراء**، ليس الغرض منه في النهاية، سوى تبيان حقيقة أن آية ﴿تَبَّتْ﴾ لم تنبنِ قط على عبارة قالها أبو لهب **(تبًا لك سائر اليوم)** كما افترض كل المفسرين تقريبًا[1]. لقد واجه **النبي** ﷺ قبل نزول **سورة المسّد** (آية تبت التي أشارت بالاسم إلى أبي لهب وامرأته) صدودًا وأذىً من **أقرباء آخرين، ومن شخصيات قرشية بارزة، لكن النص القرآني** لم يذكر **اسم أيٍ منهم**. وهذا أمر مؤكد، فقد كان **هناك الوليد بن المغيرة، وأبو الحكم الذي أسماه النبي أبو جهل**، وسواهما .**كان أبو لهب مع بني هاشم**، عندما **رُفضت دعوة النبي (إنذاره) خلال اجتماع الصفا**[2]. وإذا كانت آية ﴿تَبَّتْ﴾ كما يقول المفسرّون، هي الجملة التي بُنيت عليها **سورة المسّد، لأن** أبي لهب تفوّه بكلمة شبيهة (تبًا لك) ضد النبي ﷺ، فلماذا أشرك القرآن في هذا الهجاء، زوجة هذا الشخص وهي لم تكن هناك، ولم تتفوّه ضده بأي شيء؟ وفي هذه الحالة، إذا كانت أم جميل ترمي الحطب في طريق النبي ﷺ، فمن المنطقي أن يندد بها القرآن، ولكن بشكل منفصل عمّا تفوّه به زوجها في مناسبة لم تكن حاضرة فيها؟ ماذا يعني ذلك؟ يعني، ببساطة، أننا يجب أن نفصل بين المناسبتين، لكي يكون بإمكاننا فهم الآية بعمق، ومعرفة مقاصدها. ولذلك، يجب أن تكون الواقعة المزعومة **(إلقاء الحطب) وهي واقعة لا أساس لها بكل تأكيد**، ونجمت عن فهم خاطئ **لمنطوق الآية** ـ هذا إذا ما فهمت بهذه الطريقة وهي مغلوطة على أية حال، كما سوف نبيّن ـ حدثت قبل اضطرار النبي للذهاب إلى **الطائف لنشر الدعوة إلى الإسلام، حين تعاظم في مكة صدود القبائل عن دعوته**. وعلى الأرجح، فقد عاد النبي ﷺ إلى مكة من الطائف، بعد أن واجه هناك صدودًا لا مثيل له، وحسب قول

---

(1) سنرى تاليًا أن معظم ـ وربما كل ـ المفسّرين افترضوا أن (تبت) الواردة في سورة المسّد، هي رد القرآن على عبارة (تبًا لك سائر اليوم) التي تفوّه بها أبو لهب في اجتماع الصفا.

(2) بعد نزول سورة (الشعراء) 26 قرر النبي ﷺ أن يذهب إلى الصفا ويرتقي المكان، ويرفع صوته بالإنذار النهائي لبني هاشم، بشكل أخص، وليس قريش كلها على الأرجح ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ الآية 213 من سورة الشُعراء، وهناك، كما يقول المفسرون سمع أبو لهب وهو يخاطبه بـ (تبًا لك).

الإخباريين المسلمين، فقد عاد حزينًا لأن أحدًا لم يؤمن بدعوته[1]. لقد وجد

---

(1) الواقدي، محمد بن عمر بن واقد، **المغازي**: تحقيق الدكتور مارسون جونس، عالم الكتب 1984، القاهرة، م/ 1 ص33، ابن سعد : **الطبقات** م/ 1، 316، 338، 384، ابن هشام : **السيرة** ج/ 1، 419، (قال محمد بن سعد: خرج ـ النبي ـ ومعه زيد بن حارثة، وذلك في ليال بقين من شوال سنة عشر من حين النبوة، فأقام بالطائف عشرة أيام لا يدع أحدًا من أشرافهم إلا جاءه وكلمه، فلم يجيبوه، وخافوا على أحداثهم، فقالوا : يا محمد، اخرج من بلدنا والحق بمجابك من الأرض . وأغروا به سفهاءهم، فجعلوا يرمونه بالحجارة حتى - أن- رجلي رسول الله ﷺ - كانتا- لتدميان، وزيد بن حارثة يقيه بنفسه، حتى لقد شج في رأسه شجاجًا، فانصرف رسول الله ﷺ من الطائف راجعًا إلى مكة وهو محزون لم يستجب له رجل واحد ولا امرأة . وقال ابن إسحاق : لما أغروا به سفهاءهم ؛ لجأ رسول الله ﷺ إلى حائط لعتبة وشيبة ابني ربيعة، فجلس في ظل حبلة، وابنا ربيعة ينظرا إليه، ويريان ما لقي من سفهاء أهل الطائف، فتحركت له رحمتهما فدعوا غلامًا لهما نصرانيًا يقال له عداس، فقالا له : خذ قطفًا من هذا العنب فضعه في هذا الطبق، ثم اذهب إلى ذلك الرجل فقل له يأكل منه، ففعل عداس، ثم أقبل حتى وضعه بين يديه ﷺ، وقال له : كل، فقال رسول الله ﷺ : بسم الله فأكل، فنظر عداس إليه ثم قال : والله هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد، فقال له ﷺ: ومن أهل أي البلاد أنت يا عداس ؟ وما دينك ؟ قال : نصراني، وأنا رجل من أهل نينوى، فقال له : أمن قرية الرجل الصالح يونس بن متى ؟ فقال عداس: وما يدريك ما يونس ؟ قال: ذاك أخي، كان نبيًا وأنا نبي، فأقبل عداس على رسول الله ﷺ يقبل رأسه وقدميه ويديه، فقال أحد ابني ربيعة لصاحبه: أما غلامك فقد أفسده عليك، فلما جاءهما عداس قالا له : ويلك ما لك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه قال : يا سيدي، ما في الأرض شيء خير من هذا العبد، لقد أخبرني بأمرٍ ما يعلمه إلا نبي، قالا : ويحك يا عداس لا يصرفنك عن دينك، فدينك خير من دينه .قال : ثم انصرف رسول الله ﷺ راجعًا إلى مكة حين يئس من خير ثقيف، حتى إذا كان- في - نخلة أتاه جن نصيبين .وأقام رسول الله ﷺ بنخلة أيامًا فقال له زيد بن حارثة : كيف تدخل عليهم وهم أخرجوك ؟ فقال : يا زيد، إن الله جاعل لما ترى فرجًا ومخرجًا وإن الله ناصر دينه ومظهر نبيه، ثم انتهى إلى حراء، فأرسل رجلًا من خزاعة إلى مطعم بن عدي يقول : أدخل في جوارك؟ فقال: نعم، ودعا بنيه وقومه، فقال: تلبسوا السلاح، وكونوا عند أركان البيت ؛ فإني قد أجرت محمدًا. فدخل رسول الله ﷺ ومعه زيد بن حارثة حتى انتهى إلى المسجد الحرام، فقام مطعم بن عدي على راحلته فنادى : يا معشر قريش، إني قد أجرت محمدًا ؛ فلا يهجه أحد منكم، فانتهى ﷺ إلى الركن فاستلمه، وصلى ركعتين وانصرف إلى بيته، ومطعم وولده مطيفون).

النبي ﷺ نفسه مضطرًّا إلى **الاستعانة بقراباته**، لضمان السماح له بدخول **مكة** وزيارة **الكعبة**. وبكل تأكيد حدثت الواقعة المزعومة ـ **رمي الحطب** ـ، بعد أشهر من عودته من **الطائف**. في هذا الوقت، وبفضل اتفاق الحماية (الإجارة) الذي حصل عليه النبي ﷺ من **مُطعم بن عدي بن نوفل**، أحد أبناء عمومته الأقوياء، فقد كان بوسعه هو **وأبو بكر** ـ رض ـ **الجلوس في الحجر** (فناء الكعبة) بحرية، وتبادل الأحاديث دون كثير قلق، ولم يكن ذلك ممكنًا من دون الاستعانة **بنظام القرابات التي سعى الإسلام إلى إعادة تشكيلها. وتلك، كانت مفارقة كبرى، فإنذار الأقربين لم يؤتِ** ثماره، بينما سُمح له بالضد من قرار وإرادة **قريش والقبائل الأخرى**، بأداء **الصلاة في الكعبة**[1] **وفقط بفضل نظام نقده القرآن**. إن تسلسل نزول سورة **الشعراء** التي وردت فيها آية ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾ هو26، بينما تسلسل سورة **المسد** التي وردت فيها آية ﴿تَبَّتۡ﴾ هو 111، وهما **سورتان مكيتان** نزلتا في مناسبتين مختلفتين، إحداهما تندد **بأمّ جميل حمّالة الحطب**، وأخرى تدعو **بني هاشم إلى الإسلام**. وفي هذا الوقت، راجت شائعة **إلقاء الحطب**، بالتلازم مع ذكر **موقف أبي لهب من دعوة النبي ﷺ لبني هاشم، وربما عدد قليل من بطون قريش** للإيمان بدعوته. بهذا المعنى؛ فإن (**تبت**) هذه لا علاقة لها بما تفوه به **أبو لهب (تبًا لك سائر اليوم)**[2] كما لا صلة لها بواقعة **رمي الحطب** المزعومة، فهذه عمومًا، تصورات بزغت في سياق تأويل **سورة المسّد**. والمثير أن الفقهاء لم يلاحظوا، أن (**تبت**) **القرآنية تعني قطع اليد**، بينما (**تبًا**) التي تفوّه بها **أبو لهب** تعني (**الويلَ لك**). **ولهذا السبب الوجيه، فليس منطقيًا الافتراض أن بُنية سورة المسّد، تقوم على عبارة جارحة استعملها أبو لهب في موضع ودلالة مختلفين**. ولأن **سورة المسّد**، تعدّ تقليديًا من **أوائل السور، ونزلت بعد وقت**

---

(1) البلاذري 1/ 88 هو مُطعم بن عدي بن نوفل. كان شريفًا ذا حسب في قريش، وكان حسن البلاء في أمر الصحيفة التي كتبتها قريش على بني هاشم. ونوفل(جده) هو عم عبد المطلب جد النبي ﷺ.

(2) خلال هذا الاجتماع قال أبو لهب عبارته الشهيرة هذه، وهي ربطت بشكل خاطئ مع آية(تب) التي نزلت قبل وقت طويل من هذا الاجتماع. والفارق واضح تمامًا في معنى المفردتين.

قصير من اجتماع الصفا[1]**، فقد خلط المفسرّون بين الجملتين.** ومن المؤكد، أن **مُطعمْ بن عدي بن نوفل،** وهو يقدم الحماية لقريبه النبي ﷺ كان يستجيب لحاجة حقيقية دون تردد، **فنداء القرابات الدموية التي أصبحت في خطر،** بات يُسمع في أرجاء مكة كلها حين وصل النبي، وطلب من ابن عمّه أن يُجيره. ولذا، توجب عليه حين وجده وحيدًا، أن يقدّم له الحماية بوجه محاولات بطون أخرى من قريش، ترغب وتتحرّق للقصاص منه. وبرغم مخالفته له في الدين، قدّم **مُطعمْ** الحماية طواعية.

هذا الترتيب للوقائع والتصورات، وهو يأخذ بنظر الاعتبار التدرج الحاصل في نشر النظام الجديد للقرابات الروحية، هدفه التمييز بين مضمون سورتي **(المسّد)** و**(الشعراء)** عن مضامين التأويلات التي قدّمها الفقهاء[2] لتفسير معنى **(حمّالة الحطب)**، ومغزى قول **أبو لهب (تبًا لك)**، وتبيان الأشكال والطرق التي جرى فيهما الخلط غير المقصود. ونحن في هذه الحالة، سنكون أمام واقعتين صحيحتين، ولكنهما سوف تنفصلان تلقائيًا في الزمان والمكان ونوع السلوك. لكن النصّ القرآني جمعهما بكل يقين، داخل نسق دلالي واحد في السورتين المنفصلتين، بما أنهما تتضمنان التنديد الصريح، ثم الإنذار إن كل ما يبدو لنا تناقضًا، مصدره التفسيرات والتأويلات التي خلت من فهمٍ صحيح لمغزى الإنذار في سورة **(الشعراء)**، وكذلك لأبعاد

---

(1) لقد خلط المفسرون، بشكل مأسوي بين المناسبتين والآيتين، والأمر المؤكد أن سورة (تبت) كانت من أوائل السور المكية، وأن سورة (الشعراء) بإجماع الرواة والمفسرين، نزلت قبل مجيء الأمر الإلهي للنبي ﷺ بإنذار عشيرته.

(2) النيسابوري: **تفسير النيسابوري** 4/ 497، 6/ 95، 6/ 98، 6/ 231، الواحدي علي بن أحمد أبو الحسن: **الوجيز في تفسير العزيز** 1/ 1147 (أخبرنا عبد الله بن نمير أخبرنا الأعمش عن عبد الله بن مرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: لما أنزل الله تعالى ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: 214] أتى رسول الله ﷺ الصفا فصعد عليه ثم نادى: يا صباحاه فاجتمع إليه الناس من بين رجل يجيء ورجل يبعث رسوله فقال: يا بني عبد المطلب يا بني فهر يا بني لؤي لو أخبرتكم أن خيلًا بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم صدقتموني قالوا: نعم قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد فقال أبو لهب: تبًا لك سائر اليوم ما دعوتنا إلا لهذا فأنزل الله تعالى ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: 1] .

هجاء **أبي لهب** وزوجته في آنٍ واحد. فهل يشير هذا التناقض في فهم الفقهاء للآية القرآنية إلى نقصٍ، أو تآكل مُتدّرج حدثَ مع الوقت في **المروية العربية - الإسلامية** عن قصة نزاع **أبي لهب مع النبي**؟ وأدّى في ما أدّى إلى فهم مغلوط للآية، وفهم خاطئ موازٍ **لمضمون التحوّل في نظام القرابات**، أمّ أن هذا النقص، أو التآكل في مواد المروية جراء النسيان والسهو، تسببّ تلقائيًا في إخراجها عن سياقها السردي التاريخي الدقيق؟ وهل جاء نزول الآية للتذكير بمناسبة أخرى، تتصل بمسألة **نظام القرابات القديم** هذا؟ بوجه الإجمال، يتعيّن علينا لأغراض تتعلق بالتحليل، أن نسلمّ بأن واقعة **(تبًا لك سائر اليوم)** وبالطريقة التي فهمت بها كانت صحيحة، وسردها كان دقيقًا إلى حدٍّ كبير، لأن **أبي لهب** اعترض بالفعل في اجتماع **الصفا** الذي دعا إليه النبي، طالبًا من **بني هاشم**، أن يستمعوا إليه وتصديق نبّوته، وأن يقبلوا منه الإنذار الإلهي، بتحوّل **نظام القرابات القديم**، وأن المشكلة التي تواجهنا، حيال طريقة فهم مضمون الإحالة التي قصدها النصّ القرآني حين ردّ بـ(تب) أخرى لها معنى آخر، يتعلق بمصدر الشائعة القائلة، أن **أم جميل** كانت **حمّالة حطب**، وهي شائعة لا تزال رائجة في كتب التاريخ، ولا أساس لها في سياق الأحداث، إذ لم يعرف عنها أنها كانت **تحمل الحطب** كما قيل، وهي امرأة رجل غني وابن سيد مكة. كما أن تأويل كلمة مسدّ، فُهمت دومًا بأنها **(الحبل الذي كانت تشدّ فيه حزمة الحطب)**[1]، وهذا أمر مزعج بالفعل، لأنه يغلب الدلالة المباشرة لجملة **(حمّالة الحطب)** على المعنى الحقيقي الذي قصدته الآية الكريمة، مع أن سورة (أخرى)[2] نزلت في وقت متزامن تقريبًا، نددت برجل آخر، ووصفته بأنه **مشّاء بنميم**، أي **حامل حطب**، يمشي بالنميمة بين الناس محرّضًا

---

(1) البلاذري، **أنساب الأشراف**، 1/ 118، والسدي هو إسماعيل بن عبد الرحمن بن أبي كريمة الإمام المفسر أبو محمد الحجازي ثم الكوفي. لقد فهم كل من ابن كثير، والسدي، ومجاهد، كلمة مسّد بهذا المعنى، - يقول ابن عباس- : (تبت يدا) خسرت يدا، حمالة الحطب: النميمة. 1/ 123-1/ 122، ويقول مجاهد : حمالة: النميمة، تحطب بذلك على ظهرها. الممسود (مسد) المفتول، الموثق. الجيد: العنق. أنساب: 1/ 123 (ثم أقبلت- أم جميل- على أبي بكر فقالت: إني والثواقب لشاعرة).

(2) آية ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۞ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ﴾ [سورة القلم 9- 10].

ضد الإسلام. لقد كان هناك **حمّال حطب** آخر، ندد به القرآن، ولكنه كان من أغنى أغنياء قريش، هو **الوليد بن المغيرة**. ومع ذلك، لسوء الحظ، انصرفت أذهان المسلمين على مرّ العصور إلى هذه الدلالة دون الأخرى، بينما قصد النصّ القرآني الإشارة إلى دور **أم جميل** في التحريض على مقاومة **الإسلام**، وليس إلى مجرد كونها مصدر أذىً شخصي. وبالطبع ؛ فإن فكرة وجود امرأة هي مجرد **حمّالة حطب**، تتحدى الإسلام وتصبح موضوعًا لآية قرآنية، وفي مجتمع قبائل مذعورة من الدين الجديد، تنسف من الأساس الواقعة التي تشير إلى زوجها **كرجل ثري وابن سيد قريش**؟ والصحيح أنها تنصرف إلى توصيف **الماشي بالذميمة بين الناس**، **أو المحرض**، إذ يقال للمنافق الذي ينقل النميمة أنه **حامل حطب**. بهذا المعنى فقط، يجب أن ينصرفَ الوصفُ إلى دورها كمحرضة على النبي ﷺ وعلى الإسلام، وهي بالفعل كذلك، إذ كانت تقوم بتهييج مجتمع **مكة** بقبائله وأسره المتصارعة والمتنافسة على إدارة البيت الحرام، ضد الدين الجديد ونبيّه. وهذا ما يقول به **قتادة ومجاهد والسّدي**. وقد بلغ من تحريض **أمّ جميل**،أنها طلبت من **ولديها أن يطلقا ابنتي النبي** ﷺ **رقية وأمّ كلثوم**. وهناك روايات أخرى ترى، بخلاف ما هو شائع في كتب الإخباريين عن هذا الجانب من النزاع،أن **أبي لهب** هو من طلب ذلك من ولديه[1]، وأن أحدهما وهو **عتيبة زوج رقية**، **مزق قميص النبي** ﷺ قبل أن يشتمه ويبلغه قرار طلاق ابنته، فرّد عليه النبي ﷺ بصبر لا نظير له، **أنه يسأل الله أن يسلط عليه كلبًا من كلابه**. وتقول روايات أخرى[2]:

---

(1) **أسد الغابة**، 3/ 32 (معتب وعتبة) بن أبي لهب بن عبد المطلب بن هاشم القرشي الهاشمي، ابن عم رسول الله ﷺ، وأمه أم جميل بنت حرب بن أمية، حمالة الحطب، أخت أبي سفيان بن حرب. روى عبد الله بن عباس، عن أبيه العباس بن عبد المطلب قال: لما قدم رسول الله ﷺ مكة في الفتح قال لي: يا عباس، أين ابنا أخيك عتبة ومعتب، لا أراهما ؟ قال قلت: يا رسول الله، تنحيا فيمن تنحى من مشركي قريش. فقال: اذهب إليهما فائتني بهما. فقال العباس: فركبت إليهما بعرفة، فقلت: إن رسول الله ﷺ يدعوكما. فركبا معي فقدما على رسول الله ﷺ، فدعاهما إلى الإسلام فأسلما، وبايعا. قاله أبو موسى.

(2) محمد بن حبيب، المحبرّ: اعتنى بتصحيح الكتاب د. إيلزه ليختن شتيتر، دار الآفاق الجديدة- بيروت، دون سنة نشر، ص 53، محب الدين الطبري: **خلاصة سير سيد البشر**، الفصل الحادي عشر في ذكر أولاده ﷺ، **عيون الأثر**: 3/ 360، **ذخائر العقبي**

فلما نزلت ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ﴾ قال **أبو لهب ـ لولديه ـ**: رأسي من رؤوسكما ـ رأسيكما ـ حرام، إذا لم **تطلقا ابنتي محمد، فطلقاهما** ولم يبنيا بهما. وجاء **عتيبة** حين فارق **أم كلثوم**، النبي ﷺ وقال ـ له ـ **كفرت بدينك** وفارقت ابنتك، **وسطا عليه وشق قميص النبي** ﷺ. فقال النبي ﷺ **أما إني أسأل الله إن يسلط عليك كلبًا من كلابه.** وكان خارجًا إلى الشام تاجرًا مع نفر من قريش، حتى نزلوا مكانا من الشام يقال له **الزرقاء** ليلًا، فطاف بهم الأسد تلك الليلة، فجعل **عتيبة يقول يا ويل أمه، هو والله أكلي بدعوة محمد،** قاتلي ابن أبي كبشة [(1)]**وهو بمكة وأنا بالشام.** وقال **أبو لهب: يا معشر قريش أعينوني هذه الليلة، فإني أخاف دعوة محمد،** فجمعوا أحمالهم ففرشوا **لعتيبة في أعلاها وناموا حوله، فقيل إن الأسد انصرف** عنهم حتى ناموا **وعتيبة في وسطهم،** ثم أقبل **الأسد يتخطاهم ويتشممهم حتى أخذ برأس عتيبة فقدعه.**

لقد بلغ تحريض **أم جميل** حدًّا يفوق التصوّر، بالنسبة لدور تقوم به امرأة هي من قرابات النبي الحميمة (وبفضل الزواج كذلك فهو صهرها). ولذا، يأتي توصيف **حمّالة الحطب** بليغًا في قدرته على تقديم صورة هذا التحدي. هذا هو السطح الذي يخفيه التأويل الفقهي السائد عن المتلقين. ولأن هذا الجانب من التاريخ والمعتقدات والثقافة القديمة، المسكوت عنه في الغالب، سواء في كتب الأخبار أو التفاسير، أو في الخطاب الفقهي

1/ 164، **الشفا** 1/ 329 وقد بلغ من تحريضها أنها أمرت ابنها عتبة- الذي سوف يأكله أسد في منطقة الزرقاء بعد دعاء النبي ﷺ أن يطلق ابنة النبي رقية (ورقية زوجها عتبة بن أبي لهب) فأمرته - أمه- أم جميل بنت حرب بفراقها- طلاقها- ففارقها، فخلف عليها عثمان بن عفان رضي الله عنه.

(1) الزبيري، **نسب قريش** 8/ 261: (فلمّا خالف رسول الله دين قريش، قالت قريش: نَزَعه أبو كبشة) لأن أبا كبشة خالف الناس في عبادة الشِّعرى، وكانوا ينسبون النبي ﷺ إليه. وكان أبو كبشة في خزاعة، لم يعيّروا رسول الله من تقصير كان فيه، ولكنهم أرادوا أن يشبهّوه بخلاف أبي كبشة فيقولون (خالف كما خالف أبو كبشة) . وأبو كبشة هذا اسمه وَجَز بن غالب من خزاعة، وهو أول من عبد الشِّعرى وكان- يقول: إن الشِّعرى تقطع السماء عرضًا. فلا أرى في السماء شيئًا. شمسًا ولا قمرًا ولا نجمًا. يقطع السماء عرضًا).

الإسلامي عمومًا، قد لا يكون معروفًا بصورة كافية لا بالنسبة لهؤلاء، وإنما كذلك، بالنسبة لنا نحن المعاصرين، وبالطبع قد لا يكون معروفًا حتى بالنسبة للجماعة الإسلامية الأولى التي حملت رايات الإسلام، فقد تولت الآية الكشف عنه، ولكن عبر الإحالة إلى **حادث منسيّ هزّ وجدان العرب وقريش، عندما سرق أبو لهب غزال الكعبة**[1]، وهو حادث يستدعي التفتيش عنه في (تاريخ مبعثر ومنسيّ. بيد أن الآية نفسها ﴿تَبَّتۡ يَدَآ﴾ أشارت إليه باقتضاب، وكانت تتضمن مع ذلك، كل ما يكفي لقراءة أخرى ومغايرة، يمكن أن تستخلص فكرة أن هذا **الهجاء جاء تذكيرًا بالحادث القديم**، وأنه في نهاية المطاف، هجاء يتجاوز **سياق التنديد بشخصية قرشية قاومت دين العرب الجديد.** وهذا ما يعطينا إمكانية أخرى، لقراءة الآية من منظور صلته بالتحوّل الذي شهده نظام **القرابات الأسرية.** ومع ذلك، يتعيّن الإقرار بحقيقة، أن سورة **المسد**، ارتبطت على الدوام وعند سائر المسلمين حتى المعاصرين منهم، بموقف **أبي لهب وامرأته من الإسلام**، ولكن من دون فهم كافٍ لدوافع هذا الموقف ومحرّكاته ومضامينه. لقد قادا من داخل **قريشٍ** معارضة شرسة ضد نبيّ الإسلام، برغم أنهما كانا يرتبطان به بدرجة قرابة دموية مباشرة. لكن الآية، إذا ما رُبطت بهذا الجانب الذي صمتت عنه كتب التفاسير؛ فإنها سوف تخبرنا بأن ثمة أساسًا آخر للوصف القرآني،

---

(1) ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، مجلد 1/ فصل: ذكر عبد المطلب بن هاشم (وكانت جُرْهُم حين أحسوا بالخروج من مكة، دفنوا غزالين وسبعة أسياف قلعية وخمسة أدراع سوابغ، فاستخرجها عبد المطلب وكان يتأله ويعظم الظلم والفجور، فضرب الغزالين صفائح في وجه الكعبة وكانا من ذهب وعلق الأسياف على البابين يريد أن يحرز به خزانة الكعبة، وجعل المفتاح والقفل من ذهب. وأخبرنا هشام بن محمد عن أبيه عن أبي صالح عن ابن عباس قال: كان الغزال لجرهم فلما حفر عبد المطلب زمزم استخرج الغزال وسيوفًا قلعية فضرب عليها بالقداح، فخرجت للكعبة فجعل صفائح الذهب على باب الكعبة، فغدا عليه ثلاثة نفر من قريش فسرقوه. قال وأخبرنا هشام بن محمد بن السائب الكلبي عن أبيه، وعن عبد المجيد بن أبي عبس وأبي المقوم وغيرهم قالوا وكان عبد المطلب أحسن قريش وجهًا، وأمده جسمًا وأحلمه حلمًا وأجوده كفًا وأبعد الناس من كل موبقة تفسد الرجال ولم يره ملك قط إلا أكرمه وشفعه وكان سيد قريش).

يضرب في جذوره عميقًا في تربة الحادث القديم، يوم كان **أبو لهب** شابًا يافعًا **يقود عصابة** من سفهاء **قريش**، قامت **بالسطو على الكعبة وبسرقة الغزال الذهبي الذي كان يزين جدارها.** بيد أنّ حكاية **سرقة غزال الكعبة الذهبي**، ارتبطت بمجموعة من الأساطير الكبرى عند عرب الجاهلية، دار بعضها حول **دين عبد المطلب**، ومسألة الصراع على **مكة**، **وحول حفر زمزم**. فهل قصدت الآية التذكير بشخصية **أبي لهب** القديمة، يوم كان معارضًا لآلهة قريش، وبحيث أنه سطا على **ربّ الكعبة**، **غزالها الذهبي**، وقام بسرقته، أم أنها قصدت التنديد بشخصيته الجديدة كمعارض للنبي ودينه، أم أنها جاءت لتعيد **صياغة نظام القرابات** في مجتمع القبائل؟

سوف نقوم بمعالجة نصّ الحكاية، كأرضية تاريخية ملائمة لتحليل سائر الأساطير المرتبط بها. وفي الواقع، ليست مروية **غزال الكعبة الذهبي**، الغنيّة بالدلالات والرموز والتي عالجها كثرة من الفقهاء والإخباريين ورواة الحديث، مجرد مروية عن **غزال من ذهب**، **علقته قريش في جدار الكعبة**، **ثم قامت جماعة من السفهاء بسرقته.** وهذا الانطباع، سرعان ما يتعمق أكثر حين نقوم، نحن المعاصرين، بإعادة بناء هذه المروية لأجل استكشاف ما تخفيه من تاريخ منسيّ، هو في النهاية جزء عضوي من **تاريخ مكة**، وتاريخ العرب كذلك. لقد ظل جزء عظيم من هذا التاريخ خارج التدوين، وخارج التحليل أيضًا. إن **أهمية المروية التاريخية العربية القديمة**، **تكمن في طاقتها المذهلة على الكشف وبقوة، عن الأشكال السردية** التي لجأ إليها العرب، للتعبير عن رؤاهم وأفكارهم ومعتقداتهم، وفلسفاتهم البدْئية العميقة. وعلى العكس مما هو شائع في مؤلفات المستشرقين ـ والمدرسة الألمانية بشكل أخص ـ فإن المرويات العربية القديمة، ليست مجرد خرافات وأكاذيب وتصورات خيالية عديمة الأهمية. **إنها الراسب الثقافي القديم الذي ظل متدفقًا بقوة زخم تقاليد السرد**، ليدّل المجتمع على جذور معتقداته ورؤاه وهويته الثقافية أيضًا. وفي هذا الإطار وحده، تكمن أهمية مروية **غزال الكعبة الذهبي**، فهي تكشف عن نمط من صراع القرابات الأسرية في مجتمع القبائل العربية، كانت له صلة حميمة بالمعتقدات والثقافة والتاريخ القديم والمصالح، وكان محوره المركزي، وربما الوحيد **الكعبة**، بيت العرب المقدّس. ولأن الكعبة لعبت في تاريخ مكة

والعرب، بالأمس البعيد كما في الحاضر، دورًا مركزيًا لا مثيل له في تاريخ المجتمعات والأديان، وسيظل متواصلًا كذلك في المستقبل، فقد باتت كل مروية مهما كانت صغيرة أو عديمة القيمة، وكل أسطورة وحكاية وخبر وإنْ كان مضطربًا، هي الجزء المبتور أو المنسيّ من هذا التاريخ. وواجبنا أن نعيد بناءه وترميمه كما يفعل المنقبون وعلماء الآثار، لكي يتسنى لنا قراءة التاريخ بشكل علمي وصحيح ودون أهواء.

1
الحكاية ورواتها

روى حكاية **غزال الكعبة الذهبي** عدد كبير من رواة الأخبار المسلمين، وخلال حقب وفترات مختلفة. من بين هؤلاء، مثلًا **ابن حبيب**[1] في (**المنمق**) الذي سوف نعتمد نصّ روايته، **والمسعودي**[2] في (**مروج الذهب**) **وابن حمدون**[3] في (**التذكرة الحمدونية**) **وأبو هلال العسكري**[4] في(**الأوائل**) **والترمذي** في(**الشمائل**)[5] **والمقدسي**[6] (**في البدء والتاريخ**) وسواهم. وهي تتحدث عن **غزال من ذهب**، سرقته عصابة من سفهاء **قريش** كانت تشرب

---

(1) ابن حبيب، **المنمق**، 57-69.

(2) المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي، **مروج الذهب ومعادن الجواهر**، اعتنى به الدكتور يوسف البقاعي، دار إحياء التراث العربي . بيروت . لبنان. بلا تاريخ نشر، ص355.

(3) ابن حمدون: محمد بن الحسن بن محمد بن علي، **التذكرة الحمدونية**، تحقيق: إحسان عباس وبكر عباس، دار صامد، بيروت 1996 م 3/ 25.

(4) أبو هلال العسكري، **الأوائل**، 684-54

(5) أبو عيسى محمد الترمذي : **مختصر الشمائل المحمدية [مختصر الشمائل]** اختصره وحققه محمد ناصر الدين الألبان، المكتبة الإسلامية - عمان - الأردن، بلا سنة نشر، 3/ 124

(6) المقدسي: **البدء والتاريخ**، موقع http://www.alwarraq.com ص 273 (وحفر زمزم فوجد فيها غزالين من ذهب كانت جرهم دفنتهما عند خروجهم من مكة ووجد فيها أسيافًا قلعية ودروعًا فضرب الغزلين في باب الكعبة وأقام عبد المطلب سقاية زمزم للحجاج، وكان نذر لله ـ عز وجل ـ حيث كان لقي من قريش ما لقي عند حفرة زمزم، لئن ولد له عشرة نفر يمنعونه ممن يريده لينحرن أحدهم لله ـ عز وجل ـ عند الكعبة شكرًا له، فلما توافى بنوه العشرة جمعهم فأخبرهم بنذره، قالوا شأنك وما نذرت. قال : ليأخذ كل رجل منكم قدحًا، ثم ليكتب فيه اسمه، ثم ليأتني به ففعلوا فقام ودخل بهم على هبل في جوف الكعبة وضرب عليهم قداحهم).

الخمر وتلهو، ولهم قينتان (جاريتان) كانتا تغنيان في بيت أحد شبان **بني سهم**، وأن هؤلاء حين نفذَ الخمرُ لديهم، قاموا بتدبير عملية سطوٍ على **أموال الكعبة**. وفي رواياتٍ أخرى[1]، يجري الحديث عن سرقة **غزالين من ذهب** كانا في **بئر زمزم**، استخرجهما **عبد المطلب** عندما حفر البئر المقدسة، ثم علق أحدهما في الكعبة. وباستثناء ما نعرفه من رواة الأخبار عن **الغزال المسروق**، فإننا لا نعرف أي شيء عن مصير **الغزال الثاني**، وقد يظل مصيره مجهولًا إلى الأبد. كان **أبو لهب** الذي التصق اسمه بحادث السرقة، من بين أفراد هذه العصابة، وقد تولى بنفسه مساعدة أحد اللصوص على تسلق جدران الكعبة وسرقة **الغزال**، وكانت في هذا الوقت لا ترتفع كثيرًا عن قامة الرجل[2] ـ انظر الصورة رقم 1 ـ وحين علمت قريش بتفاصيل السرقة، **وأن أبا لهب كسر الغزال الذهبي وباع قسم منه لقافلة قادمة من الشام تحمل الخمر، كانت قد نزلت ضواحي مكة**، ثارت ثائرتها وراحت تفتش عن السفهاء للاقتصاص منهم .

---

(1) البلاذري، **أنساب الأشراف** : 1/ 87: (ووجد فيها- زمزم- سيوفًا مدفونة وحليًا وغزالًا من فضة وذهب مُشنّفًا بالدّر فعلقه في الكعبة حتى سُرق).

(2) ابن هشام، **السيرة** 2/ 14 (وكان بناؤها- الكعبة- في الدهر خمس مرات الأولى : حين بناها شيث بن آدم، والثانية: حين بناها إبراهيم على القواعد الأولى، والثالثة : حين بنتها قريش قبل الإسلام بخمسة أعوام، والرابعة: حين احترقت في عهد ابن الزبير بشرارة طارت من أبي قُبَيْس، فوقعت بذلك، ليسقفوها ويهابون هدمَها، وإنما كانت رَضْمًا فوق القامة فأرادوا رفعَها وتسقيفَها، وذلك أن نفرًا سرقوا كنزًا للكعبة، وإنما كان يكون في بئر في جوف الكعبة، وكان الذي وُجد عنده الكنز دُوَيْكًا، مولى لبني مُلَيْح بن عمرو من خزاعة). قال ابن هشام: (فقطعت قريش يده . وتزعم قريش أن الذين سرقوه وضعوه عند دُوَيْك، وكان البحر قد رمى بسفينة إلى جُدَّة لرجل من تجار الروم، فتحطمت فأخذوا خشبها فأعدوه لتسقيفها، وكان بمكة رجل قبطي نجار، فتهيأ لهم في أنفسهم بعضُ ما يُصلحها، وكانت حَيَّةٌ تخرجُ من بئر الكعبة التي كان يُطرَح فيها ما يُهدَى لها كل يوم، فتتشرق على جدار الكعبة، وكانت مما يَهابون، وذلك أنه كان لا يدنو منها أحد إلا احْزَألَّتْ وَكَشَّتْ، وفتحت فاها، وكانوا يهابونها، فبينا هي ذات يوم تتشرق على جدار الكعبة، كما كانت تصنع، بعث الله إليها طائرًا فاختطفها فذهب بها، فقالت قريش : إنا لنرجو أن يكون الله قد رضَى ما أردنا، عندنا عامل رفيق، وعندنا خشب، وقد كفانا الله الحيةَ).

تقول الحكاية كما رواها **ابن حبيب في (المنمق)**[1] ما يلي:

وكان من حديث **الغزال**، أن مقيس[2] **بن عبد قيس بن قيس ابن عدي** بن سعد بن سهم، كان بيتهُ مألفًا لشباب قريش، ينفقون عنده ويشربون بينهم **أبو لهب، والحكم بن العاص، والفاكه بن المغيرة، ومليح بن الحارث بن السباق بن عبد الدار، وأبو إهاب بن عزيز بن قيس بن عبد قيس بن ربيعة بن زيد بن عبد الله بن دارم، وقيس بن سويد وكان أخا عامر بن نوفل بن عبد مناف، لأمه ـ وأمهما كُهيفة من بني جندل ـ وأبو مسافع الأشعري ـ وديك ودوييك من خزاعة** يخدمانهم في بيت مقيس، ولهم قينتان يقال لهما **أسماء وعثمة**، فغنت أسماء وقد نفد شرابهم. فقال ـ أبو مسافع ـ: هلم ديك ودييك إن عيرًا قد أقبلت من الشام تحمل خمرًا فأناخت بالأبطح. فقال **أبو لهب**: ويلكم أما عندكم نفقة؟

فقالوا: لا والله.

قال: **فعليكم بغزال الكعبة، فإنما هو غزال أبي.**

فقاموا وقد أصابتهم ليلة باردة ذات ظلمة ومطر، حتى انتهوا إلى الكعبة وليس حولها أحد، فحمل **أبو مسافع وأبو لهب، الحارث بن عامر على ظهريهما** حتى ألقياه على **الكعبة**، فضرب الغزال فوقع، فتناوله **أبو لهب ثم أقبلوا به، فقال أبو لهب**:

---

(1) ابن حبيب : **المنمق**، 57/ 69

(2) البلاذري: **أنساب الأشراف** 8/ 266، ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، 1/ 263 يضيف ابن الأثير اسم شخص آخر من المشاركين في سرقة الغزال (ومنهم: الحارث بن قيس بن عدي بن سعد بن سهم السهمي، كان أحد المستهزئين الذين يؤذون رسول الله ﷺ، وهو ابن الغيطلة، وهي أمه، وكان يأخذ حجرًا يعبده، فإذا رأى أحسن منه ترك الأول وعبد الثاني. وكان يقول: قد غرَّ محمد أصحابه ووعدهم أن يحيوا بعد الموت، والله ما يهلكنا إلا الدهر، وفيه نزلت: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية: 45]؛ وأكل حوتًا مملوحًا فلم يزل يشرب الماء حتى مات، وقيل: أخذته الذبحة، وقيل: امتلأ رأسه قيحًا فمات).

قد علمتم أن الغزال، غزال أبي، ولي ربعه.

وهكذا استولت العصابة على **الغزال** وسارعت إلى منزل **مقيس** وقامت بكسره، فأخذوا الذهب وعيني الغزال وهما من الياقوت، وتخلصوا من الظرف وهو قاعدة خشبية كان يوضع عليها، ثم أودعت في منزل شيخ أعمى من بني عامر بن لؤي. أما **أبو لهب** الذي طالب بالربع، فقد حصل على عنق **الغزال والرأس والقرنين**، ودفع القرطين (وكانا في أذني الغزال) إلى الجاريتين، ثم انطلق فلم يقرب العصابة. ثم سارع الشبان اللصوص للقاء قافلة الخمر القادمة من بلاد الشام ليشتروا كل ما فيها من خمر، وليعودوا إلى المنزل نفسه حسب رواة الأخبار كما سنرى، وفقط من أجل أن يواصلوا اللهو والشراب. ثم مضت أيام دون أن يفطن أحد من رجال قريش لما حدث، حتى افتقدوا الغزال وتحدثوا في الأمر. وكان أشد الغاضبين **عبد الله بن جدعان**[1]، ثم تكلمت قريش فلم يبلغ أحد من رجالها في غضبه ما بلغه. **قال**:

أشهد أنه لم يجترئ عليكم غيركم، **ولم يسرق الغزال غيركم**، وأيم الله لئن لم يُنْه حلماؤكم سفهاءكم لتنزلنّ بكم النقمة.

فلما أكثر ـ في القول ـ قال له حفص بن المغيرة:

ـ قد أكثرتَ في أمر **الغزال، إنما هو غزال عبد المطلب. وهذا الزبير بن عبد المطلب وأبو طالب لا يتكلمان**، وما **أبو لهب** عندي بخليٍّ منه فأكفف.

فغضب **الزبير**[2] **وأبو طالب** فقالا:

(1) ابن حمدون: **التذكرة**، 129: كانت أم عمرو بن العاص بغيًا عند عبد الله بن جدعان، فوطئها في ظهر واحد أبو لهب وأمية بن خلف وهشام بن المغيرة وأبو سفيان بن حرب والعاص بن وائل، فولدت عمرًا فدعاهم كلهم ـ أي ابن جدعان ـ فحكمّت فيه أمه فقالت: هو للعاص. لأن العاص كان ينفق عليها، وقالوا كان أشبه بأبي سفيان.

(2) **الروض الآنف**، 209 . يرى مؤلف **الروض الآنف** أن الزبير كان يؤمن بالبعث واليوم الآخر، ويسوق الرواية التالية للتدليل على ذلك (وَكَانَ الزّبَيْرُ رضي الله عنه يُكَنّى أَبَا الطّاهِرِ بِابْنِهِ الطّاهِرِ وَكَانَ مِنْ أَظْرَفِ فِتْيَانِ قُرَيْشٍ، وَبِهِ سَمّى رَسُولُ اللّهِ ﷺ ابْنَهُ الطّاهِرَ.

ـ لا تزال تناضل دونه كأنك نعرف صاحبه. وأيم الله لئن ثقفناه لتقطعن يده.

أما عصابة السفهاء فكانت تواصل اللهو دون أن تعبأ بشيء. وبعد مضي نحو شهر، صادف أن **العباس بن عبد المطلب** (شقيق أبي لهب وكان لا يزال غلامًا) مرّ قرب منزل **مقيس**، فسمع لغط الشبان السكارى، ثم أصاخ السمع لصوت إحدى الجاريتين وهي تغني من **شعر أبي مسافع (الأشعري سارق الغزال)**[1] أبياتًا تقطرّ سخرية من دين **قريش** ومعتقداتها:

إن الغزال الذي كُنتمُ وحليته	**تقنونّه لخطوب الدهر والغير**
طافت به عُصبة من شرَ قومهم	**أهل العلى والندى والبيت ذي الستر**
فاستقسموا فيه بالأزلام علكم	**أن تخبّروا بمكان الرأس والأثر**

ولذا سارع لإبلاغ والده وأعمامه بالأمر. تضيف رواية **ابن حبيب**: إن الشبان أفلتوا من القصاص لأيام، وكانوا يواصلون اللهو في **بيت مقيس**، بينما كانت قريش تستشيط غيظًا، وهي تسأل عمن يكون الفاعل:

وأقبل أبو العباس ـ بن عبد المطلب ـ فقال: يا أبا طالب هل لك في **سرقة الغزال**؟

قال: وَمنْ هم؟

قال: هم في بيت مقيس ولم أرهم، فتعالوا فاسمعوا. فأقبل **أبو طالب والزبير وابن جدعان، ومحزمة بن نوفل، والعوام بن خويلد** حتى دنوا من الباب، فسمعوهم يقولون:

غنيّا. فقال أبو مسافع يخاطب إحدى القينتين: غنيّهم بشعري هذا (البسيط):

وَأُخْبِرَ الزّبَيْرُ عَنْ ظَالِمٍ كَانَ بِمَكّةَ أَنّهُ مَاتَ فَقَالَ: بِأَيّ عُقُوبَةٍ كَانَ مَوْتُهُ ؟ فَقِيلَ مَاتَ حَتْفَ أَنْفِهِ فَقَالَ: وَإِنْ فلا بُدّ مِنْ يَوْمٍ يُنْصِفُ اللّهُ فِيهِ الْمَظْلُومِينَ. فَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى إقْرَارِهِ بِالْبَعْثِ).

(1) ابن هشام، **السيرة**: 2/ 14.

ابلغ بني النضر أعلاها وأسفلها إن الغزال وبيت الله والركن
أمست قيان بني سهم تقسمه لم يغل عند ندامهن في الثمن

فقال أبو طالب: هؤلاء أصحاب **الغزال**، وإنْ دخلتم الساعة أصبتموهم سكارى لا يعقلون عنكم ولا يفقهون، ولا نحب أن ندخل عليهم إلا ومعنا من **الأحلاف** الذين تحالفوا معنا.

فلما أصبحوا، غدوا إلى بني سهم وقالوا:

ـ تعلمون أن **الغزال غزال** ربكم سرقه ندماء قيس وهم في بيته، فادخلوا نفتشه.

وحين دخلوا البيت يفتشون عن الغزال المسروق، لم يجدوا سوى غمده الذي يوضع فيه، وكان من **أدم عربي أي من نوع الجلود** التي اشتهر العرب في صناعتها. كما وجدوا القرطين في أذني الجاريتين. ولكنهم لم يعثروا على **أبي لهب**. ولذا قرروا البحث عنه في كل مكان .**أما الخادمان الخزاعيان ديك ودبيك**، فقد فرا، لكن **دبيك** سرعان ما وقع في قبضة رجال القبائل الغاضبة، وجيء به إلى **ابن جدعان**، **فأحنى عليه الشفرة وحزّ كوعه حتى قطعها، فلم يلبث إلا يوم حتى مات**. وقد ارتأى **الفاكهي** وهو يضيف تفصيلًا هامًا لحكاية ابن حبيب، **أن قريشًا قررت قطع يد أبي لهب، لكن أخواله الخزاعيين ـ خصوم قريش ـ قدّموا له الحماية ومنعوا قطع يده**[1]. وفي ذلك قال أحد شعراء خزاعة:

هُمُ منعوا الشيخ المنافي بعدما رأى حمّة الإزميل[2] فوق البراجم

كما يقدم **ابن الجوزي** في (المنتظم)[3] واستنادًا إلى رواية **ابن حبيب**، رواية للحادث، تكاد تتطابق مع سائر الروايات. قال: كان ـ منزل ـ **مقيس بن عبد القيس** مألفًا لشباب قريش يشربون وكان عنده بعض من فتاك قريش

(1) الفاكهي: **أخبار مكة في قديم** : 1/ 1014
(2) الإزميل : الشفرة أو السكين الطويلة الحادة.
(3) **المنتظم**، 1/ 139

وحلفاؤهم، منهم: أبو لهب، والحكم بن أبي العاص، **والحارث بن عامر بن نوفل** وغيرهم (وأقبلت عير من الشام تحمل خمرًا، فقال لهم أبو لهب: ويلكم أما عندكم نفقة. قالوا: لا. قال: **فعليكم بغزال الكعبة**، فإنما هو غزال أبي، وكان عبد المطلب استخرجه من زمزم ووجد بها سيوفًا والغزال، فحمله للكعبة. فانطلقوا بالليل فحمل أبو مسافع، والحارث بن عامر على ظهورهما حتى ألقياه على الكعبة، فضرب الغزال فوقع، فتناوله أبو لهب ثم أقبلوا به فكسروه فأخفوا الذهب وعينيه، وكانت من ياقوت، وطرحوا طوقه، وكان على خشب في منزل شيخ من بني عامر، فأخذ أبو لهب العنق والرأس والقرنين، وانطلق فلم يقربهم). وذهبوا فاشتروا كل خمر كان معهم وأعطوا الشنف والقرط للقينتين، فافتقدت قريش الغزال، فتكلموا فيه. وكان أكثرهم غضبًا **عبد الله بن جدعان**؛ فمرّ العباس شقيق أبي لهب وكان شابًا صغيرًا في دُوْرِ بني سهم (فأخبِرَ أبو طالب فجاؤوا ابن جدعان وغيرهم فسمعوا الغناء، وأقبلوا من الغد). ومن الواضح أن **أبا لهب** وبعد أن حصل على **الغزال الذهبي** لم يقرب هؤلاء الشبان، واختفى عن الأنظار.

ويروي **البلاذري**[1] الرواية ذاتها مع تعديل طفيف. كان **لمقيس بن قيس بن عدي السهمي** قينتان، يقال لهما أسماء وعثمة، وكان بيته مألفًا لرجال من قريش، وكان **أبو لهب بن عبد المطلب، والحكم بن أبي العاص بن أمية، والحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف، وأبو إهاب بن عزيز بن قيس بن سويد بن ربيعة بن عبد الله بن دارم بن مالك بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم حليف بني نوفل بن عبد مناف، وديك ودبيك موليا خزاعة** يجتمعون عنده، فإن هؤلاء جميعًا لعنده إذ نفدت خمرهم وأقبلت **ضافطة** من الشام فقال أبو لهب: ما أعلم موضع شيء نبتاع به خمرًا إلا غزال أبي الذي في الكعبة، فأعظم القوم ذلك وأبوه فقال: أنا أحق الناس به قوموا بنا، فقاموا معه فسرقوا الغزال واشتروا خمرًا وحليّ أبو لهب منه القينتين، وحلاهما الحارث بن عامر بن نوفل من قسمه قرط الغزال أو شنفه، فقال فيه أبو **إهاب بن عزيز**:

---

(1) **البلاذري**، 3/ 73

أبـلـغ مـنـافًـا إذا جـئـتـهـا فـأي فـتـى ولـدت نـوفـل
إذا شـرب الـخـمـر أغـلـى بـهـا وإن مـهـدت جـهـدهـا الـعـذل
دعـاه إلـى الـشـنـف شـنـف الـغـزال هـواه لـخـمـصـانـة عـيـطـل

وقال **حسان بن ثابت** لأبي إهاب بن عزيز:

أبـا إهـاب أبـن لـي عـن حـديـثـكـم أيـن الـغـزال عـلـيـه الـقـرط مـن ذهـب

فطلبت قريش سرقة الغزال فقطعوا بعضهم وهرب بعض، **ولجأ أبو لهب إلى أخواله من خزاعة فمنعوه ودفعوا قريشًا** عنه، وكان أشد قريش طلبًا لسرقة الغزال عبد الله بن جدعان التيمي، فقال الشاعر في منع خزاعة من أبي لهب:

هـم مـنـعـوا الـشـيـخ الـمـنـافي بـعـدمـا رأى الـشـفـرة الـحـجـنـاء فـوق الـبـراجـم

يـتـبـقـى فـي هـذا الإطـار، أن نـشـيـر إلـى تـأثـيـر الـحـادث فـي حـيـاة الشخصيات[1] التي شاركت في **سرقة الغزال**، إذ يبدو أن نتائجه وتداعياته أدّت إلى تحول في المعتقدات الدينية. ومن المحتمل أن الرواية التي رواها صاحب **أنساب الأشراف**[2] **عن مقيس بن قيس بن عدي** ـ الذي جرت الواقعة في منزله ـ هي خلاصة هذا التأثير وعصارته، فقد **حرّم مقيس شرب الخمر**. وهذا تحول هام للغاية في سياق فهم المغزى الديني والأخلاقي لكل **عدوان على المقدس**. إن التاريخ الأسري والشخصي لمقيس بن قيس هذا،

---

(1) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، 1/ 263 يضيف ابن الأثير التفصيل الهام التالي(ومنهم: الحارث بن قيس بن عدي بن سعد بن سهم السهمي، كان أحد المستهزئين الذين يؤذون رسول الله ﷺ، وهو ابن الغيطلة، وهي أمه، وكان يأخذ حجرًا يعبده، فإذا رأى أحسن منه ترك الأول وعبد الثاني. وكان يقول: قد غرّ محمد أصحابه ووعدهم أن يحيوا بعد الموت، والله ما يهلكنا إلا الدهر، وفيه نزلت: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية: 23] وأكل حوتًا مملوحًا فلم يزل يشرب الماء حتى مات، وقيل: أخذته الذبحة، وقيل: امتلأ رأسه قيحًا فمات).

(2) **أنساب الأشراف** 3/ 380 (-و-أبو إهاب بن عزيز بن قيس بن سويد بن ربيعة، أحد من سرق غزال الكعبة مع أبي لهب وأصحابه) **أنساب** : 1/ 101

يتضمن ما يفيد بأنه ثالث ثلاثة أشقاء عرفوا بأنهم يصنعون الأصنام في مكة، وأنه ينتسب إلى أسرة عرفت بأنها من أشرار بني سهم، **لكنه في أعقاب الحادث، انتقل من عبادة الأصنام إلى (دين) هو خليط من الوثنية والتوحيد.(فولدت الغيطلة**[1]**: الحارث بن قيس، وهو صاحب الأوثان، كان كلما رأى حجرًا أحسن من الذي عنده أخذه وألقى ما عنده،** وفيه نزلت: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾[2]، **ومقيس بن قيس** ـ وكانت له قينتان وفي بيته أُقتسم الغزال الذي سرق من الكعبة ـ **وعجي بن قيس.)** وممّا يدّل على حدوث هذا التحول، أن رواة الأخبار، يزعمون أنه (سكر من خمر فجعل يخط ببوله نعامة أو بعيرًا، فلما أفاق أخبر بذلك فحرّم الخمر وقال:

لا تشرب الخمر إن الخمر فاضحة ... تزري بمن كان ذا لبٍّ وذا كرم

حتى يرى ضحكة في الناس محتقرًا ... كأنمّا مسّهُ طيفٌ من اللمم[3]

لكن من غير المحتمل أن هذا التحول في المعتقدات، يتعلق بحادثة ساخرة من هذا النوع، والأرجح أنها نتاج حادث له أبعاد ودلالات أخلاقية شاملة، هزّت الوجدان الديني للقبائل العربية، فقد[4] **(أقامت قريش بمكة لا يبغي بعضها على بعض، فكان أول من بغى من قريش بمكة المقايس،** وهم: **بنو قيس بن عدي بن سهم،** تباغوا بينهم، فبعث الله فأرة على ذبالة فيها نار فجرتها إلى خيام لهم فاحترقوا، ثم كان من **بني السباق بن عبد الدار بن قصي بغي وظلم،** فألقى الله **عليهم الفناء،** فقالت سبيعة بنت لاحب من بني نصر بن معاوية وكانت **عند عبد مناف ين كعب بن سعد بن تيم بن مرة لابنها،** وكان **ذا شرارة وبغي وظلم:**

ألا ليت شعري عن مقيس وأهله ... أأفلت منهم في المحلة واحد

أم النار لم تخطئ من القوم واجدًا ... فكلهم في هوة القبر خالد)

---

(1) الغيطلة : أمه.

(2) سورة الجاثية،الآية: 23.

(3) أنساب، كذلك.

(4) أنساب، كذلك.

ويتكشف من سائر هذه الإشارات، أن **مقيس كان حليفًا لبني السبّاق بن عبد الدار بن قصي**، وهؤلاء كانوا قد ورثوا من أبيهم السلطة في مكة، وخاضوا صراعًا ضد أبناء عمومتهم من **بني عبد مناف بن قصي**، وقد بلغ العداء بينهما ذروته عند وقوع حادث السّطو على غزال الكعبة، فهو غزال عبد المطلب بن عبد مناف. وإذا ما عدنا إلى وراء قليلًا لرسم صورة دقيقة لطبيعة هذا التوتر في النظام القرابي، فسوف نلاحظ أن صراعًا نشب قبل هذا الوقت، أدى إلى نشوء تحالفات قبلية ذات مضمون عدائي، إذ يقال في بعض الروايات، أن **أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي**، وكان رجلًا جميلًا، مرّ ذات يوم قرب منزل أحد أبناء عمومته ـ وينتسب إلى شجرة أنساب شقيق قصي الأكبر زهرة ـ وهو وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب، وكانت لوهب قينتان، فنشب نزاع بينهما أدّى إلى جرح في إليته. لقد أدّى هذا الحادث العرضي بسرعة إلى تنافر عنيف بين الأسر والبطون (فنفرت لذلك بنو عبد مناف بن قصي، والمطلب بن عبد مناف يومئذ حي، فغضب لابن أخيه، فأجمعوا على إخراج بني زهرة من مكة). كان قرار المطلب إخراج أبناء عمومته بني زهرة أشقاء قصي من مكة، وهم حلفاء بني سهم الأقوياء، مثيرًا للجدل، ولذلك، ما أن عزم بنو زهرة على الخروج ومغادرة المدينة حتى سمعوا نداء من دار **عدي بن قيس** وكان سيدًا عزيزًا وهو يقول **(ألا إن الركب مقيم أصح ليل)**[1]. وكان ذلك يعني أن بني سهم رفضوا قرار بني عبد مناف طرد أبناء عمومتهم، فقالت بنو عبد مناف: من الصارخ؟ قيل: **عدي بن قيس بن عدي**. وهذا كان شقيق مقيس المشارك في سرقة الغزال ـ وكانت له ثروة وحظوة ومنعة، فاجتمع بنو عبد مناف **إلى المطلب بأسفل مكة، وتجمعت بنو سهم وبنو زهرة. وهكذا استعد أبناء العم لمجابهة دامية ارتجّت لها أركان المدينة المقدسة**. لكن بني زهرة ما إن عرفوا أنهم أصبحوا في حماية حلفائهم بني سهم، حتى باشروا اتصالات سريعة لتهدئة الأجواء، وكان أمية حليمًا، فلما رأى ذلك أتى عمه المطلب فقال: يا عماه قد وهبت الضربة لبني عمي فاصطلحوا، وهذا اليوم يسمى يوم **عز الركب**. ويفهم من

(1) كذلك.

أخبار ومرويات أخرى، أن جوهر النزاع لم يكن يتعلق بالقينتين، ولا بتعرض أمية لاعتداء، وإنما حول مفاتيح الكعبة وكيفية إخراج بني عبد الدار من سلطة الكعبة الدينية. (قال أبو اليقظان: أراد بنو عبد مناف أن يأخذوا المفتاح من بني عبد الدار، فأعانهم **قيس بن عدي فلم يؤخذ)**[1].

---

(1) **أنساب الأشراف**، 3/ 380 (ومن ولد قيس بن عدي بن سعد بن سهم: أبو قيس بن الحارث بن قيس بن عدي، واستشهد يوم اليمامة في أيام أبي بكر. وسعيد بن الحارث هاجر إلى الحبشة وقتل يوم اليرموك. وتميم بن الحارث هاجر إلى الحبشة واستشهد يوم أجنادين في الشام. وعبد الله بن الحارث هاجر إلى أرض الحبشة مع إخوته في المرة الثانية ومات بالحبشة).

شجرة قرابات أبي لهب

قصي

عبد مناف

هاشم — نوفل — عبد شمس

عبد المطلب — عامر — أمية

عبد الله ——— أبو لهب (عبد العُزّى) — الحارث [1] — أبو العاص

محمد ﷺ — (أولاده) — الحكم[2]

(أمهم أم جميل بنت حرب بن أميّة) — (مروان الخليفة الأموي)

عتبة ——— مُعتب (اعتنقا الإسلام) — عُتيبة

(افترسه الأسد) — (لا عقب له)

أولاده

العباس

الفضل (الشاعر)

---

(1) أنساب، 1/ 68 الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف . كان رسول الله ﷺ قال يوم بدر: من لقي الحارث فليدعه لأيتام بني نوفل. وفيه نزلت: ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ﴾ [القصص: 28] . ولكنه كان أعان على نقض الصحيفة، فقتل يوم بدر كافرًا. قتله خبيب بن أساف.

(2) أنساب الأشراف، 2/ 253 والحكم هو عم الخليفة عثمان بن عفان وابن عم أبي لهب (شريكه في سرقة الغزال) قالوا: ولما أسلم عثمان بن عفان أوثقه عمه الحكم بن أبي

هذه هي ـ بإيجاز شديد ـ مروية **غزال الرّب** الذي زين به **عبد المطلب جدار الكعبة** . إن للغزال أهمية خاصة في الميثولوجيا العربية القديمة السابقة على الإسلام، فهو الشكل العضوي (الحيّ) لكن غير البشري الذي يتجسّد فيه الإله الوثني، ونحن نعلم، أن أصنام وآلهة العرب كانت بوجه العموم، تأخذ **شكلًا بشريًا**، كما هو الحال مع **الفلس**[1] **وهبل**[2]، **بينما نراه في هذه المروية وقد اتخذ شكله الطوطمي الكامل(حيوان مقدس)**. ولكن، لماذا كان **قطع اليد**[3] هو العقاب الذي طبقته قريش بحق **أبي لهب** ابن سيّد مكة؟ إذا ما أخذنا بنظر الاعتبار، أن العرب في الجاهلية كانوا يطبقون الكثير من قواعد الشرعة اليهودية، بما أن اليهودية دين عربي قديم من أديان العرب[4]؛

العاص بن أمية رباطًا وقال: أترغب عن دين آبائك إلى دين محدث؟ والله لا أحلك أبدًا، فلما رأى صلابته في دينه تركه، وحلفت أمه أروى بنت كريز ألا تأكل له طعامًا ولا تلبس له ثوبًا ولا تشرب له شرابًا حتى يدع دين محمد، فتحولت إلى بيت أخيها عامر بن كريز فأقامت به حولًا، فلما يئست منه رجعت إلى منزلها.

(1) جواد علي : **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام** : ساعدت جامعة بغداد على طبعه 1993ج/ 6 ص: 316 (وأما هفلس -ها - فلس، فإنه «الفلس»، عند أهل الأخبار. وقد ذكروا أنه كان على هيأة حجر أسود تعبدت له «سليم»، أو على صورة إنسان قدّ من حجر عند طيء. ويظهر من بعض الأعلام اللحيانية المركبة، مثل «اوس يه» «اوس يهو»، و«عزريه» «عزر يهو» أن القسم الثاني من الاسم، وهو «يه» «يهو»، قريب من «يهوه»). لكننا وبخلاف ما رأى جواد علي، نعتقد أن والفلس Omphalos أو مفالس، كان رمز السرّة ومن المعبودات المقدسة عند الإغريق. وهو حجر على شكل مخروطي، والغريب أنه نُصب في معبد أبولو ـ هبل ـ. والفلس من أصنام طيء والعرب الشهيرة ورد ذكره في التوراة باسم النسبة إلى الجماعة ها- فلشتيم، وهذه فهمت خطأ على أنها تعني الفلسطينيين وذلك وهم فاضح. انظر ما سنكتبه عن الزمزميين اسم النسبة من زمزم كما ورد في التوراة.

(2) انظر الفصل الخاص بهبل، فهو من التماثيل التي صنعت على هيئة الإنسان، ويقول الإخباريون أن عمرو بن لحي الخزاعي جاء به من الشام.

(3) ما يذكره ابن الكلبي في **الأصنام** (أن قريش أدركت هبل مقطوع اليد)، وأنها صنعت له يدًا من ذهب، يمكن أن يكون صحيحًا، فهي حصلت عليه في هذه الصورة، وليس من المؤكد أنها كانت تعرف أي شيء عن هذا الطقس الديني القديم. ابن الكلبي: **الأصنام** : ص

(4) حول هذه المسألة، قد يكون من الملائم العودة إلى كتابنا «**أورشليم ليست القدس**»، الريس للنشر، بيروت 2010.

فإن **قريش** في هذه الحالة، وكما تشير كثرة من الروايات الإخبارية[1]، تكون عملت على تطبيق مبدأ **قطع اليد كعقاب صارم للسرقة**، بينما من جانبٍ موازٍ، سوف يتبدى هذا الإجراء كاستطراد في شرعة إعطاء كفارة عن الخطيئة المرتكبة، كما في حالة الزنا[2]، أي **قطع اليد بديلًا عن جدع الأنف** أو الأذن، ومن المؤكد، أن **قطع اليد، وجدع الأنف كانا طقسًا دينيًا** في العقائد القديمة السابقة على عصر الجاهلية، وقد تحولا إلى (عُرف) تعمل به القبائل، **ولعل التماثيل اليونانية والرومانية والمصرية**

---

(1) تيودور نولدكه Theodor Noldeka **تاريخ القرآن**، تعديل فريدريش شفالي 2000/ دار نشر جورج ألمز، هيلدسهايم، زوريخ- نيويورك، نقله إلى العربية د. جورج تامر(عن طبعة لايبزغ 1909، وكذلك طبعة 1938) مكتبة ديتريش فيسبادن: يرتئي نولدكه، استنادًا إلى كتاب النسائي (قطع يد السارق) وإلى ابن قتيبة كذلك، أن عقوبة قطع اليد في الجاهلية، كانت عقوبة دخيلة ولم تكن من شرعة العرب، وأن الوليد بن المغيرة كان أول من أدخلها. لكن هذا مجرد رأي ضعيف، قد يكون نولدكه رأى فيه حلًا لتفسير مغزى العقوبة الديني، ولعله افترض، بمخيال استشراقي، أن قطع اليد كان فقط، عقوبة موجهة للعبيد لا لأحرار، وهذا غير صحيح، لأن واقعة سرقة غزال الكعبة، وسعي قريش لإنزال قصاص قطع اليد بحق أبي لهب، تؤكد بما لا يقبل أي تأويل، أن العقوبة شاملة، وأنها تخصّ الأحرار والعبيد، وكنا رأينا كيف أن ابن جدعان قطع يد المولى الخزاعي. كما افترض نولدكه دون وجه حق، أن شرعة قطع اليد تسربت من الحبشة بوصفها تقليدًا بربريًا، وأنها لم تكن معروفة في الشرعة اليهودية ولا في القانون اليوناني- الروماني، وهذا مقبول جزئيًا، لكنه لا يفسر على وجه الدقة الكيفية التي دخلت فيها في النظام الثقافي- الاجتماعي لعرب الجاهلية، إلا إذا افترضنا أن العرب في الجاهلية من وجهة نظر الاستشراق الألماني هم مجتمع بربري؟ لكن من جانب مواز ؛ تتردد مزاعم في كتب الإخباريين، مفادها أن النبي ﷺ وافق لمرة واحدة على تطبيق شرعة قطع اليد بحق امرأة متهمة بالسرقة، وكان ذلك قبل فتح مكة وأنه (عاقب امرأة بقطع يدها بحسب التشريع الوارد في سورة التوبة 38-43، وأنها كانت العقوبة الأولى ولا سابق لها في عرف العقوبات العربية القديمة) نولدكه، **تاريخ القرآن** : 201-207.

(2) كان بنو إسرائيل، بالنسبة لعرب الجاهلية، أمناء في تطبيق هذا المبدأ، ولذلك سأل المسلمون النبي ﷺ في حادثة اشتباه بارتكاب الزنا أن يعمل بمبدأ جدع الأنف أو الأذن، لكن النبي ﷺ لم يقبل بهذا الطلب وقرأ آية من القرآن، فهم المسلمون منها أنها تبطل عقوبة الجدع.

والآشورية الكثيرة التي نشاهدها اليوم، مجدوعة الأنف أو مقطوعة اليد، هي تجسيد لهذه العقيدة القديمة، حين كانت اليد هي ـ الكفارة ـ في حالة الخطيئة. وقد يكون مناسبًا التساؤل عن السبب الحقيقي لوجود هذا العدد الهائل من التماثيل من مختلف العصور والحضارات، وهي **مجدوعة الأنوف** ؟ كما هو الحال مع **تمثال أبي الهول في مصر**، ومع تماثيل الآلهة السومرية والأشورية وصولًا إلى تماثيل آلهة اليونان وروما (انظر ملحق الصور ولاحظ **جدع الأنف أو قطع الذراع أو الثدي كما في تماثيل دوسيرا اليونانية**). إن ما يشيعه علماء الجيولوجيا وعلماء الآثار كذلك، من مزاعم عن عوامل التعرية الطبيعية التي تؤدي في كل الحالات إلى هذا الثلم في مواضع محدّدة، **كالأنف في حالة أبي الهول**، أو الذراع في حالة **تماثيل آلهة اليونان**، هو من قبيل الخداع والتضليل.ومن الجائز الافتراض أن عوامل التعرية الطبيعية تؤدي بالفعل إلى مثل هذه النتائج، لكن من المؤكد أن تعرّض الأنف وحده، دون سائر الأجزاء في هذه التماثيل، يُدّلل على قدم هذا الطقس الديني الذي كان يمارس رمزيًا.

لقد تساءلت أثناء العمل في هذا الكتاب عن **العلاقة بين الكلمة العامية المصرية (جدع)** التي يطلقها المصريون المعاصرون على الشخص الشجاع، الجريء، وبين كلمة **(جدع)** في اللغة العربية التي تعني القطع؟ وبكل تأكيد يستحيل تصريف **جدع العامية المصرية** لتؤدي معنى شجاع، جريء. ولا يوجد في مبنى الكلمة ما يمكن أن يفهم منه أن المقصود به هذا المعنى. ولذلك، قد تكون الكلمة من بقايا تعبيرات هذا الطقس الديني. لقد عرف العرب في الجاهلية **تمثال أبي الهول** بوصفه **فرعون الأجدع**[1]، وهو برأينا **الفرعون** الذي قصده القرآن في آية ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ﴾[2]. وقد يثار سؤال في

(1) في رواية الطبري: **تاريخ**، هو: فرعون الأجدع.

(2) الطبري، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر، **جامع البيان في تأويل القرآن** [224 - 310 هـ] المحقق : أحمد محمد شاكر الناشر : مؤسسة الرسالة الطبعة الأولى، 1420 هـ - 2000 م 24/ 209 قوله: ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ﴾ [الفجر: 10] يقول جلّ ثناؤه: ألم تر كيف فعل ربك أيضًا بفرعون صاحب الأوتاد. واختلف أهل التأويل في معنى قوله:﴿ذِى ٱلْأَوْتَادِ﴾ ولم قيل له ذلك، فقال بعضهم: معنى ذلك: ذي

هذا السياق، ما إذا كانت هناك علاقة دلالية بين اسم جدعان (**عبد الله بن جدعان**) وطقس **الجدع** هذا بوصفه شرعة دينية قديمة؟ كان **عبد الله بن جدعان**، أحد أشهر سادات قريش وأغنى أغنيائها، لدرجة أن قومه بعدما بلغ به الكبر، حجروا عليه كي لا يبذر أمواله. تقول الأسطورة الخاصة بأموال **ابن جدعان**، أنه صادف في الصحراء رجلًا ضخمًا، سأله عن **أرض جُرْهُم**، وأنه حين لقي هذا الرجل الأسطوري خلال رحلة إلى الشام، لم يتعجل بتقديم المساعدة له حتى يعرف مقدار مكافأته، وحين دلّه على **أرض جُرْهُم**، وهبه الرجل ذهبًا كثيرًا كان مدفونًا في كهف، قائلًا له أن هذا هو كنز **جرْهُم** الذي دفنته حين **تركت مكة**[1]. وجُرْهُم هذه، هي التي يزعم الإخباريون أنها صاحبة **الغزالين الذهبيين المدفونين في زمزم**. تقول

الجنود الذي يقوّون له أمره، وقالوا: الأوتاد في هذا الموضع: الجنود. ذكر من قال ذلك: حدثني محمد بن سعد، قال عن ابن عباس﴿وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ﴾ قال: الأوتاد: الجنود الذين يشدّون له أمره، ويقال: كان فرعون يُوتِد في أيديهم وأرجلهم أوتادًا من حديد، يعلقهم بها.وقال آخرون: بل قيل له ذلك لأنه كان يُوتِد الناس بالأوتاد. وقال آخرون: بل ذلك لأنه كان يعذّب الناس بالأوتاد. برأينا أن آية ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ﴾ من سورة البروج، تروي قصة ثمود ﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۞ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ﴾ [الفجر: 9 ـ 10] وهذا الصورة القرآنية لا يمكن أن تتطابق إلا مع صورة تمثال أبي الهول الذي يغزر أقدامه في رمال الجيزة المصرية عميقًا.

(1) ابن حبيب: **المنمق** ص142 : ثمة روايات كثيرة سنراها لاحقًا، تشير كلها إلى أن جُرْهُم دفنت الغزالين الذهبيين في البئر، بعدما بدا لها أنها سوف تطرد لا محالة خارج مكة. يقول ابن حبيب : (حدثني الوليد بن عبد الله بن جميع، حليف بني زهرة، قال : سمعت عامر بن واثلة أبا الطفيل قال، قال أشياخ من قريش لعبد الله بن جدعان: يا أبا زهير، من أين أصل مالك هذا؟ وكان من أكثر الناس مالًا، قال- أي الوليد- فقال: على الخبير سقطتم، خرجت مع قوم من قريش إلى الشام، فبينا نحن في بعض أسواقها، إذ أقبل رجل قد كاد يسد الأفق من عظمه، فقال: من يبلغني أرض جرهم وأوقر ركابيه ذهبًا، فلم يجبه أحد من أشياخنا بشيء، قال: فانصرف ثم عاد في اليوم الثاني فقال كما قال في اليوم الأول، وانصرف ولم يجبه أحد، ثم عاد في اليوم الثالث فقال كما قال، فلما رأيت سكوت الناس عنه قلت: أنا أبلغك أرض جرهم، قال ابن جدعان وأنا أعني ببلاد جرهم أرض مكة، قال: فحملت على إبلي أذبح له في كل يوم شاة وفي كل جمعة جزورًا حتى انتهينا إلى مكة فقلت: هذه أرض جرهم، قال: إنك

الأسطورة: إن القبيلة أدخلت **ممارسة الزنا في الكعبة** (البغاء المقدس) **وإن أساف ونائلة** كانا جُرهُميين، وقاما أثناء الطواف بممارسة البغاء فمسخهما الله حجرين، ثم ضجّت قبائل العرب بعد أن فرض **زعيم جُرْهُم عمرو بن المضّاض** عبادة الصنمين(المسخ). ولذلك ثارت القبائل وقررت طردهم من مكة. وبعد تأكد ابن **المضّاض**[1] أن لا سبيل أمامه للحفاظ على حكم القبيلة فيها:

(أتى الكعبة يلتمس التوبة فقال:

لا هُـم[2] **إن جُـرهـمًـا عـبـادكـا**

الـنـاس طـرف وهـم تـلادكـا

وهـم قـديـمًـا عـمـرّوا بـلادكـا

فلم تقبل توبته، فعمد إلى أموال الكعبة وهي **غزالان من ذهب** وأسياف ـ سيوف ـ فحفر لها ليلًا **في زمزم** وخرج بمن بقي من جُرْهُم).

صادق، ولكن امض وانطلق، فأخذني في جبال وأودية، ما رأيتها قط حتى انتهى إلى كهف في الجبل، قد ردم بالحجارة فقال أنخ بي هاهنا، فأنخت به، ثم قال لي: انقض هذا الكهف حجرًا حجرًا، ففعلت، ودخلت الكهف فإذا فيه ثلاثة أسرة على اثنين منها رجلان ميتان والثالث ليس عليه أحد، وإذا ذهب كثير وإجانة في ناحية الكهف فيها لطوخ فقال: يا هذا، إني ميت كما مات هذان، وسيخرج مني صوت شديد فلا يهولنك، وإذا إجانة فيها لطوخ، وإذا قارورة فيها ريشة على السرير الخالي، وإذا ذهب كثير في ناحية الكهف، فطرح ثيابًا كانت عليه وقال: اطلني بهذا الذي في الإجانة، فطليته من قرنه إلى قدمه، ثم أدرجته في ثياب كانت معه، ثم جلس على السرير وأخذ الريشة فلعط بها على أنفه، ثم صاح صيحة ما سمعت قط أشد منها، وسقط ميتًا كأنه لم يزل مذ كان، قال: وقد كان قال لي: خذ من هذا الذهب حاجتك ورد الكهف كما كان، وإياك أن تعود إلى ما هاهنا، فإنك إن عدت ذهب مالك ونفسك، ففعلت ما قال فهذا كان أصل مالي).

(1) أبو البقاء الحلي، **المناقب الزيدية** : 121.

(2) لا هم لغة في اللّهم.

والغزال في لغة العرب نوع من الظباء[1]، وأصل الكلمة من غزل القطن وفتله فسمي غزلًا لسرعته، والغزالة هي الشمس، وقيل: هي الشمس عند طلوعها، يقال: طلعت الغَزالةُ ولا يقال غابت الغَزالةُ، ويقال: غرَبت الجَوْنةُ، وإنما سميت جَوْنةً لأَنها تَسْودّ عند الغُروب، وقيل الغزالة: عين الشمس. وفي الشعر العربي، الشمس هي عين السماء. يقال الشمس عَيْنُ الضِّحِّ، أَرادوا أَن الشمس هي العين التي في السماء تجري في الفَلَكِ، والضِّح ضَوْءُه الذي يَشْرِقُ على وجه الأَرض. ومن كلمة شمس اشتق العرب مع عصر النصرانية الأولى اسم الشَّمَّاسُ من رؤوس النصارى: الذي يحلق وسط رأْسه. ويَلْزَمُ البِيعَة .وشَمْسٌ صَنَم قديم .وعبدُ شَمْسٍ: بطنٌ من قريش، قيل: سُمُّوا بذلك الصنم، وأَوّل من تَسَمَّى به سَبَأُ بن يَشْجُبَ. وعن ابن سيده: عَبُ شَمْسٍ قبيلة من تميم ـ عبد من دون حرف الدال ـ والنسب إلى جميع ذلك عَبْشَمِيّ. والغَزالُ من الظِّباء: الشادِنُ، قَبْل الإِثْناءِ (أي قبل أن يتثنى وهو المشي المتعثر) وقيل: هو غَزالٌ من حين تَلِدُهُ أُمُّه إلى أَن يبلغ أَشَدَّ الإِحْضار، وذلك حين يَقْرُن قوائمه فيضعها معًا ويرفعها معًا، والجمع غِزْلة وغِزْلانٌ مثل غِلْمة

(1) النويري، نهاية الأرب 9/ 203، يعدد النويري أسماء الظباء على هذا النحو : (للظباء أسماءٌ نطقت بها العرب، واحدها ظبي، والأنثى ظَبية، وولدها طَلا وغزال ؛ فإذا تحرك ومشي فهو رَشَأ ؛ فإذا ثبت قرناه فهو شادنٌ وخِشْف ؛ فإذا قوِي فهو شَصَر، والأنثى شَصَرة، ثم هو جَذَع، ثم ثَنيّ، ولا يزال ثَنيًّا حتى يموت.والظِّباء أنواعٌ تختلف بحسب مواضعها ؛ فصِنفٌ منها يسمى الآرام، وهي الخالصة البياض، ومساكنها الرمل، وهي أشدها حُضرًا ؛ وصِنفٌ يسمى العُفْر، وألوانها بيضٌ تعلوها حمرة؛ وصِنفٌ يسمى الأُدْم، وألوانها أيضًا كذلك، ومساكنها الجبال؛ ومن طبع هذا الحيوان أنه إذا فقد الماء استنشق النسيم فاعتاض به عنه؛ وهو إذا طُلب لم يجهد نفسه في الحُضْر لأوّل وهلة، ولكنه يرفق بنفسه، فإذا رأى طالبه قد قرُب منه زاد في حُضْره حتى يفوت الطالب؛ وهو يخْضَم الحنظل حتى يرى ماؤه يسيل من شِدقيه؛ ويرد الماء الملح الأُجاج فيغمس لحيته فيه كما تفعل الشاة في الماء العذب، يطلب النوى المُنْقَع فيه ؛ وهو لا يدخل كناسه إلا مستدبرًا، يستقبل بعينيه ما يخافه على نفسه، وله نومتان في مَكْنِسين : مَكْنس الضُّحى ومكنس العشيّ، وهو يصاد بالنار، فإنه إذا رآها ذَهِل لها ودُهش، سيما إذا أضيف إلى إشعال النار تحريك الجرس، فإنه ينخذل ولا يبقى به حراكٌ البتة ؛ وبين الظبي والحجل ألفةٌ ومحبّةٌ ؛ وهو يوصف بحدّة النظر).

وغِلْمان، والأُنثى ـ بالهاء ـ وقد أَغْزَلَت الظبيةُ . **والظَّبْيَة فرج المرأة** وقال الليث: والظَّبْيَة جَهاز المرأَة والناقة، يعني حَيَاءَها؛ وقال الأَصمعي: يقال لكلِّ ذات خُفٍّ أَو ظِلْفٍ الحَيَاءُ، ولكلِّ ذات حافرٍ الظَّبْيَة؛ وللسباع كلّها الثَّفْر. وفي حديث زَمْزَم: قيل له **أَحْفِرْ ظَبْيَة**، قال: **وما ظَبْيَةٌ**؟ قال: **زَمْزَم؛ سميت به تشبيهًا بالظَّبية**[1] . هذه المقاربة اللغوية يمكنها أن توضح على أكمل وجه **علاقة الغزال بزمزم البئر، المقدّسة عند العرب والمسلمين** التي كانت تسمى ظبية أي غزال؟ كما توضح استطرادًا **صلتها بالكعبة التي تضمّ البئر في جوفها**، ولهذا ينبغي أن نأخذ بنظر الاعتبار، أن **عبد المطلب عثر على الغزالين في البئر** حين حفرها، ولم يجدهما في أي مكان آخر ـ في أي بئر أخرى مع أنه حفر أكثر من بئر[2]ـ وقد يفسرّ هذا الأمر، لنا بصورة ما من الصور، العلاقة بين **وجود الغزال في جوف البئر، وبين طقس النذور والقرابين التي يقدمها المؤمنون(عادة إهداء البئر أصنامًا وسيوفًا** من ذهب وهي شائعة في كتب الأخبار والنقوش اليمنية). واللافت أن **يد الغزال يد مقدسة لبياضها وعصمتها. وفي لغة العرب** أصل العُصْمة، البَياضُ يكونُ في يَدَي الفَرسِ **والظَّبْي والوَعِل**. وعصمة[3] الشيء: منَعَه ووَقَاه، والعاصِمُ: المانعُ الحامي، أَصلُ العِصْمةِ الحبْلُ استعصم: لجأ وقت الشدة .**ولأن من بين أسماء الشمس الغزال، كما في كلام العرب، فقد يكون الغزال من آلهة الخصب الأنثوية**، وقد اتخذت والحال هذه رمز الشمس، وما يؤكد ذلك، أن **جُرْهُم** دفنته في زمزم. ولمّا كانت هذه القبيلة في الأصل البعيد وكما تقول أساطيرها، هي من قبائل اليمن الكبرى التي هاجرت إلى وسط الجزيرة العربية، وفرضت سلطانها هناك، فمن المؤكد أنها كانت تعرف عبادة الشمس، وهي من أكبر معبودات اليمن. بهذا المعنى يكون الغزال هو إله القبيلة (الإلهة الأم) العاصمة والحامية للقبيلة. لقد خلط الإخباريون ورواة الأساطير بين طقس إهداء زمزم غزالين من

---

(1) ابن منظور، **لسان العرب**، مادة غزل: الظَّبْيُ: الغزال، والجمع أَظْبٍ وظِباءٌ وظُبِيٌّ، والظَّبْيُ: سِمَةٌ لبعض العرب.

(2) حفر عبد المطلب حسب سائر الروايات مجموعة آبار للعرب، لتمكينهم من القيام بمهام السقاية للحاج في مكة.

(3) ابن منظور: **لسان**، مادة عصم

ذهب، وبين طرد القبيلة، وبحيث جرى تصوير هذا الطقس كما لو أنه تمّ أثناء طواف الوداع والتوبة عن **ممارسة الزنا**. ومن غير شك؛ **فإن النقوش المسندية**[1] التي تركها ملوك حمير، تكاد تشير كلها إلى وجود طقس إهداء الآلهة أصنامًا من الذهب. ولذلك يكون دفن الغزالين في زمزم تعبيرًا عن طقس النذور. ونحن نعلم أن جُرْهُم قبيلة يمنية **كانت من عبّاد الشمس، وكان الوعل والظبي(الغزال) من بين أكثر رموزها الدينية قدسية**. ولذا، فقد يكون **الغزال الذهبي**[2] **إله جُرْهُم القديم الذي دفنته في زمزم، لئلا يستولي عليه الأعداء أثناء المعارك لإخراجها من مكة**. ولأن روايات الإخباريين وبحثهم المستفيض عن أصل هذين الغزالين، لم تصل إلى نتيجة مرضية ومقنعة، فقد شاعت أساطير كثيرة، تنسبهما تارة إلى **ملوك التبت، وتارة إلى ملوك فارس**. ولذلك رووا الكثير من الأساطير الخاصّة **بفارة المسك** التي تؤخذ من **سرّة الغزال**. وهم يربطون بين **كون الغزالين كانا هدية من ملوك التبت، وبين وجود نوع مقدس من الغزلان يعيش حصرًا** هناك. يقول صاحب **آثار البلاد**[3] في تعريفه للتبت:

> **تبت بلاد متاخمة للصين** من إحدى جهاته، وللهند من أخرى مقدار مسافتها، مسيرة شهر، بها مدن وعمارات كثيرة ولها خواص عجيبة في هوائها ومائها وأرضها من سهلها وجبلها ولا تحصى عجائب أنهارها وثمارها وآبارها. وهي بلاد تقوى بها **طبيعة** الدم فلهذا الغالب على أهلها الفرح والسرور، فلا يزال الإنسان بها ضاحكًا فرحًا لا يعرض له الهم والحزن، ولا يكاد يرى بها شيخ حزين أو عجوز كئيبة، بل الطرب في الشيوخ والكهول والشبان عام، حتى يرى ذلك في وجه بهائمهم أيضًا، وفي أهلها رقة طبع

---

(1) مطهر علي الإرياني، **نقوش مسندية وتعليقات**، مركز الدراسات والبحوث اليمني- صنعاء1990 ص446-447 كان الوعل رمزًا من رموز الخصب عند اليمنيين القدماء، وكانت له معابد . كما أن النقوش تذكر أنهم كانوا يقدمون للإلهة أصنامًا ذهبية تمثل الثور.

(2) المذهب بضم الميم، من أسماء الكعبة.

(3) محمد بن زكريا القزويني: **آثار البلاد وأخبار العباد**، مادة تبت.

وبشاشة وأريحية تبعث على كثرة استعمال الملاهي، وأنواع الرقص حتى إن أحدهم لو مات لا يدخل أهله كثير حزن. وبها **ظباء المسك، وإنها في صورة ظباء بلادنا**، إلا أن لها نابين كنابات ـ كأنياب ـ الخنازير، **وسرتها مسك**، ولكن **مسك ظباء تبت أحسن أنواع المسك، وأهل تبت لا يتعرضون للمسك حتى ترميه الغزال**، وذلك أنه **يجتمع الدم** في سرتها مثل الخراج؛ فإذا تمّ ذلك الخراج **تأخذ الغزال شبه الحكة** فإذا رأت حجرًا حادًا تحك به سرتها، **والدم ينفجر منها. والغزال تجد بذلك لذة، فتحك** حتى تنصب المادة كلها من **السرة، وتقع على ذلك الحجر**. وأهل تبت يتبعون مراعيها، فإذا وجدوا تلك المادة المنفجرة على الحجر، أخذوها وأودعوها النوافج، فإنها **أحسن أنواع المسك لبلوغ** نضجه، وإن ذلك يكون عند **ملوكهم يتهادون** به قل ما يقع منه بيد التجار. وبها **فارة المسك**، وهي دويبة تصاد وتشد سربها شدًا وثيقًا، فيجتمع فيها الدم ثم يذبحونها ويقوّرون **سرتها** ويدفنونها في وسط الشعير أيامًا فيجمد الدم فيها، فيصير مسكًا ذكيًا بعدما كان نتن الرائحة، وهي أحسن أنواع المسك وأعزها، وأهل تبت ترك من نسل يافث بن نوح ﷺ وبها **قوم من حمير**[1] **من نسل من حملهم إليها في زمن التبابعة.**

إن العلاقات الدلالية الساطعة بين **عبادة الإله الفلس**[2]، **إله السُرَّة**، وهو

(1) المثير للاهتمام في هذه الرواية تأكيد صاحب آثار البلاد - على غرار الإخباريين اليمنيين مثل وهب بن منبه- أن هناك جماعة من أهل التبت من أصول حميرية. وقد أكد لي مراسل محطة الجزيرة في الصين مؤخرًا في مكالمة هاتفية، أنه بصدد إجراء ريبورتاج صحفي تلفزيوني عن قبيلة من التبت تدّعي أنها من أصول حميرية- يمنية، وإذا صحّ هذا الأمر؛ فإن روايات وأساطير الإخباريين اليمنيين القدماء عن وصول حمير إلى التبت، يجب أن تقرأ بطريقة أخرى.

(2) الفلس، لغة : السُرَّة.

عند الإغريق على هيئة مخروطية (وعند قبائل العرب في هيئة إنسان) وبين عبادة **سرُّة الغزال** التي يُستخرج منها عطر (مسك) غالبًا ما يستخدم في بيوت العبادة، قد تكشف عن جانبٍ هام من علاقة دينية مسكوت عنها في عبادات العرب، فقد كانت **السُّرّة رمزَ الخلْق** (الولادة) والخصب. ولعل تقديم أصنام ذهبية تمثل الغزال، كأضحيات رمزية أو نذور لإله الماء، هي في صلب طقوس قديمة مندثرة، عرفتها شعوب وجماعات. وواحدة من أكثر تجليات **الغزال** ـ على مستوى السرد المثيولوجي ـ تجسيده لصورة الطعام الإلهي(التقدمة الطاهرة، الزكية)، وفي هذا التجسّد، يمكن لروح الإله أن تحل فيه، فهو الروح القدس[1] (الطاهر). ولذلك، تبدى العدوان على الغزال ضربًا من ضروب العدوان على رمز الخصب وتجسداته الإلهية، أي روح المقدس التي حلّت فيه. وهذا ما يفسّر لنا على أكمل وجه، السبب الحقيقي لتقليد منع وتحريم **صيد الغزلان والظباء** في الحرم المكيّ. إن **قدسيّة الغزال** التي أضحت جزء من قدسيّة المكان، تترابط داخل منظومة من الطقوس والمعتقدات، وبحيث نُظر باستمرار إلى وجوده يرعى بحرية دون خوف من الصيّادين، بوصفه وجودًا مجسّدًا لحرمة المكان برمته، ولذلك، غالبًا ما يجري ـ في المرويات العربية القديمة الخاصّة **بمكة**، وطقوس وشعائر الحج ـ التأكيد على أن **الحيوانات والطيور التي تعيش في المكان**، وتختلط مع الحجاج أثناء استراحتهم، يجب أن تظل آمنة من أي اعتداء، وأن على حاج مكة أن يألف وجودها ويلتزم قواعد وشرعة تحريم صيدها. وفي هذا الإطار تدور سلسلة من الأساطير التي تتحدث عن العقاب الذي يحل بالحاج حين يخرق قدسيّة المكان.إن الحاج الذي يضطرّه الجوع إلى صيد **غزلان الحرم**، يتعرض **لعقاب سمّاوي**، ولذا عليه أن يمتنع عن القيام بأي نوع من العدوان على المقدس في صورته التي يتجسّد فيها، والغزال في هذه الحالة، يصبح تجسيدًا لقدسيّة المكان لا جزء منه وحسب. يروي **الأزرقي (تاريخ مكة)**[2] أنه

(1) من بين أكثر معاني كلمة قدس، مقدس في اللغة العربية إشراقًا أن الكلمة تشير إلى الطهارة، فالقدس هو سطل (إناء) طاهر.

(2) الأزرقي، **تاريخ مكة**: 2/ 170-175-176-180

اطلع على كتاب ـ لم يسجل عنوانه وأغفل اسم مؤلفه اليمني من أهل صنعاء وعلمائها ـ وأملاه عليه (شخص يثق به)[1] الرواية التالية:

قال: حدثني جدي، حدثنا سليم بن مسلم عن عثمان بن الأسود عن مجاهد، قال: دخل قوم مكة تجارًا من الشام في الجاهلية بعد **قصي بن كلاب**، فنزلوا **بذي طوى تحت سمرات** يستظلون بها، فاختبزوا - صنعوا خبزًا ـ ملة لهم ولم يكن معهم أدم، فقام رجل منهم إلى قوسه، **فوضع عليها سهمًا ثم رمى به ظبية من ظباء الحرم، وهي حولهم** ترعى فقاموا إليها فسلخوها، وطبخوا لحمها ليأتدموا به، فبينما قدرهم على النار تغلي بلحمة وبعضهم يشتوي، إذ خرجت من تحت القدر عنق من النار عظيمة فأحرقت القوم جميعًا، ولم تحرق ثيابهم ولا أمتعتهم ولا السمرات اللاتي كانوا تحتها، فلما كان من شأن الغلام التيمي ما كان من هتكه **أستار الكعبة** قال في ذلك **عبد شمس بن عبد مناف**، وهو يذكرهم **بالظبي** وما أصاب أصحابه ويخوف قريشًا النقم، وكان من حديث الغلام التيمي أنه أقبل ذات يوم حتى دخل المسجد وقريش في

(1) ليس من المألوف في كتابات الإخباريين القدماء استخدام هذا النوع من العبارات، لكنه في حالة الأزرقي، يضاعف من الشكوك الرائجة في الأبحاث التاريخية بخصوص نسبة كتاب (تاريخ مكة). وقد تكون الجملة نوعًا من دليل على أن المؤلف الحقيقي هو جد الأزرقي. ونقتطف هنا جزء من الكتاب (حدثنا محمد بن يزيد بن خنيس عن عبد العزيز بن أبي رواد، أن قومًا انتهوا إلى ذي طوى ونزلوا بها فإذا ظبي قد دنا منهم، فأخذ رجل منهم بقايمة(بقائمة) من قوايمه(قوائمه) فقال له أصحابه: ويحك أرسله- أي اتركه- قال فجعل يضحك ويأبى أن يرسله، فبعر الظبي وبال ثم أرسله، فناموا في القايلة- الظهيرة- فانتبه بعضهم، فإذا بحية منطوية على بطن الرجل الذي أخذ الظبي، فقال له أصحابه: ويحك لا تتحرك، وانظر ما على بطنك، فلم تنزل الحية عنه حتى كان منه من الحدث مثل ما كان من الظبي، حدثنا أبو الوليد قال: حدثنا أبو بكر بن محمد بن يزيد بن خنيس عن أبيه بهذا الحديث كله).

أنديتهم، **فضرب بيده إلى ناحية** من أستار الكعبة **فهتك** بعضها، ثم خرج **يسعى وقريش تنظر إليه** ولم يقم إليه أحد، فوثب إليه **عبد شمس يسعى في أثره حتى أدركه** فأخذه، ثم نادى بأعلى صوته يا آل **قصي، يا آل عبد مناف فهطع** ـ توافد ـ إليه الناس فقال: **هل رأيتم ما صنع هذا الغلام** ؟ قالوا: نعم، قال فاقسم برب الكعبة لتعظمن حرمتها، **ولتكفن سفهاءكم عن انتهاك حرمتها**، أو لينزلن بكم ما نزل بمن كان قبلكم، فقال **له أخوه هاشم بن عبد مناف: ليس لك بضربه حاجة ولكن انظر فإن كان قد بلغ فاقطع يده**، فنظروا إليه، فإذا هو لم يبلغ فأمر به فضرب ضربًا شديدًا.

يلاحظ من هذه الرواية، أن حادثة **صيد الغزال ـ الظبي** ـ في الحرم، انتهت إلى احتراق الحجيج جميعًا، ولكن من دون أنُ تمسّ الشجرات الثلاثة المقدّسة (ثلاث سمرات) بأذى، وأنها وقعت في وقت بعيد نسبيًا عن حادث **سرقة الغزال الذهبي**، وفي وقتٍ كان فيه **عبد شمس بن عبد مناف**، جد أبي لهب ـ غير المباشر ـ يتولى شؤون البيت الحرام. ومن غير شك؛ فإن وجود السمرات والظباء في فضاء المكان المقدس الذي ترسمه الأسطورة، يصبح تعبيرًا عن وجود **إيكولوجيا مقدسّة**، تمتلك خاصيّة فريدة في نوعها، حيث كل وحدة من الوحدات ترتبط بعلاقة تناغم، فالشجرة التي يستظل في ظلها الحاج، وهي **شجرة محرّمة**[1] لا يجوز اختراق حرمتها، تصبح تلقائيًا، جزء

(1) **الفاكهي**: ص 2/ 24، نقلًا عن سلسلة فقهاء ورواة أحاديث، الأسس والقواعد التي تقوم عليها العلاقة بين الحاج والمكان، إذ لا يحق له أن يأكل من ثمر الأشجار إلا بشروط، مثلًا حديث النبي ﷺ : (إن مكة لم تُحلّ لأحدٍ كان قبلي، وإنما أُحلت لي ساعة من نهار ولن تُحلّ لأحد بعدي، فلا يُنفرّ صيّدها ولا يُختلى شوكها ولا يَحلّ ساقطها إلا لمنشد) وهذه إشارة إلى أن الثمر المتساقط من الأشجار لا يحق إلا للجائع. وعلى خطى النبي ﷺ سار الفقهاء في طريق تنظيم إشكال وحدود الحرام. وقد ارتأى حديث نقله بشر السري عن حنظلة عن طاوس، أنه سئل عن الغزلان تدخل الحرم فقال: (الغزلان والقماري- نوع من الحمام- تدخل الحرم ؟ قال: كل شيء يُدخل به مكة من الصيد حيًا فلا يُذبح) (**الفاكهي** 3/ 377).

من مكان رعي مفتوح أمام الظباء لا تحده حدود. كما يلاحظ أن مروية العقاب السماوي الذي أنزل بالمعتدين على الغزال، تتشابك مع مروية الغلام الذي هتك أستار الكعبة، وكادت قريش أن **تقطع يده**. ولذلك، لن يتخذ **العدوان على المقدّس** أبعاده ودلالاته، إلا حين يقع في **المكان المقدس** نفسه، وبحيث يكتسب نظام التحريم قوته، وهذا بدوره، أي نظام التحريم، يكتسب طاقته على التحول إلى نظام فاعل، أكثر فأكثر بفعل هذا الترابط. إننا نلاحظ من التلازم بين **حادثة صيد الغزال** في الحرم، **وتمزيق الفتى الطائش لأستار الكعبة**، أن الانتهاك في الحالتين واحد، فتمزيق **ستائر الكعبة هو تحويل رمزي لتمزيق أحشاء الظبي المقدس**. ولعل سارد الأسطورة وهو ها هنا **عبد شمس**، يقوم بهذا الربط حين يعيد تذكير قريش بالحادثة في اللحظة ذاتها التي يقع فيها الفتى الطائش ممزق أستار الكعبة بين يديه. لقد قام غلام من قبيلة تيّم، بانتهاك حرمة المكان المقدس للعرب، دون دوافع واضحة، ولكن في اللحظة ذاتها التي كان فيها **الغزال** يقع في قبضة صيادين طائشين، انتهكوا حرمة المكان، وبذلك تتماثل رمزية الانتهاك القديم للمكان المقدس في آنٍ واحد، مع رمزية **سرقة الغزال الذهبي التي سوف تقع بعد وقت طويل، ويصبح قطع اليد، فيها تدبيرًا مشروعًا**[1]. لقد جرى تطبيق هذه الشرعة على **أبي لهب ابن سيد مكة عبد المطلب**[2]، ومن دون أن تكون لمنزلته ومنزلة والده أدنى تأثير في تعطيل العقاب. وهذا دليل قاطع على ديمقراطية مجتمع

وعن ابن جريج (وأخبرني عطاء أن عبد الله بن عامر أهدى لعبد الله بن عمر رضي الله عنه أظباء أحياء فرّدها. وقال: هلا ذبحها قبل أن يدخل الحرم لمّا دخلت مأمنها الحرم لأرب لي في هديته هذه) (**الفاكهي**: 3/ 379)، بينما أجاز النبي ﷺ قتل خمس أنواع فقط من الزواحف في الحرم (خمسٌ من الدواب كلهنّ فاسق، يقتلهنّ المُحرم وُيقتلن في الحرم، الفأرة، والعقرب، والكلب العقور، والحدأة، والغراب) (**الفاكهي**: 3/ 394).

(1) تفند هذه الواقعة فرضية نولدكه القائلة أن شرعة قطع اليد التي عملت بها قريش كانت عادة حبشية من عصر العبودية، وهي جديدة على العرب وقريش، ومن تدبير الوليد بن المغيرة، وأنه أول من أمر بها. نولدكه : **تاريخ** : 203-207.

(2) إن حرص العرب وقريش على حماية المقدسات، وتطبيق أنظمة عقاب صارمة، يؤكد أن الأحرار في مجتمع مكة لم يكونوا بمنأى عن قانون العقاب. انظر فرضية نولدكه، **تاريخ القرآن**، مصدر مذكور أعلاه.

مكة القديم الذي تساوى فيه الأحرار والعبيد داخل نظام التحريم الديني. بيد أن قرار قطع يد أبي لهب مع ذلك، لم يكن قابلًا للتنفيذ بسبب عوامل أخرى، لعب فيها نظام القرابات الأسرية دورًا معطلًا، **فقد هرعت خزاعة واستعدت للحرب ضد قريش دفاعًا عن ابن أختها أبو لهب.**

2
اجتماع الصفا ودين عبد المطلب

إن تحديد إطار ناظم للعلاقات الدلالية في سائر هذه المرويات، يمكن أن يساهم في تقديم فهم أفضل للدور الذي لعبته القرابات في تعطيل شرعة قطع اليد، وفشل المجتمع الديمقراطي في معاقبة أحرار، قاموا بانتهاك قواعد الحرام. ولأجل هذا الغرض، فسوف يتعيّن علينا التوقف مرة أخرى أمام مضمون الآية وظروف نزولها والأثر الذي تركته على النظرة إلى نظام القرابات. ولكن، هل كان التطور في النظرة إلى **نظام القرابات**، يرتبط **بعداء أبي لهب** وامرأته **للإسلام كما صوّرته الآية** وحسب ؟ أم أنه يرتبط بما هو أعمّ وأبعد من مجرد الإشارة إلى حادث عرضي في حياة النبي ﷺ، كان فيه عرضةً للاعتداء من جانب أقرباء مباشرين؟ الشائع في كتب الأخبار والمرويات الإسلامية وكتب **التفاسير**، أن **أم جميل** كانت **تحمل العضّاة والشوك، فتطرحه في طريق الرسول** ﷺ لإيذائه. وهذا كما قلنا غير صحيح، ولا معنى له، وقد يسببّ فهمًا مغلوطًا للآية. إننا نجد التفسير الشائع لآية ﴿تبت يدا﴾ ونموذجه عند **النويري**[1]، وقد ركز على الجوانب الهامشية من مسألة التحوّل في نظام القرابات، فهو يرى أن الأصل في أسباب نزول الآية، وجود امرأة ـ هي **امرأة عمّ النبي** ـ ترمي الحطب في طريقه قصد

---

(1) النويري، **نهاية الأرب في فنون الأدب** (16/ 140) الفاكهي، 1321: حدثنا محمد بن عبد الملك الأموي قال: حدثنا أبو عوانة، قال حدثنا عبد الملك بن عمير، عن موسى بن طلحة، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : لما نزلت ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: 214] قام رسول الله ﷺ يذكر نحو حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وزاد فيه : فقال: (يا بني هاشم، أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد المطلب، أنقذوا أنفسكم من النار، يا فاطمة بنت محمد، أنقذي نفسك من النار، إني لا أملك لكم من الله شيئًا، غير أن لكم رحمًا سأبلها ببلالها).

إيذائه، بينما يقوم زوجها ـ **عمّه المباشر** ـ بالتعرّض له أمام الملأ، ويصفه بأقسى الأوصاف. ورواية **النويري** تسرد هذا الجانب على النحو التالي:

> صعد النبي ﷺ على **الصفا** فقال: يا معشر **قريش**، فقالت **قريش: محمد على الصفا يهتف**، فأقبلوا واجتمعوا فقالوا: **مالك يا محمد**. فقال: أرأيتكم لو أخبرتكم، أنَّ خيلًا بسفح هذا الجبل أكنتم تصدقونني؟ قالوا: نعم، أنت عندنا غير متهم، وما جربنا عليك كذبًا قط. قال: **فإني نذير لكم بين يدي عذابٍ شديد**، يا بني **عبد المطلب**، **ويا بني عبد مناف**، **ويا بني زهرة** ـ حتى عدد الأفخاذ من قريش ـ **الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين، وإني لا أملك لكم من الدنيا منفعة**، ولا من **الآخرة نصيبًا**، إلا أن تقولوا **لا إله إلا الله. فقال أبو لهب: تبًّا لك سائر اليوم**، ألهذا جمعتنا ؟ فأنزل الله تعالى ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾.

هذا النص كما سنبيّن، يروي بطريقة مغلوطة أسباب نزول الآية،لأنه يربطها بحادث تاريخي، شكل نقطة تحول وانعطافة هائلة في تاريخ الإسلام، حين نزلت **سورة الشعراء**[1] التي طلبت من النبي ﷺ أن يدعو عشيرته الأقربين لاجتماع من أجل أن ينذرهم بهذا التحوّل، وبأن نظام القرابات الأسرية القديم بات على طريق الزوال، وأن نظامًا جديدًا يوشك أن يحل محله، وأن مهمة النبي ﷺ أن ينذر قومه وحسب. كما أن التأويل الوارد في هذا النص غير صحيح أيضًا، لأنه ينطبق على **سورة الشعراء**،[2] وينسجم مع

---

(1) يبدو أن آية ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلۡغَاوُۥنَ﴾ (الشعراء 26/ 224) تتضمن ردًّا على أم جميل التي زعمت أنها شاعرة، وأن زوجها شاعر كذلك، بما أن قريش رأت إلى النبي في بعض الأوقات كشاعر، لكن الآية سرعان ما أثارت حزن وقنوط حسان بن ثابت بوجه خاص.

(2) تيودور نولدكه Theodor Noldeka **تاريخ القرآن**: 1/ 80-81 هناك جدل بين المستشرقين حول صلة سورة ﴿تَبَّتۡ يَدَآ﴾ بسورة (الشعراء). وقد ارتأى نولدكه، أن سورة المسّد هي من أوائل ما نزل من آيات، وأنها (الوحيدة التي يذكر فيها اسم شخص معاصر) وهو أبو لهب. وثمة جدل واسع بموازاة ذلك، دار بين المستشرقين حول سورة الشعراء ولماذا سميت بالشعراء، وبرأي نولدكه أن السورة أثارت جدلًا بين الشعراء الذين أصبحوا

مضمونها، بأكثر مما ينطبق على سورة **المسّد** التي نزلت بحق **أبي لهب** وامرأته. **إن سورة الشعراء**[1] **(مكيّة) يجب** أن تقرأ بوصفها من بين أكثر سور القرآن الكريم[2]، تعبيرًا عن لحظة التحوّل هذه، فقد جاء فيها أن على النبي ﷺ **أن ينذر عشيرته الأقربين**، **بأنهم على موعدٍ مع لحظة تغيير شاملة.** يروي **البلاذري** الرواية التالية[3] (لما نزلت على النبي ﷺ ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ اشتد ذلك عليه وضاق به ذرعًا، فمكث شهرًا أو نحوه جالسًا في

مسلمين للتو (وثلاثة من الشعراء جاؤوا إليه- إلى النبي ﷺ باكين)، هم حسّان بن ثابت، وعبد الله بن رواحة، وكعب بن مالك، (وكانوا قد سخرّوا موهبتهم الشعرية في خدمة الإسلام) وأنهم في هذه الحالة أصبحوا في عداد الشعراء الذين هجاهم القرآن. باستثناء نولدكه، يبدو الاتجاه العام في الاستشراق الألماني رافضًا بصورة مأسوية لأي فكرة بناءة عن وجود إمكانيات حقيقية لقراءة المروية العربية بطريقة جديدة، تفصل بين التاريخي والأسطوري، وهذا ما يشير إلى أن معظم المستشرقين لم يكونوا قادرين على فهم ما يسموّنه العقل الأسطوري العربي القديم. ولذلك فهم القرآن بطريقة خاطئة :

وانظر: كانون سل Canon Edward Sell -The Development Of the Quran- 1869-1932- WWW.muhammedan.Org: ذات مرة استخدم محمد -سورة- الشعراء للدفاع عن نفسه وديانته بمواجهة هجاء الشعراء الآخرين، وكانت هذه الأشعار تنشد في عكاظ. فيما بعد وضع حدًّا لها كونها تقود إلى مجادلات مزعجة -: p.120؛ و- يقول البعض إن الآية A4 من سورة الشعراء 26 ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: 214] تحتوي على النداء الأول للتبشير. لكن الاعتراضات على هذه النظرية ترجع إلى أن سياق الكلام ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: 215] وآية ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ۞ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [218-219] كلاهما تفترضان وجود جماعة إسلامية صغيرة، كما أن أسلوب السورة لا يعود إلى العهد المبكر، فالتراكيب مثل ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ و﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ تعود إلى السور المتأخرة- وانظر، كريستوف لوكسنبورغ : **معاني القرآن في ضوء علم اللسان**، ط/ برلين، دار الكتاب العربي2000.

(1) نولدكه، تاريخ القرآن : 1/ 80-81

(2) وورد في سورة التوبة ما يؤكد هذا التحول ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ۞ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾[التوبة: 113 ـ 114].

(3) البلاذري، **أنساب الأشراف** 1/ 54.

بيته) حتى أن عمّاته ظنن أنه مريض (فدخلن عليه عائدات، فقال: ما اشتكيت شيئًا، ولكن الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين، فأردتُ **جمع بني عبد المطلب لأدعوهم** إلى الله. قلن: فادعوهم، ولا تجعل عبد العزى فيهم ـ يعنين أبا لهب ـ فإنه غير مجيبك إلى ما تدعوه إليه، وخرجن من عنده، وهن يقلن: إنما نحن نساء). وهذه الرواية الدقيقة، تكشف بجلاء عن محنة النبي ﷺ في هذه اللحظة التي توجب فيها، أن يقف وجهًا لوجه أمام قراباته لينذرهم. ويبدو أن الصدام الأول بين النبي ﷺ وعمّه، حدث في هذا الاجتماع، وتمامًا كما توقعت عمّاته اللواتي حذرنه من دعوة أبي لهب. وطبقًا للتأويل السائد في كتب التفسير، يكون نزول آية ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ﴾ مرتبطًا بتعرّض **أبي لهب**، وليس زوجته، للنبي أثناء اجتماع **الصفا**، وأن موضوع التعرّض كان يدور حول الإنذار الإلهي لعشيرة النبي ﷺ بأن **القرابات الأسرية بذاتها لم تعد شفيعًا**، وأن عليهم ـ بما أنهم من الأقربين ـ أن يقبلوا بهذا التحوّل التاريخي. ولذلك يتطلب فهم الإطار المحدد والناظم للعلاقات الدلالية، معالجة مغايرة، لأن الإنذار له علاقة واهية بموقف **أبي لهب**، **فهو ليس موجهًا إليه وحده، وبحيث يصبح ردّه الذي تفوّه به، مصدرًا لآية ﴿تبت﴾**. واستنادًا إلى رواية **الأنساب**، فقد جرت الواقعة على النحو التالي: (فلما أصبح رسول الله ﷺ بعث إلى بني عبد المطلب. فحضروا ومعهم عدة من بني عبد مناف، وجميعهم **خمسة وأربعون رجلًا**. وسارع إليه **أبو لهب**، وهو يظن أنه يريد أن ينزع عمّا يكرهون إلى ما يحبون، فلما اجتمعوا، **قال أبو لهب: هؤلاء عمومتك وبنو عمك، فتكلم بما تريد، ودع الصلاة، واعلم أنه ليست لقومك بالعرب قاطبة طاقة، وأن أحق من أخذك فحبسك، أسرتك وبنو أبيك، إنْ أقمت على أمرك، فهو أيسر عليهم من أن تثب بك بطون قريش وتمدها العرب، فما رأيت، يا ابن أخي، أحدًا قط جاء بني أبيه بشر مما جئتهم به**). فسكت رسول ﷺ فلم يتكلم في ذلك المجلس، ومكث أيامًا في منزله. إن هذا الجدل العنيف بين القرابات، هو الذي سوف يؤدي إلى زعزعة النظام القديم، فهو جدل يقوم في الأصل على فكرة التحوّل التاريخي من الدين الأيقوني (الأسري) الصغير إلى الدين القومي، أي من دين عبد المطلب الخاص بأسرته إلى (دين العرب) ومن ثم إلى دين تاريخي(عالمي). بيد أن كثرة من الفقهاء لم تلاحظ في تأويلها للآية، لا هذا الجانب الحيوي

من المسألة ولا الترابط بين السورتين على مستوى الدلالة. كما نجد نموذجًا آخر لهذا الخلط بين السور في التأويل، عند الإمام **السيوطي** الذي يكرر قصة صعود النبي ﷺ ودعوته قريش، ويرى أنها المناسبة التي نزلت فيها آية ﴿تَبَّتْ يَدَآ﴾[1]. وحتى في هذه الحالة، لا يبدو أن للآية وطبقًا لهذا التأويل، علاقة مباشرة برمي العضاة **والحطب** في طريق النبي. يقول البقاعي[2]:

> عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت صعد النبي ﷺ على الصفا فجعل ينادي: يا بني فهر يا بني عدي لبطون قريش حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولًا لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش، فقال: أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلًا بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي ؟ قالوا: نعم! ما جربنا عليك إلا صدقًا، قال:

---

(1) سورة المسّد : هناك ما يشبه الاتفاق بين المستشرقين- والفقهاء المسلمين- على أنها من أوائل السور، ولكن لا يبدو أن هناك أي نوع من التوافق على الدافع الحقيقي لإيراد اسم أبي لهب

(2) البقاعي، إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر : **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور.** موقع التفاسير، http://www.altafsir.com ابن قيم الجوزية (691 - 751هـ، 1292- 1350م) .**زاد المعاد:** بعد فتح مكة سوف يقف النبي مرة أخرى على الصفا ويطلب أن تجتمع إليه (أوباش قريش) [ص 109] : أنّ النّبِيّ ﷺ قَالَ: إنّ اللّهَ حَبَسَ عَنْ مَكّةَ الْفِيلَ، وَسَلّطَ عَلَيْهَا رَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ وَإِنّهُ أُذِنَ لِي فِيهَا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، وَفِي لَفْظٍ إنّهَا لَا تَحِلّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَلَنْ تَحِلّ لِأَحَدٍ بَعْدِي، وَإِنّمَا أُحِلّتْ لِي سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ وَفِي لَفْظٍ فَإِنْ أَحَدٌ تَرَخّصَ لِقِتَالِ رَسُولِ اللّهِ ﷺ فَقُولُوا : إنّ اللّهَ أَذِنَ لِرَسُولِهِ وَلَمْ يَأْذَنْ لَكُمْ وَإِنّمَا أَذِنَ لِي سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ وَقَدْ عَادَتْ حُرْمَتُهَا الْيَوْمَ كَحُرْمَتِهَا بِالْأَمْسِ. وَهَذَا صَرِيحٌ فِي أَنّهَا فُتِحَتْ عَنْوَةً . وَجَعَلَ يَوْمَ الْفَتْحِ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ عَلَى الْمُجَنّبَةِ الْيُمْنَى، وَجَعَلَ الزّبَيْرَ عَلَى الْمُجَنّبَةِ الْيُسْرَى، وَجَعَلَ أَبَا عُبَيْدَةَ عَلَى الْحُسّرِ وَبَطْنِ الْوَادِي، فَقَالَ: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ ادْعُ لِي الْأَنْصَارَ فَجَاؤوا يُهَرْوِلُونَ فَقَالَ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، هَلْ تَرَوْنَ أَوْبَاشَ قُرَيْشٍ ؟ قَالُوا : نَعَمْ قَالَ: انْظُرُوا إذَا لَقِيتُمُوهُمْ غَدًا أَنْ تَحْصُدُوهُمْ حَصْدًا، وَأَخْفَى بِيَدِهِ وَوَضَعَ يَمِينَهُ عَلَى شِمَالِهِ وَقَالَ مَوْعِدُكُمْ الصّفَا، قَالَ فَمَا أَشْرَفَ يَوْمَئِذٍ لَهُمْ أَحَدٌ إلّا أَنَامُوهُ وَصَعِدَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ الصّفَا، وَجَاءَتْ الْأَنْصَارُ، فَأَطَافُوا بِالصّفَا، فَجَاءَ أَبُو سُفْيَانَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللّهِ أُبِيدَتْ خَضْرَاءُ قُرَيْشٍ، لَا قُرَيْشَ بَعْدَ الْيَوْمِ . فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ: مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ أَلْقَى السّلَاحَ فَهُوَ آمِنٌ وَمَنْ أَغْلَقَ بَابَهُ فَهُوَ آمِنٌ . [ص 110].

فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد، فقال أبو لهب: تبًا لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟ فنزلت ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ﴾ وفي رواية أنه ﷺ قال: «يا معشر قريش! اشتروا أنفسكم، لا أغني عنكم من الله شيئًا، يا بني عبد مناف! لا أغني عنكم من الله شيئًا! يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئًا، ويا صفية عمة رسول الله، لا أغني عنك من الله شيئًا، ويا فاطمة بنت محمد! سليني ما شئت من مالي، لا أغني عنك من الله شيئًا» وروى القصة أبو يعلى عن الزبير بن العوام رضي الله عنه أن قريشًا جاءته فحذرهم وأنذرهم، فسألوه آيات سليمان في الريح.

هذا التأويل، وهو شائع في كتب السيرة والتاريخ، يحمل في طياته الكثير من التناقضات التي تتصل بمسألة فهم أسباب وظروف نزول الآية، فهو يعطي الانطباع بأن الفقهاء والرواة المسلمين، فهموا إنذار النبي ﷺ لعشيرته الأقربين في هذا الوقت المبكر، نحو السنة الثانية من دعوته العلنية للإسلام، بالارتباط بحادث آخر سوف يقع تاليًا، حين يصعّد أبو لهب وزوجته من عدائهما للنبي ﷺ، ولكن من دون أدنى فكرة عن البواعث والدوافع التاريخية والاجتماعية. ولذلك تراهم ينسبون هذا الهجاء القرآني للحظة لقاء النبي بقريش عند **الصفا**، حين اعترض **أبو لهب** على دعوة النبي لتصديقه، وهذا يعني أن الهجاء يعود إلى هذه الفترة من تطور الدعوة للإسلام، وعلى وجه التحديد إلى الطور الأول من نزاع النبي مع قراباته الأسرية، وتارةً أخرى يقومون بوضعها داخل إطار يخص سلوك زوجته **أم جميل** وموقفها من الإسلام، حين كان النبي لا يزال تقريبًا دون أنصار أقوياء في مكة، وبالتالي فهي تخص سلوك المرأة لا سلوك **أبي لهب** نفسه. وهذا واضح من قول كل الرواة والفقهاء والمفسرين مثل **البغوي**[1] الذين

(1) البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي [المتوفى 516 هـ] **عالم التنزيل محيي السنة**، حققه وخرج أحاديثه محمد عبد الله النمر- عثمان جمعة ضميرية - سليمان مسلم الحرش، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة : الرابعة، 1417 هـ - 1997 م 6/ 133.

يفترضون أن أسباب النزول تخص حادثة بعينها، هي رمي **العضاة والحطب**:

(عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما: لما نزلت: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ «ورهطك منهم المخلصين» خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى صعد الصفا، فهتف يا صاحباه، فقالوا: من هذا؟ فاجتمعوا إليه فقال: «أرأيتكم إن أخبرتكم أن خيلًا تخرج من صفح هذا الجبل أكنتم مصدقيّ»؟ قالوا: ما جربنا عليك كذبًا قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد» **فقال أبو لهب: تبًا لك** ما جمعتنا إلا لهذا، ثم قام: فنزلت ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ هكذا قرأ الأعمش يومئذ. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا عمر بن حفص بن غياث، حدثنا أبي، حدثنا الأعمش، حدثني عمرو بن مرة، عن سعيد بن عن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ صَعِدَ النبي على الصفا فجعل ينادي: «يا بني فهر، يا بني عدي - لبطون قريش - حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولًا لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش، فقال: أرأيتَكم لو أخبرتُكم أنَّ خيلًا بالوادي تريد أن تُغير عليكم أكنتم مُصَدِّقِيِّ؟ قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقًا، قال: «فإني نذيرٌ لكم بين يديْ عذابٍ شديدٍ»، فقال أبو لهب: تبًا لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا؟ فنزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۞ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾

وكما يُلاحظ، فقد أصبحت لدينا مناسبتان للآية، أحداهما عندما كان النبي ﷺ يدعو **بني عبد المطلب** وبعض قريش **لاجتماع الصفا** من أجل إبلاغهم بالإنذار الإلهي، وفي هذا الاجتماع تفوّه **أبو لهب** ضد النبي. والثانية، عندما زَعم أن **أم جميل قامت برمي الحطب** في طريقه. ولدينا

كذلك، تأويلان للآية يردّان أسباب النزول إلى **مناسبتين مختلفتين نزلت فيهما السورتان.** وفي الحالتين، يمكن على مستوى فهم ظروف وقوع الحدثين في المكان والزمان، والأسباب والبواعث الحقيقية الدافعة بآنٍ واحد، سواء لاجتماع **الصفا** أم لمروية رمي الحطب، أن نتصوّر وجود إمكانية من نوع ما لدمجهما **داخل إطار واحد**، ودون تشكيك ببعض الوقائع، كما نقلها الرواة والفقهاء. وهي إجمالًا صحيحة. مع ذلك، لا بدَّ من النظر إلى الطريقة التي جُمعت فيهما المناسبتان في التأويل الشائع على أنها أدّت إلى تجاهل المضمون الحقيقي للآية ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ۞ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[1]. لقد جاءت الآية لتضع بالفعل، **نظام القرابات القديم** القائم على العصبيّات الأسرية ـ الدموية ـ برّمته على المّحك، ولتعيد صياغته من جديد. وهذا هو مغزى اجتماع **الصفا**، بينما تبدو **سورة المسّد** القصيرة والمكثفة، تنديدًا بسلوك عدواني نموذجي مصدره النظام القرابي. وفي هذا المنحى من التحليل، يجب أن يُنظر إلى هذه الآية على أنها أدّت وعلى أكمل وجه الغرض من الإنذار في **سورة الشعراء**، فهي تعطي نموذج أبي لهب كرجل معذّب في الجحيم السماوي، بقطع يديه، فيما زوجته تُجرجر بحبل من ليف الشجر كالبهيمة. ولأن سورة **المسّد** تتضمن نقدًا لاذعًا موجهًا بالاسم **لشخصين**[2]، هما من

(1) الشعراء: 214-215.

(2) من المؤكد، كما ارتأى نولدكه - وهو على حق- أن سورة المسّد هي السورة الوحيدة التي تتضمن اسم شخصين معاصرين للنبي ﷺ وهي أقدم ما نزل من سور القرآن. (أما بالنسبة إلى سبب نزولها، فتتفق معظم الأحاديث على النقاط التالية: بعد تردد طويل، جمع محمد بني قومه، وبحسب رواية أكثر احتمالًا، جمع بني هاشم ودعاهم إلى الإيمان بالله، لكن عمه عبد العزى بن عبد المطلب، الملّقب بأبي لهب، قال: (تبًا لك ألهذا دعوتنا) (**تاريخ القرآن**: 1/ 80، 1/ 81). لكن القرآن ندد بشخصيات أخرى دون ذكر الأسماء، ففي سورة (الهُمزة) توعد القرآن بالويل ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۞ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۞ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۞ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ۞ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ۞ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۞ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ﴾ [الهمزة: 1ـ 7] وقد نزلت بحق الأخنس بن شريق(نولدكه، البيضاوي: 2/ 416)، بينما نزلت سورة أخرى بحق الوليد بن المغيرة ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ۞ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ۞ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ۞ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ﴾ [المدثر: 26 ـ 29].

قرابات النبي ﷺ المباشرة، فيما سورة **الشعراء تتضمن إنذارًا نهائيًا وأخيرًا لعشيرته الأقربين كلها دون استثناء**، ودون أي الإشارة إلى أي اسم؛ فإن الجمع بين المناسبتين قد لا يبدو ممكنًا بسهولة، لأن الهجاء **في سورة المسّد** لا يستقيم مع سياق الإنذار في سورة الشعراء، **فأبي لهب**، وليس زوجته **أم جميل**، هو مَنْ بادر إلى الاعتراض على دعوة النبي لتصديقه، حين كان يستمع إليه مع رجالات قريش عند **الصفا**، وأنه هو، وليس امرأته من خاطب النبي (**تبًّا لك سائر اليوم**). وإذا ما سلمّنا بأن السبب الحقيقي لنزول الآية، هو قول **أبي لهب ـ تبًّا لك ـ** فإنها ستبدو كما لو أنها نزلت، لترّد وحسب باستخدام العبارة نفسها ﴿**تبت يدا**﴾. علمًا أن ﴿**تب**﴾ لا تعني وليست أبدًا هي ذاتها كلمة (**تبًّا**)، فهما تتضمنان معنيين مختلفين برغم تماثل مبناهما اللغوي. ولذلك، لا يبدو أمرًا منطقيًا أن نماثل بينهما، أو بين مضمون المناسبتين، لأن **اجتماع الصفا** كان بهدف أن **ينذر النبي** ﷺ بنفسه، أهل بيته وقبيلته بأن **نظام القرابات القديم** لم تعد له مكانة إلا بارتباطه بالإيمان، فيما تتجه آية (**تبت**) للتنديد بشخص محدد. بيد أن **اجتماع الصفا**، أثار مسألة لطالما تجاهلها الرواة والإخباريون والفقهاء، ربما دون مبرر كافٍ؛ فالصدام مع **أبي لهب** حدث على خلفية الموقف من **دين عبد المطلب، وليس حول موقفه هو من الإسلام**؟ لقد نظر سائر الإخباريين المسلمين إلى **عبد المطلب كصاحب دين**، وهم استخدموا دون تحفظ عبارة (**دين عبد المطلب**)[1] و(**دين قريش**) على جري تقليد جاهلي، استخدم فيه العرب مثل هذا التعبير. لكن **المسعودي** نفسه يعطي روايتين متناقضتين بشأن جدّ النبي ﷺ، ويقرّ بوجود تنازع بين الفرق الإسلامية التي ظهرت في العصر العباسي حول **دينه**. في الرواية الأولى يقول **المسعودي**[2]:

> **فممن كان مقرًا بالتوحيد، مليًا للوعيد، تاركًا للتقليد: عبدُ المطلب بن هاشم بن عبد مناف**، وقد كان حفر بئر زمزم،

---

(1) هذا الاستخدام غالبًا ما يجري عبر التورية، فهم ينقلون التعبير على لسان أبي لهب، بينما يتحدثون عنه كموّحد. والشائع في كتب السيرة والأخبار (دين عبد المطلب) و(دين قريش).

(2) المسعودي: **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، دققها واعتنى بها الدكتور يوسف البقاعي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، بلا سنة نشر، 2 ص 340.

وكانت مَطْوِية، وذلك في ملك كسرى قباذ[1]، فاستخرج منها غزالتي ذهب عليهما الدر والجوهر، وغير ذلك من الحلي، وسبعة أسياف قلعية، وسبعة أدرع سوابغ؛ فضرب من الأسياف بابًا للكعبة، وجعل إحدى الغزالتين صفائح ذهب في الباب، وجعل الأخرى في الكعبة، وكان عبد المطلب أول من أقام الرفادة والسِّقاية للحاج، وكان أول من سقي الماء بمكة عَذْبًا، وجعل باب الكعبة مذهبًا.

أما في الرواية الثانية، فهو يقدّم تصوّرًا عن (**دين عبد المطلب**)[2] يثير الاشتباه:

وتنازع الناس في عبد المطلب: فمنهم من رأى أنه كان مؤمنًا موحدًا وأنه لم يشرك باللّه عز وّجلّ، ولا أحد من آباء النبي ﷺ نقي الأصلاب الطاهرة، وأنه أخبر أنه ولد من نكاح لا من سفاح، ومنهم - من - رأى أن عبد المطلب كان مشركًا، وغيره من آباء النبي ﷺ إلّا من صّح إيمانه، وهذا موضع فيه تنازع بين الإمامية والمعتزلة والخوارج والمرجئة وغيرهم من الفرق في النصّ والاختيار.

في كل الأحوال، يمكن لقارئ هذه النصوص، أن يستخلص الفكرة ذاتها عن صاحب الدين الأسري (العائلي) **عبد المطلب بن عبد مناف**، فقد كان من بين أكثر الموحدين في الجزيرة العربية قبل مبعث النبي ﷺ، إقرارًا بوحدانية الإله. وبالرغم مما يشوب هذا التوحيد من أفكار ومعتقداتٍ وثنية، وذلك شبه مؤكد، حين نقارب هذه المعتقدات بمجملها مع حقيقة أنه كان يتقرّب لإلهة وثنية، وأنه سمىّ ابنه السابع **عبد العزى**، وهو أبو لهب، تقرّبًا **للإلهة الأم** الكبرى (**العُزَّى**)، فقد كان دينه منتشرًا في قريش. لقد استخدم

(1) فرادة نصوص المسعودي تكمن في حرصه على تقديم تواريخ مقبولة للأحداث التي يرويها. وإذا صحّت تقديراته أن إعادة حفر زمزم تمت في هذا العصر، فمن المحتمل أن ذلك حدث عام 530 م قبل عام واحد على الأقل من وفاة قباذ بن فيروز

(2) المسعودي : مروج2، ص 343.

النصّ القرآني وصفًا بليغًا على لسان عبد المطلب واتباع دينه، حين ربط هذه المعتقدات مع بعضها البعض و﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾[1]، وهو ما لم يتقبله الإسلام بأي صورة من الصور. إن جزء من هذا النقاش الذي سبق له وأن فجرّ الخلاف بين النبي وعمّه **أبو لهب**، له صلة بما كانت القبائل تتناقل روايته عن (رؤيا) **عبد المطلب** وهو في الحجر، حجر الكعبة، يضطجع في الظهيرة قبيل حفر زمزم، عندما جاءه ملاك الرّب في الحلم. يقول **ابن إسحاق** في السيرة[2]:

> بينا **عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف** نائمًا في الحجر عند الكعبة، أتى، فأمر بحفر زمزم. ويقال إنها لم تزل دفينًا بعد ولاية بني إسماعيل الأكبر وجرهم، حتى أمر بها عبد المطلب، فخرج عبد المطلب إلى قريش، فقال: يا معشر قريش، إني قد أمرت أن أحفر زمزم، فقالوا له: أبين لك أين هي؟ فقال: لا، قالوا: فارجع إلى مضجعك الذي **أريت فيه ما أريت، فإن كان حقًا من الله عز وجل بين لك**، وإن كان من الشيطان لم يعد إليك، فرجع فنام في مضجعه، فأتى فقيل له: **احفر زمزم، إنك إن حفرتها لم تندم، هي تراث من أبيك الأقدم، لا تنزف فيها ناذر لمنعم، فهي ميراث وعقد محكم، ليست كبعض ما قد يقسم، وليست كبعض ما قد يعلم، وهي بين الفرث والدم.**

وفي **الكامل في التاريخ لابن الأثير**[3]، ما يؤكد أن **عبد المطلب** كان أحد حكماء العرب، وأنه ـ ربما ـ لهذا الاعتبار وحده، ولمكانة والده **هاشم في قريش** والعرب، حظي باحترام خاص، وبحيث أن تعبير (**دين عبد المطلب**) استخدم للإشارة إلى (**دين قريش**) أي معتقداتها الدينية، بأكثر مما يعني أنه صاحب رسالة دينية، وفي الآن ذاته للإشارة إلى أنه كان موحدًا

(1) سورة الزمر،الآية: 3.
(2) ابن إسحاق، **السيرة النبوية** 1/ 21.
(3) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، 1/ 36، 149، 151، 153، 154، 158، 160، 305.

متنحثًا في حراء، **أي في الغار نفسه الذي خرج منه الإسلام؟** ويبدو أن هذه المكانة الفريدة التي حظي بها، وهي مكانة لم ينفرد بها غيره قط، حملت الرواة على اعتباره واحدًا بين كثيرين من كبار حكماء العرب، ومنهم رجال أثرياء مثل **الوليد بن المغيرة**، الذي هجاه القرآن في آية ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ﴾ **وعبد الله بن جدعان** الثري الأسطوري الذي يزعم أن مال **جُرْهُم** صار من نصيبه مصادفة. كل هؤلاء الذين كانوا يتعبدون للآلهة الوثنية (زُلفى) وفي مجتمع ديمقراطي تطبق فيه الأحكام والشرائع بطريقة دقيقة، نظروا، كل من جانبه إلى عبد المطلب، النظرة ذاتها تقريبًا، كصاحب (**دين**). وهذا يعني أن موقف النبي من عمّه كان في الجوهر موقفًا يتصل باعتراضه على استمرار الدين (الأسري) العائلي، القائم على التقرّب لا على التوحيد. ولعل وجود شخصية أسطورية في هذا الوقت، مثل **ابن جدعان** الذي طبق بحزم **عقوبة قطع اليد**، لوضع حدّ لأي انتهاك للمقدس، بوسعه أن يكشف عن المكانة الحقيقية التي احتلها عبد المطلب بين رجالات قريش، كرجل استثنائي وسيّد مطاع. كان **ابن جدعان** حكيمًا جوادًا مشهورًا، عرفت مآدبه التي تطعم القبائل بأنها أسطورية، وبحيث وصلت أخبارها إلى ملوك الفرس، وقد ربطت صداقة حميمة بينه وبين عبد المطلب، فكانا نديمين لا يفترقان. لقد روى النبي ﷺ ذات يوم لأقرب صحابته، بعض أخبار ابن جدعان ومآدبه الأسطورية، وكيف أنه يوم كان صغيرًا جلس إلى مآدبه الضخمة، وحسب رواية **ابن كثير**[1]، فقد قال النبي ﷺ: «لقد كنت أستظل بظل **جفنة عبد الله بن جدعان، صكة عمي**»[2]. أي إنه كان يستظل بها وقت الظهيرة. وهذا يشير إلى الحجم الكبير للأواني ومعدات الطبخ التي استخدمها في مآدبه. لكن صاحب الروض الآنف[3] يرى أن جملةُ **(صكة عُمي) هي (تَصْغِيرُ أَعْمَى عَلَى التّرْخِيم فَسُمّيَتْ الظّهِيرَةُ صَكّةَ عُمَيّ بِهِ.** وَقَالَ الْبَكْرِيّ فِي شَرْحِ الأمثالِ عُمَيّ: **رَجُلٌ مِنْ الْعَمَالِيقِ** أَوْقَعَ بِالْعَدُوّ فِي مِثْلِ ذَلِكَ الْوَقْتِ فَسُمّيَ

(1) ابن كثير: 1/ 17.

(2) الصُكة: شدة الهاجرة، وتضاف إلى عمي، والعم في العربية والعبرية والآرامية تعني الكثير، الغزير، العميم ومنه العمامة.

(3) **الروض الآنف** : ص 245 .

ذَلِكَ الْوَقْتُ صَكَّةَ عُمَيّ وَالّذِي قَالَهُ أَبُو حَنِيفَةَ أَوْلَى. وَقَالَ **يَعْقُوبُ عَمِيَ الظّبْيُ يَتَحَيّرُ بَصَرُهُ فِي الظّهِيرَةِ مِنْ شِدّةِ الْحَر)** وهذا برأينا تفسير خاطئ لأن عمي هنا تعبير عن زحمة المتزاحمين(والأصل فيها عم ومنها العمامة أي الكثرة، وعم في العبرية والعربية القديمة تعني الكثير). وهو ما يعني أن الذين كانوا يأتون جفنة عبد الله بن جدعان وقت الغداء كان يتزاحمون عندها[1]. وفى حديث مقتل **أبى جهل، قال ابن كثير** أن رسول الله قال لأصحابه وهو يدلهم على طريقة أسهل للتعرّف على جثته: (تطلبوه بين القتلى وتعرفوه بشجة في ركبته، فإني تزاحمت أنا وهو على **مأدبة لابن جدعان،** فدفعته فسقط على ركبته فانهشمت، فأثرها باق في ركبته)[2] فوجدوه كذلك. ويقال **أن ابن جدعان كان يطعم التمر والسويق ويسقي اللبن،** حتى سمع قول **أمية ابن أبي الصلت**[3]:

ولقد رأيت الفاعلين وفعلهم فرأيت أكرمهم بني الديان[4]

البرّ يلبك بالشهاد طعامهم لا ما يعللنا بنو جدعان

وما أن سمع **ابن جدعان** بهذا البيت حتى بعث ألفي بعير إلى الشام [فجاءت] تحمل البر والشهد والسمن، وجعل مناديًا ينادي كل ليلة على ظهر الكعبة: أن هلموا إلى **جفنة ابن جدعان.** ومع هذا كله، فقد قالت عائشة وهي تسأل النبي ﷺ: يا رسول الله إن **ابن جدعان كان يطعم الطعام ويقري الضيف، فهل ينفعه ذلك يوم القيامة** ؟ فقال: «**لا، إنه لم يقل يومًا ربّ**

---

(1) لاحظ تفسير كل من ابن الأثير : **البداية والنهاية** : 3/ 277، 5/ 367 (صكة عمي وقت الظهيرة) وفي **تاريخ يحيى بن معين** 1/ 32 عمي أي أعمى.

(2) ابن كثير، كذلك.

(3) ابن كثير 1/ 122، نقلًا عن الزبير بن بكار (فولدت رقية بنت عبد شمس بن عبد مناف أمية الشاعر، ابن أبي الصلت، واسم أبي الصلت ربيعة بن وهب بن علاج بن أبي سلمة ابن ثقيف. وقال غيره: كان أبوه من الشعراء المشهورين بالطائف، وكان أمية أشعرهم.وقال عبد الرزاق: قال الثوري: أخبرني حبيب بن أبي ثابت أن عبد الله بن عمرو قال في قوله تعالى ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الأعراف: 175] هو أمية بن أبي الصلت).

(4) أساقفة نجران من كعب بن بلحارث.

اغفر لي خطيئتي يوم الدين». وليس مصادفة أن هؤلاء الحكماء، ومن بينهم **ابن جدعان**[1]، هم الذين عقدوا حلف الفضول، أحد أكثر الأحلاف في تاريخ قريش والعرب أهمية وقوة. إن لنشوء هذا الحلف علاقة وطيدة وحقيقية بصراع القرابات، وهو أمر قلمّا انتبه إليه الدارسون، لكن أهميته الكبرى- في سياق تحليل حكاية **سرقة غزال الكعبة** ـ تتضح عندما نعيد صياغة الإطار التاريخي للتلازم بين التحالفات وأشكال الصراع داخل النظام القرابي. كان **ابن جدعان نديمًا لعبد المطلب** لا يكاد يفارقه، وقد عرف بكنيته (أبي زهير) وهو ابن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم، سيد قريش في الجاهلية، وتنسب إليه **الدار المشهورة يومئذ بمكة التي شهدت حلف الفضول. لقد اجتمع بنو هاشم وبنو المطلب وبنو أسد بن عبد العزى وبنو زهرة وبنو تميم** في منزله، فتعاقدوا وتعاهدوا على أن لا يجدوا بمكة مظلومًا من أهلها أو غيرهم، ممن دخلها من سائر الناس للتجارة أو الحج، إلا قاموا معه وكانوا على من ظلمه حتى ترد عليه مظلمته. ويعد ابن جدعان من **حكماء قريش إلى جانب** حرب ابن أمية، **والزبير بن عبد المطلب، والوليد بن المغيرة المخزومي. وهو زوج ضباعة بنت عامر واحدة من حسناوات العرب**، وقبيل موته، حجر عليه قومه خوفًا من أن يبذر ماله. ـ وـ مدحه **أمية بن أبي الصلت**[2] في قصيدة مشهورة ولقب بالأبيض لجوده وكرمه. لكن النبي ﷺ في سياق الجدل الذي أثارته بعض السور القرآنية المندّدة بشخصيات قرشية مرموقة، بعضها من أكبر الأثرياء، من بينها **الوليد بن المغيرة**[3] وحتى شخصيات ثانوية مثل **الأخنس ابن شريق**، واجه مصاعب حقيقية لا داخل قراباته المباشرة، وإنما داخل الجماعة الإسلامية التي آخى بينها، ووطدّ في صفوفها فكرتها عن نفسها كجماعة ترتبط بنظام قرابي بديل. يروي **ابن حجر العسقلاني**[4] أسطورة رجل يدعى **نبهان التمّار**، زعم أنه

---

(1) ابن حبيب، **المنمق**1/ 104، ابن كثير، **السيرة** :1/ 361، اليعقوبي، **تاريخ**: 1/ 101.

(2) شرح ديوان **أمية بن أبي الصلت**، قدم له وعلق على حواشيه سيف الدين الكاتب، وأحمد عصام الكاتب، دار مكتبة الحياة، بلا سنة نشر. ص19.

(3) هو الوليد بن المغيرة بن مخزوم والد خالد بن الوليد.

(4) ابن حجر العسقلاني، **الإصابة**: 3/ 185.

كان من الأنصار، وقد آخى رسول الله ﷺ بينه وبين رجل من **ثقيف**، وأنهما أصبحا أخوين بموجب نظام القرابات الجديدة على النحو التالي: عن ابن عباس - قال - في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾[1] الآية قال: هو **نبهان التمار**، أتته امرأة حسناء جميلة، تبتاع منه تمرًا فضرب عجيزتها فقالت: والله ما حفظت غيبة أخيك ولا نلت حاجتك، فسقط في يده (فذهب إلى النبي ﷺ فأعلمه فقال له: إياك أن تكون امرأة غاز. فذهب يبكي ثلاثة أيام، يصوم النهار ويقوم الليل) فأنزل الله في اليوم الرابع هذه الآية. وهذه القصة، أوردها كثيرون قبل **ابن حجر**، منهم **الثعلبي والماوردي وقتادة**. ويتضح من سائر الروايات أن **نبهان** هذا غير منسوب وهناك شكوك في حقيقة وجود شخصية بهذا الاسم. وفي روايات أخرى يزعم أنه من الصحابة، وأنه ارتد عن الإسلام نحو ثلاث مرات، قبل أن يتوب في الرابعة ويعفو عنه النبي. ويروي الإخباريون والمفسرون[2] كيف أن التحديات والمصاعب التي واجهت النبي ﷺ ساهمت وإلى حد كبير في تطوير نظرة الجماعة الإسلامية إلى هذه القرابات، فهي تكتسب معناها الفعلي من ارتباطها بالتجربة الدينية:

> وروي عن ابن مسعود أن الصحابة قالوا: يا رسول الله، كانت **بنو إسرائيل** أكرم على الله منا، حيث كان المذنب منهم تصبح عقوبته [مكتوبة] على باب داره، وفي رواية: كفارة ذنبه مكتوبة على عتبة داره: **اجدع أنفك، اقطع أذنك**، افعل كذا، فأنزل الله تعالى هذه الآية توسعة ورحمة وعوضًا من ذلك الفعل ببني إسرائيل. ويروى أن إبليس بكى حين نزلت هذه الآية.
>
> والفاحشة تطلق على كل معصية، وقد كثر اختصاصها بالزنا حتى فسر جابر بن عبد الله والسدي هذه الآية بالزنا. و«أو» في قوله: ﴿أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ قيل هي بمعنى الواو، والمراد ما دون الكبائر.

(1) سورة آل عمران، الآية: 135.

(2) القرطبي 4/ 310.

ما يقوله هذا التفسير، أن **بنى القرابات الجديدة** التي سعى الإسلام إلى تأسيسها داخل الجماعة الإسلامية الأولى، ومن ثم تعميمها بعد اجتماع **الصفا** لتشمل عشيرة النبي نفسه، كانت تتأسس على قواعد أخلاقية متينة ومتماسكة، وتتمتع بمزّية فريدة هي الردع الذاتي للخرق، وأنها يمكن أن تكون مصدر حماية أقوى وأكثر فاعلية في مجتمع، كانت نظرته إلى **الزنا**، مثلًا لا تزال محكومة بتقاليد وطقوس وأعراف تجيزه وتبرره. ويتفهم من النقاش الذي أثاره **عمر بن الخطاب** حول هذه الآية، وهي نزلت **بحق أنصاري آخاه النبي مع ثقفي،أن المسلمين أعادوا تذكير النبي ﷺ** بُعرفٍ **ديني يهودي قديم** كان معمولًا به في **الجزيرة العربية**، وبشكل أخص في **الطائف** التي انتشرت فيها **اليهودية**، وهذا ما يُستدّل عليه من تقاليد اعتبار الزنا، نمطًا من أنماط الزواج (البغاء المقدس). أما **البغوي**[1] فهو يفسر الآية ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ بالقصة التالية:

قالوا يا رسول الله هل (كانت بنو إسرائيل أكرم على الله منّا، كان أحدهم إذا أذنب أصبحت كفارة ذنبه مكتوبة في عتبة بابه **اجدَعْ أنفك وأذنك**، افعل كذا فسكت رسول الله ﷺ فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وقال عطاء: نزلت في **نبهان التمار** وكنيته أبو معبد **أتته امرأة حسناء تبتاع منه تمرًا** فقال لها: إن هذا التمر ليس بجيد، وفي البيت أجود منه فذهب بها إلى بيته فضمّها إلى نفسه وقبّلها فقالت له: اتق الله فتركها وندم على ذلك فأتى النبي ﷺ وذكر ذلك له، فنزلت هذه الآية[2] وقال مقاتل والكلبي: **آخى رسول الله ﷺ بين رجلين أحدهما من الأنصار والآخر من ثقيف، فخرج الثقفي في غزاة واستخلف الأنصاريَّ** على أهله فاشترى لهم اللحم

---

(1) **تفسير البغوي** : 3/ 106.

(2) الطبري: 7 / 219، الواحدي : **أسباب النزول** ص (119) السيوطي: **الدر المنثور**: 2 / 326.

ذات يوم فلما أرادت المرأة أن تأخذ منه دخل على أثرها وقبّل يدها، ثم ندم وانصرف ووضع التراب على رأسه وهام على وجهه، فلما رجع الثقفي لم يستقبله الأنصاري فسأل امرأته عن حاله فقالت: لا أكثر الله في الإخوان مثله ووصفت له الحال، والأنصاري يسيح في الجبال تائبًا مستغفرًا، فطلبه الثقفي حتى وجده فأتى به أبا بكر رجاء أن يجد عنده راحة وفرجًا. فقال الأنصاري: هلكتُ: وذكر له القصة فقال أبو بكر: ويحك أما علمت أن الله تعالى يغار للغازي مالا يغار للمقيم، ثم أتيا عمر رضي الله عنه فقال مثل ذلك، فأتيا النبي ﷺ فقال له مثل مقالتهما، فأنزل الله تعالى هذه الآية ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً﴾[1] يعني: قبيحة خارجة عما أذن الله تعالى له فيه، وأصل الفحش القبح والخروج عن الحدّ قال جابر: الفاحشة الزنا. ﴿أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ ما دون الزنا من القبلة والمعانقة والنظر واللمس. وقال مقاتل والكلبي: الفاحشة ما دون الزنا من قبلة أو لمسة أو نظرة فيما لا يحل أو ظلموا أنفسهم بالمعصية.

ومن المحتمل أن قصة نبهان التمّار هذه هي من مختلقات بعض المفسرّين، كان القصد من سردها، رواية موعظة دينية عن تحريم الزنا، وتثبيت أسس النظام القرابي الجديد (المؤاخاة). وممّا يلفت الانتباه، أن الرواية تنبي على وجود شخصيتين أحدهما من الطائف والآخر أنصاري، ففي هذا الوقت وحين نزلت الآية، كانت قبائل الطائف تشترط لدخول الإسلام، أن يبيح النبي لها الزنا والخمر، وهما تقليدان كانا يرتبطان بمعتقدات دينية قديمة[2]، بأكثر ممّا كانا تقاليد اجتماعية. لقد واجه الإسلام بالفعل، حين

(1) الواحدي ص (118) الحافظ ابن حجر: **الإصابة**: 6 / 418 - 419.

(2) الطبري، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر، **جامع البيان في تأويل القرآن** 11/ 122 (12826- حدثنا محمد بن المثنى قال، حدثنا محمد بن جعفر قال، حدثنا شعبة، عن أبي إسحاق قال، سمعت أبا الأحوص، عن أبيه قال أتيتُ رسول الله ﷺ

شرع في توطيد أسس تحريم الزنا، مصاعب حقيقية حتى داخل الجماعة الأولى من المسلمين، تتعلق بمفهوم الزنا، فهو من منظور الراسب الثقافي (الديني) ليس ممارسة للفاحشة، وإنما هو مصدر للنسل. وثمة علاقة دلالية بين **عبادة الإلهة الأم اللات** عند ثقيف في الطائف، وهي مركزها الديني المنافس للكعبة، وبين انتشار **البغاء المقدس**، وشيوع وترسخ نظرة ثقافية خاصّة للزنا. لكن، ومع تدهور مكانة الإلهة الأم في مجتمع القبيلة، وبزوغ العصر الأبوي، ثم مع صعود أدوار الديانات التوحيدية، انحطت النظرة إلى هذا النمط من الزواج، وبات على **الزاني مع اليهودية أن يجدع أنفه أو أذنه كعقاب على خرق الشرعة الدينية.** وحين جرت مطالبة النبي بتطبيق العرف القديم (اليهودي) كما تضيف الرواية، صمت ورفض تطبيقه ثم قرأ الآية ثانية. ولعل **طقس جدع الأنف أو الأذن واليد**، يتضمن نوعًا من مُضاهاة **العدوان على المكان المقدس بالزنا**، وبحيث يصبح كل منهما دالًا على الآخر، وتاليًا جرى تحويل هذه المضاهاة إلى عُرف يشمل **سرقة ممتلكات المعبد.** إن الأصل في شرعة **جدع الأنف أو اليد أو الأذن**، القديمة والدينية، هو ارتباطها بالعدوان على المقدس، وهذا ما قصدته آية ﴿تبت يدا﴾، فقد كانت سرقة **الغزال الذهبي بمنزلة العدوان.** ولهذا السبب، يجب أن يُنظر إلى الدعوة لقطع اليد في آية **(تبت)** على أنها تذكير بشرعة لم تطبقها القبيلة، أو قامت بتعطيلها بفعل قوة النظام القرابي، حين **احتمى أبو لهب بأخواله الخزاعيين**، وأن لا صلة لها بموقفه **من الإسلام** - في هذه اللحظة من تطوره. وهي، إذا ما قمنا بوضعها في

فقال: هل تُنتَجُ إبل قومك صحاحًا آذانُها، فتعمد إلى الموسَى فتقطع آذانها فتقول: «هذه بُحْرٌ»، وتشقها أو تشق جلودها فتقول: «هذه صُرُمٌ»، فتحرّمها عليك وعلى أهلك؟ قال: نعم. قال: فإن ما آتاك الله لك حِلّ، وساعد الله أشدّ، وموسى الله أحدّ - وربما قال: ساعدُ الله أشد من ساعدك، وموسى الله أحدّ من موساك. و«جدع الأنف والأذن والشفة»: إذا قطع بعض ذلك. وأما قوله: «هذه صرم» بفتح فسكون جمع «صريمة» وهي التي قطعت أذنها وصرمت. وأما الزمخشري وصاحب اللسان فقد رويا: «وتقول: صربى» (على وزن سكرى). وقال في تفسيرها: كانوا إذا جدعوا البحيرة أعفوها من الحلب إلا للضيف فيجتمع اللبن في ضرعها من قولهم: «صرب اللبن في الضرع»: إذا حقنه لا يحلبه. ورويا أنه يقال إن الباء مبدلة من الميم كقولهم«ضربة لازم، ولازب».

سياقها التاريخي، تتضمن تذكيرًا لقريش، عشيرة النبي ﷺ بأنها حكمت بقطع يده بعدما ارتكب إثمًا بحق مقدساتها، وهذا الإثم الفاضح يرقى إلى مستوى العدوان، وأن على العشيرة التي سبق لها وأن توعدته، أن تفعل ذلك، أي أن تعود للعمل بالشرعة التي أبطلتها أو عطلت مبدأها الرادع، بعد زوال الظروف المانعة. بيد أن اللافت في هذا الإطار، أن النصّ القرآني خفف من **عقوبة قطع اليد في حالة الزنا**. وبرأي **ابن جرير الطبري**[1] في تأويل قوله ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أن الآية أنزلت خصوصًا بتخفيفها ويسرها، مما **كانت بنو إسرائيل** ممتحنة به من عظيم البلاء في ذنوبها. وفي هذه الحالة، لا يماثل النصّ القرآني بين نوعين (نمطين من الإثم) فالعدوان على **المقدس**، **لا يتساوى مع ارتكاب الفاحشة**:

> حدثنا القاسم قال: حدثنا الحسين قال: حدثني حجاج، عن ابن جريج، عن عطاء بن أبي رباح: أنهم قالوا: يا نبي الله، بنو إسرائيل أكرم على الله منا، كانوا إذا أذنب أحدهم أصبحت كفارة ذنبه مكتوبة في عتبة بابه: «**اجدع أذنك**»، **اجدع أنفك** افعل. فسكت رسول الله ﷺ، فنزلت: ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ﴾[2]، فقال رسول الله ﷺ: ﴿**ألا أخبركم بخير من ذلك**﴾؟ **فقرأ الآيات.**

---

(1) الطبري، محمد بن جرير، **تفسير الطبري**: 220 (حدثنا القاسم قال : حدثنا الحسين قال حدثني عمر بن أبي خليفة العبدي قال : حدثنا علي بن زيد بن جدعان قال : قال ابن مسعود : كانت بنو إسرائيل إذا أذنبوا أصبح مكتوبًا على باب - بيت المذنب- كفارته، فأعطينا خيرا من ذلك).

(2) سورة آل عمران،الآية: 135 ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾

برأي **الإمام البغوي**[1] **والقرطبي**[2] إن آية ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً﴾[3] وقوله تعالى: ﴿أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾[4] مترابطتان في إطار قصة، وقعت في مجتمع الجماعة الإسلامية الأولى. وبالرغم من وجود تفاوت في الروايات التي سعت إلى تفسير الآيات الخاصة بالفاحشة، فمن الواضح أنها جميعًا كانت مكرّسة لتقديم **مقاربة جديدة لنظام القرابات الروحية** بين المسلمين، وذلك ما يوطدّ فكرة أن هذا الجانب الحيوي من النقاش الذي دار بين المسلمين حول قيمهم الجديدة، كان يصبُّ في مجمله في هذا الاتجاه. ومع

---

(1) البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود [المتوفى 516 هـ] **معالم التنزيل**، حققه وخرج أحاديثه محمد عبد الله النمر – عثمان جمعة ضميرية – سليمان مسلم الحرش، دار طيبة للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، الطبعة الرابعة، 1417 هـ – 1997 م 8/ 106] القرطبي، 4/ 17، 209/ 17/ 106 **تفسير البحر المحيط** 6/ 10، 368/ 164، **زاد المسير**، 1/ 164، **بحر العلوم للسمرقندي** 4/ 311، **تفسير اللباب** لابن عادل 4/ 332، **النكت والعيون** 4/ 190.

(2) محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي: **الجامع لأحكام القرآن**، تفسير القرطبي4/ 209، 4/ 107 إن سبب نزولها أن ثقفيًا خرج في غزاة وخلف صاحبًا له أنصاريًا على أهله، فخانه فيها بأن اقتحم عليها فدفعت عن نفسها فقبل يدها، فندم على ذلك فخرج يسيح في الأرض نادمًا تائبًا ؛ فجاء الثقفي فأخبرته زوجته بفعل صاحبه، فخرج في طلبه فأتى به إلى أبي بكر وعمر رجاء أن يجد عندهما فرجًا فوبخاه ؛ فأتى النبي ﷺ فأخبره بفعله ؛ فنزلت هذه الآية. والعموم أولى للحديث. وروي عن ابن مسعود أن الصحابة قالوا يا رسول الله، كانت بنو إسرائيل أكرم على الله منا، حيث كان المذنب منهم تصبح عقوبته مكتوبة على باب داره، وفي رواية : كفارة ذنبه مكتوبة على عتبة داره: اجدع أنفك، اقطع أذنك، افعل كذا؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية توسعة ورحمة وعوضا من ذلك الفعل ببني إسرائيل . ويروى أن إبليس بكى حين نزلت هذه الآية. والفاحشة تطلق على كل معصية، وقد كثر اختصاصها بالزنا حتى فسر جابر بن عبد الله والسدي هذه الآية بالزنا. و «أو» في قوله: ﴿أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ قيل هي بمعنى الواو ؛ والمراد ما دون الكبائر. ذكروا الله معناه بالخوف من عقابه والحياء منه.- و- الضحاك- يقول- : ذكروا العرض الأكبر على الله. وقيل تفكروا في أنفسهم أن الله سائلهم عنه؛ قاله الكلبي ومقاتل. وعن مقاتل: ذكروا الله باللسان عند الذنوب (تفسير القرطبي 107).

(3) سورة آل عمران، الآية: 135 ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ والأعراف28 .

(4) سورة آل عمران، الآية: 135.

أن واجبنا التشكيك، بصحة الأسماء التي غالبًا ما يجري الزج بها دون تدقيق، بوصفها أسماء أبطال حكايات، ليس الغرض من سردها سوى تقديم دعم غير محدود لصحة التأويل؛ فإن لمن النادر بالفعل، توقع أي إمكانية للتأكد منها. وثمة واقعة ذات مغزى حدثت داخل الجماعة المسلمة، روتها عائشة[1]. قالت سمعت **سبيعة القُرَشِيَّة تقول للنبي** ﷺ: يا رسول الله (**إني زنيت، فأقم عليَّ حدَّ الله.** قال اذهبي حتى تضعي ما في بطنك. فلما وضعت ما في بطنها أتته ولو لم تأته ما سأل عنها فقالت: يا رسول الله قد وضعت ما في بطني. قال: اذهبي فأرضعيه حتى تفطميه، فلما فطمته أتت النَّبِيّ ﷺ فقالت: إني قد فطمته. فقال: مَنْ لهذا الصبيِّ؟ فقال رجل من الأنصار: أنا يا رسول الله. فرئي في وجه رسول ﷺ الكراهية، فقال: اذهبوا بها فارجُموها). وقد ثار جدل طويل حول **حكم الرجم** في أول الإسلام، بما أن اليهود كانوا يطبقون هذه العقوبة إلى جانب أشكالٍ أخرى من القصاص. قال **ابن مسعود**[2]: (قال المؤمنون: يا رسول الله كانت بنو إسرائيل أكرم على الله منا، كان أحدهم إذا أذنب أصبحت كفارة ذنبه مكتوبة في عتبة بابه **اجدع أنفك وأذنك**، افعل كذا، فسكت رسول الله ﷺ، فأنزل الله تعالى هذه الآية). وقال عطاء: نزلت في **نبهان التمار**، وكنيته أبو معبد (أتته امرأة حسناء تبتاع منه تمرًا، فقال لها: إن هذا التمر ليس بجيد، وفي البيت أجود منه، فذهب بها إلى بيته فضّمها إلى نفسه وقبّلها، فقالت له: **اتق الله**، فتركها وندم على ذلك فأتى النبي ﷺ وذكر ذلك له، فنزلت هذه الآية). وقال **مقاتل والكلبي**[3]: (**آخى رسول الله** ﷺ بين رجلين، أحدهما من **الأنصار والآخر من ثقيف**، فخرج الثقفي في غزاة واستخلف الأنصاري على أهله، فاشترى لهم اللحم ذات يوم، فلما أرادت المرأة أن تأخذ منه دخل على أثرها وقبل

---

(1) **أسد الغابة**، 3 / 263.

(2) **أسد الغابة**، 3/ 6 (روى مقاتل، عن الضحاك، عن ابن عباس في قوله عز وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً﴾ [آل عمران: 135] و﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾ [هود 114]، قال: يريد نبهان التمار، أتته امرأة حسناء جميلة تبتاع منه تمرًا، فضرب على عجيزتها، فقالت: والله ما حفظت غيبة أخيك، ولا نلت حاجتك).

(3) البغوي: 8/ 106.

يدها، ثم ندم وانصرف ووضع التراب على رأسه، وهام على وجهه، فلما رجع الثقفي لم يستقبله الأنصاري، فسأل امرأته عن حاله فقالت: **لا أكثر الله في الإخوان مثله** ووصفت له الحال، والأنصاري يسيح في الجبال تائبًا مستغفرًا، فطلبه الثقفي حتى وجده فأتى به أبا بكر، رجاء أن يجد عنده راحة وفرجًا. فقال الأنصاري: هلكتُ: وذكر له القصة) فقال أبو بكر:(ويحك، أما علمت أن الله تعالى **يغار للغازي ما لا يغار للمقيم**). ثم أتيا **عمر** رضي الله عنه، فقال مثل ذلك، فأتيا النبي ﷺ فقال له مثل مقالتهما، فأنزل الله تعالى هذه الآية ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً﴾[1].

---

(1) قال جابر: الفاحشة : الزنا ﴿أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ ما دون الزنا من القبلة والمعانقة والنظر واللمس . وقال مقاتل والكلبي: الفاحشة ما دون الزنا من قبلة أو لمسة أو نظرة فيما لا يحل، أو ظلموا أنفسهم بالمعصية. وقيل: فعلوا فاحشة الكبائر، أو ظلموا أنفسهم بالصغائر. وقيل : فعلوا فاحشة فعلًا أو ظلموا أنفسهم قولًا. وبرأي القرطبي ص: 107 -أن الآية يجب أن تقرأ ضمن هذا الترابط (**الجامع لأحكام القرآن تفسير القرطبي**) [ف- قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[آل عمران: 135] فيه سبع مسائل: الأولى قوله تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾، ذكر الله تعالى في هذه الآية صنفا، هم دون الصنف الأول فألحقهم به برحمته ومنه؛ فهؤلاء هم التوابون. قال ابن عباس في رواية عطاء: نزلت هذه الآية في نبهان التمار – وكنيته أبو مقبل- وفي رواية البغوي [ص: 199] كنا رأينا أنه يكنى أبو معبد (أتته امرأة حسناء باع منها تمرًا) فضمها إلى نفسه وقبلها فندم على ذلك، فأتى النبي ﷺ فذكر ذلك له ؛ فنزلت هذه الآية. وذكر أبو داود الطيالسي في مسنده (مسند أبي داود) عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: حدثني أبو بكر، أن رسول الله ﷺ قال : ما من عبد يذنب ذنبا ثم يتوضأ ويصلي ركعتين ثم يستغفر الله إلا غفر له، ثم تلا هذه الآية ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ﴾ الآية، والآية الأخرى ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ﴾ [سورة النساء: 110] وخرجه الترمذي وقال: حديث حسن. وهذا عام. وقد تنزل الآية بسبب خاص ثم تتناول جميع من فعل ذلك أو أكثر منه. كل هذه التأويلات، لم يكن الغرض منها سوى تثبيت أسس الشرعة الجديدة، فلا جدع للأنف أو الأذن، ذلك أن نظام القرابات الجديدة التي أعاد الإسلام وضعها داخل مجتمع مكة، أولًا، كان يتطلب دون تردد، الإعراض عن العقوبات البدائية، والاستغناء عنها بمزيد من التعلق بالدين.

في **الرواية الأولى**، ثمة ترابط بين **الزنا والتمر** (واسم الرجل **نبهان التمّار**) فالأول **بمذاقه الحلو**، يمكن أن يتبدى كتحوير **رمزي للزنا**، **أي أن يتبدى نوعًا مماثلًا في المذاق**، وكما نعلم فقد كان الزنا شائعًا في مجتمع الجاهلية، ولم يكن محرّمًا أو أمرًا معيبًا؛ بل على العكس من ذلك، كان تعبيرًا عن استمرارية مدهشة للراسب الثقافي القديم لطقوس الجنس المقدس، وأحد تعبيراته البغاء المقدس في المعابد. وهذه الصورة التي يرسمها رواة الأساطير للحادثة، تختزن ذكريات القبائل ونظرتها القديمة والمتوارثة. والمدهش، أن تأكيد رواة الأخبار العرب والمسلمين على أن الرجل من **ثقيف**، يتضمّن **دلالات** هامّة وخاصّة، فقد عُرفت ثقيف بأنها اشترطت لإسلامها أن يعفيها النبي ﷺ من الزنا. إن رواية الزنا هذه التي ألفّها الإخباريون المسلمون، موظفة للتذكير بموقف ثقيف التي اشترطت الزنا مقابل الإيمان. أما في **الرواية الثانية**، فثمة ترابط من نوع آخر بين **اللحم والزنا**، فالرجل الذي همّ بارتكاب الفاحشة كان يريد أن يعطي المرأة ـ امرأة أخيه في الدين ـ شيئًا مماثلًا في المذاق، يتضمن المبادلة الرمزية ذاتها بين نوعين عضويين. هذا التطوير الذي قام به ساردو الرواية ـ التي تستند إلى حادثة حقيقية كما يقولون ـ وبحيث تحوّل **التمر إلى لحم**، ليس ناجمًا عن السهو والغلط في النقل، وإنما عن رغبة دفينة في الإفصاح عن الدلالة الحقيقية للإثم، فهو نوع من عدوان عنيف بحق القرابات الجديدة، **والتمر بمذاقه الحلو** في هذه الحالة، لا يمكنه أن يؤدي وظيفته الرمزية في الكشف عن جوهر العدوان، فهو من طبيعة مماثلة. وفي الحالتين، ردّت المرأة الهدية المقدّمة لها من الأخ المعتدي. إن معالجات الإخباريين المسلمين لقضايا ومسائل **النظام القرابي الديني**، تختزن موروثات روحية واجتماعية وثقافية غنيّة قد يستحيل الكشف عن مكنونها من دون اللجوء إلى هذا النوع من مبادلة الرموز. ولذلك، يبدو اختيار شخصيتين، **أنصاري وثقفي**، له دلالة خاصّة في سياق رواية الحادثة، فهو يشير إلى نوع المشكلات التي صادفت الجماعة الإسلامية أثناء الهجرة إلى المدينة، وعند تطبيق قواعد وأسس النظام القرابي الجديد. وقد يبدو إلحاح بعض المسلمين بحسب هذه المرويات على تطبيق مبدأ **قطع اليد أو جدع الأنف**، أكثر بكثير من مجرد استلهام للشرعة اليهودية في مجال عقوبات لم يضعها الإسلام بعد،

وخصوصًا ضد مرتكب الفاحشة. هذا الإلحاح من جانب المسلمين على النبي ﷺ بتطبيق العقوبة، هو تعبير نموذجي عن رغبة الجماعة في حماية نظامها الجديد من أي خرق، لكن النبي رفض بشدّة اللجوء إلى وسائل وأدوات بدت له قديمة، ولا تتلاءم مع شرعة الإسلام القائمة على دعوة المخطئ للتوبة وطلب الرحمة والغفران. إن إغفال النصّ القرآني لاسمي الرجلين، أو المرأة والرجل، هو تجسيد لهذه الرحمة التي وعد بها. ومع ذلك، فقد رسم الإخباريون المسلمون في مؤلفاتهم، صورًا ذات **طابع أسطوري للصراع الذي خاضه النبي ضد قراباته المباشرة**، وكان من المألوف في سياق هذا التصوير، العودة بشخصية النبي إلى مرحلة الطفولة، وبحيث يظهر ـ في هذه المرويات ـ كما لو أنه **كان ما يزال راعيًا يلعب مع أترابه، حين اصطرع معهم**. ومن غير المنطقي، أخذ بعض هذه القصص على محمل الجد، فهي تصور النبي ﷺ يصارع رجالًا، ويراهنهم **بمائة من الخراف** على الفوز لمرة أو مرتين وحتى لثلاث مرات. بيد أن هذه القصص والمرويات الأسطورية، تحتفظ بقيمة ثمينة على مستوى السرد، فهي مشحونة بدلالات ورموز، تصبّ إجمالًا في هذا الجانب، ذلك أن فرض الإيمان في مجتمع كافرين ووثنيين، يتطلب خوض صراع جسدي لا مجرد إطلاق للدعوة، وهكذا، تصوّر بعض هذه الروايات، النبي ﷺ وكأنه ما يزال صبيًا صغيرًا، يرعى الأغنام ويصطرع مع أقرانه، ولكن من أجل الإبلاغ عن تحوّل هؤلاء الخاسرين أمام قوة النبي وطاقته المذهلة على قهرهم جسديًا، وبصورة نهائية، ونقلهم من عالم الكفر إلى عالم **الإيمان بدع**

3
صحيفة قريش

في توصيفه لعلاقة النبي بأبي لهب، يعود ابن سعد[1] إلى تفاصيل اجتماع **الصفا** ليستخلص الرواية التالية:

أخبرنا محمد بن عمر قال حدثني إبراهيم بن إسماعيل بن أبي حبيبة عن داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس، قال لما **أنزلت** ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ صعد رسول الله ﷺ على **الصفا** فقال: يا معشر قريش. فقالت قريش: محمد على **الصفا** يهتف، فأقبلوا واجتمعوا فقالوا: ما لك يا محمد. قال: أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بسفح هذا الجبل أكنتم تصدقونني؟ قالوا نعم أنت عندنا غير متهم وما جربنا عليك كذبًا قط. قال: **فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد يا بني عبد المطلب يا بني عبد مناف يا بني زهرة** ـ حتى عدد الأفخاذ من قريش ـ **إن الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين، وإني لا أملك لكم من الدنيا منفعة ولا من الآخرة نصيبًا، إلا أن تقولوا لا إله إلا الله. قال ـ يقول ـ أبو لهب تبا لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا، فأنزل الله تبارك وتعالى** ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ السورة.

(1) ابن سعد، **الطبقات**، فصل (ذكر دعاء رسول الله ﷺ الناس إلى الإسلام) يتضح من هذه الرواية، أن سورة المسد (آية ﴿تبت﴾111) نزلت بعد سورة الشعراء 26، وأن اجتماع الصفا جاء في أعقاب ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء، الآية: 214].

مثلّ **اجتماع الصفا** نقطة تحوّل هائلة في فهم الإسلام لنظام القرابات، إذ، واعتبارًا من هذه اللحظة، لم تعد هناك من مكانة لهذا النظام في الجانب المتصل بالعلاقة مع الخالق، وأن النبي ﷺ لن يكون شفيعًا لأقربائه يوم القيامة ما لم يكنوا على دين الإسلام. ولعل بلاغة النصّ القرآني باستخدام عبارة (**وانذر**) تتأكد، أكثر فأكثر، حين يصبح هذا الإنذار موضوع اجتماع الصفا. لقد حطم الاجتماع ومن المنظور التاريخي، أسس النظام القديم للقرابات، وأعاد وضعها في إطار جديد. ولذلك، **يبدو اصطدام أبي لهب مع النبي تعبيرًا عن هذه اللحظة الفاصلة في تاريخ الإسلام. يضيف ابن سعد**[1]:

> عن عائشة قالت، قال رسول ﷺ، **كنت بين شر جارين، بين أبي لهب وعقبة بن أبي معيط، كانا ليأتيان بالفروث فيطرحانها على بابي**[2].

لكن ما يبدو نزاع قرابات، يمكن أن يتضح في صورة أخرى مغايرة تمامًا، فقبل وفاة أبي طالب بوقت قصير، فرضت قريش حصارًا على بني هاشم جميعًا بسبب حمايتهم للنبي ﷺ. وفي هذه اللحظة، حدث تحول هائل في نظام القرابات التقليدية، ذلك أن قريش فرضت على **بني هاشم** حصارًا جائرًا يعرف بواقعة (**الصحيفة**). لقد قدّم الإخباريون المسلمون وصفًا بليغًا ودقيقًا لظروف الحصار، وفي الروض الآنف[3] يمكن رؤية هذا المعنى بعمق (أنهم لا يُبَايَعُونَ وَلا يُنَاكَحُونَ. وَفِي الصّحِيحِ أَنّهُمْ جَهِدُوا حَتّى كَانُوا يَأْكُلُونَ الْخَبَطَ وَوَرَقَ السّمَرِ حَتّى إنّ أَحَدَهُمْ لَيَضَعُ كَمَا تَضَعُ الشّاة). وبلغ الأمر حدًّا أن **سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقّاصٍ**، اضطرّ إلى القول صراحة (لَقَدْ جُعْت، حَتّى إنّي وَطِئْت ذَاتَ لَيْلَةٍ عَلَى شَيْءٍ رَطْبٍ فَوَضَعْته فِي فَمِي وَبَلَعْته، وَمَا أَدْرِي مَا هُوَ إلَى الآن). وَفِي رِوَايَةِ يُونُسَ(أَنّ سَعْدًا قَالَ خَرَجْت ذَاتَ لَيْلَةٍ لأبول

---

(1) ابن سعد : **الطبقات**، 1/ 200، 209، 4/ 43، 74، 8/ 36، 37، 43.

(2) تضيف عائشة: (حتى إنهم ليأتون ببعض ما يطرحون من الأذى فيطرحونه على بابي فيخرج به رسول الله ﷺ فيقول : يا بني عبد مناف أي جوار هذا، ثم يلقيه بالطريق). ابن سعد، **الطبقات**، ص: 301.

(3) **الروض الآنف** : [ص 162].

فَسَمِعْت قَعْقَعَةً تَحْتَ الْبَوْلِ فَإِذَا قِطْعَةٌ مِنْ جِلْدِ بَعِيرٍ يَابِسَةٍ، فَأَخَذْتهَا وَغَسَلْتهَا، ثُمّ أَحْرَقْتهَا ثُمّ رَضَضْتهَا، وَسَفِفْتهَا بِالْمَاءِ فَقَوِيت بِهَا ثَلاثًا). ويبدو أن قريشًا اتخذت تدابير قاسية إضافية، فإذا ما رأت أن القوافل تكاد تقترب من مكة، فإنها تقوم بسّد المنافذ، وكان أبو لهب يتولى بنفسه في هذه الآونة الرقابة الشديدة، فإذا ما شاهد أحد المحاصرين يتجه إلى السّوقَ لِيَشْتَرِيَ شَيْئًا مِنْ الطّعَام لِعِيَالِهِ، يصرخ بالتجار قائلًا: يَا مَعْشَرَ التّجّارِ غَالُوا عَلَى أَصْحَابِ مُحَمّدٍ حَتّى لا يُدْرِكُوا مَعَكُمْ شَيْئًا ـ أي ارفعوا الأسعار ـ فَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا لِي وَوَفَاءُ ذِمّتِي، فَأَنَا ضَامِنٌ أَنْ لا خَسَارَ عَلَيْكُمْ، فَيَزِيدُونَ عَلَيْهِمْ فِي السّلْعَةِ قِيمَتُهَا أَضْعَافًا، حَتّى يَرْجِعَ الرجل إلَى أَطْفَالِهِ وَهُمْ يَتَضَاغَوْنَ مِنْ الْجَوْعِ وَلَيْسَ فِي يَدَيْهِ شَيْءٌ يُطْعِمُهُمْ بِهِ (وَيَغْدُو التّجّارُ عَلَى أَبِي لَهَبٍ، فَيُرْبِحُهُمْ فِيمَا اشْتَرَوْا مِنْ الطّعَامِ وَاللّبَاسِ حَتّى جَهِدَ الْمُؤْمِنُونَ وَمَنْ مَعَهُمْ جَوْعًا وَعُرْيًا)(1). ومن المؤكد في ضوء هذه الوقائع الحزينة، أن الحصار فُرض على بني هاشم كلهم، وبحيث حوصروا داخل **شعب مكة** على امتداد ثلاث سنوات منعت قريش خلالها الزواج منهم أو التجارة معم أو الاختلاط بهم. ويرسم الإخباريون المسلمون صورة قاتمة ومحزنة لهذه اللحظة التي اهتز فيها نظام القرابات، فقد وجدت قريش نفسها في حالة صراع مرير ضد **أهم فرع قبلي** فيها، وهم بنو هاشم الذين قادوا تجارة الإيلاف وسادة مكة، وذلك حين ساقتها تطورات الأحداث إلى إبرام (**الصحيفة**) مع كل الأسر الكبيرة في مكة تقريبًا، وقضت موادها بحرمان بني هاشم من التجارة والزواج والاختلاط، ما لم يتراجعوا عن حق حماية النبي ﷺ. وعندئذٍ سُمعت أصوات الأطفال الجائعين والخائفين طوال ثلاث سنوات. وفي هذه اللحظة وقع حادث أسطوري له دلالة هامة وخاصة، فقد **شُلت يد منصور بن عكرمة العبدري الذي كتب** (الصحيفة)، بينما ضربت **الأرضة**(2) ما كُتب فيها

---

(1) الروض الآنف : 3/ 50.

(2) **الروض الآنف** [ص 163] (فَقَامَ الْمُطْعِمُ إلَى الصّحِيفَةِ لِيَشُقّهَا، فَوَجَدَ الأرضة قَدْ أَكَلَتْهَا، إلا: «بِاسْمِك اللّهُمّ». وَكَانَ كَاتِبُ الصّحِيفَةِ مَنْصُورَ بْنَ عِكْرِمَةَ، فَشُلّتْ يَدُهُ فِيمَا يَزْعُمُونَ . قَالَ ابْنُ هِشَام : وَذَكَرَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْم أَنّ رَسُولَ اللّهِ ﷺ قَالَ لأبي طَالِبٍ: «يَا عَمّ إنّ رَبّي اللّهُ قَدْ سَلّط الْأَرَضَةَ عَلَى صَحِيفَةِ قُرَيْشٍ، فَلَمْ تَدَعْ فِيهَا اسْمًا

وأكلته، فمحي كل ما تمّ الاتفاق عليه من عقوبات، ولم يبق منها سوى اسم الله. يقول ابن سعد:

وأجمعوا على قتل رسول الله ﷺ وكتبوا كتابًا على بني هاشم ألا يناكحوهم ولا يبايعوهم ولا يخالطوهم، وكان الذي كتب الصحيفة منصور بن عكرمة العبدري، فشلت يده. وعلقوا الصحيفة في جوف الكعبة. وقال بعضهم بل كانت عند أم الجلاس بنت مخربة الحنظلية خالة أبي جهل، وحصروا بني هاشم في شعب أبي طالب ليلة هلال المحرم سنة سبع، من حين تنبئ رسول الله ﷺ. وانحاز بنو المطلب بن عبد مناف إلى أبي طالب في شعبة مع بني هاشم، وخرج أبو لهب إلى قريش فظاهرهم على بني هاشم وبني المطلب، وقطعوا عنهم الميرة والمادة فكانوا لا يخرجون إلا من موسم إلى موسم، حتى بلغهم الجهد. وسمع أصوات صبيانهم من وراء الشعب، فمن قريش من سره ذلك ومنهم من ساءه. وقال انظروا ما أصاب منصور بن عكرمة، فأقاموا في الشعب ثلاث سنين ثم أطلع الله رسوله على أمر صحيفتهم، وأن الأرضة قد أكلت ما كان فيها من جور وظلم وبقي ما كان فيها من ذكر الله عز وجل.

أدرك بنو هاشم أن الصحيفة التي كتبتها قريش بفرض الحصار عليهم في شعب مكة، قد تهرأت بفعل الأرضة التي أكلت كل ما جاء فيها من

هُوَ لِلّهِ إلا أَثْبَتَتْهُ فِيهَا، وَنَفَتْ مِنْهُ الظّلْمَ وَالْقَطِيعَةَ وَالْبُهْتَانَ»، فَقَالَ أَربّك أَخْبَرَك بِهَذَا؟ قَالَ «نَعَمْ، ثُمّ خَرَجَ إلَى قُرَيْشٍ، فَقَالَ يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، إنّ ابْنَ أَخِي أَخْبَرَنِي بِكَذَا وَكَذَا، فَهَلُمّ صَحِيفَتَكُمْ فَإِنْ كَانَ كَمَا قَالَ ابْنُ أَخِي، فَانْتَهُوا عَنْ قَطِيعَتِنَا وَانْزِلُوا عَمّا فِيهَا، وَإِنْ يَكُنْ كَاذِبًا دَفَعْت إلَيْكُمْ ابْنَ أَخِي، فَقَالَ الْقَوْمُ رَضِينَا، فَتَعَاقَدُوا عَلَى ذَلِكَ ثُمّ نَظَرُوا، فَإِذَا هِيَ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ فَعِنْدَ ذَلِكَ صَنَعَ الرّهْطَ مِنْ قُرَيْشٍ فِي نَقْضِ الصّحِيفَةِ مَا صَنَعُوا).

إجراءات، وكان ذلك باعثًا للشعور بحدوث المعجزة[1] حين تلازم هذا الخبر مع شائعة شلل يد **منصور بن عكرمة**، وهذا خبر قد يكون صحيحًا من الناحية التاريخية، بيد أن الإخباريين في سردهم للأساطير، قاموا بتوظيفه في سياق التدليل على المعجزة. والمدهش أن هذه المعجزة حدثت داخل الكعبة، حيث عُلقت الصحيفة (بينما كان النبي محاصرًا مع عشيرته الأقربين في شعب بني طالب) ومع ذلك، فقد اختلف المسلمون في أمر كاتب الصحيفة. ويتبيّن من هذا الخلاف، أن جمهرة من نسّابة العرب وقريش، ذهبت إلى أنه من **بني عبد الدار** (المنافسين التقليديين لبني عبد مناف). يقول صاحب **الروض الآنف**[2] حول هذه المسألة ما يلي (**وَذَكَرَ أَنّ مَنْصُورَ بْنَ عِكْرِمَةَ كَانَ كَاتِبَ الصّحِيفَةِ فَشُلّتْ يَدُهُ**. وَلِلْنّسَابِ مِنْ قُرَيْشٍ فِي كَاتِبِ الصّحِيفَةِ قَوْلانِ أَحَدُهُمَا: أَنّ كَاتِبَ الصّحِيفَةِ هُوَ **بَغِيضُ بْنُ عَامِرِ بْنِ هَاشِمِ بْنِ عَبْدِ مَنَافِ بْنِ عَبْدِ الدّارِ**، وَالْقَوْلُ الثّانِي: أَنّهُ **مَنْصُورُ بْنُ عَبْدِ شُرَحْبِيلَ بْنِ هَاشِمٍ مِنْ بَنِي عَبْدِ الدّارِ** أَيْضًا، وَهُوَ خِلافُ قَوْلِ ابْنِ إسْحَاقَ، وَلَمْ يَذْكُرْ **الزّبَيْرُ فِي كَاتِبِ الصّحِيفَةِ غَيْرَ هَذَيْنِ الْقَوْلَيْنِ** وَالزّبَيْرِيّون أَعْلَمُ بِأَنْسَابِ قَوْمِهِمْ). إن لهذا الخلاف حول اسم كاتب الصحيفة، ووجود روايات تؤكد ـ وتكاد تقطع بأنه أحد **بني عبد الدار** ـ دلالة

---

(1) ابن سعد، **الطبقات**، 1/ 189، 309، 386، 388، 2/ 242، ، 254 : ما يمكن ملاحظته من خطاب لأبي طالب بعد فرض الحصار، تأكيده، أن سلوك قريش هذا هو مسّ بالقرابات الأسرية، وهو نوع من قطع الرحم. قال أبو طالب وهو يصف حال الصحيفة- (وبقي فيها كل ما ذكر به الله، فإن كان ابن أخي صادقًا نزعتم عن سوء رأيكم، وإن كان كاذبا دفعته إليكم، فقتلتموه أو أستحييتموه قالوا قد أنصفتنا فأرسلوا إليهم الصحيفة ففتحوها فإذا هي كما قال رسول الله ﷺ، فسقط في أيديهم ونكسوا على رؤوسهم فقال أبو طالب علام نحبس ونحصر؟ وقد بان الأمر؟) ثم دخل هو وأصحابه (بين أستار الكعبة والكعبة فقال اللهم انصرنا ممن ظلمنا وقطع أرحامنا، واستحل ما يحرم عليه منا ثم انصرفوا إلى الشعب وتلاوم رجال من قريش على ما صنعوا ببني هاشم فيهم مطعم بن عدي، وعدي بن قيس وزمعة بن الأسود وأبو البحتري بن هاشم وزهير بن أبي أمية، ولبسوا السلاح ثم خرجوا إلى بني هاشم وبني المطلب، فأمروهم بالخروج إلى مساكنهم، ففعلوا فلما رأت قريش ذلك، سقط في أيديهم وعرفوا أن لن يسلموهم وكان خروجهم من الشعب في السنة العاشرة).

(2) **الروض الآنف**: 157، 161.

هامة، **فهو يوضح طبيعة ونمط الصراع الذي نشب بين أبناء قصي** وأحفادهم، والمثير أنه تفجر في نطاق المسألة الدينية؛ فإذا كان الصراع القديم بين أبناء العم نشب على خلفية الحق في **إدارة الكعبة**، فإنه يتفجر مع الإسلام على خلفية دينية كذلك. ومع ذلك، فقد لعبت القرابات في هذه اللحظة دورًا حاسمًا في الاتجاه المضاد تمامًا لما سارت عليه أثناء الحصار، فقد بادر أبو لهب للقاء النبي ﷺ **يضيف ابن سعد**[1].

> لما **توفي أبو طالب وخديجة بنت خويلد**، وكان **بينهما شهر وخمسة أيام** ـ و ـ اجتمعت على رسول ﷺ مصيبتان فلزم بيته، وأقل الخروج **ونالت منه قريش**، ما لم تكن تنال ولا تطمع به، فبلغ ذلك **أبا لهب** فجاءه **فقال يا محمد امضِ لما أردت، وما كنت صانعًا إذ كان أبو طالب حيًّا فاصنعه، لا واللات لا يوصل إليك حتى أموت.**

من المدهش حقًا أن يصدر مثل هذا القرار من أبي لهب، عدو النبي ﷺ؛ فمع أنه يقسم أمامه **باللات، وليس بالله**، بأنه سيكون مثل أبي طالب من حُماته، ولن يدع أحدًا يمسسه بالسوء؛ بل ويطلب منه أن يستمر ويواصل دون تردد دعوته للإسلام ـ كما يتضح من نص العبارة ـ وأن لا يخشى من قريش (أعمامه) فإن فكرة اعتناق الإسلام لم تراوده قط. لقد كان قادرًا بحكم التقاليد القوية في مجتمع مكة الديني، أن يميّز بين الواجب الذي يفرضه نظام القرابات، وبين الموقف الشخصي من **دين محمد** ؟ ولكي يدّلل **أبو لهب** على صلابة تعهده بصيانة القرابات، ويؤكد موقفه هذا، فقد وقعت حادثة ذات مغزى في هذه الأجواء، إذ تعرّض ابن الغيطلة للنبي ﷺ وشتمه، فأقبل عليه **أبو لهب** فنال منه ـ ضربه ـ فولى **وهو يصيح: يا معشر قريش، صبأ أبو عتبة**[2] **ـ أي أبي لهب** ـ. إن فهمًا عميقًا لهذه الحادثة التاريخية، يجب أن

---

(1) ابن سعد، الطبقات: 1/ 311، 4/ 10

(2) أي إن أبا لهب أصبح مسلمًا على دين محمد ما دام قام بحماية ابن أخيه. وكلمة صبأ تستخدم للدلالة على أنه أصبح على دين الصابئية، وهي ديانة عربية قديمة، والكلمة في العبرية صبأوت : النجوم، وبعض المترجمين يستعملون المرادف الخاطئ : جنود (ربّ النجوم) بدلًا من (ربّ النجوم- الكواكب).

يلاحظ قوة بني **القرابات الأسرية القديمة في** مجتمع مكة، فقد لعبت في ثلاث مراحل تاريخية فاصلة، أدوارًا حاسمة، مرّة عندما **استعان قصي بأعمامه لإزاحة أخوال أولاده من المدينة المقدسة**، ومرة حين وجد **حفيده عبد المطلب نفسه**، وقد أصبح عرضة لظلم **عمّه نوفل**، بعد أن اغتصب منه أرضه، ولذا اضطرّ إلى الاستعانة ـ على العكس من جده قصي ـ **بأخواله ضد أعمامه**، وهؤلاء قاموا على الفور بحشد قواهم في مكة، وفرضوا على الأعمام ردّ الأرض **لابن الأخت**، وأخيرًا، حين منع أخوال أبي لهب **قطع يده** بعد حادث **سرقة الغزال الذهبي**. ومن المؤكد أن النبي ﷺ وهو في لحظة صعبة، بعد وفاة عمّه أبي طالب الذي كان يقوم بحمايته، ووفاة زوجته الثرية والتاجرة التي تحظى باحترام كل القبائل، كان يشعر بأهمية وقوة نظام القرابات الأسرية القديم، وربما أكثر من ذلك، بأهمية الحفاظ على قوة زخمه، ولكن بإدراجه في نسق ثقافي جديد، وبحيث تصبح العقيدة جزء عضويًا فيه. وفي تلك اللحظات أقبلت قريش حتى وقفوا على أبي لهب، فقال، ردًّا على ما زعموا أنه خروج على **دينهم**، وهم في الواقع كانوا أسرى إحساس بأن موقفه ملتبس، إذ كيف له أن يعطي الحماية لشخص هو في النهاية عدو ديانته الوثنية فسمعوا من بوضوح موقفه النهائي:

ما فارقت دين عبد المطلب، ولكني أمنع ابن أخي أن يضام حتى يمضي لما يريد.

لنلاحظ أن **قريش** تتحدث عن خروج **أبي لهب** على دينها، أي **(دين قريش)** بينما يتحدث أبو لهب عن (دين عبد المطلب)، وهما معًا، القبيلة والرجل، يعنيان الدين نفسه الأسري ـ العائلي الذي أصبح دين القبيلة. وفي هذه اللحظة تبدى، أن نظام القرابات له فاعلية وقوة تأثير مذهلتين، أكثر بكثير ربما من العقيدة الدينية. وتلك كانت لحظة مفارقة تاريخية مدهشة، فالنبي الذي دعا عشيرته الأقربين إلى سماع الإنذار الإلهي، بتحوّل بنى القرابات كليًّا، وجد نفسه يحتمي بأسرته **(عشيرته الأقربين)** من بطش القبيلة، بينما كان أبو لهب عدو النبي وخصمه اللدود، يجد نفسه في المقابل، وبالضد من مواقفه التقليدية من **(دين محمّد)** وهو يغلبّ **الجانب القرابي على الدين** الذي نافح من أجله، لأنه لا يستطيع برغم كل عدائه للإسلام، أن يرى ابن أخيه

وقد ضامته قريش؟ بيد أن الأكثر إدهاشًا، ردّة فعل قريش نفسها، وهي ترى **أبو لهب** وهو يعليّ من مكانة القرابات الأسرية على الدين. ولذلك ردت قريش وهي تصغي إلى موقف أبو لهب: **(قالوا قد أحسنت وأجملت ووصلت الرحم)**(1). لم تبدِ القبيلة اعتراضًا على هذا الموقف؛ بل رأت فيه تمسكًا مثاليًا بنظام القرابات. وهكذا، مكث النبي ﷺ أيامًا يذهب ويأتي لا يعترض له أحد من قريش. كانت قريش تهاب أبي لهب لمكانته، فهو في النهاية ابن عبد المطلب، كما أنه عدو لدود للنبي ﷺ، وهي لذلك تتفهم بكل تأكيده موقفه الدفاعي. بيد أن حادثًا آخر سرعان ما أفسد الموقف برمته، وحمل **أبو لهب** على تغيير رأيه بمسألة حماية النبي ﷺ. كان النبي في اجتماع الصفا، كما يزعم الإخباريون، ألمح إلى أن إنذاره ـ وهو إنذار إلهي دون أدنى شك بحسب ما جاء في سورة الشعراء ـ يخص سائر عشيرته الأحياء والأموات منهم. وكانت هذه مسألة إشكالية معقدّة، لطالما سئل عنها النبي ﷺ، فهل يعتبر الموتى الذين لم تسعفهم ظروفهم ولا أوضاعهم، قبول الإسلام، هم في عداد الكفار؟ ويُقال في بعض الروايات، **وابن الجوزي**(2)، **يكرر** إحداها، أن **خديجة زوجته**، وقبيل وفاتها بأشهر سألته عن أحد أقربائها المباشرين، وما إذا كان مدخله ـ أي مكانته ـ النار، **أجاب أنه في النار**. **ولمّا رأى إمارات الكدر والحزن في وجهها، أردف أنه لن يكون كذلك**(3). **في هذا الوقت، وحين هابت قريش أبا لهب، وتجنبت إغضابه، أرسلت إليه عقبة بن أبي معيط وأبو جهل بن هشام، فقالا له:**

---

(1) ابن سعد، **الطبقات**: ص: 1/ 311.

(2) أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي: **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، دراسة وتحقيق محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، راجعه وصححه نعيم زرزور، دار الكتب العلمية ـ لبنان الطبعة الأولى 1992 -3/ 12 (فقال له أبو لهب: يا محمد، أين مدخل عبد المطلب؟ قال: مع قومه. قال: فخرج إليهما أبو لهب، وقال: قد سألته، فقال: مع قومه. فقالا: إنه يزعم أنه في النار. فقال: يا محمد، أيدخل عبد المطلب النار؟ فقال رسول الله ﷺ: نعم، ومن مات على مثل مات عليه عبد المطلب دخل النار. فقال أبو لهب: والله لا برحت لك عدوًا أبدًا، وأنت تزعم أن عبد المطلب في النار، فاشتد عليه هو وسائر قريش).

(3) ابن الجوزي : كذلك.

أخبرك ابن أخيك أين مدخل أبيك؟ فقال له أبو لهب: **يا محمد أين مدخل عبد المطلب؟** قال: مع قومه، فخرج أبو لهب إليهما، فقال قد سألته فقال مع قومه. فقالا: **يزعم أنه في النار**، فقال: **يا محمد أيدخل عبد المطلب النار؟** فقال رسول الله ﷺ: **نعم، ومن مات على مثل ما مات عليه عبد المطلب دخل النار**. فقال أبو لهب: **والله لا برحت لك عدوًا أبدًا وأنت تزعم أن عبد المطلب في النار** فاشتد عليه هو وسائر قريش[1]

تكشف هذه الروايات بوضوح لا مثيل له، أن **العداء بين أبي لهب والنبي ﷺ كان يدور في إطار بني القرابات لا الدين**، وأن أبي لهب رأى فيه صراعًا بين دينين (**دين عبد المطلب**) القديم والمتوارث، أي دين الآباء والأجداد، وبين (**دين محمّد**) الجديد، والثوري، كما أن له صلة عميقة وذات حسّاسّية خاصة، تتعلق بموقف النبي من جده **عبد المطلب**، بينما يتبدى الموقف من الإسلام، ثانويًا وحتى قليل الأهمية مقارنة بمسألة الدفاع عن شخص عبد المطلب لا عن دينه وحسب، إذ كيف لأبي لهب أن يتخيّله **في جهنم، مثله ومثل أم جميل**، لأن عبد المطلب بالنسبة لأبي لهب وقريش، كان **حنفيًا يتحنّث في غار حراء**[2] وكان يصوم رمضان[3] ويطوف البيت، وهو من حفر **زمزم المقدّسة**، استطرادًا وتأكيدًا للإيمان المتوارث بعقيدة جده الأعلى إبراهيم وابنه إسماعيل، فقد بدا أن استخدام النبي ﷺ لعبارة (**مدخله النار**) هو تعدٍ صارخ على بنى القرابات القديم، ولم يكن بوسعه ـ بطبيعة الحال ـ استيعاب فكرة الإسلام الشاملة لنظام القرابات الجديد، حيث لا شفيع لأحد.

في هذه اللحظة وعند هذه النقطة الحسّاسة من السجال حول نظام القرابات، وقعت العداوة بين **ابن الأخ والعمّ**، **بين النبي والكافر**، وهي

---

(1) ابن سعد: **الطبقات**، ص: 1/ 310، 311، 312

(2) من المحتمل أن التحنث في غار حراء كان تقليدًا دينيًا من تقاليد الحنيفية في قريش والعرب بوجه العموم.

(3) كان شهر رمضان في الجاهلية شهر صوم.

لحظة افتراق، أرادها النبي ﷺ أن تتحول، وبوعي تام لقيمة التاريخ وأهميته، إلى لحظة **فاصلة بين زمنين**، وبين **نظامين ودينين**. وفي أعقاب هذا الجدل العنيف حول القرابات، وجد النبي ﷺ نفسه، مرغمًا **على ترك مكة**. لقد بات الآن دون أي سند من نظام القرابات القديم الذي كان يحميه من أشرار قريش والقبائل. ولم يكن ثمّة من حل سوى الخروج إلى **الطائف**، أقرب المدن لمكة، لعله يتمكن هناك من حشد الأنصار. بيد أن **الطائف** التي كانت تملك **كعبة أخرى** منافسة هي **(اللات)** ومن حولها قبائل تؤمن **بالزنا** كجزء من عقيدة روحية، كانت تتبدى له كأكثر الأماكن استعصاء على القبول بالدين الذي يبشر به، ومع ذلك، لم يكن هناك من خيار آخر مع افتقاده لأي شكل من الحماية الأسرية. تقول رواية **ابن سعد** عن رواية **لمحمد بن جبير بن مُطعِم** (بن عدي أحد أبناء عمومة النبي وكان جده مُطعِم هو منْ سمح له بالعودة إلى مكة):

> **لما توفي أبو طالب تناولت قريش من رسول الله ﷺ واجترؤوا عليه فخرج إلى الطائف**، ومعه زيد بن حارثة، وذلك في ليال بقين من شوال سنة عشر من حين نُبئ. قال محمد بن عمر بغير هذا الإسناد، **فأقام بالطائف عشرة أيام لا يدع أحدًا من أشرافهم إلا جاءه وكلمه فلم يجيبوه وخافوا على أحداثهم**، فقالوا يا **محمد**، أخرج من بلدنا والحق بمجابك من الأرض، وأغروا به سفهاءهم فجعلوا يرمونه بالحجارة حتى أن رجلي رسول الله ﷺ لتدميان، وزيد بن حارثة يقيه بنفسه، حتى لقد شجّ في رأسه شجاج، فانصرف رسول الله ﷺ من الطائف راجعا إلى مكة وهو محزون لم يستجب له رجل واحد ولا امرأة. فلما **نزل نخلة** قام يصلي من الليل، فصرف إليه نفر **من الجن سبعة من أهل نصيبين**، فاستمعوا إليه **وهو يقرأ سورة الجن**، ولم يشعر بهم رسول الله ﷺ حتى نزلت عليه[1] فهم هؤلاء الذين كانوا صرفوا إليه

(1) آية ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [لأحقاف: 29].

بنخلة. وأقام بنخلة أيامًا فقال له **زيد بن حارثة**، كيف تدخل عليهم يعني قريشًا، وهم أخرجوك ؟ فقال: يا زيد إن الله جاعل لما ترى فرجا ومخرجًا، وان الله ناصر دينه ومظهر نبيه ثم انتهى إلى حراء.

عندما أصبح النبي ﷺ مرة أخرى وحيدًا دون أنصار أو دعاة، جرى استدعاء نظام القرابة، ولم يجد بدًا من اللجوء إلى طلب الحماية من **أخواله**، وذلك حين قرر العودة إلى **مكة**. وعندما سأله **زيد بن حارثة**، كيف يمكن له أن يعود وقريش تبغضه، وهي التي أرغمته على الخروج[1] ؟ لم يكن أمام

(1) ابن سعد : **الطبقات**، 1/ 211، 212، 227 (خرج- النبي- ومعه زيد بن حارث، وذلك في ليال بقين من شوال سنة عشر من حين النبوة، فأقام بالطائف عشرة أيام لا يدع أحدًا من أشرافهم إلا جاءه وكلمه، فلم يجيبوه، وخافوا على أحداثهم، فقالوا: يا محمد اخرج من بلدنا والحق بمجابك من الأرض. وأغروا به سفهاءهم، فجعلوا يرمونه بالحجارة حتى - أن- رجلي رسول الله ﷺ - كانتا- لتدميان، وزيد بن حارثة يقيه بنفسه، حتى لقد شج في رأسه شجاجًا، فانصرف رسول الله ﷺ من الطائف راجعًا إلى مكة، وهو محزون لم يستجب له رجل واحد ولا امرأة). (وقال ابن إسحاق : لما أغروا به سفهاءهم؛ لجأ رسول الله ﷺ إلى حائط لعتبة وشيبة ابني ربيعة، فجلس في ظل حبلة، وابنا ربيعة ينظرا إليه، ويريان ما لقي من سفهاء أهل الطائف، فتحركت له رحمتهما فدعوا غلامًا لهما نصرانيًا يقال له عداس، فقالا له : خذ قطفًا من هذا العنب فضعه في هذا الطبق، ثم اذهب إلى ذلك الرجل فقل له يأكل منه، ففعل عداس، ثم أقبل حتى وضعه بين يديه ﷺ، وقال له : كل، فقال رسول الله ﷺ : بسم الله فأكل، فنظر عداس إليه ثم قال : والله هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد، فقال له ﷺ: ومن أهل أي البلاد أنت يا عداس ؟ وما دينك ؟. قال : نصراني، وأنا رجل من أهل نينوى، فقال له : أمن قرية الرجل الصالح يونس بن متى ؟ فقال عداس : وما يدريك ما يونس ؟ قال : ذاك أخي، كان نبيًا وأنا نبي، فأقبل عداس على رسول الله ﷺ يقبل رأسه وقدميه ويديه، فقال أحد ابني ربيعة لصاحبه : أما غلامك فقد أفسده عليك، فلما جاءهما عداس قالا له : ويلك ما لك تقبّل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه قال : يا سيدي، ما في الأرض شيء خير من هذا العبد، لقد أخبرني بأمرٍ ما يعلمه إلا نبي، قالا : ويحك يا عداس لا يصرفنك عن دينك، فا دينك خير من دينه .قال: ثم انصرف رسول الله ﷺ راجعًا إلى مكة حين يئس من خير ثقيف، حتى إذا كان- في- نخلة أتاه جن نصيبين. وأقام رسول الله ﷺ بنخلة أياما فقال له زيد بن حارثة : كيف تدخل عليهم وهم أخرجوك؟ فقال: يا زيد إن الله جاعل لما

النبي ﷺ سوى القول إنه سوف يستعين بقراباته للعودة والاحتماء بها، ولكن هذه المرة من داخل قريش نفسها، حيث تتشابك الفروع والبطون. ولم يكن ذلك - في أي حال ـ سوى الاستعانة **بأخواله للتوسّط عند أعمامه**، وكان هذا أمرًا مثيرًا وغير قابل للتصديق بالنسبة **لزيد بن حارثة**[1]:

فأرسل رجلًا من خزاعة إلى مُطعِم بن عدي[2]**: أدخل في جوارك ؟ فقال نعم. ودعا ـ مُطعِم بن عدي ـ بنيه وقومه فقال: تلبسوا السلاح، وكونوا عند أركان البيت، فإني قد أجرت محمدا.** فدخل رسول الله ﷺ ومعه زيد بن حارثة حتى انتهى إلى المسجد الحرام، فقام **مُطعِم بن عدي** على راحلته فنادى: **يا معشر قريش إني قد أجرت محمدًا فلا يهجه أحد** منكم، فانتهى رسول الله ﷺ إلى الركن فاستلمه وصلى ركعتين، وانصرف إلى بيته **ومُطعِم بن عدي وولده مطيفون به.**

وتصف رواية **لابن الأثير**[3] عن حادثة بعينها وقعت للنبي مع **عُتبة بن ربيعة وأبي جهل**، حين تصارعا واختلفا حول الموقف منه، مع أنهما كانا عدوين له؟ وهي رواية تتمتع بخاصية سردية دقيقة للغاية، وتبيّن بدقة كافية، كيف أن نظام القرابات العائلية لعب خلال حصار بني هاشم، وقبل ذلك

ترى فرجًا ومخرجًا وإن الله ناصر دينه ومظهر نبيه، ثم انتهى إلى حراء، فأرسل رجلًا من خزاعة إلى مطعم بن عدي يقول: أدخل في جوارك ؟ فقال: نعم، ودعا بنيه وقومه، فقال: تلبسوا السلاح، وكونوا عند أركان البيت ؛ فإني قد أجرت محمدًا فدخل رسول الله ﷺ ومعه زيد بن حارثة حتى انتهى إلى المسجد الحرام، فقام مطعم بن عدي على راحلته فنادى : يا معشر قريش، إني قد أجرت محمدًا ؛ فلا يهجه أحد منكم، فانتهى ﷺ إلى الركن فاستلمه، وصلى ركعتين، وانصرف إلى بيته، ومطعم وولده مطيفون به.

(1) ابن سعد، **الطبقات**: 1/ 212، 211، 338 وللمزيد انظر الصفحات، 1/ 384، 497.

(2) ابن دريد، **الاشتقاق**: 1/ 88، المُطعمّ بن عدي بن نوفل، كان شريفًا ذا حسب في قريش، وكان حسن البلاء في أمر الصحيفة التي كتبتها قريش على بني هاشم وفيه يقول أو طالب:

أمُطعم إن القوم ساموك خُطة ... وأني متى أُكل فلستُ بوائل

(3) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ** : 273/ 1.

خلال إرغام النبي على ترك مكة والسير نحو الطائف منفيًا، دورًا حاسمًا لصالح حماية النبي، برغم أن العداء لدينه ظل قويًا، إذ عندما عاد النبي من بلاد ثقيف أرسل إلى **المطعم بن عدي** ليجيره ويحميه من بطش قريش، فأجاره (وأصبح **المطعم** قد لبس سلاحه هو وبنوه وبنو أخيه فدخلوا المسجد، **فقال له أبو جهل**: أمجير أم متابع ؟ قال: بل مجير. قال: قد أجرنا من أجرت). فدخل النبي ﷺ مكة وأقام بها. وذات يوم دخل الكعبة والمشركون عندها يتجمعون. فلما رآه **أبو جهل قال**: **هذا نبيكم يا بني عبد مناف**. (فقال **عتبة بن ربيعة**: وكان ممن رفضوا بشدة نبوّة النبي، ورأى في نفسه نبيًا: **وما ينكر أن يكون منا نبي وملك؟**) وحين علم النبي بهذا النقاش خاطب عُتبة بصراحة قائلًا: **أما أنت يا عُتبة فما حميت لله، وإنما حميت لنفسك، وأما أنت يا أبا جهل** فوالله لا يأتي عليك غير بعيد حتى تضحك قليلًا وتبكي كثيرًا، وأما أنتم يا معشر قريش، فوالله لا يأتي عليكم غير كثير حتى تدخلوا فيما تكرهون وأنتم كارهون)[1]. لقد وصف النبي بعمق، طبيعة الدوافع التي حركت بني هاشم عشيرته الأقربين، وقريش عشيرته الأبعدين، مرّة لصدّ دعوته واضطهاده، ومرة أخرى لحمايته، وفي الحالتين **كان العامل القرابي لا الديني** هو اللاعب الحقيقي. على هذا النحو فقط، كان نظام القرابات الأسرية يعمل بقوة زخم التقاليد والأعراف، مخترقًا الأديان والمعتقدات، وليصبح **ابن الأخت، وابن العم** في الآن ذاته، مقبولًا بتوافق الطرفين المتخاصمين والمتنافسين والمتصارعين على مكة. وإذن، فقد ظهرت العداوة بين الرسول وأبي لهب في أسطع أشكالها **بعد اجتماع الصفا**. قال الإمام أحمد[2]: [حدثنا إبراهيم بن أبي العباس حدثنا عبد الرحمن بن أبي الزناد عن أبيه قال أخبر رجل يقال له ربيعة بن عباد من بني الديل وكان جاهليًا فأسلم، قال: **رأيت رسول الله** ﷺ في الجاهلية في سوق ذي المجاز وهو يقول:(**يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا**) والناس مجتمعون عليه ووراءه **رجل وضيء الوجه أحول ذو غديرتين**، يقول (**إنه صابئ كاذب**) يتبعه حيث ذهب، فسألت عنه فقالوا:(هذا عمه **أبو لهب**

---

(1) ابن الأثير، كذلك.

(2) ابن كثير: **السيرة** 2/ 156.

) إن هذه الرواية الشائعة في كتب السيرة، تقدّم لنا صورة أخرى من صور الصراع بين النبي وعمه. يقول ابن الكلبي[1]: والمقريزي عن **الواقدي**[2]: إن أبي لهب، وجد في تنديد النبي ﷺ بإلهة العرب الكبرى **العُزَّى**، ثم قراره بهدمها وهي حادثة متأخرة - نحو السنة التاسعة للهجرة ـ خطرًا مباشرًا على معتقدات العرب، وكان أمرًا محيّرًا أن **أبا لهب** كان يدافع بالحماسة ذاتها عن (**دين عبد المطلب**) وعن (**العُزَّى**)[3]. في آن واحد، بينما كان يقبل

(1) ابن الكلبي، أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب: **الأصنام**، تحقيق أحمد زكي باشا، دار الكتب المصرية 1995 / ص 24 (فلم تزل العزى كذلك حتى بعث الله نبيه فعابها وغيرها من الأصنام، ونهاهم عن عبادتها، ونزل القرآن فيها. فاشتد ذلك على قريش، وَمرض أبو أحيحة (سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف) مرضه الذي مات فيه. فدخل عليه أبو لهب يعوده، فوجده يبكي. فقال: «ما يبكيك، يا أبا أُحيحة؟ أمن الموت تبكي، ولا بدّ منه؟»، قال :«لا، ولكني أخاف أن لا تُعبد العزّى بعدي». قال أبو لهب «والله ما عُبدت حياتك، ولا تُترك عبادتها بعدك لموتك!»، فقال أبو أحيحة: «الآن علمت أن لي خليفة» وأعجبه شدة نصبه في عبادتها).

(2) الكلبي : **الأصنام**، ص 29- هامش المحقق.

(3) ابن عساكر: **تاريخ دمشق**،ج1 فصل/ ذكر بني الرسول وبناته وأزواجه وسرياته، وقال البيهقي أيضًا (حدثنا أبو طاهر الفقيه حدثنا أبو بكر محمد بن الحسن القطان حدثنا أبو الأزهر حدثنا محمد بن عبد الله الأنصاري حدثنا محمد بن عمر عن محمد بن المنكدر عن ربيعة الديلي قال : رأيت رسول الله ﷺ بذي المجاز يتبع الناس في منازلهم يدعوهم إلى الله ووراءه رجل أحول تقد وجنتاه وهو يقول: أيها الناس لا يغرنكم هذا عن دينكم ودين آبائكم قلت : من هذا ؟ قيل : هذا أبو لهب [ثم رواه من طريق شعبة عن الأشعث بن سليم عن رجل من كنانة قال: رأيت رسول الله ﷺ بسوق ذي المجاز وهو يقول: يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا، وإذا رجل خلفه يسفي عليه التراب وإذا هو أبو جهل وإذا هو يقول : يا أيها الناس لا يغرنكم هذا عن دينكم فإنما يريد أن تتركوا عبادة اللات والعزى] قال طارق المحاربي: إني بسوق ذي المجاز إذا أنا بشاب يقول: يا أيها الناس، قولوا لا إله إلا الله تفلحوا. وإذا رجل خلفه يرميه؛ قد أدمى ساقيه وعرقوبيه، ويقول: أيها الناس، إنه كذاب فلا تصدقوه. فقلت: من هذا؟ فقالوا: هذا محمد يزعم أنه نبي، وهذا عمه أبو لهب يزعم أنه كذاب. زاد في رواية في صفة أبي لهب: أحول ذو غديرتين. وفي هذا الصدد روى الإخباريون قصة لقاء أبي لهب مع سادن الإلهة العُزَّى، فقال له: (فلا تحزن فأنا أقوم عليها بعدك).

بمصاهرة النبي ويتزوج ابناه من ابنتي النبي ﷺ؟ إذ تزوجت رقية بنت النبي ﷺ عتبة[1] بن **أبي لهب**، بينما تزوج شقيقه مُعتب من أم كلثوم ابنته الثانية. ومن الواضح أن الصراع في هذه الحقبة، دار حول جملة موضوعات في الدين الجديد، وبشكل أخص حول فكرة البعث. يروي مؤلف **الروض الآنف**[2] الرواية التالية وهي ذات دلالة خاصة (**وَذَكَرَ الْحَارِثَ بْنَ عَبْدِ الْعُزّى، وَقَدْ ذَكَرَهُ يُونُسُ بْنُ بُكَيْرٍ فِي رِوَايَتِهِ، فَقَالَ حَدّثَنَا ابْنُ إسْحَاقَ قَالَ حَدّثَنِي وَالِدِي إسْحَاقُ بْنُ يَسَارٍ، عَنْ رِجَالٍ مِنْ بَنِي سَعْدِ بْنِ بَكْرٍ، قَالَ قَدِمَ الْحَارِثُ بْنُ عَبْدِ الْعُزّى بِمَكّةَ حِينَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ فَقَالَتْ لَهُ قُرَيْشٌ: أَلا**

كما يقال إنه ظل يردد أمام الجميع (إن تظهر العُزّى كنت قد اتخذت يدًا عندها بقيامي عليها، وإن يظهر محمد على العُزّى، ولا أراه يظهر فابن أخي) وحسب هذه الرواية فقد أنزل الله تعالى ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾ [المسد: 1] ويقال إنه قال: هذا في اللات. ولكن الغريب إن صحت تلك الروايات أن دفاع أبي لهب عن دين اللات والعزّى دين آبائه؛ فإن النبي وبدافع قرابي، وليس بأي دافع ديني زوج ابنتيه لابني أبي لهب.

(1) وتزوج عتيبة بن أبي لهب أم كلثوم، ولكنه سوية مع شقيقه لم يبنيا بهما، حتى بعث النبي ﷺ . فلما أنزل الله تعالى: ﴿ تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ ﴾ قال لهما أبوهما: رأسي من رأسكما حرام إن لم تطلقا ابنتيه، ففارقاهما، ولم يكونا دخلا بهما. وفي **تاريخ ابن عساكر**، 1/ 155، 357، 3/ 5، 144، 5/ 213، 5/ 373 (قال أبي بن كعب: قال رسول الله ﷺ: من قرأ ﴿ تَبَّتۡ﴾ أرجو أن لا يجمع الله بينه وبين أبي لهب في دار واحدة... وفيه أيضًا «مرّت درة ابنة أبي لهب برجل فقال: هذه ابنة عدو الله أبي لهب. فأقبلت عليه، فقالت: ذكر الله أبي لنباهته وشرفه، وترك أباك لجهالته. ثم ذكرت للنبي ﷺ ما سمعت. فخطب الناس فقال: لا يؤذين مسلم بكافر. مات عتبة بدعوة من الرسول عندما أتاه قائلًا: يا محمد، هو يكفر بالذي ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝ فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ﴾[النجم: 8، 9] فقال الرسول: اللهم، سلّط عليه كلبًا من كلابك، وفعلًا مات عتبة بأن التهمه الأسد بعد أن فسخ رأسه رغم كل الاحتياطات التي حماه بها والده أبو لهب. وتوفي أبو لهب سنة اثنتين من الهجرة بعد وقعة بدر بسبع ليال، ودفن بمكة، وهو ابن سبعين سنة. قال أبو الحسين عاصم بن الحسن العاصمي: من الطويل:

عليك بتقوى الله في كل حالة ... ولا تترك التقوى اتكالًا على النسب
فقد رفع الإسلام سلمان فارس ... وقد وضع الكفر الشريف أبا لهب

(2) **الروض الآنف** : [ص 284].

تَسْمَعُ يَا حَارِ[1] **مَا يَقُولُ ابْنُك**[2] هَذَا؟ فَقَالَ وَمَا ؟ قَالُوا: **يَزْعُمُ أَنّ اللّهَ يَبْعَثُ بَعْدَ الْمَوْتِ وَأَنّ لِلّهِ دَارَيْنِ يُعَذّبُ فِيهِمَا مَنْ عَصَاهُ وَيُكْرِمُ فِيهِمَا مَنْ أَطَاعَهُ** فَقَدْ شَتّتْ أَمْرَنَا، وَفَرّقَ جَمَاعَتَنَا. فَأَتَاهُ فَقَالَ: أَيْ بُنَيّ **مَا لَك وَلِقَوْمِك يَشْكُونَك**، وَيَزْعُمُونَ أَنّك تَقُولُ إنّ النّاسَ يُبْعَثُونَ بَعْدَ الْمَوْتِ، ثُمّ يَصِيرُونَ **إلَى جَنّةٍ وَنَارٍ** ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ - نَعَمْ أَنَا أَزْعُمُ ذَلِكَ وَلَوْ **قَدْ كَانَ ذَلِكَ الْيَوْمَ يَا أَبَتْ لَقَدْ أَخَذْت بِيَدِك**، حَتّى أُعَرّفَك حَدِيثَك الْيَوْمَ) **فَأَسْلَمَ الْحَارِثُ** بَعْدَ ذَلِكَ، وَحَسُنَ إسْلَامُهُ وَكَانَ يَقُولُ حِينَ أَسْلَمَ (**لَوْ قَدْ أَخَذَ ابْنِي بِيَدِي، فَعَرّفَنِي** مَا قَالَ ثُمّ يُرْسِلُنِي إنْ شَاءَ اللّهُ حَتّى يُدْخِلَنِي الْجَنّةَ) إن تأويل العداء بين **النبي** ﷺ **وعمّه أبي لهب**، بأنه عداء شخصي له طابع ديني يخصّ الموقف من الإسلام، صحيح بوجه الإجمال، ولكنه بذاته، ومعزولًا عن فهم العوامل والبواعث الأخرى، سيظل مفتقرًا للتبرير. ولعل هذا الجانب المسكوت عنه في المؤلفات التاريخية، هو الذي أضفى ما يكفي من الغموض على محاولات فهم طبيعة النزاع بين النبي ﷺ وعمّه، وبلوغ العداء مستوى التشهير. وبرغم أهمية النظر إلى عامل القرابات، ورؤية الحدث من زاوية كونه يدور في نطاق التوتر الأسري؛ فإن فهمًا من هذا النوع قد يظل ناقصًا هو الآخر من دون فهم موازٍ للأسباب العميقة التي تتصل، ودون مواربة، **بصراع الدين التاريخي ضد الديانات المحلية.**

---

(1) يا حار لغة في يا حارث

(2) البلاذري، **أنساب الأشراف** 1/ 40 (وقالوا: واسم زوج حليمة: الحارث بن عبد العزى ابن رفاعة بن ملان بن ناصرة بن فضية بن نصر بن سعد. واسم ابنها الذي شرب رسول الله ﷺ من لبنه: عبد الله بن الحارث. وأختاه: أنيسة والشيماء بنتا الحارث. وكانت الشيماء تحمل النبي ﷺ، وتقوم عليه مع أمها حليمة وسبيت يوم حنين، فعنف بها. فقالت: يا قوم، تعلموا أني أخت نبيكم فلما أتوا بها رسول الله ﷺ، قالت: إني أختك، وكنت عضضتني وأنا أحضنك مع أمي، فعرف ذلك، وبسط لها رداءه فأجلسها عليه، وأعطاها ما أغناها، ووهب لها جارية وغلامًا يقال له مكحول. فزوجت الجارية الغلام. وقال الكلبي: وفدت الشيماء على النبي ﷺ، فأرته أثر عضته).

4
الإسلام وبُنى القرابات الأسرية في مجتمع مكة الديمقراطي

أنشا الإسلام نظامًا قرابيًا للجماعة الإسلامية الصغيرة المهاجرة من مكة إلى المدينة، ولكن من دون أن يكون بديلًا اجتماعيًا نهائيًا. كان «**نظام الأخوة**» وهو النظام الذي يُعرف في المؤلفات التاريخية بنظام **المؤاخاة بين الأنصار والمهاجرين**، حلًا مثاليًا لمواجهة نتائج الصراعات التي سوف تتفجر داخل النظام القرابي في مكة، بسبب تقبل بعض الأفراد من مختلف البطون والفروع القبلية للدين الجديد. كان سعد بن الربيع من أكثر الأنصار ثريًا وقد هاجر إلى المدينة مع من هاجر مع النبي. وحين باشر النبي بتطبيق نظام المؤاخاة، آخى بينه وبين رجل فقير من قريش هو عبد الرحمن بن عوف، فقال له الربيع: يا عبد الرحمن إني من أكثر الأنصار مالًا وأنا مقاسمك، وعندي امرأتان، فأنا مطلق أحداهما، فإذا انقضت عدتها فتزوجها[1]. فقال له عبد الرحمن: بارك الله لك في أهلك ومالك، ورفض أن يقاسمه. ويُلاحظ من دراسة أسس هذا النظام، أنه لم يكن بديلًا للنظام القرابي ما قبل إسلامي،

(1) **عيون الأثر**1/ 269، وابن كثير، **السيرة** : 2/ 328 حدثنا محمد بن يوسف، حدثنا سفيان، عن حميد، عن أنس، قال: قدم عبد الرحمن بن عوف فآخى النبي ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع الأنصاري، فعرض عليه أن يناصفه أهله وماله، فقال عبد الرحمن: بارك الله لك في أهلك ومالك، دلني على السوق. فربح شيئًا من أقط وسمن، فرآه النبي ﷺ بعد أيام وعليه وضر من صفرة، فقال النبي ﷺ: مه يا عبد الرحمن ؟ قال: يا رسول الله تزوجت امرأة من الأنصار. قال: «فما سقت فيها ؟» قال: وزن نواة من ذهب، قال النبي ﷺ: «أولم ولو بشاة».

بقدر ما كان محاولة لتطويق نتائج التحلل في العلاقات القرابية، **فقد آخى النبي نفسه أولًا مع علي بن أبي طالب**، ثم آخى بين المسلمين والموالي (أبناء العم). لكن هذا النظام الجديد لم يكن مجرد إجراء شكلي، أملته ظروف القتال التي تتطلب درجة عالية من تراص الصفوف والألفة، وإنما كان بدرجة أكبر من ذلك، **نظام مواريث جديدة**، فقد أصبح الإخوة الجدد، ورثة كما لو أنهم من أصلاب واحدة. ولم يكن ذلك، بطبيعة الحال، أمرًا مألوفًا أو مشهودًا في تاريخ الأديان السابقة على الإسلام، أو مألوفًا في تاريخ أديان قريش ومعتقداتها. لكنه مع ذلك لم يكن غريبًا عن **تقاليد مجتمع مكة الديمقراطي في عصر قصي**، ثم في عصر هاشم. لقد كانت مأثرة عبد مناف وأبنائه من بعده، أنهم أوجدوا نظامًا لتوزيع الثروة لا سابق له في تاريخ العرب قبل قصي، إذ أنشأوا بيت مال (وسوف يسترد الخلفاء الراشدون تاليًا هذا التقليد ويعملوا بموجبه ويصبح بيت مال المسلمين). إن نظرة موضوعية لنظام المؤاخاة الذي جاء به النبي، يجب أن تلاحظ أنه كان تطويرًا خلاقًا لتقاليد مجتمع مكة الديمقراطي كما أرسى أسسّه جدّ النبي الأعلى قصي بن كلاب ثم جدّه المباشر هاشم، ذلك أن مواطني مكة، المركز الديني والإداري في الجزيرة العربية، باتوا مواطنين أحرارًا، يختلط غنيّهم بفقيرهم، وتوزّع فيه ثروة الإيلاف بقدرٍ ممتاز من العدالة. وكما كان بوسع مواطني مكة في ظل ولاية قصي، أن يقصدوا دار الندوة (مقر الحكومة) وأن يشاركوا في صنع القرار، فقد أصبح بوسعهم خلال عهد حفيده هاشم، أن يحصلوا على معونات مالية منتظمة من بيت المال. وحين بزغ فجر الإسلام، قام النبي ﷺ بتطوير هذه التقاليد أولًا داخل الجماعة المسلمة، الصغيرة والخائفة، وذلك من خلال نظام مؤاخاة بين الأفراد، وهم في الغالب كانوا قلة من الأغنياء مثل عثمان بن عفان، وكثرة من الفقراء والمعوّزين. ولأن المؤاخاة كانت تنطوي على إعادة توزيع طوعية لثروة الجماعة الصغيرة بين الأفراد الأحرار والمتساوين، فقد تضمنت، وبروح ديمقراطية رفيعة المستوى، مبدأ المواريث الجديدة التي يصبح، بموجبها كل فرد حرّ وريثًا لفرد حرّ آخر. وبطبيعة الحال، فقد فرضت الظروف تعديل هذا النظام، بعدما اتضح أنه قد يؤدي مع اتساع الدعوة وانتشارها إلى خلخلة في نظام المواريث التقليدية. ولذا، أدخل النبي تعديلًا هامًا للغاية سوف يعرف بنظام الموالي، ولكن من دون أدنى مسّ

بالمؤاخاة. لقد كان نظام المؤاخاة يعني أن يصبح الفرد الحرّ(المسلم) أخًا لفرد حرّ (مسلم) آخر ويرث ماله. بيد أن التعديل تطلب أن يظل المتآخين إخوة، يتقاسمون الثروة من دون مواريث. ويشرح **ابن كثير**[1] مفهوم الموالي هذا كما عرضه النظام الجديد للقرابات، فيقول في تفسيره لآية ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾[2]. إن ذلك يعني، ببساطة أن يرث المسلم مسلمًا آخر.لقد ارتأى **ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جُبَير، وأبو صالح، وقتادة، وزيد بن أسلم، والسدي، والضحاك، ومقاتل بن حيان،** وغيرهم في قوله: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ﴾ أي جعلناهم ورثة. وعن ابن عباس أيضًا: أي عَصَبة. والعرب تسمي **ابن العم مولى**، كما قال الفضل بن عباس:

مَهْلًا بني عَمّنا مَهْلًا مَوالينا لا تُظْهِرَن لنا ما كان مدفُونا

ويعني بقوله: ﴿مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ أي من تركة والديه وأقربيه من الميراث، فتأويل الكلام، **ولكلكم ـ أيها الناس ـ جعلنا عصبة يرثونه مما ترك والداه وأقربوه من ميراثهم له**، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ أي: والذين تحالفتم بالأيمان المؤكدة أنتم وهم، فآتوهم نصيبهم من الميراث، كما وعدتموهم في الأيمان المغلظة، إن الله شاهد بينكم في تلك العهود والمعاقدات. كان النظام الجديد للقرابات يتأسس سوية مع تأسيس الإسلام، ويسير بموازاة التعاليم والمعارك ونشر الدعوة سواء بسواء. بيد أنه واجه، مع تطور الدعوة، واشتداد المعارك الفاصلة ووقوع ضحايا، معضلة كانت، بدرجة أقل من التحرز، دون حسبان تقريبًا، فقد امتنعت بعض الأسر والبيوتات والقبائل عن تطبيق نظام المواريث، ورأت في قبوله تبديدًا لثرواتها. وفي حدود هذه النقطة الحسّاسة، اتضح أن القبائل كانت بفعل الدافع الغريزي، والخوف من التفتت والضعف نتيجة تبدد ممتلكاتها من الحيوانات والأموال، لم تكن تدرك بعد، بما يكفي الوضوح فكرة الأمة الواحدة، وكانت ـ إلى حد ما ـ تتصرف بوحي من عنادها التاريخي بالحفاظ

(1) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم، 3/ 388.

(2) سورة النساء،الآية: 33.

على وجودها كقبائل. ولذلك، **نسخ القرآن آية المواريث في نظام المؤاخاة**[1]، وأوقف العمل به، وأمروا أن يوفوا لمن عاقدوا، ولا ينشئوا بعد نزول هذه الآية معاقدة. قال **البخاري**: حدثنا الصلت بن محمد، حدثنا أبو أسامة، عن إدريس، عن طلحة بن مصرف، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ﴾ قال: ورثة، ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ قال: **كان المهاجرون، لما قدموا المدينة يرث المهاجري الأنصاري، دون ذوي رحمه؛ للأخوة التي آخى النبي ﷺ** بينهم، فلما نزلت ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ﴾ نُسخت، ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ من النصر والرفادة والنصيحة، وقد ذهب الميراث ويُوصي له. وآخى رسول الله ﷺ[2] بين المهاجرين على أن **يتوارثوا دون ذوي الأرحام**. فلما أن أصيب من أصيب ببدر، طلب **إخوانهم الميراث**. فنزلت: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾[3] ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[4] **فانقطعت المؤاخاة في الميراث**. ومع ذلك، واجهت نظام المؤاخاة مصاعب جمّة عند تطبيقه، فالقبائل التي عاشت في كنف تقاليد الغزو، ما كان لها أن تدرك بعمق كافٍ مع الإسلام، أن متطلبات قيام النظام الجديد، تقديم تنازلات قاسية ومؤلمة في بعض الأحيان. من ذلك ما حدث بعد معركة حنين، حيث ثارت ثائرة الأنصار واشتد غضبهم على النبي ﷺ، **فقد حين انتهت معركة حنين ووزع النبي ﷺ الفيء على سادات قريش وقبائل العرب**، وَلَمْ يُعْطِ الأَنْصَارَ شَيْئًا، وكان ذلك مصدر الغضب الشديد، وبحيث راحوا يتقولون

---

(1) لما استشهد سعد بن الربيع، أخذ أخوه ميراثه. وكان لسعد ابنتان، وكانت امرأته حاملًا. وكانت المواريث على مواريث الجاهلية، ولم تكن الفرائض أنزلت. فنزلت على رسول الله ﷺ حينئذ، فدعا أخا سعد، فقال له: أعط ابنتي أخيك ثلثي الميراث، وادفع إلى زوجته الثمن، والباقي لك. ولم يورث الحمل يومئذ؛ ثم ورث بعد ذلك. وولدت له أم سعد بنت سعد، وهي امرأة زيد بن ثابت؛ فلما كانت خلافة عمر، قال لها: تكلمي في ميراثك من أبيك إن كنت تحبين ذلك، فإن أمير المؤمنين قد ورث الحمل اليوم. فقالت: ما كنت لأطلب من أختي شيئًا .**أنساب الأشراف** : 1/ 149-150

(2) **أنساب الأشراف** 1/ 117.

(3) سورة الأنفال، الآية: .75

(4) سورة البقرة، الآية: 231.

على النبي ويزعمون أنه آثر قومه عليهم. وكان مثل هذا الزعم، يشير من طرف خفي إلى أنه عاد إلى نظام القرابات الأسرية القديمة والقبلية، ومنع عنهم الحق في الفيء، ولم يكن ذلك صحيحًا بأي صورة من الصور، لأن النبي أدرك، بعد الانتصار اللامع في حنين، أن كسب ودّ زعماء القبائل، قد يساعد في دمج كتلة كبيرة من القبائل في نظام المؤاخاة. ولم يكن هذا الموقف مفهومًا حتى من حَسّانُ بْنُ ثَابِتٍ الذي كتب قصيدة في عتاب النبي:

زَادَتْ هُمُومٌ فَمَاءُ الْعَيْنِ مُنْحَدِرٌ	**سَحًا إِذَا حَفَلَتْهُ عَبْرَةٌ دِرَرُ**
وَجْدًا بِشَمّاءَ إِذْ شَمّاءُ بَهْكَنَةٌ	**هَيْفَاءُ لَا ذَنَنٌ فِيهَا وَلا خَوَرُ**
دَعْ عَنْك شَمّاءَ إِذْ كَانَتْ مَوَدّتُهَا	**نَزْرًا وَشَرّ وَصَالِ الْوَاصِلِ النّزَرُ**
وَأْتِ الرّسُولَ فَقُلْ يَا خَيْرَ مُؤْتَمَنٍ	**لِلْمُؤْمِنِينَ إِذَا مَا عُدّدَ الْبَشَرُ**
علامَ تُدْعَى سُلَيْمٌ وَهِيَ نَازِحَةٌ	**قُدّامَ قَوْمٍ هُمْ آوَوْا وَهُمْ نَصَرُوا**

وعندما تصاعد غضب الأنصار وبدا أنهم يوشكون على توسيع نطاق معارضتهم له (حَتّى كَثُرَتْ مِنْهُمْ الْقَالَةُ (القيل والقال) وقَالَ قَائِلُهُمْ: لَقَدْ لَقِيَ وَاَللّهِ رَسُولُ اللّهِ قَوْمَهُ) دَخَلَ عَلَيْهِ سَعْدُ بْنُ عِبَادَةَ، فَقَالَ يَا رَسُولَ اللّهِ: إنّ هَذَا الْحَيّ مِنْ الأنصَارِ قَدْ وَجَدُوا عَلَيْك فِي أَنْفُسِهِمْ لِمَا صَنَعْت فِي هَذَا الْفَيْءِ الّذِي أَصَبْت، قَسَمْت فِي قَوْمِك، وَأَعْطَيْت عَطَايَا عِظَامًا فِي قَبَائِلِ الْعَرَبِ، وَلَمْ يَكُ فِي هَذَا الْحَيّ مِنْ الأنْصَارِ مِنْهَا شَيْءٌ) [1] قَالَ فَأَيْنَ أَنْتَ مِنْ ذَلِكَ يَا سَعْدُ؟ قَالَ يَا رَسُولَ اللّهِ مَا أَنَا إلا مِنْ قَوْمِي، قَالَ: «فَاجْمَعْ لِي قَوْمَك فِي هَذِهِ الْحَظِيرَةِ. فَخَرَجَ سَعْدٌ فَجَمَعَ الأَنْصَارَ فِي تِلْكَ الْحَظِيرَةِ فَأَتَاهُمْ رَسُولُ وقَالَ: يَا مَعْشَرَ الأنْصَارِ: مَا قَالَة بَلَغَتْنِي عَنْكُمْ وَجْدَةٌ[2] وَجَدْتُمُوهَا عَلَيّ فِي أَنْفُسِكُمْ ؟ **أَلَمْ آتِكُمْ ضُلّالًا فَهُدَاكُمْ اللّه، وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمْ اللّهُ وَأَعْدَاءً فَأَلّفَ اللّهُ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ**» قَالُوا: بَلَى، **اللّهُ وَرَسُولُهُ أَمَنّ وَأَفْضَلُ ثُمّ قَالَ: أَلا تُجِيبُونَنِي يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ ؟» قَالُوا: بِمَاذَا نُجِيبُك يَا رَسُولَ اللّهِ ؟ لِلّهِ وَلِرَسُولِهِ الْمَنّ وَالْفَضْلُ قَالَ: «أَمَا وَاَللّهِ لَوْ شِئْتُمْ لَقُلْتُمْ فَلَصَدَقْتُمْ وَلَصُدّقْتُمْ: أَتَيْتَنَا مُكَذّبًا**

---

(1) الروض الآنف ص 275، ص 276، ص 275.

(2) عِنْدَ أَهْلِ اللّغَةِ : مَوْجِدَةٌ، الْغَضَبَ.

فَصَدّقنَاك، وَمَخْذُولًا فَنَصَرْنَاك، وَطَرِيدًا فَآوَيْنَاك، وَعَائِلًا فَآسَيْنَاك. أَوَجَدْتُمْ يَا مَعْشَرَ الأنصَارِ فِي أَنْفُسِكُمْ فِي **لُعَاعَةٍ**[1] مِنْ الدّنْيَا **تَأَلّفت بِهَا قَوْمًا لِيُسْلِمُوا،** وَوَكَلْتُكُمْ إلَى إسْلَامِكُمْ ألا تَرْضَوْنَ يَا مَعْشَرَ الأنصَارِ، **أَنْ يَذْهَبَ النّاسُ بِالشّاةِ وَالْبَعِيرِ وَتَرْجِعُوا بِرَسُولِ اللّهِ إلَى رِحَالِكُمْ** ؟ فَوَ اَلّذِي نَفْسُ مُحَمّدٍ بِيَدِهِ لَوْلا الْهِجْرَةُ لَكُنْت امْرًا مِنْ الأنْصَارِ، وَلَوْ سَلَكَ النّاسُ شِعْبًا وَسَلَكَتْ الأنصَارُ شِعْبًا، لَسَلَكْت شِعْبَ الأنصَارِ. اللّهُمّ ارْحَمْ الْأَنْصَارَ، وَأَبْنَاءَ الْأَنْصَارِ، وَأَبْنَاءَ أَبْنَاءِ الْأَنْصَارِ».؟ كانت خطبة النبي مدوية وهدأت خواطر الأنصار حتى أنهم أجهشوا في البكاء. لقد كان النبي كريمًا للغاية مع القبائل حين وزع عليها غنائم المعركة، وحرم نفسه والأنصار منها، وذلك من أجل توسيع دائرة «**المؤلفة قلوبهم**».

(1) لُعَاعَةٍ مِنْ الدّنْيَا تَأَلّفت بِهَا قَوْمًا، أي مجرد بَقْلَةٌ لا قيمة لها ولكن أهميتها أنها أرضت زعماء القبائل.

أخوة النبي

(القرابات الجديدة)

النبي ﷺ ———————— علي بن أبي طالب[1]

عبد الرحمن بن عوف ———————— سعد بن الربيع[2]

سلمان الفارسي ———————— أبو الدرداء

يزيد بن المنذر بن سرح الأنصاري ———————— عامر بن ربيعة

تميم مولى خراش بن الصمّة الأنصاري ——— خباب مولى عتبة بن غزوان

---

(1) ابن ماكولا: **الإكمال،** 1/ 346 آخى النبي ﷺ بين أصحابه، فجاء علي تدمع عيناه، قال: «يا رسول الله، آخيت بين أصحابك ولم تؤاخ بيني وبين أحد، فقال له رسول اللّه ﷺ: أنت أخي في الدنيا والآخرة » . وفي رواية: « ألا ترضى أن أكون أخاك؟ قال: بلى يا رسول الله، رضيت. قال: فأنت أخي في الدنيا والآخرة» العصامي: **سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي:** 2/ 13 : آخى النبي ﷺ بين أصحابه، فجاء علي تدمع عيناه، قال: «يا رسول الله، آخيت بين أصحابك ولم تؤاخ بيني وبين أحد، فقال له رسول اللّه ﷺ: أنت أخي في الدنيا والآخرة » . وفي رواية: « ألا ترضى أن أكون أخاك؟ قال: بلى يا رسول الله، رضيت. قال: فأنت أخي في الدنيا والآخرة » أخرجه الخلعي.

(2) العصامي : **سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي** 2/ 13 قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد، حدثنا ثابت وحميد، عن أنس، أن عبد الرحمن بن عوف قدم المدينة فآخى رسول الله ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع الانصاري، فقال له سعد: أي أخي، أنا أكثر أهل المدينة مالًا، فانظر شطر مالي فخذه، وتحتي امرأتان فانظر أيهما أعجب إليك حتى أطلقها ـ **عيون الأثر** 3/ 373. (حدثنا محمد بن يوسف، حدثنا سفيان، عن حميد، عن أنس، قال: قدم عبد الرحمن بن عوف فآخى النبي ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع الأنصاري، فعرض عليه أن يناصفه أهله وماله، فقال عبد الرحمن: بارك الله لك في أهلك ومالك، **عيون الأثر** 3/ 368).

الحارث بن الصمّة ——————— صهيب بن سنان

زيد بن المزين بن قيس بن عدي بن الخزرج الأنصاري — مسطح بن أثاثة

الزبير بن العوام ——————— عبد الله بن مسعود[1]

حمزة بن عبد المطلب ——————— كلثوم بن الهدم

علي بن أبي طالب ——————— سهل بن حنيف

زيد بن حارثة ——————— أسيد بن حضير

أبو مرثد الغنوي حليف حمزة ——————— عبادة بن الصامت

عبيدة بن الحارث ——— وحمام بن الجموح (ويقال: عمرو بن الجموح)

عثمان بن عفان ——————— أوس بن ثابت

أبو حذيفة بن عتب ——————— عباد بن بشر بن وقش

الزبير بن العوام ——————— كعب بن مالك

مصعب بن عمير ——————— أبو أيوب (ويقال: ذكوان بن قيس)

سعد بن أبي وقاص ——————— سعد بن معاذ

عبد الله بن مسعود ——————— معاذ بن جبل

أبو بكر الصديق ——————— وخارجة بن زيد بن أبي زهير (صهره)

طلحة بن عبيد الله ——————— أبي بن كعب

صهيب والحارث بن الصّمة — أبو سلمة بن عبد الأسد (وسعد بن خيثمة)

أرقم بن أبي الأرقم ——————— زيد بن سهل أبو طلحة

---

(1) **سبل الهدى والرشاد** : 3/ 368/ 1 ابن ماكولا : **الإكمال**، 3/ 69 ابن حجر العسقلاني، **الإصابة** 2/ 346، 227/ 2، 438/ 3 -3/ 304-3/ 70، 3/ 93 آخى النبي ﷺ بين أبي الدرداء وسلمان ونحوه في البخاري من حديث أبي جحيفة في قصته. ووقع في هذه القصة. فقال النبي ﷺ لأبي الدرداء: « سلمان أفقه منك » .**الإصابة**: 1 / 453 1/ 134 - 335/ 3 1/ 190- 171 - 398/ 1 -3/ 109

عمر بن الخطاب ———————— عويم بن ساعدة

سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل ———————— رافع بن مالك

عثمان بن مظعون ———————— أبو الهيثم بن التيهان

خنيس بن حذافة ———————— أبو عبس بن جبر

أبو عبيدة بن الجراح ———————— محمد بن مسلمة الأوسي

عبد الله بن سعد بن أبي سرح بن الحارث[1] ———————— عامر بن ربيعة

تميم مولى خراش بن الصمة الأنصاري ——— خباب مولى عتبة بن غزوان

زيد بن المزين[2] الأنصاري ———————— مسطح بن أثاثة

سويد بن غفلة ———————— وهب بن سعد بن أبي سرح[3]

طلحة بن زيد الأنصاري ———————— الأرقم

عائذ بن ماعص ———————— سويبط بن حرملة[4]

عبد الله بن جحش[5] ———————— عاصم بن ثابت

أنس ———————— ابن مسعود[6]

---

(1) ابن حبيب بن جذيمة بن مالك بن حسل بن عامر بن لؤي.

(2) هو زيد بن قيس بن عدي بن أمية بن خدارة بن عوف بن الحارث بن الخزرج.

(3) واستشهدا جميعًا يوم مؤتة.

(4) ذكر العدوي أنه شهد أحدًا واستشهد يوم جسر أبي عبيد وذكر أن ابنه عبد الرحمن شهد أحدًا واستشهد بالقادسية.

(5) عن سعد بن أبي وقاص قال: بعثنا رسول الله ﷺ في سرية وقال: « لأبعثن عليكم رجلًا أصبركم على الجوع والعطش » فبعث علينا عبد الله بن جحش فكان أول أمير في الإسلام.

(6) مات سنة ست وثلاثين في قول أبي عبيد أو سبع في قول خليفة. وروى عبد الرزاق عن جعفر بن سليمان عن ثابت عن أنس: دخل ابن مسعود على سلمان عند الموت. فهذا يدل على أنه مات قبل ابن مسعود ومات ابن مسعود قبل سنة أربع وثلاثين فكأنه مات سنة ثلاث أو سنة اثنتين. وهو أول من جهر بالقرآن بمكة ذكره ابن إسحاق عن يحيى بن عروة عن أبيه وقال النبي ﷺ: «من سره أن يقرأ القرآن غضًا كما نزل فليقرأ على قراءة ابن أم عبد».

عويم الهذلي ———————— حاطب بن أبي بلتعة

فروة بن عمرو ———————— عبد الله بن مخرمة العامري[1]

بلال المؤذن ———————— عبد الله بن عبد الرحمن الخثعمي

بلغ عدد الذين آخى النبيّ بينهم نحو تسعين رجلًا، **خمسةً وأربعين من المهاجرين، وخمسة وأربعين من الأنصار. ويقال إنه لم يبق من المهاجرين أحد إلا آخى بينه وبين أنصاري.** والأمر المؤكد، طبقًا لمرويات الإخباريين (الواقدي مثلًا) فقد أوقف النبي ﷺ نظام المؤاخاة (القرابات الجديدة) بعدما نشبت مشكلة المواريث بعد معركة بدر، ولذا قطعت بدر المواريث، وفرض صيام شهر رمضان في شعبان سنة اثنتين من الهجرة. وفي سنة أربع من الهجرة حرمت الخمر. وبالطبع، فقد كان أكثر المستفيدين من نظام المؤاخاة العظيم هذا، الفقراء الذين وجدوا فيه تطويرًا غير مسبوق للنظام الذي وضعه هاشم حين خلط الأغنياء بالفقراء، ليستفيدوا من تراكم رأس المال في مكة، بعد ازدهار تجارة الإيلاف. وكان من أصحاب النبي، ممن آمنوا به في وقت مبكر، فقراء، لا منازل لهم، وكانت القبائل تطلقهم عليهم تعبيرًا غريبًا سكان (صفة) أي إنهم لا يجدون مكانًا للنوم سوى الكعبة يأوون إليها، ومن هؤلاء واثلة بن الأسقع الكناني، وأبو قرصافة، **وأبو هريرة، وأبو ذر الغفاري** ونبيط بن شريط الأشجعي. وطلحة بن عمرو الليثي، ويقال: طلحة بن عبيد الله. وكان واثلة بن الأسقع يردد على أسماع المسلمين قوله:(كنت من أصحاب الصفة، وما منا إنسان يجد ثوبًا تامًا، قد جعل الغبار والعرق في جلودنا طرقًا). لقد تطلب تطوير النظام القرابي في الإسلام[2] مع بدايات انتصاره،

---

(1) أن النبي صلى ﷺ كان يبعث رجلًا من الأنصار من بني بياضة يقال له فروة بن عمرو فيخرص ثمر أهل المدينة. ومن طريق سليمان بن شبل عن رافع بن خديج أن النبي ﷺ كان يخرص النخل فإذا دخل الحائط حسب ما فيه من الأقناء ثم ضرب بعضها على بعض على ما يرى فيها فلا يخطئ. أخرجه عن إبراهيم بن أبي يحيى عن إسحاق بن أبي فروة.

(2) **الصحاح في اللغة**: 1/ 19، **الاشتقاق** لابن دريد : 1/ 51، 1/ 78، 10/ 94، **مختار الصحاح**: 1/ 13، **الفائق في غريب الحديث والأثر**: 1/ 14، **غريب الحديث لأبي عبيدة**: 1/ 73، **العباب الزاخر**(مادة فرا) 1/ 32، 1/ 116، **شرح الرضي على الكافية** 12/ 104.

وعلى وجه التحديد بعد معركة حنين، دمج كتلة من الأشراف والزعماء البارزين في القبائل العربية لا في قريش وحدها، وكانت أكثر التدابير التي اتخذها النبي ﷺ في هذا الإطار إثارة للغط داخل الجماعة الإسلامية. كان الأنصار يتزايدون، بينما يتضاءل عدد المهاجرين بسبب القتال، ولذا مُنع المهاجرون القلة من الحصول على الغنائم بالتساوي مع الأنصار، ثم أوقف مؤقتًا حصولهما معًا على الغنائم لصالح جماعات جديدة رغب النبي في استمالتها، وقام في هذا السياق **بتوسيع شبكة المستفيدين وبحيث تشمل سادات العرب لكسب ودّهم.**

إن اصطلاح المؤلفة قلوبهم The people with reconciled heart يشير إلى أولئك الذين يُعْطوَن من الزكاة كسبًا لودهم لحاجة الاسلام إليهم[1]. كان عدد **هؤلاء واحدًا وثلاثين من سادات العرب. ولما تولى أبو بكر رضي الله عنه الخلافة، وكثر المسلمون، أوقف العمل بنظام المؤلفة قلوبهم وأوقف**

---

(1) - عند المالكية: هم الذين يتألفهم الإمام على الإسلام.
- عند الحنفية: هم ثلاثة أقسام:
1 - قسم كفار كان عليه الصلاة والسلام يعطيهم ليتألفهم على الإسلام.
- قسم كان يعطيهم ليدفع شرهم.
- قسم أسلموا وفيهم ضعف في الإسلام، فكان يتألفهم ليثبتوا.
- عند الشافعية: هم ضربان: كفار، ومسلمون.
فأما الكفار فصنفان: صنف يرجى خيره، وصنف يخاف شره.
وأما المسلمون فهم أربعة أصناف: أ - قوم لهم شرف في قومهم يطلب بتألفهم إسلام نظرائهم.
- قوم أسلموا، ونيتهم في الاسلام ضعيفة، فيتألفون لتقوى نيتهم، ويثبتوا.
- قوى يليهم قوم من الكفار، إن أعطوا قاتلوهم. ويراد بإعطائهم تألفهم على قتالهم.
- قوم يليهم قوم عليهم زكوات، ويمنعونها، فإن أعطي هؤلاء قاتلوهم وقهروهم على أخذها منهم وحملوها إلى الإمام.
وإن لم يعطوا لم يأخذوا منهم الزكوات واحتاج الإمام إلى مؤنة ثقيلة لتجهيز من يأخذها.
- عند الحنابلة: هم السادة المطاعون في قومهم وعشائرهم.
وقولهم في تصنيفهم مطابق لقول الشافعية.
- عند الظاهرية: هم قوم لهم قوة لا يوثق بنصيحتهم للمسلمين

عنهم العطاء، وقال: انقطعت الرشا[1]. ومن الواضح أن القرآن مهد لمثل هذا التدبير منذ بداية تأسيس هذا النظام، عندما نزلت آية ﴿لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ﴾[2] قال الفقهاء بإجماعهم: نزلت هذه الآية في المُتَحابِّينَ في اللّه، وأن المؤَلَّفةُ قلوبهم في آية الصَّدَقات، كانوا قومٌ من سادات العرب أَمر اللّه نبيه في أول الإسلام بتَأَلُّفِهم، أَي بمُقارَبَتِهم وإِعْطائهم، ليُرَغِّبوا مَن وراءهم في الإسلام، فلا تَحْمِلهم الحَمِيَّةُ مع ضَعْف نِيّاتِهم. وقد **أعطاهم النبي ﷺ يوم حُنَيْن مائتين من الإبل(ومن بين هؤلاء الأَقْرَعُ بن حابِسٍ التميمي زعيم تميم، والعباسُ بن مِرْداسٍ السُّلَمِيّ وعُيَيْنةُ بن حِصْن الفَزارِيُّ وأَبو سفيانَ بن حَرْب)** ويقال أن النبي تأَلَّفَ في بعض الحالات، سادةِ الكفار. [3] وفي القرآن الكريم: ﴿وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾. والمؤلفة قلوبهم استنادًا لهذا التشريع القرآني هم، المستمالة قلوبهم بالإحسان والمودة. وفي القرآن ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ﴾[4]

(1) **القاموس الفقهي**: 1/ 33 ـ 34.
(2) سورة الأنفال: الآية: 63.
(3) لسان العرب 9/ 9.
(4) سورة التوبة، الآية: 60 .

الـمؤلفة قلوبهم

(أعطى النبي المؤلفة قلوبهم، كلًا منهم مائة بعير)

أَبو سفيان بن الحارث بن عبد المُطَّلِب[1]
عَلْقَمَةُ بْنُ عُلاثَةَ بْنِ عَوْفٍ العامريُّ من الأَشرافِ[2]
الحارث بن الحارث بن كَلَدَة وكان من أَشراف قَومه
(صحابيٌّ)
هِشَامُ بنُ عَمْرِو بنِ ربيعة بن الحارث الْعَامِرِيُّ[3]
عُيينه بن حِصْن الفَزارِيُّ
هِشَامُ بنُ الولِيدِ بنِ المُغِيرةِ الْمُخْزُومِيُّ[4]

(1) (وكان هجا النبي ﷺ هجاءً قبيحًا)

(2) عَلْقَمَةُ بنُ عُلاَثَةَ بنِ عَوْفٍ الْعَامِرِيُّ الْكِلَابِيُّ من الأَشْرَافِ (ارْتَدَّ ثم أَسْلَمَ وحَسُنَ إِسْلامُه واسْتَعْمِلُه عمرُ - رَضِيَ اللهُ عَنْه - عَلَى حَرَّانَ فماتَ بها).

(3) بِدُونِ مِائةٍ من الإِبِلِ وكان أَحَدَ مَن قام فِي نَقْضِ الصَّحِيفَةِ وله في ذلك أَثَرٌ عَظِيمٌ).

(4) أَخو خالدِ بنِ الولِيد (هكذا ذَكَره بعضُهُم ولكن فيه نُظِرَ).

طُلَيْق بن سُفْيان بنِ أميّة بنِ عبْدِ شمْس
ابنُه حَكيمُ بنُ طُلَيْق
هشام بن خنيس السلمي
ابن أبى حذيفة المخزومي[1]
ابن حكيم بن حزام الأسدي
ابن صبابة القيسي أخو مقيس
ابن العاص السهمي[2]
ابن عامر بن أمية الأنصاري
ابن عتبة بن ربيعة أبو حذيفة[3]
ابن عمرو بن ربيعة
العباس بن مرداس السلمي

(1) سماه الواقدي هاشمًا.

(2) أخو عمرو بن العاص المخزومي.

(3) والده عتبة بن ربيعة كان صديقًا حميمًا لأمية بن أبي الصلت وقد رأى فيه أمية نبيًا محتملًا في العرب.

مالك بن عوف[1]
الأقرع بن حابس
أبصةُ بن خالد

وَأَمَرَ النبي ﷺ بِالسّبْي وَالْغَنَائِم أَنْ تُجْمَعَ فَجُمِعَ ذَلِكَ كُلّهُ وَوَجّهُوهُ إلَى الْجِعِرّانَةِ، وَكَانَ السّبْيُ أَرْبَعَةً وَعِشْرِينَ أَلْفًا من الإبل، وَالْغَنَمُ أَكْثَرَ مِنْ أَرْبَعِينَ أَلْفَ شَاةٍ وَأَرْبَعَةَ آلاف أُوقِيّةً فِضّةً،فَاسْتَأْنَى بِهِمْ أَنْ يَقْدَمُوا عَلَيْهِ مُسْلِمِينَ بِضْعَ عَشْرَةَ لَيْلَةً. أَوّلَ النّاسِ مِنْهُمْ أَبُو سُفْيَانَ وَحَكِيمُ بْنُ حِزَامٍ[2] ثُمّ بَدَأَ بِالْأَمْوَالِ فَقَسَمَهَا.

(1) كان على هوازنَ يوم حُنَين، فأسلم فأعطاه النبيُ مائةً من الإبل.

(2) ابن هشام، **السيرة** : 498، 499، **زاد المعاد** ص 416 وَقَدِمَتْ الشّيْمَاءُ بِنْتُ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْعُزّى أُخْتُ رَسُولِ اللّهِ ﷺ مِنْ [ص 417] فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللّهِ إنّي أُخْتُك مِنْ الرّضَاعَةِ قَالَ: وَمَا عَلَامَةُ ذَلِكَ ؟ قَالَتْ عَضّةٌ عَضَضْتَنِيهَا فِي ظَهْرِي، وَأَنَا مُتَوَرّكَتُك . قَالَ فَعَرَفَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ الْعَلَامَةَ فَبَسَطَ لَهَا رِدَاءَهُ وَأَجْلَسَهَا عَلَيْهِ وَخَيّرَهَا، فَقَالَ: إنْ أَحْبَبْتِ الْإِقَامَةَ فَعِنْدِي مُحَبّبَةً مُكَرّمَةً وَإِنْ أَحْبَبْتِ أَنْ أُمَتّعَكِ فَتَرْجِعِي إلَى قَوْمِكِ؟ قَالَتْ بَلْ تُمَتّعُنِي وَتَرُدّنِي إلَى قَوْمِي، فَفَعَلَ فَزَعَمَتْ بَنُو سَعْدٍ أَنّهُ أَعْطَاهَا غُلَامًا يُقَالُ لَهُ مَكْحُولٌ وَجَارِيَةً فَزَوّجَتْ إحْدَاهُمَا مِنْ الْآخَرِ فَلَمْ يَزَلْ فِيهِمْ مِنْ نَسْلِهِمَا بَقِيّةٌ . وَقَالَ أَبُو عُمَرَ فَأَسْلَمَتْ فَأَعْطَاهَا رَسُولُ اللّهِ ﷺ ثَلَاثَةَ أَعْبُدٍ وَجَارِيَةً وَنَعَمًا، وَشَاءً وَسَمّاهَا حُذَافَةَ . وَقَالَ: وَالشّيْمَاءُ لَقَبٌ .

حصل الْـمُؤَلّفَة قُلُوبُهُمْ على غنائم معركة حنين

أَبو سُفْيَانَ بْنَ حَرْبٍ	أَرْبَعِينَ أُوقِيّةً وَمِائَةً مِنْ الْإِبِلِ
فَقَالَ ابْنِي يَزِيدُ ؟ فَقَالَ: «	أعْطوُهُ أَرْبَعِينَ أُوقِيّةً وَمِائَةً مِنْ الْإِبِلِ»
فَقَالَ ابْنِي مُعَاوِيَةُ ؟	قَالَ: «أَعْطُوهُ أَرْبَعِينَ أُوقِيّةً وَمِائَةً مِنْ الْإِبِلِ»
وَأَعْطَى حَكِيمَ بْنَ حِزَامٍ	مِائَةً مِنْ الْإِبِلِ ثُمّ سَأَلَهُ مِائَةً أُخْرَى فَأَعْطَاهُ
وأَعْطَى النّضْرَ بْنَ الْحَارِثِ بْنِ كَلَدَةَ	مِائَةً مِنْ الْإِبِلِ
وَأَعْطَى الْعَلَاءَ بْنَ حَارِثَةَ الثّقَفِيّ	خَمْسِينَ
وَأَعْطَى الْعَبّاسَ بْنَ مِرْدَاسٍ	أَرْبَعِينَ فَقَالَ فِي ذَلِكَ شِعْرًا، فَكَمّلَ لَهُ الْمِائَةَ
ثُمّ أَمَرَ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ بِإِحْصَاءِ الْغَنَائِمِ وَالنّاسِ ثُمّ فَضّهَا عَلَى النّاسِ فَكَانَتْ سِهَامُهُمْ:	
لِكُلّ رَجُلٍ	أَرْبَعًا مِنْ الْإِبِلِ وَأَرْبَعِينَ شَاةً
وكل فارس	أَخَذَ اثْنَيْ عَشَرَ بَعِيرًا وَعِشْرِينَ وَمِائَةَ شَاةٍ

إذا ما وضع هذا النظام بكل تفاصيله وتشريعاته القرآنية، داخل النسق الدلالي لآية ﴿تبت يد﴾) وفي سياق الصراعات التي خاضها النبي ﷺ ضد قراباته المباشرة؛ فإن العداوة بينه وبين عمّه سوف تكشف عن بعد مسكوت عنه. وبرغم أن حادث سرقة غزال الكعبة، **وقع في الجاهلية** وقبل ولادة النبي ﷺ على الأرجح بسنوات؛ فإنه ظل يمتلك، بقوة زخم روايته في أوساط القبائل، قدرة مذهلة على التأثير في العلاقات القرابية. وهذا الجانب

المنسيّ من تاريخ العرب، أثار على غير توقع مسألة هامّة للغاية، تتعلق بالأثر الذي تركته داخل الإسلام .**كانت يدا أبي لهب** منذ ذلك الحادث إذًا، مطلوبتان للقطع قصاصًا، لا لأنه سطا على أموال الكعبة وحسب، وإنما لأنه سخر من ديانة قريش **وتأليهها للغزال.** لكن السؤال المثير التي يتوجب طرحه، هو التالي: إذا كان أبو لهب سخر من دين العرب، فلماذا هرع أخواله الخزاعيين لحمايته، وكانوا على استعداد لخوض الحرب ضد أعمامه القرشيين؟ هل الباعث الديني، وحده، يقف وراء هذا التوتر، أم أن عاملًا آخر، كان أكثر قوة، بدا أنه هو محرّك النزاع داخل النظام القرابي، أي إن العصبية القبلية والعداوة الخفية بين **خزاعة أخوال أبي لهب، وقريش أعمامه، هي التي حالت** ولوقت طويل، دون أن تتمكن قريش من تطبيق شرعتها الدينية وإنزال القصاص بحقه. لقد فجرّ الاعتداء على ربّ الكعبة، صراعًا مسلحًا بين قبيلتين ترتبطان بنسب وثيق، ولم يكن الدفاع عن دين العرب، حاضرًا بالقوة نفسها التي حضرت فيها عوامل أخرى. يروي **ابن حبيب**[1] قصة هذا التنازع الذي أوشك أن يُدخل القرابات في معركة دامية، فبعد أن هرب أبو لهب والتجأ عند أخواله، تناهت إلى أسماعه أنباء البحث عنه:

> فبلغ **أبا لهب** أن قريشًا تأتيه فتوارى .**وكان له عشر خالات من خزاعة،** قد ولدن فيهم فأكثرن، فبسط بسطة ونادى فيهم، **فأقبل إليه من بني خالاته جمع كثير، فلم يقربه أحد، وقالوا: دعوه لإخوته)**

لعل لجوء أبو لهب، **للاحتماء بنظام القرابات القديم،** والاستعانة **بأخواله الخزاعيين ضد أعمامه القرشيين،** برغم علمه أن بينهم عداوة تضرب بجذورها عميقًا في تربة صراع دام **حول مكة والسيطرة على الكعبة،** هو تعبير واضح عن وجود عوامل وبواعث أخرى، ليس الدفاع عن دين العرب فيها ـ على الأقل بالنسبة لخزاعة ـ سوى عامل قليل الأهمية قياسًا إلى طموحها في اغتنام فرصة العودة إلى صراع قديم حول الكعبة. وفي نطاق هذه العودة إلى نظام القرابات، يكون **أبو لهب** سلك سلوكًا معاكسًا لسلوك

(1) ابن حبيب: **المنمق في أخبار قريش** :57-69.

جده **قصي** الذي استعان **بأعمامه ضد أخوال أبنائه من أجل طردهم من المكان المقدّس**. وهذه المرّة، يكون الحفيد قد عاد إلى أخواله لحمايته من قصاص قطع اليد الذي أنزله **الأعمام** بحقه. ولأن الحادث كان مدويًّا بفضل الأصداء الدينية التي خلفها، فقد احتفظت ذاكرات القبائل المسلمة، بحادث سرقة الغزال لوقت طويل، للدلالة على حدوث «**انتهاك للمقدس**» ، حتى أن **حسّان بن ثابت هجا أبي لهب** بمرارة في قصيدة تقطرّ سخرية من فعلته الشنيعة. لكن رواية **المقدسي**(1) تذهب إلى أن السارق كان **دييك الخزاعي وليس أبي لهب، وهذا أمر ينفرد به ولا تأييد له في أي من المصادر التاريخية**، كما يضيف زعمًا مشكوكًا فيه، أن حادث السرقة وقع حين دهم سيل جارف الكعبة وهدّم بعض جدرانها. قال:

> لما بلغ رسول الله ﷺ خمسًا وثلاثين سنة اجتمعت قريش لبنيان الكعبة ليرفعوها ويقفوها وإنما كانت رضمًا فوق القامة فجاء سيل فهدمه وفي جوفها بئر يحرز فيه كنز الكعبة وما يهدى لها، **فسرق منها رجل يقال له دويك فقطعت قريش يده**، وتهيأوا لبناء الكعبة وكان البحر قد رمى بسفينة إلى جدة فتحطمت فأخذوا خشبها، وكان بمكة رجل قبطي نجار فسوى لهم ذلك وبنوها ثماني عشرة ذرعًا فلما انتهوا إلى موضع الركن اختصموا.

إذا كانت هذه الرواية صحيحة، فيجب في هذه الحالة القول إن حادث سرقة الغزال وقع عام605م عندما كان النبي في الخامسة والثلاثين، وأن آية ﴿تبت﴾ نزلت بعد أقل من عشر سنوات من الحادث. ومع ذلك، وبرغم مرور ما يقارب العقد من السنوات ظلت ذكرى هذا الحادث، حيّة وقوية. لكن، وبرغم وجود هذا الكمّ المذهل من الروايات المتضاربة والمشوشّة التي روته، فقد ظل راسخًا في ذاكرات العرب والمسلمين، ومتواصلًا دون انقطاع تقريبًا، وأن كثرة من الرواة المتأخرين مع ذلك، نقلوا المروية دون تدقيق، عندما استخدموا مواد إخبارية تتصل بها. والأكثر إثارة أن الحادث ظل عالقًا في

---

(1) المقدسي: **البدء والتاريخ**، ص282

ذاكرات **الخلفاء**، فقد روى أبو حيان **التوحيدي**[1]**(الإمتاع والمؤانسة) أن عقيل بن أبي طالب**[2] عندما دخل على **معاوية بن أبي سفيان**، قال **معاوية** لجلسائه ساخرًا: هذا **عقيل عمّه أبو لهب**. فرد **عقيل** [3]على الفور على سخرية معاوية قائلًا: وهذا **معاوية عمّته حمّالة الحطب** .وفي رواية أخرى[4]:دخل عَقِيل على مُعاويةَ، فقال لأصحابه: هذا عَقيل عمه أبو لهب. لكن عَقيل ردّ بغضب: وهذا مُعاوية عَمَتُه حمَالةُ الحَطب؛ ثم قال: **يا مُعاوية إذا دخلتَ النار فاعْدِلْ ذاتَ اليَسار، فإنك سَتَجد عمّي أبا لهب مُفْترِشًا عمِّتَك حَمَّالَةِ الحَطب، فانظُر أيهما خير: الفاعلُ أو المَفْعول به**؟بيد أن رواية **لابن قتيبة في العقد الفريد**[5]، ترسم صورة ساخرة ومريرة عن هذا الهجاء المتبادل بين المسلمين في عصر الخلافة، بين متنافسين من أبناء العم، فقد أهان معاوية الزبير عند لقائهما في البلاط الأموي بتذكيره بشجرة أنسابه الأسرية، ولم يكد السجال ليهدأ حتى نهض معاوية وقام خطيبًا ليقول بغضب شديد: قاتلك اللّه يا بنَ الزُّبير، ما أعياك وأبغاك أتفخر بين يدي أَمير المُؤمنين وأبي عبد الله إنّك أنت المُتعدّي لِطَوْرك، الذي لا تَعرف قَدْرَك، فَقِسْ شِبْرك بفِتْرك، ثم تعرّف كيف تَقع بين

---

(1) **العقد الفريد**: 1/ 462 وأبو حيان التوحيدي، **الإمتاع والمؤانسة** : 1/ 178 (ودخل عَقِيل على مُعاويةَ، فقال لأصحابه: هذا عَقيل عمه أبو لهب. قال له عَقيل: وهذا مُعاوية عَمَتُه حمَالةُ الحَطب؛ ثم قال: يا مُعاوية إذا دخلتَ النار فاعْدِلْ ذاتَ اليَسار، فإنك سَتَجد عمّي أبا لهب مُفْترِشًا عمِّتَك حَمَّالَةِ الحَطب، فانظُر أيهما خير: الفاعلُ أو المَفْعول به؟ وقال له معاوية يومًا: ما أبين الشَّبَق في رِجالكم يا بني هاشم! قال: لكنه في نِسائكم أبينُ يا بني أميَّة. وقال له مُعاوية يومًا: واللّه إنّ فيكم لَخَصلة ما تُعْجِبني يا بني هاشِم؟ قال: وما هي؟ قال: لِينٌ فيكم؛ قال: لِينُ ماذا؛ قال: هو ذاك؛ قال: إيانا تُعير يا مُعاوية! أجل واللّه، إن فينا لَلِينًا من غير ضَعْف، وعِزًا من غير جَبَروت؛ وأما أنتم يا بني أمية، فإنّ لِينكم غَدْر، وعِزَكم كُفْر- **العقد الفريد**).

(2) **البداية والنهاية** : 7/ 151 أمر النبي (ثلاثة من كتّاب قريش، وهم عقيل بن أبي طالب ومخرمة بن نوفل وجبير بن مطعم، فكتبوا ديوان العساكر الإسلامية على ترتيب الأنساب مبتدئًا من قرابة الرسول وما بعد فالأقرب، فالأقرب).

(3) القاضي التنوخي : **المُستجاد من فعل الأجواد** 1/ 377.

(4) ابن عبد ربه الأندلسي: **العقد الفريد** 1/ 460.

(5) ابن عبد ربه الأندلسي: **العقد الفريد**، 1/ 468.

عَرانِين بني عَبْد مَناف. أما والله لئن دُفِعْتَ في بُحور بني هاشم وبني عبد شمس لقطعَتْك باع مواجهًا، ثم لترمين بك في لُججها. فما بقاؤك في البحور إذا غَمرتك، وفي الأمواج إذا بَهَزَتْك هنالك تعرف نفسَك، وتَنْدم على ما كان من جُرأتك، وتَمنّى ما أصبحتَ فيه من أمان، وقد حِيل بين العَيْر والنَّزَوان. فأطرق ابن الزُّبير مليًّا ثم رَفع رأسَه فالتفت إلى مَن حوله، ثم قال: **أسألكم باللّه، أَتعلمون أنَّ أبي حواريُّ رسول اللّه ﷺ، وأن أباه أبا سُفيان حاربَ رسولَ اللّه ﷺ وأن أمّي أَسماءُ بنت أبي بَكْر الصدّيق، وأمه هِنْد الأَكباد؛ وجَدّي الصّدّيق، وجدَه المَشْدوخ ببدر ورَأسُ الكُفر، وعَمَّتي خديجة ذات الخَطر والحَسب، وعَمَّته أمّ جَميل حمّالةُ الحَطَب، وجدَّتِي صفيّة، وجدَّته حَمامة، وزَوْجَ عمتي خيرُ ولد آدم محمدٌ ﷺ وزوج عَمّته شرُّ ولد آدم أبو لهب سَيصلى نارًا ذات لهب، وخالتي عائشة أمّ المؤمنين. وخالَته أشقَى الأشقين، وأنا عبدُ اللهّ وهو مُعاوية.** وما أن استمع معاوية إلى الهجاء المقذع حتى ردّ بغضب: ويحك يا بن الزُّبير، كيف تَصف نفسك بما وصفتَها؟ **واللّه ما لَك في القَديم مِن رِئاسة، ولا في الحَديث من سياسة،** ولقد قُدْناك وسُدْناك قَديمًا وحَديثًا، لا تَستطيع لذلك إنكارًا، ولا عنه فِرارًا، وإنّ هؤلاء الخُصوم ليعلمون أن قريشًا قد اجتمعت يوم الفِجار على رئاسة **حَرْب بن أمية، وأن أباك وأسرتك تحت رايته رَاضُون بإمارته،** غير مُنْكرين لِفَضْله ولا طامعين في عَزله، إنْ أمَر أطاعوا، وإنْ قال أنصتوا؛ **فلم تَزل فينا القيادةُ وعِزُّ الولاية حتى بَعث اللهّ عز وجلّ محمدًا ﷺ فانتخبه** من خير خلقه، من **أسرتي لا من أسرتك، وبَني أبي لابني أبيك، فجحدته قريش أشدَ الجُحود،** وأنكرته أشدَ الإنكار، وجاهدتْه أشدَّ الجهاد، إلَّا مَن عَصم اللهّ من قُريش؛ فما ساد قريشًا وقادهم إلا **أبو سفيان بن حرب،** فكانت الفِئتان تَلتقي، ورَئيس الهُدى منّا ورئَيس الضّلالة منّا، فمَهديّكم تحت راية مَهدينا، وضالكم تحت راية ضالنا، فنحنُ **الأربابُ وأنتم الأذناب،** حتى خلّص اللهّ أبا سفيان بن حَرب بفَضْله من عَظيم شركه، وعَصمه بالإسلام من عبادة الأصنام، فكان في الجاهليّة عظيمًا شأنُه، وفي الإسلام مَعروفًا مكانُه، **ولقد أعْطِي يومَ الفَتح ما لم يُعْطَ أحدٌ من آبائك،** وإنّ مُنادِيَ رسول الله ﷺ نادَى: **مَن دخل المَسجد فهو آمِن، ومن دخل دارَ أبي سُفيان فهو أمن؛** وكانت دارُه حَرَمًا، لا دارُك ولا دارُ أبيك؛ وأما هِنْد، **فكانت امرأة من قريش،** في الجاهليّة عظيمة الخطرِ، وفي الإسلام

كريمة الخَبر؛ وأما **جَدُك الصدِّيق، فَبِتَصديق عبد مناف سُمِّي صِدِّيقًا لا** بتَصْديق عبد العُزّى؛ وأما ما ذَكرتَ من جدِّي المَشْدوخ ببدر فَلَعمري لقد دعا إلى البِراز هو وأخوه وابنُه، فلو بَرزتَ إليه أنتَ وأبوك ما بارزوكم ولا رأوْكم لهم أكفاء، كما قد طَلب ذلك غيركم فلم يَقْبلوهم، حتى برز إليهم أكفاؤُهم من بني أبيهم، فَقَضىَ اللّه مَناياهِم بأيديهم، فنحن قَتلنا ونحن قُتلنا، وما أنت وذاك؟ وأما عَمِّتك أم المُؤمنين، فبنا شرُفت وسُمِّيت أمَّ المؤمنين، وخالتُك عائشة مِثْلُ ذلك، وأما صَفِيّة، فهي أدْنتك من الظلّ ولولاها لكُنتَ ضاحِيًا؛ وأمّا ما ذكرت من عمّك وخال أبيك سيّد الشُّهداء، فكذلك كانوا رَحمهم اللّه، وفخرُهم وإرثُهم لي دونك، ولا فَخَر لك فيهم، ولا إرثَ بينك وبينهم.

إن هذا الجانب من تبادل الشتائم بطريقة لبقة بين الخليفة وعقيل بن أبي طالب، شقيق الإمام علي خصمه اللدود، يكشف حقيقة أن نظام القرابات القديم الذي أعاد الإسلام صياغته، وبحيث أن عمّ النبي وزوجته يصبحان مادة للهجاء اللاذع، كان لا يزال قويًا كأنه لم يتزحزح، برغم الهزّة العنيفة التي أحدثتها الآية. لقد زعزعت أسس هذا النظام، ولكن المسلمين بما فيهم الخليفة نفسه، كما يتضح من هذا المثال، كانوا لا يزالون متشبثين به بقوة، ويستخدمون مواده في صراع سياسي، وهذه المرّة ليس على المكان المقدّس من أجل إدارته والحصول على الامتياز الديني؛ بل من أجل الاستحواذ عليه بواسطة سلطة الخلافة، **فمعاوية** يريد بقوله الإشارة إلى أن خصمه **علي بن أبي طالب، ليس سوى ابن أخ لشخص هجاه القرآن.** ولذلك أعاد شقيقه المنشق عنه عقيل، تذكير معاوية بأن أسرته أيضًا كانت موضوعًا للهجاء. ولأن الإسلام وهو يستذكر حادث السرقة ذاك، واصل لمرة واحدة العمل بالعقوبة ذاتها التي عملت بها قريش والعرب في الجاهلية، فقد جاء النصّ القرآني ليعيد تحديد نوع العقوبة التي يجب أن تنزل بحق السارق: **قطع اليد.** قال تعالى﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾[1]. ومن غير شك؛ فإن العمل بعقوبة هي من تراث الجاهلية، يوجب تبرئة الإسلام من تهمة إدخالها في حياة العرب والمسلمين، فهو عمل بها في سياق الحفاظ على بعض الأعراف التي كان

(1) سورة المائدة: 38 ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

يصعب تخطيها، لاعتبارات تتعلق بقوة الراسب الثقافي، القبلي والديني وأعاد تكييفها مع شرعته. ما يثير الدهشة أكثر في رواية **سرقة غزال الكعبة**، أن الرواة **يصمتون عن سرّ اختفاء أبي لهب وعدم عودته للشراب مع سفهاء قريش**، إذ من الواضح أنه لم يعد إلى مجلسهم خلال الشهر الذي لم تنتبه فيه قريش إلى اختفاء ربها ؟ وهو ما يعني، أنه أراد من العدوان على **الغزال**، والسطو على أموال الكعبة، شيئًا آخر غير **السرقة وشرب الخمر**. ولذلك، ليس دون معنى أن أبي لهب، واسمه عبد العُزّى، وكان يتقرّب لإلهة العرب الكبرى (العُزّى) ويحتفظ بعلاقات صداقة مع سادنها، هو وليس أي شخص آخر منْ اقترح الاعتداء على غزال الكعبة الذهبي. إن هذا الجانب من الحكاية، يفصح عن مستوى آخر من الصراع داخل النظام الديني ـ الثقافي للعرب، بين **الإلهة الأم العُزّى والغزال**. وقد تكون العنزة والغزال وسائر الظباء والوعول عائلة طوطمية واحدة، ارتبطت بحقبة الرعي، **فكلمة عزى هي ذاتها العنزة، اسم يطلق على الظباء أيضًا**[1] بإسقاط النون ـ الزائدة ـ، وهما معًا في إطار هذا النظام الثقافي معبودان قديمان (طوطمان) متنافسان، يتزاحمان داخل الدلالة الواحدة. وحسب علماء اللغة العرب؛ فإن العنز ـ والعنزة تطلق على الظباء(الغزلان). إن لهذا التنافس على الدلالة الواحدة، علاقة بحقبة الرعي والصيد الطويلة التي تماهت فيها العائلة الطوطمية مع العائلة البشرية ودخلت في شجرة أنسابها. **ويفهم من المعالجة اللغوية الممتازة التي قام بها علماء اللغة العرب للاسم، فإن العُزّى اسم الأنثى من العز ـ العزيز، الإله الذكر. وفي مختار الصحاح**[2] **العُزَّى تَأنيثُ الأَعَزّ وقد يكون الأَعَزّ بمعنى العزيز. والعُزَّى بمعنى العزيزة. والعُزَّى أيضًا اسمُ صَنَم. وقيل العُزَّى سمُرةٌ كانت لِغطَفَانَ يَعْبُدُونها وكانوا بَنَوْا عليها بيتًا وأقاموا لها سَدَنةً فبَعَث إليها رسولُ الله ﷺ خَالِد بنَ الوَلِيدِ فَهَدَم**

---

(1) الصاحب بن عباد، **المحيط في اللغة**: 1/ 68 العَنْزُ: الأنثى من المِعْزى والأوْعَال والظبَاء، والجَمْعُ: عُنُوْزٌ، الجوهري: **الصحاح في اللغة**: 1/ 67: التَيْسُ من المَعْزِ، والجمع تُيوسٌ وأَتْياسٌ. والتَيَّاسُ: الذي يمسكه. يقال للذكر من الظباء أيضًا: تَيْسٌ، وللأنثى: عنزٌ. والمَتْيُوساءُ: التُيوسُ. ويقال: اسْتَتْيَسَتِ العنزُ، كما يقال: استَنْوَقَ الجمل.

(2) زين الدين الرازي، **مختار الصحاح** : 304/ 1

البيتَ وأحْرَقَ السَّمُرةَ. بروي صاحب[1] كتاب **تاريخ المدينة المنورة** (وهو من أقدم المصادر التي وصلتنا عن تاريخ المدينة المنورة. ويعتبر من أهم مصادر الطبري في تاريخه، والأصفهاني في الأغاني) قصة **عنزة النبي ﷺ** وهي عصاه. قال: (أخبرني عبد العزيز بن عمران، عن الحسن بن عمارة، عن ابن شهاب، عن أَبي سلمة، وحميد ابني عبد الرحمن بن عوف، عن أَبيهما رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ تُخْرج له **عنزة يوم العيد، ثم يخرج ليمشي حتى يأْتي المصلى، فتغْرَزُ له، فيقوم إِليها فيصلي ركعتين، يكثر في الأُولى سبعًا، وفي الآخرة خمسًا)**[2]. إن عصا النبي ﷺ التي كانت على شكل منحوتة للعنزة، هي من بقايا هذا النظام الثقافي ـ الروحي عند العرب. **وفي تاج العروس**[3] **العَنَزَةَ مُحَرَّكَةً: رُمَيْحٌ بين العصا** والرُّمْح قالوا: قَدْر نِصْفِ الرُّمْح أَو أَكثرَ شيْئًا فيه سِنانٌ مثلُ سِنانِ الرُّمْح وقيل: في طَرَفه الأَسْفَلِ زُجٌّ كزُجِّ الرُّمْح يتَوَكَّأ عليها الشيخُ الكبيرُ وقيل: هي أَطْوَلُ من العصا وأَقصَرُ من الرُّمْح والعُكَّازَةُ قريبةٌ منها. **وفي لسان العرب**[4] **مادة (عنز) العَنْزُ الماعِزَةُ وهي الأُنثى من المِعْزَى والأَوْعالِ والظِّباءِ والجمع أَعْنُزٌ وعُنُوزٌ وعِنازٌ وخص بعضهم بالعِنازِ جمع عَنْزِ الظِّباءِ.** وقال **الواقدي**[5] (في سنة اثنتين من مقدمه، **صلى العيد، وحُمِلت له العنزة**، وكانت للزبير بن العوام، أَعطاه إِياها **النجاشي**، فوهبها للنبي ﷺ، فكان يُخْرَج بها بين يديه يوم العيد وهي اليوم بالمدينة عند

---

(1) ابن شبة: **تاريخ المدينة المنورة**، تحقيق الأستاذ فهيم محمد شلتوت. وضع فهارسه د.بكري شيخ أمين، طبعة جدة 1403هـ / ص : 139.

(2) ابن شبة، **تاريخ**: 1/ 139-140 (فتلك العنزة اليوم عند مؤذني مسجد رسول الله ﷺ بني سعد يتوارثون حملها بين يدي الأئمة) أبو نعيم الأصبهاني، **تاريخ أصبهان**1/ 345 (عن عائشة قالت: كنت أطيب النبي ﷺ لإحلاله حين أحل قبل أن يطوف بالبيت. حدثنا الحسين بن علي ثنا عبد الرحمن بن أحمد الختلي حدثني إبراهيم بن موسى المقرئ ثنا محمد بن بشير ثنا عدي بن الفضل ومبشر بن ورقاء عن مسعر عن عون بن أبي جحيفة عن أبيه أن النبي ﷺ صلى بالأبطح صلاة الظهر وبين يديه عنزة والناس يمرون من ورائه)

(3) الزَّبيدي محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، **تاج العروس من جواهر القاموس** 1-6354.

(4) **لسان العرب**، 5/ 381.

(5) الواقدي، **المغازي** : 1/ 31

المؤذنين.) ومن الواضح أن هذه الرواية تشير إلى وجود منحوتة تمثل **عنزة أهداها ملك الحبشة المسيحي للنبي** ﷺ مع (حربات، **فوهب حربة لعمر بن الخطاب** رضي الله عنه، ووهب **حربة لعلي بن أبي طالب** رضي الله عنه وحبس لنفسه واحدة)[1] فأما حربة علي رضي الله عنه فهلكت، وأما حربة عمر رضي الله عنه فصارت إلى أهله، وأما الحربة التي أمسكها النبي ﷺ لنفسه، فهي التي يُمْشَى بها يوم العيد. قال **الواقدي**[2]، حدثني بذلك إبراهيم بن محمد بن عمار بن سعد القرظ، عن أبيه، عن جده رضي الله عنه.حدثنا إبراهيم بن المنذر قال، حدثنا عبد الله بن وهب، عن الليث بن سعد: بلغه أن **العنزة التي كانت بين يدي النبي ﷺ إذا صلى**، كانت لرجل من المشركين، فقتله الزبير بن العوام يوم أُحُد[3] وعن نافع، عن ابن عمر أن النبي كان **يُمْشَى بين يديه بالعنزة**[4]. **وقال القعنبي: كانت تُحْمَل العنزة مع النبي**[5] و(حدثنا سفيان الثوري، عن إسماعيل بن أمية، عن مكحول، قال: إنما كانت الحربة **تُحْمَل** مع النبي ﷺ لأنه كان يصلي إليها. وحدثنا أبو داود قال، حدثنا إبراهيم بن سعد، عن أبيه، عن حميد بن عبد الرحمن: أن النبي ﷺ كان **يخرج يوم العيد عنزة فيركزها**، ويصلي إليها:

وحدثنا سويد قال، حدثنا علي بن مسهر، عن هشام بن عروة، عن أبيه: أن **النبي** ﷺ **طلب العنزة** من الزبير رضي

---

(1) الواقدي، **المغازي** 1/ 369.

(2) الواقدي، **المغازي**، 1/ 31 (وأخذ رسول الله ﷺ العنزة، فكانت تحمل بين يديه، وأبي بكر، وعمر، وعثمان، رضوان الله عليهم).

(3) الواقدي، **المغازي**، كذلك.

(4) الخطيب البغدادي، **تاريخ بغداد**: 5/ 449 (أن رسول الله ﷺ كان يخرج إلى المصلى يوم العيد فيذهب في طريق ويرجع في طريق أخرى وتركز له عنزة فيصلي إليها).

(5) **مختصر تاريخ دمشق**، 1/ 226 (عن عون عن أبيه: أن النبي ﷺ خرج في حلة حمراء، فركز عنزةً، فجعل يصلي إليها بالبطحاء يمر من ورائها الكلب والحمار والمرأة) .**مختصر** 1/ 279 (إن عنزة النبي ﷺ لا يمشى معها بحربة. فرد الحراب ومشينا بها بين يديه حتى غرزناها في القبلة)، **ومختصر تاريخ**: 3/ 179 (قدم علينا عمر بن الخطاب بالجابية على بعير مقتب بقتب عليه عباء قطوانية، وبيده عنزة) وابن قتيبة الدينوري، **عيون الأخبار**، 1/ 87 (خرج المغيرة بن شعبة مع النبيّ في بعض غزواته وكانت له عنزة).

الله عنه فأَعطاها إِياه. ثم طلبها منه **أَبو بكر** رضي اللّه عنه فأَعطاه إِياهُ، ثم طلبها **عمر** رضي اللّه عنه فأَعطاها إِياه، ثم طلبها **عثمان** رضي الله عنه فأَعطاها إِياه، فلما قتل عثمان رضي الله عنه وقعت عند **آل عليّ** رضي اللّه عنه، فطلبها منهم **عبد الله بن الزبير** رضي الله عنهما، فأَعطوه غيرها. قال: **واللّه ما هي هذه حتى أَعطوه إِياها**[1].

ودون شك، ثمّة دلالة خاصة لنصب العنزة هذه أثناء صلاة العيد في الإسلام، يمكن إدراجها في النسق الثقافي ذاته لطقوس الخصب القديمة، المستمرة والمتواصلة في المجتمع[2]. كما تشير كل هذه الروايات إلى أن **الحربة ومنحوتة العنزة هما شئ واحد**، وأن الحربة كانت على هيئة **رأس عنزة**، وأن النبي ﷺ كان يغرزها في الأرض ويصلي. وبالطبع، لم يجد النبي ﷺ والمسلمون أدنى حرج من استخدام هذه المنحوتة كعصا يتوكأ عليها أو تنصب في الصلاة في اتجاه القبلة، لأنها لا تنطوي على تصوير بشري للإله، وإنما تصوير لحيوان حظي بمكانة خاصة في ثقافة العرب، وبحيث حملت إحدى القبائل اسمها: عنزة حتى أن أحد أبناء هذه القبيلة في مطلع الإسلام، حين سمع أن النبي يصلي إلى عنزة، توهم أنه صلى لعنزة القبيلة[3]. ويضيف **ابن شبة** توضيحًا هامًا لمقاصد روايته: إن حادث السرقة

---

(1) الواقدي، **المغازي**، المصدر نفسه.

(2) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، 1/ 8 مما يؤكد أن الراسب الثقافي كان فعالًا وتقاليده كانت متواصلة، أن رواة الأخبار ربطوا بين عنزة النبي ﷺ وعنزة النبي موسى، وقد قرأ ابن الأثير إحدى آيات القرآن على النحو التالي: (وقال له: ﴿إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ ﴾ [القصص: 20]. قيل: كان خربيل مؤمن آل فرعون، كان على بقيّة من دين إبراهيم عليه السلام، وكان أول من آمن بموسى، فلما أخبره خرج من بينهم (خائفًا يترقب، قال: ﴿رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: 28 : 21]، وأخذ في ثنيات الطريق، فجاءه ملك علي فرس وفي يده عنزة، وهي الحربة الصغيرة، فلمّا رآه موسى سجد له من الفَرَق، فقال له: لا تسجد لي ولكن ابتعني؛ فهداه نحو مدين، وقال موسى وهو متوجه إليها: ﴿ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [القصص: 28 : 22].

(3) الذهبي، تاريخ الإسلام : 5/ 33 (يروى عن أبي موسى أنه قال: نحن قوم لنا شرف، صلى النبي ﷺ إلينا. يريد أنه صلى إلى عنزة، فما أدري هل فهم معكوسًا أو أنه قال ذلك مزاحًا).

هذا، وحيث **ارتبط انتهاك المقدس بالخمر**، لم يكن ـ وليس ـ معزولًا عن واقعة تاريخية أخرى، تعرّضت **للأسطرة** (تحوّلت إلى أسطورة) ولا خارج سياق سلسلة من المرويات والقصص التي جرى خلالها **نهب ممتلكات الكعبة والعدوان عليها**، وكانت إحدى أكثر هذه المرويات مرارة وإثارة، تلك التي جرت في **القرن الرابع الميلادي** (نحو450 م) مع صعود دور **قصي جد الرسول** ﷺ. لقد وقعت حادثة تاريخية لها مدلولات خطيرة قبل حادث **سرقة الغزال** بوقت طويل، ضجّت لها العرب وتبادلت أخبارها كشائعة، وتقول إن **قصي** جدّ النبي ﷺ **اشترى مفاتيح الكعبة من أبي غبشان الخزاعي سادن الكعبة، بزق خمر وبعير**[1]. كما وقعت في سياق هذه الحادثة، حادثة أخرى مرّوعة، حين **سرقت خزاعة**، (وفي روايات أخرى **قبيلة إياد**)[2] **الحجر الأسود** .وقد اختلفت وتضاربت، معظم الروايات حول هذين الحادثين، بصورة يصعب التوفيق بينها، كما حدث خلاف بين المؤرخين حول المكان الذي جرت فيه مبادلة المفاتيح بزق الخمر .**والفاكهي** [3] في سياق هذا الجدل، ينقل عن الزبير بن بكار، النسّابة الشهير، أن **قصي** (**اشترى مفتاح الكعبة** من أبي **غبشان في الطائف**)[4] وهذا ما يجب أن يلقي بالكثير من الشكوك على مروية بيع المفاتيح، فهي جرت في **الطائف لا في مكة. إن الفاكهي** الذي كتب تاريخ مكة بكثير من الموضوعية، لا يتردد عن استخدام مواد الواقدي التاريخية المشكوك فيها (فهو بالنسبة للفقهاء متروك وغير دقيق) وذلك من أجل إعادة بناء مروية جديدة تخص هذا الحادث، فيقول نقلًا عن **الواقدي** عن **ابن جريج** أن سبب البيع لم تكن له **علاقة بشرب الخمر**؛ بل بقرار **أبي غبشان الخزاعي التخلي عن نصيبه من إدارة البيت الحرام**، والعودة إلى اليمن نهائيًا. ويبدو أن مروية **مقايضة المفاتيح بالخمر**، جرت صياغتها في إطار صراع القرابات، فقد كان رحيل آخر

---

(1) المسعودي، **مروج الذهب** 2: ص.

(2) غالبًا ما يلاحظ معالج النصوص القديمة، هذا النمط من التداخل، لكن المروية الخاصة بسرقة إياد للحجر الأسود تبدو أقل إقناعًا، انظر حول إياد، مثلًا.

(3) الفاكهي، **أخبار**، 5: 160.

(4) الفاكهي، **أخبار**، كذلك.

الخزاعيين من سدنة الكعبة إلى اليمن، يتبدى كفرصة تاريخية نادرة في أعين القرشيين، أنسبائهم الطامحين لاسترداد إرثهم الديني والاجتماعي في مكة، فهم أبناء إسماعيل باني البيت. وأكثر ما كانوا يأملون في حدوثه، بعد وفاة زعيم خزاعة **حُليل ابن سلول بن حبشية الخزاعي**، حمو قصي، أن يتنازل آخر السدنة عن منصبه. وحين حانت اللحظة، وتمكن قصي من عقد الصفقة معه، فقد جرى آنئذٍ تصويرها بطريقة ساخرة: مفاتيح المكان المقدس، موضع الصراع الدامية، لقاء زق خمر وبعير؟ ولتبرير مضمون هذه السرديّة، الجارح والمتهكم بالأنسباء، فقد جرى التركيز على أن **أبي غبشان** كان طماعًا شرهًا نهمًا. يقول **الفاكهي** نقلًا عن الواقدي:

وكانت البحائر تنحر عند البيت عند **أساف ونائلة**، فكان **أبو غبشان** له من كل بحيرة رأسها والعنق، ثم إنه استقل ذلك ـ شعر أنه قليل ـ فأبى أن يرضى بذلك، فقال: يزيدون الأكتاف، فقالوا: يزيدون الأكتاف. ثم أدب لهم ـ أطعمهم ـ فقال: يزيدون العجز، فأبى الناس ذلك عليه، فأبى رجل من بني عقيل. وكان قَدِمَ ـ ببدنة له سمينة فنحرها، وأبو غبشان قائم، فقال: ابدأ بالعنق والرأس والكتف والعجز. فقال العقيلي: فما بقي إذًا لمن سيقت إليه؟ قال: الأكارع. قال: فرفدهُ الناس ومن حضر من قريش وغيرهم، وقالوا: عبث، كنت أولًا تقول الرأس والعنق، فكان هذا أخف من غيره، ثم تعديت إلى الأكارع. فقال: لا أقيم في هذا البلد أبدًا إلا على ذلك، فلمّا أبوا عليه قال: **منْ يشتري نصيبي من البيت، بأدواة تبلغني إلى اليمن، أو بزق خمر. فاشترى نصيبه في ذلك قصي وارتحل أبو غبشان إلى اليمن**، فقال الناس: **اخسر من صفقة أبي غبشان. قال الواقدي: ورأيتُ مشيخة خزاعة تنكر هذا**[1].

---

(1) الفاكهي، أخبار، كذلك.

هذه الواقعة التي يرويها **الواقدي** ويشكك فيها بنفسه، تتعارض مع بعض الروايات القائلة، أن الصفقة تمّت **في الطائف وليس في مكة، مثلًا** رواية **الفاكهي**، وبالتالي فالربط بين نحر البحائر في البيت من جهة، وجشع **أبي غبشان** وبيعه المفاتيح من جهة أخرى، لا يبدو منطقيًا أو متناغمًا مع مضمون المروية، فهي تهتم بتفسير قرار هجرة آخر السدنة. وعلى الأرجح، تبدو قصة رحيل آخر سدنة الكعبة، بعد بيع حصته من البيت، ذات أساس تاريخي يرتبط بانحطاط مكانة **خزاعة** وصعود دور **قريش**، وهما عاملان مركزيان، أديّا إلى تصاعد أشكال من صراع القرابات بين **الخزاعيين والقرشيين، وأن دلالة البيع ذات صلة حميمة بشعور الخزاعيين، بضعف وتآكل أدوارهم التاريخية في ميدان التنافس مع قريش، الصاعدة بصعود دور بطلها الأسطوري قصي**. كما أن واقعة شراء المفاتيح، سواء بصفقة مجحفة (زق خمر وبعير) أم جرّاء عوامل ضاغطة أخرى، أرغمت ابن غبشان على الرحيل، وترك مكانه لقصي؛ فإن المروية التي اهتمّت بسردها، تعطي إشارات هامّة عن صراع قرابات (الصهر ضد حميّه) والأعمام ضد أخوال الأولاد، ليس مصدره سوى الرغبة في حسم التنافس التاريخي على المكان المقدّس. وإذا كان لا بدّ من رؤية هذا الباعث بعمق، فإن لمن الواجب علينا تتبع الظروف المحيطة بنشأة قصي بين أخواله القضاعيين، حيث اكتشف هناك شجرة أنسابه الضائعة. نشأ **قصي** بإجماع الرواة والإخباريين الكلاسيكيين في البادية، عند **أخواله القضاعيين**، بعد وفاة والده ورحيل والدته إلى مضارب قبيلتها، وعاش هناك صبيًا برعاية **ربيعة بن حزام، زوج أمه الجديد**. وثمّة في نطاق الرواية الخاصّة بصعود دوره في حياة العرب(لا قريش وحدها نحو 400م على أبعد تقدير) ما يشير إلى أنه يرتبط باكتشاف الصبي لقراباته الدموية وتعرّفه إلى نسبه الحقيقي، وإن اكتشاف هذه القرابات، هو الباعث الحقيقي المحرّك في قصة استيلائه على مكة، إذ وقع حادث عرضي أدّى إلى تغيير مجرى حياته بالكامل، وذلك حين **صارعه غلام من قضاعة**[1]، فصرعه، فقال له: الحقْ بقومك فلست

(1) أبو البقاء الحلي، **المناقب البزيدية في أخبار الملوك الأسدية** ص: 130 .

منّا، قال: فمنْ أنا؟ قال: سلْ أمك. وحين سأل الغلام أمه، أخبرته قائلة: أنت خير منه حسبًا ونسبًا، فأنت من **كلاب بن مرّة**. كان اكتشاف **قصي** لوالده الحقيقي الميت، يتلازم مع اكتشافه لمعنى وجوده بين أخواله لا أعمامه، وهؤلاء في النظام القرابي عند العرب، يستمدون قيمتهم ومكانتهم من أعراف ومعتقدات دينية واجتماعية، تضاهي الأب بالعم، بدرجة موازية لمضاهاة الأب بالخال، ولكن مع فارق جوهري، فوجود ابن القبيلة بين أعمامه، يعيدهُ بسهولة إلى القبيلة بوصفه ابنها، بينما يظل ابن الأخت في النظام القرابي لعشيرة الخال، خارج العشيرة، وهي لا تعده ابنًا مهما طال الزمن به. وهذا هو المغزى الفعلي من رواية قصة اصطراعه مع غلام **قضاعي**، أسقطه أرضًا، ولكن ليقول له، أنه ليس جديرًا بالبقاء بين أخواله، فهو ليس منهم، أي ليس شبيهًا به (ليس قضاعيًا) أي ليس مماثلًا. كان لا بدّ من هذا الحادث العرضي، حيث يظهر صبي آخر، مماثل له يصطرع معه فيصرعه، ولكن فقط ليدّله على شجرة أنسابه. وسوف نرى، كيف أن هذه المتوالية سوف تتكرر في أسرته، فأحد أحفاده، **عبد المطلب**، عاش هو أيضًا بين أخواله بني النجار بعد وفاة والده هاشم (هذه المتوالية تلاحظ تكرار موت الأب، فهذه المرة سيموت أب آخر ويتغرّب الطفل). كما أن أحد أبناء **عبد المطلب**، **وهو أبو لهب**، سيضطرّ إلى العيش مؤقتًا بين أخواله الخزاعيين، ولكن هربًا من أعمامه. ومن بين هؤلاء جميعًا، وحيث تتكرر متوالية البحث عن النسب، سيكون أحد أحفاد **عبد المطلب** (وهاشم وقصي) النبي ﷺ أكثرهم تطلعًا إلى ربط البُعد القرابي بالبُعد الديني، ولذلك، بعد وفاة والد النبي وأمه (على هذا النحو تكتمل دائرة المتوالية، في حالة قصي يموت الأب، وفي حالة عبد المطلب يموت الأب أيضًا، وفي حالة أبو لهب يموت الأب كذلك، وفي حالة النبي يموت الأب والأم معًا) وحين عاش يتيمًا في كنف أعمامه، وبشكل خاص برعاية عمه أبو طالب، فإنه لم يكن ليشعر بالاغتراب عن شجرة أنسابه؛ بل هو يعيش في ظلالها الوارفة.

يروي **البلاذري** رواية أسطورية غاية الطرافة عن كيفية اكتشاف النبي ﷺ لشجرة أنسابه، فقد حدث(عرضيًا كذلك) أن النبي ﷺ يوم كان طفلًا وجد

نفسه ضائعًا. يفسرّ **البلاذري**[1] آية ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾[2] على النحو التالي، لمّا قدمت حليمة مرضعة النبي ﷺ إلى مكة:

أضلته من أعلى مكة، فوجده **ورقة بن نوفل** ورجل من قريش، فأتيا به عبد المطلب وقالا: هذا ابنك، وجدناه متلددًا بأعلى مكة، فسألناه منْ هو؟ فقال: أنا **محمد بن عبد الله بن عبد المطلب**، فأتيناك به. ثم أن عبد المطلب حمله على عاتقه وطاف من حول الكعبة وقال:

أعيذه بالله باري النسيم ... من كل من يسعى بساق وقدم
وقصفة الحُجاج في الشهر الأصمّ ... حتى أراه في ذرى صعب أشم

تستمد أسطورة ضياع النبي محمّد ﷺ يوم كان طفلًا، عناصرها المؤسسة بالكامل من أسطورة **شاول بن قيس** في التوراة[3]، أول ملوك بني إسرائيل، فقد ضل في الوديان والشعاب يبحث عن أتن لأبيه ـ ضلت هناك ـ حتى عثر عليه **النبي صاموئيل**[4] مصادفة، وهناك جرى اختياره ـ وهو طفل ـ ملكًا.المدهش، أن اسم شاول في المروية التوراتية تعني المطلب(من الفعل سأل ـ السائل أي الطالب أو المطلب)، كما أن الزّج باسم ورقة بن نوفل الذي يعد تقليديًا في المرويات العربية من الأحناف (الذين يتحنثون في غار حراء) لا غرض له سوى ربط حادث الضياع، بوجود رجل مقدس يعثر عليه

(1) البلاذري: **أنساب**، 1/ 95.

(2) ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ سورة الضحى،الآية: 7.

(3) صاموئيل في الروايات العربية هو السموأل.

(4) **التوراة**، صاموئيل1، 9: 1: 2: (1 ـ وَكَانَ رَجُلٌ مِنْ بَنْيَامِينَ اسْمُهُ قَيْسُ بْنُ أَبِيئِيلَ بْنِ صَرُورَ بْنِ بَكُورَةَ بْنِ أَفِيحَ، ابْنُ رَجُل بَنْيَامِينِيٍّ جَبَّارُ بَأْسٍ. 2 ـ وَكَانَ لَهُ ابْنٌ اسْمُهُ شَاوُلُ، شَابٌّ وَحَسَنٌ، وَلَمْ يَكُنْ رَجُلٌ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ أَحْسَنَ مِنْهُ) 1: 4 (فَقَالَ قَيْسُ لِشَاوُلَ ابْنِهِ: «خُذْ مَعَكَ وَاحِدًا مِنَ الْغِلْمَانِ وَقُم اذْهَبْ فَتِّشْ عَلَى الأُتُنِ». 4 ـ فَعَبَرَ فِي جَبَلِ أَفْرَايِمَ، ثُمَّ عَبَرَ فِي أَرْضِ شَلِيشَةَ فَلَمْ يَجِدْهَا. ثُمَّ عَبَرَا فِي أَرْضِ شَعَلِيمَ فَلَمْ تُوجَدْ. ثُمَّ عَبَرَا فِي أَرْضِ بَنْيَامِينَ فَلَمْ يَجِدَاهَا) 1: 15 (وَالرَّبُّ كَشَفَ أُذُنَ صَمُوئِيلَ قَبْلَ مَجِيءِ شَاوُلَ بِيَوْمٍ قَائِلًا: 16«غَدًا فِي مِثْلِ الآنَ أُرْسِلُ إِلَيْكَ رَجُلًا مِنْ أَرْضِ بَنْيَامِينَ، فَامْسَحْهُ رَئِيسًا لِشَعْبِي إِسْرَائِيلَ).

ويدّله على شجرة أنسابه ويعيده إلى قبيلته، ورمزيًا من الضلالة إلى الهدى. إن متوالية الضياع والتغرّب في الوديان والشعاب بعد وفاة الأب، ضرورية لتأسيس فكرة العثور على شجرة النسب. وهذا هو الطريق ذاته الذي تسير فيه مروية عثور **قصي** على عائلته القبلية، فقد ارتأى ـ بعد أن شبّ ـ أنه يجب أن يلتحق **بأعمامه القرشيين**، مع أن هؤلاء كانوا في هذا الوقت من التاريخ من القبائل الضعيفة. وبذلك اتصلت مرويات صعود دوره، كما سجلها الإخباريون العرب، **بانتقال شجرة أنسابه من أخواله القضاعيين إلى أعمامه القرشيين**، وفي سياق هذا الدور، الحق **قصي** الهزيمة **بقبيلة خزاعة**، أنسبائه وأخوال أولاده، عندما انتزع منهم **السيادة على الكعبة لصالح قريش**.لقد قاده اكتشاف شجرة أنسابه ومن ثم نقلها، إلى وضع إطار جديد لصراع القرابات على مكة، يصبح الأصهار والأعمام والأخوال أطرافًا متورطة فيه، بينما يشير تاريخ الصراع التاريخي على مكة إلى أنه كان يجري قبائل لا ترتبط فيما بينها برابطة نسب.إن متوالية اغتراب الطفل عن والده (قبيلته، والقبيلة هي الأب الرمزي الذي ينتسب إليه المولود، فهو ابنها) لا تبدأ من قصي، والأدّق أنها تمتد إلى الجدّ الأعلى **إسماعيل**، فهو وصل مكة بعد تركه والده في عهدة أمّه، وهي سوف تأخذه إلى العماليق حكام مكة، ويتزوج منهم، ثم ومع مجيء جُرهُمْ، سوف ينتقل إسماعيل للعيش معهم ويطلق المرأة العماليقية ويتزوج امرأة جُرْهُميّة. ولذلك، بدا أن قصي قام فعليًا بنقل الصراع حول مكة إلى حيز جديد، لم تكن قريش نفسها مستعدة له، ولكنها وهي ترى حماسة ابنها العائد إليها، اضطرّت إلى التجاوب مع حلم قديم، لطالما راودها، فهي تنتسب إلى الأب الأعلى **إسماعيل** باني البيت الحرام. إن صراع **خزاعة وقريش** في هذه اللحظة التاريخية، وحيث وقعت حادثة **سرقة غزال الكعبة** ونهض الأخوال لحماية ابن أختهم **أبي لهب** من قصاص قطع اليد، يعبّر بعمق مذهل عن الصراع ذاته الذي فجره قصي ـ جده ـ داخل **القرابات الدموية** (الأسرية) بين **الأخوال والأعمام**، وتنازعهم على **الابن**، بوصفه تعبيرًا رمزيًا عن صراع أعمّ. كانت **خزاعة**، حين اكتشف الصبي شجرة أنسابه، تحكم **مكة** وتدير شؤون البيت العتيق، طوال عقود ممتدة من الزمن، بينما كانت **قريش** إذ ذاك، لا تزال قبيلة ضعيفة. ولذا، وجد **قصي** نفسه وقد حكمت عليه الأقدار أن يغادر مضارب أخواله، بحثًا

عن دوره. إن هذا التحوّل يتطلب، وقبل كل شيء، أن يصارع من أجل نقل شجرة أنسابه. وكان عليه أن ينتظر وقتًا أطول حتى يشب. لقد أخذت القبيلة ابن أختها القرشي، ليعيش ويتربى في البادية، ولكن بعد زواج والدته من رجل قضاعي، انتابت الصبي رغبة في معرفة شجرة أنسابه الحقيقية، ويبدو أن قريش نسيت ابنها في لحظة ضعفها تلك، ولم تطلب عودته إلى مضاربها. وعندما شبّ وأصبح غلامًا يافعًا، راح يبحث عن نسبه ويفتش عن قبيلته. وفي خضم هذا البحث، وقع الحدث الأهم في تاريخ قريش، وسيكون دون غيره من الحوادث المشهورة في تاريخها، العامل الجوهري في صعودها التاريخي ودخولها عالم المال والسياسة، فقد استولى **على مكة سلمًا**، ثم قام بتسليم مفاتيح الكعبة لأولاده ـ ولأعمامه **القرشيين** ـ الذين أصبحوا سادة مكة. لقد خسرت **خزاعة في النهاية صراعها مع قريش**، مع صعود دور ابن الأخت الذي انحاز لأعمامه. بهذا المعنى فقط، يصبح **صراع خزاعة مع قريش عشية الإسلام على خلفية حماية أبي لهب من أن تقطع قريش يده، نوعًا من استعادة لصراع قديم**، دار ذات يوم بين الأخوال والأعمام حول ابن الأخت (فقد أصبح الخزاعيون أخوال أولاد قصي). إن قراءة التاريخ الاجتماعي والسياسي لمكة في الحقبة الفاصلة بين **هزيمة خزاعة وصعود دور قريش**، ذات صلة حميمة بحكاية **سرقة غزال الكعبة الذهبي**. ولذلك، سوف نرسم إطارًا تاريخيًا شديد الاقتضاب لتوضيح أبعاد الصراع، الدينية والاجتماعية، بهدف تقديم فهم أفضل لظروف تأسيس الإسلام. وتروي كثرة من المصادر، منها مثلًا رواية **أبو البقاء الحلي**[1] كيف وصلت **خزاعة إلى الجزيرة العربية** واستولت على مكة، فقد تفرقت **قبائل سبأ** في البلاد، ووصلت **خزاعة إلى مكة**، فاستوطنتها ووليت البيت الحرام، فقال شاعرهم:

ونحنُ ولينا البيت من بعد جُرهُم ... لنعمرّه من كل باغٍ وحاسد

وبعد أن تمكنت من طرد **جُرهُم**، وقامت بنفيها إلى منطقة بعيدة خارج مكة، قررت حرمانها من الاقتراب حتى **من ضواحي المدينة**، فاشتدّت صبابة زعيمها **عمرو بن مضاض الجُرْهُمي، وتشوّق لرؤية المدينة التي كان زعيمها.**

(1) أبو البقاء الحلي، المناقب، 1/ 79، 80، 81، 83.

لكن خزاعة أبت أن تسمح له ولأي جُرْهُميّ أن يقترب من مكة، وإنْ كان ذلك بدافع البحث عن بعير ضائع. فسألهم ذات يوم أن يأذنوا له في النزول معهم، فمنعوه، فقال قصيدة شهيرة تنسب إليه:

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيسٌ ولم يسْمُر بمكة سامر

بلى، نحنُ كنَا أهلها فأبادنا صروف الليالي والجدود العواثر[1]

ويعزو بعض كتّاب التاريخ سبب استيلاء خزاعة على مكة، واحتكارها للولاية والسدانة (خدمة البيت الحرام) أنها دخلت في نزاع مع **قبيلة أياد**، حين كانت هذه تتولى السدانة، بعد الحرب التي نشبت ضد **جُرُهم**، وقادها تحالف قبائل عربية ساخطة على ما كان يعتبر تعديات فاضحة على الشرائع الدينية، من ذلك أن **جرهُم** أباحت نمطًا من **البغاء المقدس** في الحرم، وأن النزاع بين **خزاعة وأياد**، تركز على مسألة الحق في إدارة البيت الحرام. وبحسب هذه الروايات، فقد توفي زعيم **أياد وكيع الأيادي**، **فثارت قبائل مضر ـ وفيهم خزاعة ـ** مطالبة بأن يكون لها الحق في سدانة البيت. ولذا، شعرت أياد بعد موت زعيمها، بالضعف والهوان، أمام التحالف القبلي الجديد الذي نشأ من حولها، لتجريدها من سلطة إدارة الكعبة. وفي هذا السياق، طلبت أياد من التحالف القبلي، أن يمهلها ثلاثة أيام لاتخاذ قرار بالتخلي عن السدانة، فوافق هؤلاء على الطلب، ولكن حدث في هذا الوقت، إن امرأة من خزاعة تدعى قدامة، كانت متزوجة من أحد **شيوخ أياد**، شاهدت **رجال أياد وهم يقومون بسرقة الحجر الأسود، وأنهم قاموا بدفنه** في مكان ما من مكة، لحرمان التحالف القبلي الجديد من فرصة امتلاكه. وتقول هذه الروايات، أن **أياد** طلبت مهلة الأيام الثلاثة، فقط لتتمكن من نقل **الحجر الأسود** والهرب به خارج مكة **(فلم يقدروا على**

---

(1) ويروى البيت بطريقة أخرى

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامرُ

فقلتُ لها والقلبُ مني كأنمّا تخلبّهُ بين الجناحين طائرُ

بلى، نحنُ كنا أهلها فأزالنا صروف الليالي والجدود العوائرُ

حمله فدفنوه فعرفت قدامة الخزاعية مكانه)[1]. وحين أخلت **أياد**، بعد مهلة الأيام الثلاثة، البيت وخرجت منه نهائيًا لتدخل **خزاعة**، ساد شعور بالحزن والذهول بين القبائل، لضياع أي أثر **للحجر الأسود**، واتضح بجلاء، أن **أياد سرقت الحجر المقدس**. فقالت (قدامة الخزاعية لقومها: اشترطوا على مضر أن يجعلوا **ولاية البيت لكم** حتى أدّلكم على **الحجر**، فذكروا لهم ذلك فأجابوهم)[2]. كانت **حادثة سرقة قبيلة أياد للحجر الأسود**، وقيامها بدفنه في مكان مجهول، مؤشرًا على الطبيعة الاستثنائية للصراع حول الكعبة بين القبائل، لكن **خزاعة** تمكنت من استعادة **الحجر الأسود** بعد مفاوضات شاقة، وفرضت سيطرتها على المكان. بيد أن النزاع بين **خزاعة وأياد** أدّى إلى ظهور نتائج جديدة لم تكن متوقعة، فقد دخلت **قبائل مُضر إلى الحرم**، بعد أن نجحت خزاعة في انتزاع سدانة البيت من الأياديين المطرودين. وهو ما عني أنها نجحت، بفضل الحيلة والقوة وحسن التدبير من فرض وقائع جديدة، أهمها أن **تحالف قبائل مُضر يمكن أن يصبح شريكًا ثانويًا** وحسب. لكن **أبي البقاء الحليّ** يشكك في روايات بعض الإخباريين العرب عن وجود **أياد في الحرم في هذا العصر**، ويرى أن المزاعم عن ولايتها البيت بعد طرد **جرْهُم** لا ذكر لها في المصادر التاريخية الأساسية[3]. ومع ذلك، فممّا لا شك فيه، أن النزاع حول سدانة البيت، كان موضوعًا دينيًا في الصميم، انخرطت فيه كل القبائل الكبرى المهاجرة من اليمن إلى الجزيرة العربية، ولكنه لم يتخذ طابع الصراع الاجتماعي، وهو تركز بين **تحالف خزاعة وتحالف مُضر** (أم قبيلة كنانة وقريش). وهذا الصراع المحتدم، انتهى لصالح تثبيت حق خزاعة في ولاية البيت (**فأقامت خزاعة ولاة للحرم، واجتمعوا على عمرو بين ربيعة** بن حارثة بن **عمرو بن مزيقياء**[4] بن عامر بن ماء

---

(1) المسعودي، **مروج** : 1/ 193

(2) الحلي، **المناقب** : 1/ 80

(3) الحلي: **المناقب**، كذلك

(4) **أسد الغابة** : 1/ 69، **الكامل في التاريخ**: 1/ 187، 1/ 239، **مروج الذهب** : 1/ 244 عمر بن مزيقياء بن عامر ماء السماء بن حارثة الغطريف بن امرئ القيس البطريق بن ثعلبة بن مازن بن الأزد بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن

السماء ـ الأول ـ وعمرو هذا هو **المعروف عند الإخباريين العرب باسم عمرو بن لحي الخزاعي**)[1]. ويبدو أن هذه الشراكة في إدارة الكعبة، حتمت وجود نوع من المصاهرات بين **مُضر وخزاعة**، وهو ما سنراه تاليًا في **أسطورة زواج قصي من حُبى ابنة زعيم خزاعة**. بيد أن هذه المصاهرات لم تفضِ إلى إخماد الصراع بين **قريش خزاعة** القادمة من اليمن والمنتسبة تارة إلى جُرْهُم، وتارة أخرى إلى مضر. بل لعلها لعبت على العكس من ذلك، دورًا حاسمًا في تأجيجه. ويتضّح من سلسلة أخبار سجلها الرواة العرب، أن **عمرو بن لحي** هو الذي فرض عبادة **الإله أساف** في الجزيرة العربية.**(فعبد عمرو بن لحي أساف ونائلة وأمر بعبادتهما، وهو أول من أحل نكاح البغايا فنصبن الرايات ـ في ضواحي مكة ـ)**[2]. لكننا نعلم من روايات الإخباريين أن قصة عبادة **أساف ونائلة، تعود في جذورها إلى جرْهُم**، وهما كما رأينا من سلسلة مرويات قديمة، كانا رجلًا وامرأة من هذه القبيلة ؟ هذا التناقض في مرويات العرب عن التحول الديني الكبير الذي حدث خلال عصر **خزاعة في مكة**، مرّده التناقض في تفسير وتأويل أسطورة **أساف ونائلة**، فهم تارة ينسبون **حادثة مضاجعة أساف لنائلة في فناء الكعبة**، لما يسمونه طغيان جُرْهُم في الحرم، واستهتارها بالشرائع الدينية، وتارة ينسبون التحول في عبادتها والانتقال من المدنس إلى المقدس، إلى صعود دور خزاعة. وبرأينا، أن هذا التناقض لن يكون قابلًا للحل، أو كاشفًا لتاريخ الصراع الاجتماعي والسياسي في مكة، إلا بوضع الأسطورة في إطارها الصحيح، فهي تتصل بعبادة إلهي الخصب الأزليين **أساف** ـ يصف יסף ، وزوجته **نائلة**، وهما رمز الزواج المقدّس (الزوج الأبدي في النصرانية العربية ثم في المسيحية) وأن هذه العبادة ظلت متواصلة حتى مع صعود دور خزاعة. إن

يعرب بن قحطان، لقبهم به رسول الله ﷺ، لما هاجر إليهم ومنعوه ونصروه، وأم الأوس والخزرج قيلة بنت كاهل بن عذرة بن سعد، ولذلك يقال لهم أبناء قيلة. وإنما لقب ثعلبة العنقاء لطول عنقه، ولقب عمرو مزيقياء لأنه كان يمزق عنه كل يوم حلة لئلا يلبسها أحد بعده، ولقب عامر ماء السماء لسماحته وبذلك كأنه ناب مناب المطر، وقيل لشرفه.

(1) الحلي : **المناقب**، المصدر نفسه.

(2) الحلي: **المناقب**، كذلك.

البُعد الرمزي في أسطورة أساف ونائلة، قد يتجلى في اسم نائلة (**ءيلة** - النون أول الاسم لاصقة) فهي تروي قصة الزواج الأسطوري من الإلهة الأم **إيلة - ءيلات (اللات) في المكان المقدّس (المعبد). في هذه الأجواء دارت أسطورة بيع مفاتيح الكعبة بزق خمر.**

الفصل الثاني

قصي وأسطورة مفاتيح الكعبة مقابل زق الخمر

في نطاق **أسطورة الخمر والمفاتيح**، دارت في كتب التراث والتاريخ الإسلامي حكايات مثيرة، محورها مزاعم تصّور الطريقة التي تمكّن فيها **قصي** من بسط سيطرته على مكة، وانتقال إدارة **الكعبة من خزاعة إلى قريش**. إن أهمية هذه الأسطورة، تنبع من الحاجة لرؤية وتحليل التاريخ الأسطوري الذي سردهُ الإخباريون العرب برمته، ومن داخل الأنساق الثقافية لانتهاك المقدس، وبحيث لا تبدو أسطورة **سرقة غزال الكعبة**، معزولة عن الأساطير الأخرى الموازية. وسنلاحظ، كيف أن كل أسطورة، هي وبسبب ـ وبفضل ـ بنيتها وديناميكياتها الداخلية، موّلدةٌ لأسطورة أخرى، وبحيث يستحيل علينا فهم السرديات الأسطورية عند الإخباريين المسلمين، دون فهم كافٍ وخلاق للأشكال الموازية التي تبزغ فيها الأساطير، بترابطٍ مدهش، فأسطورة حفر زمزم، **تولّد أسطورة أساف ونائلة**، وهذه ستؤدي إلى **أسطورة الخمر والمفاتيح**.
أثار اسم **قصي**[1] عند علماء الآثار الكثير من التساؤلات، وما إذا كان اسم إله قديم من آلهة العرب. وبعضهم ظن أن قصي شخصية أسطورية ويبدو أنهم استدلوا إلى هذا الظن من بعض النقوش التي حملت أسماء مركبة وجد من بينها اسم عبد قصي. كما اعتقد بعض علماء الآثار أن الإله اليوناني ـ الروماني Kasios هو قصي[2] وفي نصّ مؤرّخ بسنة 47 للميلاد ورد اسم قصي مقرونًا بكلمة ملك (**ملكو قصي**) و(**مالك قصي**) وكان كاهنًا من كهنة معبد اللات في

(1) جواد علي : **المفصل** 6/ 328.

(2) جواد علي : **المفصل**، كذلك.

(حبران). ويزعم الفاكهي[1] أنه اطّلع على حجر شبيه بأحجار الفراعنة بمصر (أي نقش) باللهجة الحميرية (بالخط المسند) وجد في الكعبة ورد فيه:

> والبرابي كتاب في الحجارة بمصر من كتاب الأولين، قال: فأنا أطلبه منذ ثلاثين سنة، وأنا أرى أي شيء هذا المكتوب في **المقام** في السطر الأول: «إني أنا الله لا إله إلا أنا، والسطر الثاني: «**ملك لا يرام**» والسطر الثالث: «**أصباوت**»[2] **وهو اسم الله الأعظم**، وبه تُستجاب الدعوات» قال لي أبو الحسن علي بن زيد الفرائضي وفي تفسير سنيد قال: «لما خلق الله تبارك وتعالى آدم أقعده بين يديه، فقال: «من أنا يا آدم ؟، فقال: **أنت أصباوت أدناني**. قال له الرب تبارك وتعالى: «**صدقت يا آدم**» يعني **أنت الله الصمد يقول أصباوت الله الصمد**، قال لي أبو الحسن علي بن زيد: وزعم أن هذا الكتاب الذي في المقام بالحميرية.

وهكذا، وبحسب كثرة من المرويات ذات الطابع غير التاريخي؛ فإنه قصي اشترى مفاتيح البيت الحرام من **أبي غُبشان الخزاعي** بزق خمر، ثم بعث المفاتيح مع ابنه **عبد الدار**، فوقف بها عند البيت وراح ينادي: **يا بني إسماعيل، هذه مفاتيح البيت قد رَدَّها الله عليكم**. فبقيت السدانة فيه وفي بنيه من بعده[3]. إن الإطار التاريخي لصراع القبائل العربية حول الكعبة، يكشف لنا عن طبيعة هذا البُعد في أسطورة شراء المفاتيح؛ إذ كانت ولاية البيت لبني إسماعيل، ومفاتيحه بأيديهم إلى أن غلبتهم على ذلك **جرْهُم**، فاستولت على البيت بعد وفاة **نابت بن إسماعيل** (نبايوت في التوراة)[4].

---

(1) الفاكهي، **أخبار مكة**: ج 2 فقرة 988.

(2) صبؤوت بالعبرية : النجم . وفي الترجمة السائدة **للتوراة** تترجم الكلمة خطأ إلى جنود

(3) القلقشندي: **قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان**، تحقيق إبراهيم الإبياري، دار الكتب الحديثة 1963 ص 56.

(4) نبايوت في **التوراة**، سفر التكوين.

لكن خزاعة القوية اغتنمت الفرصة، ودخلت على خط الصراع، وألحقت الهزيمة **بجُرْهُم** وطردتها خارج مكة، ووضعت يدها على الكعبة. لكن قصة الصراع هذه تتلازم تاريخيًا، مع قصة انتهاك المقدس. ولعل العبارة الأثيرة التي تتردد عند ساردي أسطورة **أساف ونائلة**، توضح هذا الجانب المركب من تاريخ الصراع على البيت الحرام بين القبائل؛ إذ طبقًا لما أوردته سائر السرديات التي تناولت الأسطورة، فقد كانا من قبيلة جُرهم، وكانا يطوفان في البيت الحرام، وقاما بممارسة البغاء علنًا، ولذا مسخهما الله حجرين. ونصّ الجملة، **مسخهما حجرين** التي تتردد في كتب الإخباريين، يصوّر المسألة ببلاغة، فقد طغت **جُرهم** بالحرم، وكان من طغيانها أن **أساف ونائلة** مارسا البغاء في فنائه. وهذا هو العدوان الجنسي على الإلهة الأم، الذي يقابله عقاب صارم، حيث يمسخ المعتدي والمعتدية حجرين. إن هذه الأسطورة وفي سياق تفكيك تاريخ مكة، تستحق أن تروى، ولكن في الإطار ذاته لتحليل مروية **سرقة الغزال الذهبي**، والأسطورة الموازية لها عن **شراء المفاتيح**، وهذه ارتباطًا بحادث **سرقة الحجر الأسود**. ولأجل تتبع ظروف وتجليات ونتائج الصراع، فسوف نرسم إطارًا تاريخيًا مقتضبًا عن القبائل التي تولت أو توارثت حكم مكة. يبدأ عصر الصراع حول مكة والبيت الحرام، بصعود ثم سقوط ولاية العماليق. وهذه الجماعة البشرية القديمة التي ورد ذكرها في التوراة، دخلت في معارك مع بني إسرائيل. بيد أن سقوط ولايتهم في مكة، جاء في أعقاب حرب خاضتها ضدهم قبيلة مهاجرة من اليمن هي **جُرْهُم**، وتمكنت فيها من طردهم خارج مكة وحرمانهم من الاقتراب من تخومها، حتى وإن كانت حاجة رجل منهم البحث عن إبله الضالة. ثم يتواصل مع صعود وسقوط ولاية جُرْهُم نفسها، ولكن بعد تفشي طغيانها واستبدادها، وهو ما أدّى إلى **ثورة** عارمة قادتها **خزاعة** ـ وهي من بطون جُرْهُم وبعض بطونها في مكة من مضر ـ .**وسوف يتواصل** هذا الصراع من جديد مع استيلاء **خزاعة على مكة**، وأخيرًا مع صعود ثم سقوط ولايتها على يد قصي وصعود دور قريش. ولأن ما يهم في هذا الجزء من تحليل الأسطورة، الكشف عن طبيعة العلاقة التي تجمع بين **سرقة الغزال الذهبي**، **وأسطورة شراء المفاتيح**، **وسرقة الحجر الأسود**، فسوف نشير باقتضاب إلى أن ولاية البيت (السدانة) انتقلت إلى أبي **غُبشان بعد وفاة حُليل زعيم خزاعة**

مباشرة، أو بعد وقتٍ قصير من ذلك، ويُزعم أن **أبي غبشان** سادن الكعبة الجديد، سكر يومًا هو وقُصي، فابتاع هذا منه مفاتيح البيت بزق خمر، فدفعها له طائعًا، فقام بتسليمها إلى ابنه عبد الدار. وحين أفاق من سُكره ندم، وضربت العرب المثل بذلك فقيل: **أخسر من صفقة أبي غبشان**[1]. وأكثرَ الشعراءُ القولَ في ذلك، ومما قيل فيه:

باعت خزاعةُ بيت الله إذ سكرت ... بزق خمرٍ فبئس صفقة البادي

باعت سدانتها بالنزر وانصرفت ... عن الحطيم وظل البيت والنادي

بيد أن رواية **المسعودي**[2] ستقول شيئًا مختلفًا إلى حد ما، إذ كان **قصي بن كلاب بن مرة** متزوجًا من **حُبى ابنة حُليل الخزاعي**، آخر زعماء خزاعة، وآخر من ولي البيت، وكان زعيمها القوي الذي لا ينازع. وهو عند **مصعب الزبيري، حُليل بن حبشية بن سلول بن كعب بن عمرو بن لحي**[3]. ولأن حُليل هذا سلسل أسرة خزاعية عريقة، وهو حفيد أول من نصب الأصنام في مكة، فقد كانت له هيبة في القبائل. ولم يكن له كما يُزعم، ذرّية ترث حكمه من بعده، بينما كان جده الأعلى **عمرو بن لحي**، المؤسس الأسطوري لحكم هذه القبيلة يوم **مات ألف ابن وحفيد**[4]. ولذلك وجد

---

(1) الميداني، **مجمع الأمثال**: 1/ 94، 1/ 309 (أحمق من أبي غبشان) العسكري : **جمهرة الأمثال** 1/ 104، 1/ 199 (أندم من أبي غبشان).

(2) المسعودي: **مروج الذهب** 1/ 193.

(3) **أسد الغابة** 1/ 70، 3/ 29 **المنتظم** 3/ 355، 1/ 244.

(4) ابن هشام: **السيرة** ج/ 1، 181-218 (وكان عمرو بن لحي حين غلبت خزاعة على البيت، ونفت جرهم عن مكة، قد جعلته العرب ربًّا لا يبتدع لهم بدعة إلا اتخذوها شرعة؛ لأنه كان يطعم الناس، ويكسو في الموسم، فربما نحر في الموسم عشرة آلاف بدنة، وكسا عشرة آلاف حلّة، حتى ليقال : إنه اللاتُ الذي : يلتُّ السويق - « طعام يصنع من الحنطة والشعير المدقوق » - للحجيج على صخرة معروفة تسمى : صخرة اللات، ويقال إن الذي يلت كان من ثقيف، فلما مات قال لهم عمرو، إنه لم يمت، ولكن دخل في الصخرة، ثم أمرهم بعبادتها، وأن يبنوا عليها بيتًا يُسمى: اللات، ويقال : دام أمره وأمر ولده على هذا بمكة ثلاثمائة سنة؛ فلما هلك سميت تلك الصخرة : اللات مخففة التاء، واتُّخذ صنمًا يُعبد، وقد ذكر ابن إسحاق، أنه أول من أدخل الأصنام الحرم، وحمل الناس على عبادتها. وكانت

نفسه حين حضرته الوفاة، وقد وضع ولاية البيت بإمرة ابنته **حُبى زوجة قصي**، فقالت له القبيلة، أنها توافق على أن تنتقل السدانة إلى امرأة، وهو أمر غير مشهود في القبائل، ولكن شرط أن لا تقوم هي بفتح الباب وَغَلْقِهِ، وأن تظل الولاية لها، وأن يكون فتح وإغلاق أبواب الكعبة من نصيب بطن آخر من خزاعة. وهذا يعني إداريًا، أن ولاية البيت تظل في يد المرأة، أما السدانة فتكون من اختصاص القبيلة التي تكلف رجلًا منها بفتح أبواب الكعبة وإغلاقها. وهذا ما حدث، حين عهد زعيم خزاعة قبيل وفاته إلى رجل يعرف **بأبي غَبْشَان الخزاعي** سدانة البيت الحرام. لكن **أبي غبشان** هذا ـ على ما تزعم الأساطير والمرويات ـ باع مفاتيح البيت لقصي. وفي بيعه لولاية البيت يقول الشاعر[1]:

أبـو غـبـشـان أظـلـم مـن قـصـي ... وأظـلـم مـن بـنـي فـهـر خُـزاعـه

فـلا تـلـحـوا [2] قـصـيًّـا فـي شـراء ... ولـومـوا شـيـخـكـم إذ كـان بـاعـه

وقال آخر[3]:

إذا افـتـخـرت خُـزَاعـة فـي قـديـم ... وجـدنـا فَـخْـرَهَـا شـرب الـخـمـور

وبـاعـت كـعـبـة الـرحـمـن جـهـرًا ... بـزقٍ بـئـسَ مـفـتـخـر الـفـخـور

في سياق هذا الجدل الحيوي والشيق حول قصة بيع المفاتيح، تؤكد رواية **المسعودي** بشكل قاطع ولا لبس فيه، أن **قصي** اشترى مفاتيح الكعبة **من رجل خزاعي** دون أدنى تلميح إلى أنه أبي غبشان .**والمسعودي بذلك،** ينفي الاتهام من أساسه، برغم أن أشعار الهجاء تلمح إلى مسؤوليته غير المباشرة، عبر توجيه النقد اللاذع للقبيلة، وترى أن الصفقة تضمنت، عدا

التلبية من عهد إبراهيم: لبيك، لا شريك لك لبيك، حتى كان عمرو بن لحي، فبينما هو يلبي تمثَّل له الشيطان في صورة شيخ يلبي معه، فقال عمرو : لبيك لا شريك لك، فقال الشيخ: إلا شريكًا هو لك، فأنكر ذلك عمرو، وقال وما هذا ؟ فقال الشيخ قل : تملكه وما ملك،-قال- فإنه لا بأس بهذا، فدانت بها العرب).

(1) الفاكهي 5/ 171، الحلي، **المناقب** : 134.

(2) أي لا تشتموا قصيًا.

(3) الحلي: **المناقب** : 134.

عن زق الخمر، أن يحصل البائع على بعير واحد. بيد أن **الفاكهي**[1] يرسم مسارًا آخر لمروية شراء المفاتيح بزّق خمر، فيقول:

> كان **أبو غبشان الخزاعي** يلي البيت، وكان **هو وقصي بمكة، فتحالفا على أن لا يبغي أحدهما على صاحبه، ثم ابتاع منه المفتاح**، فقدم مكة فقال لقومه: هذا مفتاح أبيكم إسماعيل قد ردّه الله عليكم من **غير غدر ولا ظلم**. فلمّا أفاق أبو غبشان ندمه أصحابه وعابوا عليه ما صنع، **فجحد البيع**[2] فقال: إنما **رهنتهُ** عنده بحقه. فقال الناس: أخسرُ من صفقة أبي غبشان، فذهبت مثلًا، ووقعت الحرب بين **قصي وبين أبي غبشان وفوقهما قريش وخزاعة.**

تشير هذه الرواية إلى أن البيع تمّ في مكان آخر خارج مكة **(ثم ابتاع منه المفتاح فقدم مكة)** ومن المحتمل أن يكون ذلك تمّ في الطائف دون خداع أو غدر، حيث يقصد رجال خزاعة **صخرة اللات**[3] للعبادة، وأن الطرفين، **قصي وأبو غبشان** كانا على وفاق تام، وكانا متحالفين بحكم القرابات الأسرية، فقصي هو صهر الخزاعيين، ولكن الحرب مع ذلك وقعت بين الطرفين - القبيلتين، الأعمام والأخوال على خلفية السيطرة على الكعبة. وفي هذا الصراع استعان قصي بأعمامه ليستولي على مكة ويدخلها. لكن إخراج خزاعة من المدينة ومن البيت الحرام، ترافق مع وقوع حادث هلعي ارتعش له وجدان العرب، فقد **سُرق الحجر الأسود**. كان **الحجر يوضع يوم ذاك في الأرض يتمسحون به تبركًا**[4]، فحمّلته خزاعة - وفي روايات أخرى ترمي التهمة على

(1) الفاكهي، **أخبار**: 173-174.

(2) تراجع عنه.

(3) التي دخل فيها جدهم الأعلى عمرو بن لحي.

(4) الفاكهي : **أخبار مكة** : 173-174 كذلك : (إن قصي وبعد أن علم بسرقة خزاعة للحجر الأسود، قال (لامرأته : قولي لجدّتك تدّل بنيك على الحجر. فلم يزل بها حتى قالت افعل. إنهم حين خرجوا إلى اليمن سرقوه ونزلوا منزلًا وهم معهم، فبرك الجمل الذي عليه، فضربوه فقام، ثم برك فضربوه فقام، فبرك الثالثة، فقالوا ما برك إلا من أجل

قبيلة أياد ـ فوق بعير وفرّت. ولأن هذا السلوك، أدّى إلى وقوع عدوان على المقدّس، فقد عجز البعير عن حمل الحجر، وعبثًا سعت القبيلة إلى إرغامه على حمله. ولذا قامت **بدفنه في مكان ما من ضواحي مكة**، لحرمان قريش وحلفائها من رمزية المكان الديني التي لا تكتمل من دونه. ولأن العرب في الجاهلية نظرت إلى الحجر، كتجسيد لرمزية الرّب، وتجلٍ من تجلياته، فإن سرقته ستكون مستحيلة، والبعير الذي يحمله سوف يبرك ولاً يقوى على السير. وهذا هو المسار الذي اتجهت إليه مروية سرقة الحجر في سياق تفسير عودته واسترداد قريش له. إنه لا يُستعاد بواسطة الدم، ولا يؤخذ بالغدر والخديعة. وهذا ما يفسرّ لنا، سبب صمت المرويات العربية التي دارت حول عثور قريش على الحجر، عن ذكر السبب الحقيقي لتخلي خزاعة عنه، حين اضطرّت إلى دفنه في مكان مجهول، وعندما عجزت قريش عن الوصول إليه برغم أنها كانت تحفر في ثلاثة مواضع، قيل إن البعير برك فيها. وعلى الأرجح؛ فإن سائر الروايات التي تحدثت عن **وجود امرأة قرشية متزوجة في خزاعة**، وأنها هي التي دلّت على مكان الحجر، لا أساس لها ولا تبدو قابلة للتصديق، مثلها مثل مروية **الفاكهي** الذي ينسب هذا الدور **لوالدة حُبى**، بينما نعلم أن القبيلة بأسرها فرّت خارج مكة بعد الحرب، ومن غير المنطقي تخيّل أن **والدة حُبى**، أي امرأة **حليل** زعيم خزاعة المتوفى، خرجت مع المبعدين والفارين، وبحيث تسنى لها مراقبة دفن الحجر والتعرّف على مكانه. لقد عاد **الحجر الأسود** هذه المرّة من باطن الأرض (**بعد ما جاء من السماء** كما قيل في المرويات) لا ليثبّت حق قريش في البيت الحرام؛ وإنما لتثبيت رمزيته الروحية الكبرى غير القابلة للمسّ على مرّ العصور. ومع ذلك؛ فإن النقاش حول الواقعة، يؤكد أن تقاليد **انتهاك المقدس في مجتمع مكة الوثني**، كانت ذات جذور قوية، تضرب في تربة ثقافة تجيز عمل أي شيء، لحماية حق القبيلة، وهي تشير بوضوح ودقة كذلك، إلى جانب هام للغاية من قصة ولادة

الحجر، فدفنوه في أسفل مكة، وإنيّ أعرف حين برك، فخرجوا بالحديد وخرجوا بها معهم، فأرتهم حيث برك- الجمل- أولًا وثانيًا وثالثًا. فقالت احفروا ها هنا، فحفروا حتى يئسوا منه، ثم ضربوا فأصابوه، وأخرجوه، فأتى به قصي فوضعه في الأرض. وكانوا يتمسحون به وهو في الأرض حتى بنى قصي البيت).

الإسلام، فقد بلغت هذه التقاليد ذروتها مع تكرار عمليات السطو على **مال الكعبة**، وهذا يعني أن جوهر العدوان على المقدس (الوثني) يرتبط بتنامي شعور العرب باقتراب عصر التوحيد؛ وبأن عصر الوثنية يوشك على الاحتضار. وبكلام أدّق، فهو يرتبط بتطور الأفكار التوحيدية التي كانت، آنئذٍ تنتشر في مجتمع مكة. لقد ضاقوا ذرعًا بالوثنية، وكانوا يتشبّعون بطموح امتلاك ديانة عظيمة وجديدة. وهذا هو المغزى الحقيقي الذي يمكن استخلاصه من تحليل حكاية **سرقة الغزال الذهبي وسرقة المفاتيح وسرقة الحجر الأسود**، ذلك أن سلوك اللامبالاة الذي تميّز به سفهاء قريش وشبانها المخمورين، لا يعكس درجة استهتار جماعة صغيرة ومعزولة برموز الوثنية، بمقدار ما يشير إلى تنامي كل أشكال التعبير عن معارضتها ورفضها. إن هذا المعنى المسكوت عنه، يقع خارج إطار الحكاية، لأن الطريقة التي استخدمتها معظم المرويات التاريخية من سرد قصة السرقات المتتابعة هذه، تقوم بحجب هذا الجانب، بينما يمكن لنا الآن، ونحن نُعيد سردها في إطار جديد، أن نستخلص الحقيقة التالية: كل عدوان على المقدس الوثني، كان في مجتمع مكة، يعبر وفي كل لحظة من لحظاته عن تعاظم الشعور الجماعي باقتراب عصر وزوال الوثنية وانحطاط مكانتها، ولكن من دون أن يعني هذا أن سفهاء قريش، وسرّاق **الغزال الذهبي** كانوا يعارضون الوثنية من منطلق توحيدي. وسوف نلاحظ تاليًا، أن **قيس بن مقيس الذي ضمّ منزله هؤلاء الشبان ليلة سرقة الغزال، كان من الشبّان الموحدين الحنيفيين**[1]. وهذا أمر مثير من شأنه أن يقلب دلالات الحكاية رأسًا على عقب، فهي ليست مجرد سرقة يقوم بها شبّان طائشون سكارى نفد خمرهم؛ بل إن جوهر **العدوان على المقدس الوثني**، يكمن في وجود معتقدات توحيدية محرّكة، وقفت وراء سلوك أولئك الشبان. وبصرف النظر عن رأينا بسلوكهم وتصرفهم، فقد كانوا يعبّرون عن لحظة انحطاط مكانة الوثنية في مجتمع مكة عشية الإسلام. لقد كانت الوثنية تتفسخ، ومكانتها تتآكل قبل أن يبزغ فجر الإسلام. وبصدد الأصل الذي جاء منه الغزالان، وما إذا كان من كنوز جُرْهُم أم من هدايا ملوك التبت والفرس، يقول **الزمخشري**:

---

(1) **نسب قريش**، 8/ 266.

وذكر هشام بن محمد بن السائب **الكلبي**، أن **بابك بن ساسان** كان يغشى البيت (أي كان يزور الكعبة) وفي آخر زيارة له، دفن في الحرم المكي **غزالًا من ذهب**، عيناه ياقوتتان وفي أذنيه شنفان من ذهب بدرتين، وبعض السيوف القلعية التي لم تكن إلا **بفارس**. وهذه إشارة محيرة وتدعو للشك، لأنها تزعم أن **المبّشر الفارسي**، وصاحب الديانة المعروفة بالبابكية، كان **يحج إلى الكعبة**، وأنه هو من أهدى هذين **الغزالين**، وأحدهما هو الذي سرقه أبو لهب. وفيه قال **حسان بن ثابت**:

أبا لهبٍ فبيّن لي حديثكم أين الغزال عليه الدر من ذهب

وبعض الرواة والمفسرين المسلمين[1] في سردهم المقتضب للمروية التاريخية لا يضيفون جديدًا، ربما سوى التلميح مثلًا إلى أن (ديك ودييك موليان لخزاعة). وهذه إشارة تتكرر في مروياتهم المقتضبة عن الحادث، وأهمية تكرارها تكمن فقط في أنها تجعل وقوع الحادث في آخر **عهد** في مكة، وهو عصر انحطاط يبدأ من بيع مفاتيح الكعبة، حيث انحطت مكانة خزاعة السياسية والدينية، وبحيث أن سادن الكعبة، يُصّور وكأنّه كان يبيع مفاتيحها لقاء زق خمر، ولا ينتهي هذا التداعي في المكانة التاريخية والدينية ـ الاجتماعية إلا ومواليها في عصر قريش، ينخرطون في عملية سرقة مشينة **لغزال الرّب** (ربّ الكعبة). وهو عصر يتواصل في انحطاطه، بالتلازم مع حادث سرقة **الحجر الأسود**. إن الإشارات المحيّرة في كتب الإخباريين والتي تتحدث عن قيام قبيلة **أياد**، بسرقته ودفنه بعد جلائها عن البيت، حين أرغمتها خزاعة نفسها على التخلي عن حق السدانة، لا تعرقل تلقي الرواية وفهم مغزاها، ولكنها بكل تأكيد، لا تساعد في رؤية نصّ متماسك يسرد الواقعة. إن الزمن التقريبي لوقوع حادث **سرقة الغزال الذهبي** في إطار هذا التداعي والانحطاط في مكانة الوثنية، يجب أن يكون بعد عام الفيل 571م بقليل، أي بعد مضي نحو مائة عام تقريبًا على سيطرة قريش، وزوال حكم خزاعة. ونحن نعتقد أن صعود دور **قريش** الديني والسياسي، يرتبط جذريًا لا بصعود دور قصي 450 م وحسب، وإنما بقدر أكبر وأهم من ذلك، بتدهور الوثنية

(1) الحلي، **المناقب** :128.

واقتراب عصرها من الأفول. وفي هذا العصر شاعت مروية بيع مفاتيح الكعبة بزق خمر، وراحت القبائل تتداول وقائعها والأشعار المرتبطة بها، بينما أنكرها شيوخ خزاعة وعدّوها نوعًا من التشهير بهم. أما **العسكري**[1] في **(الأوائل)** فهو يكرّر القصة دون ذكر مثل هذه التفاصيل، ويرى أن بيت **مقيس بن عبد القيس السهمي**[2]، كان مألفًا لشباب قريش، وكانت له قينتان يقال لهما أسماء وعثمة، وكان **ديك ودبيك** الخزاعيان يخدمانه، فنفد شرابهما ذات يوم، فعمد **أبو لهب** وكان من جملتهم إلى **غزال من ذهب** كان في الكعبة، فتناوله ليلًا وكسره، وأخذ ما فيه من ذهب وياقوت، وكان له قرطان وهبهما **لأسماء وعثمة**، ثم صاروا لعير نزلت بالأبطح (من جبال مكة) تحمل الخمر، فاشتروا كل خمر فيها فشربوا شهرًا. ولكن من دون أن يلاحظ، أن **مقيس** هذا كان من **الأحناف**، وليس مجرد شاب من أفراد العصابة. وهذا أمر له أهمية قصوى في تحليل مضمون السرقة. لقد كان **(دين قريش)** خليطًا من التوحيد والوثنية، وهو ما عبرّ عنه القرآن بـ**(الزلفى)**[3]، وكان عبد المطلب الذي عرف عنه صوم رمضان والطواف في البيت والتحنّث في غار حرّاء، هو أحد أبرز الحنفاء في مكة. وبرغم أن المسلمين اختلفوا حول **(دين عبد المطلب)** وظل هذا الخلاف مستمرًا حتى العصر العباسي؛ فإن ثمة ما يشبه الإجماع على أنه كان يعتنق عقيدة، هي مزيج من التوحيد والوثنية القديمة، وهذا هو دين آبائه. ولذلك، سوف تتخذ مروية سرقة غزال الكعبة، مسارًا مختلفًا عن السرديات العربية التقليدية التي سعت، دون معنى إلى وضعها في إطار وجود جماعة طائشة، عبثت بمقدسّات قريش لمجرد اللهو، وهذا أمر من شأن تصديقه والترويج له، أن يؤدي إلى فهم خاطئ لدلالات الحادث، فهو يتصل بوجود صراع خفي، جوهره البحث عن دين عظيم، والتخلص من الديانات الصغيرة، المحلية. وفي حالة **أبي لهب**، فقد يبدو هذا المنحى أقل وضوحًا، فهو ابن عبد المطلب الذي عُرف بحلم بحفر زمزم، وأنه صاحب (دين). لكن هذا

(1) العسكري، **الأوائل** 1/ 11.

(2) الزبيري: **نسب قريش**، 8/ 266 هو مقيس بن قيس بن عدي بن سعد بن سهم.

(3) ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ: 37].

الدين كان بكل تأكيد دينًا أسريًا (دين عائلة) لطالما تباهت بشجرة أنسابها التي تمتد حتى إبراهيم وإسماعيل. ولأن هذه المروية العربية القديمة ترتبط بمرويات وأساطير **حفر زمزم**؛ فإن فهمًا معمقًا سوف يتطلب رؤية هذا الجانب من الحادث التاريخي؛ إذ تقول الإخباريات الكلاسيكية أن **عبد المطلب**، حين حفر **بئر زمزم**، وجد فيها **غزالين من ذهب**، وهما الغزالان اللذان دفنتهما **جرْهُم**، حين خرجت من **مكة**. كما وجد فيه أسيافًا قلعية ودروعًا وسلاحًا. إن سائر الإخباريات العربية ثم الإسلامية، لا تقدم تصورًا تاريخيًا صحيحًا عن مغزى وجود الغزال في الكعبة، ولا القبيلة التي دفته، فتارة هي **خزاعة** وتارة أخرى هي **جرْهُم** وتارة **هو بابك الخرمي**، **وفي روايات أخرى هو هدية من ملك التبت**. كما أن الزج بأسماء بعض **ملوك فارس**، والزعم أن أحدهم هو من أهدى **الغزال الذهبي للكعبة**، وفي روايات أخرى هو **نجاشي الحبشة**، يجعل من الخلط والاضطراب أمرًا غير قابل للتفكيك. ولعل المزاعم الرائجة في هذا العصر، عن علاقة **بابك**[1] (الخرمي) نبي البابكية الفارسي **بالغزالين**، وأنه أهداهما للكعبة حين حج إليها، هي من نوع المزاعم التي لا دليل عليها في التاريخ المكتوب.

(1) ابن حمدون، **التذكرة**، م3/ 25: وذكر هشام بن محمد بن السائب الكلبي، أن بابك بن ساسان (الخرمي) كان يغشى البيت- الكعبة- (وآخر ما زاره دفن فيه غزالًا من ذهب عيناه ياقوتتان وفي أذنيه شِنفان من ذهب بدرتين والسيوف القلعية التي لم تكن إلا بفارس، وهو الغزال الذي سرقه أبو لهب، وذاك أن أبي لهب كان يشرب ومعه ديك ودييك موليان لخزاعة، فنفد شرابهما، فقال أبو لهب: والله ما نُعوّل على شيء إلا غزال الكعبة فسرقوه، فعظم ذلك على قريش وقطعوا - أيدي- المولبين ولم يقوموا على أبي لهب لمكان- لمكانة- هاشم). وانظر: ابن سعد: **الطبقات**، (فوجد غزال وسلاحًا وأظفارًا فقال قومه لما رأوا الغنيمة كأنهم يريدون أن يغزوه، قال فعند ذلك نذر لئن ولد له عشرة لينحرن أحدهم).

1
صراع الأخوال والأعمام

مثل الإسلام من وجهة نظر تاريخية، لحظة التحوّل الكبرى في حياة العرب قاطبة، بانتقال قبائلهم التّام والناجز والنهائي من **(دين العائلة) إلى (الدين العالمي)**. ولكن هذا التحوّل ما كان له أن يحدث، لولا سلسلة الصراعات المحتدمة داخل النظام القرابي.

وكان موضوعها المركزي، نقد القرابات المباشرة للنبي ﷺ كما جسدته سورة المسّد، وبالطبع، فلم يكن أمرًا مألوفًا في ديانات العرب القديمة (والرسل الذين تتابعوا في الجزيرة العربية) أن يرى العرب نبيًّا يعنف قراباته بهذه الصورة. كانت الديانات الصغيرة تنتشر في البيوتات البارزة في القبائل[1]، وقد أدرك النبي ﷺ بعمق، أن اللحظة التاريخية قد حانت، وأن الوقت لم يفت بعد كي تنتقل القبائل كلها ومرة واحدة ونهائيًّا من **لحظة الدين العائلي أو القبلي إلى لحظة الدين التاريخي**. ولذلك كان الصدام محتومًا منذ البداية داخل نظام القرابات الأسرية في قريش، وأن **النبي** ﷺ سوف يصطدم بأسرته **(عشيرته الأقربين)** عندما يبدأ خطوته الأولى على هذا الطريق، بما أن هذه القرابات كانت تقوم بحماية **(دين الجد) عبد المطلب**، فيما يريد **الحفيد** تخطي هذا الدين، لا تطويره أو التعايش معه، لأنه من وجهة النظر التاريخية ذاتها، دين صغير وأيقوني لا يليق بجماعات كبيرة وقوية وطموحة، لكنها مبعثرة ودون رسالة عظيمة. إن نظرة موضوعية إلى

(1) إن ظاهرة الأديان القبلية عند العرب، قديمة ومتواصلة، وكان من المألوف رؤية بيوت العبادة تتوزع بين مضارب القبائل المتنازعة والمتنافسة، كل منها يريد فرض عباداته على الآخرين من قبيلة بني إسرائيل حتى قريش في عصر عبد المطلب.

تاريخ قريش ما قبل **محمد** ﷺ سوف تؤكد، دون أدنى لبس، أنها كانت تتصرف بوحي من ارتباطها الوجداني العميق بذكرى جدِّها الأعلى **إبراهيم**، تمامًا كما تصرف بنو **إسرائيل** بوصفهم أصحاب **(دين أسري)** يخصّ آل **إسحاق ويعقوب** وحدهم، وهو محصور في نطاقهم بالفعل وينسب إليهم. الفارق الجوهري، أن الشرعة الموسوية ثم اليهودية، جاءت لتنشر الدين الأسري الصغير، **الأيقوني**، كدين قبلي يخصّ القبيلة ويخرجه من يد الأسرة الصغيرة **إسحاق ويعقوب**[1] **إلى القبيلة (بنو إسرائيل)**. والإسلام بخلاف اليهودية، تبدّى بدرجة أوضح من ذلك، تخطيًّا تاريخيًّا لأسس وركائز المعتقدات المتقشفة والبسيطة للعائلة والقبيلة. وهذا هو، المحرّك الحقيقي للنزاع الذي نشب بين النبي ﷺ وأسرته وعشيرته. ومن المؤكد، طبقًا لروايات صحيحة تناقلها الرواة بالتعاقب وبإسناد صحيح، أن النزاع لم يكن قدريًّا (أسطوريًّا) وبحيث يظهر عداء العمّ لابن الأخ كما لو كان مصممًا ومهيئًا من قبل ولادة ابن الأخ. وعلى العكس من ذلك، ثمة ما يشير إلى أن النزاع نشأ في ظل ظروف نشر الإسلام كبديل عن **(دين عبد المطلب)**. وهذه هي ذاتها لحظة الصدام مع **أبي لهب**. وطبقًا لهذه المرويات، فقد كان **أبو لهب** سعيدًا بمولد ابن أخيه، ولم يكن لمثل هذه الولادة، أن تتضمن بالنسبة له، أي بُعد أسطوري[2].

---

(1) برأينا أن المروية التوراتية (**سفر التكوين**) عن تحول اسم يعقوب إلى إسرائيل، تعكس للحظة الانتقال من الدين العائلي الصغير إلى الدين القبلي، أي الدين الذي تفرضه أسرة دينية صغيرة على أسرة أكبر هي القبيلة.

(2) البلاذري: **أنساب**، 1/ 61، كما هو الحال مثلًا في أساطير العرب عن عداء عبد شمس وهاشم، اللذان ولدا وأصبعيهما كل في جبين الآخر، حتى فصلا بالسيف، كناية عن العداوة الأسطورية ؛ فإن البلاذري يروي الأسطورة التالية عن هذا العداء: كان أميّة بن عبد مناف ذا مال، فتكلف أن يفعل كما فعل هاشم في إطعام قريش- عام المجاعة- فعجز عن ذلك، فشمت به ناس من قريش وعابوه لتقصيره، فغضب فنافر هاشم على خمسين ناقة سود الحدق تنحر بمكة وعلى الجلاء عشر سنين، وجعلا بينهما الكاهن الخزاعي، وهو عمرو بن الحمق، وكان نزله عسفان. وكان مع أميّة أبو الهمهمة بن عبد العُزّى الفهري، وكانت ابنته عند أمية فقال الكاهن: (والقمر الباهر، والكوكب الزاهر، والغمام الماطر، وما بالجوّ من طائر، وما اهتدى بعلمٍ مسافر، في منجدٍ وغائر، لقد سبق هاشم

لقد ولد ابنٌ لأخيه وحسب، وهذا مصدر سعادة شخصية لكل أقرباء المولود. والمثير للاهتمام، أن معظم الإخباريين المسلمين ينقلون روايات كثيرة، وخصوصًا من كتب السيرة المعروفة، عن نبوءة **ولادة نبي في العرب**، لكن كثرة من هؤلاء وقعوا في الخلط بين التواريخ، عندما زعموا أن **عبد المطلب** نفسه كان يعرف بهذه النبوءة، وأنه حين زار **سيف بن ذي يزن في صنعاء**[1]، **أبلغه هذا، بما يقرأ من كتب، أن حفيده هو النبي المرتقب. وبطبيعة الحال، فهذه الروايات لا أساس لها، لأن اللقاء بين عبد المطلب وسيف** حدث بعد ولادة النبي بنحو سبع أو تسع سنوات على الأقل. وأن النبوءة في الأصل، إذا ما نظر إليها على أنها تعبير عن حالة ترقب تاريخي لحدث من طبيعة خلاصية[2]؛ فإنها تصبح تكثيفًا لحالة جماعات قبلية مبعثرة، كانت تتطلع إلى لحظة تغيير فاصلة. ومع ذلك، يمكن القول إن الإخباريين المسلمين في هذا الجانب الحيوي من سردياتهم التي تخلط ما بين الأسطوري والتاريخي، أضفوا بُعدًا له قيمة تحليلية هامة، حين ربطوا ولادة النبي ﷺ بقرار **أبي لهب**، وتحت شرط الشعور بالسعادة لولادة المولود الجديد، أن يعتق مولاة له تدعى **ثويبة**. ولأن **أبي لهب**، ربما يكون سمع من والده **عبد المطلب**، النبوءة المنسوبة تارة **لبحيرا الراهب**[3]، وتارة **لسيف بن يزن**[4] عن مولد النبي ﷺ وهي نبوءة لطالما ضخّمها الرواة وتناقضت فيها تصوراتهم عن

أمية إلى المآثر، أول منها وآخر، وأبو همهمة بذلك خابر) فأخذ هاشم الإبل فنحرها وأطعم من لحمها من حضر، وخرج أمية إلى الشام فأقام- فيها- عشر سنين، فتلك أول عداوة وقعت بين هاشم وأمية .

(1) جرى لقاء عبد المطلب مع سيف، بعد تحرير اليمن من الاحتلال الحبشي عام 579م وكان عمر النبي نحو تسع سنوات.

(2) الديانات الكبرى الثلاثة، اليهودية والمسيحية ثم الإسلام، ترتكز في هذا الجانب من انتظار المخلص إلى عقيدة خلاصية، تتنبأ بقرب ولادة أو ظهور المخلص، ولذا نجد هذا الترقب في مجتمع القبائل العربية التي كانت وثنية ثم أصبحت يهودية فمسيحية- نصرانية- وأخيرًا كقبائل مسلمة.

(3) نبوءة بحيرا الراهب، وهو شخصية أسطورية، بأن نبيًا عربيًا سيظهر في أرض العرب، تكشف أنه كان يتحدث عن شاب صغير كان ضمن قافلة تجار قادمين إلى بلاد الشام.

(4) البلاذري : **أنساب** 1/ 94 ابن كثير: **السيرة** 2/ 251

الأشخاص الذين تنبأوا بمولده؛ فإن لمن المنطقي الافتراض أن النبي ﷺ كان يستعد لهذه اللحظة. لكن، ما الذي حدث، بالفعل لكي يبلغ العداء بين العمّ وابن الأخ هذه الدرجة من العنف؟ إذا كان الجد (**عبد المطلب**) يعرف بأمر النبوءة، وبولادة طفل سيكون نبيًّا في العرب وقريش، فلماذا ولأي سبب وقع العمّ في عداء ابن أخيه ؟ يقول **ابن كثير**[1] إن أبي لهب لفرط سعادته بمولد النبي ﷺ أعتق مولاته ثويبة. **وقد يعني هذا أنه كان يعرف بأمر نبوءة ولادة نبي في قريش والعرب؟ وعلى الأرجح، جرى تحرير ثويبة للقيام بمهمة إرضاعه، ذلك أن تقاليد قريش والعرب لا تحبذ (وتمتنع) عن وضع المولود في حضانة الإماء، لكن ثويبة** المحررة من العبودية والتي أصبحت للتو امرأة حرّة، تعيش في مجتمع أحرار، **قبلت بمهمةٍ ولوقتٍ قصير فقط، أن تكون مرضعة للرسول قبل مجيء حليمة.** وحين سرد الإخباريون المسلمون قصة صراع النبي ﷺ مع عمّه أبو لهب، فإنهم رووا جزءًا منها، له صلة حيوية بهذا الجانب، فكان أن ظهرت مروية أسطورية عن حلم رآه العباس، شقيق أبي لهب الأصغر، وعرف من خلاله مصير أبي لهب في الجحيم السماوي. تقول المروية الأسطورية:

> **لما مات أبو لهب[2]، مغضوبًا عليه من النبي بعد حادثة الهجاء القرآني، رآه بعض أقربائه في الحلم في حالة مزرية،** فقال له: ماذا لقيت ؟ فقال **أبو لهب**: لم ألق بعدكم خيرًا،

---

(1) ابن كثير: 2/ 251 يقول ابن كثير أن إحدى زوجات النبي ﷺ سألته (فإنا نُحَدثُ أنك تريد أن تنكح بنت أبي سلمة. قال: بنْتَ أم سلمة؟ « قالت نعم. قال: إنها لو لم تكن ربيبتي في حجري ما حَلَّتْ لي، إنها لبنت أخي من الرضاعة، أرضعتني وأبا سلمة ثُوَيْبَة فلا تَعْرِضْن علي بناتكن ولا أخواتكن». وفي رواية للبخاري: «إني لو لم أتزوج أم سلمة ما حلت لي» وثويبة مولاة لأبي لهب أعتقها فأرضعت رسول الله ﷺ).

(2) ابن حبيب : **المحبر** 175 والواقدي: **المغازي** ج3/ 207 وابن سعد، **الطبقات** 4/ 74 مات أبو لهب بمرض الجدري (العدسة) وكانت قريش تتقي العدسة وعدواها (كما يتقي الناس الطاعون، حتى قال لهما رجل من قريش: ويحكما ألا تستحيان؟ إن أباكما قد أنتن في بيته لا تغيبانه، قالا : إنا نخشى هذه القرحة، قال: انطلقا فأنا معكما. فما غسلوه إلا قذفًا بالماء عليه من بعيد ما يمسونه ثم احتملوه فدفنوه بأعلى مكة إلى جدار وقذفوا عليه الحجارة حتى واروه).

غير أني سقيت في هذه بعتاقتي ثويبة[1]. أشار إلى النقرة التى بين الإبهام والتي تليها من الأصابع. وذكر السهيلي وغيره: أن الرائي له هو أخوه **العباس**. وكان ذلك بعد سنة من وفاة **أبي لهب** بعد وقعة بدر (السنة الثانية للهجرة). لقد شفعت له ـ في الجحيم السماوي حين كان يُصلى نارًا ذات لهب ـ لفتته الإنسانية تلك، بتحرير **ثويبة** من العبودية. وهذا الحلم المزعوم الذي انتشر بعد وفاته، كان مصممًّا بهدف محو الصورة المرّوعة له، كما أن الحلم، منظورًا إليه من زاوية وظيفته، سيبدو نوعًا من محاولة متأخرة قامت بها أسرته، للتخفيف من روح العداء التي نشرتها الآية، خصوصًا وأن أولاده وأحفاده تعرضوا للتعنيف حتى بعد أن أصبحوا مسلمين. يقول **ابن سعد**[2] (**كانت ثويبة مولاة أبي لهب قد أرضعت رسول الله** ﷺ أياما قبل أن تقدم **حليمة**، وأرضعت **أبا سلمة بن عبد الأسد** معه، فكان **أخاه من الرضاعة**)[3].

---

(1) ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، 1/ 157 (وأول من أرضع رسول الله، ﷺ، ثويبة مولاة أبي لهب بلبن ابن لها يقال له مسروح، وكانت قد أرضعت قبله حمزة بن عبد المطلب، وأرضعت بعده أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومي، فكانت ثويبة تأتي رسول الله ﷺ، بمكة قبل أن يهاجر فيكرمها وتكريمها خديجة، فأرسلت إلى أبي لهب أن يبيعها إياها لتعتقها، فأبى، فلما هاجر رسول الله ﷺ، إلى المدينة أعتقها أبو لهب، فكان رسول الله ﷺ، يبعث إليها بالصلة إلى أن بلغه خبر وفاتها منصرفه من خيبر، فسأل عن ابنها مسروح، فقيل: توفي قبلها، فسأل: هل لها من قرابة ؟ فقيل: لم يبق لها أحد).

(2) ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، 4/ 74 (قال أخبرنا محمد بن عمر عن معمر عن الزهري عن عروة بن الزبير، أن أبي لهب أعتق ثويبة، فأرضعت رسول الله ﷺ، فلما مات أبو لهب رآه بعض أهله في النوم بشر خيبة، فقال: ماذا لقيت؟ قال أبو لهب لم نذق بعدكم رخاء غير أني سقيت في هذه بعتقي ثويبة، وأشار إلى النقيرة التي بين الإبهام والتي تليها من الأصابع).

(3) إذا كان لنا أن نتقبل مبدئيًّا فرضية، أن المقصود من هجرة النبي، هجرته إلى الطائف بعد اجتماع الصفا، وأن هذه اختلطت في روايات الإخباريين بهجرته إلى المدينة؛ فإن تقبل رواية كهذه سيكون مشروطًا بوجود فرضية موازية، مفادها أن أبي لهب أعتق ثويبة فرحًا بالتخلص من النبي ﷺ ؟

وبعد أن هاجر النبي ﷺ ظل يسأل عن **ثويبة**[1]، فيبعث إليها بالصلة والكسوة حتى جاءه خبر وفاتها، فسأل من بقي من قرابتها ؟ قالوا لا أحد. وبالطبع، فلم تكن ثويبة **مسلمة ولا دخلت الإسلام**، وما كان للنبي ﷺ بطبيعة الحال، أن يشترط دخولها الدين الجديد **ليصل الرحم**. إن تقاليد **وصل الرحم** هي في صلب عقائد وتقاليد العرب[2]. ولم يكن الإسلام في نطاق اهتمامه بتوطيد هذه التقاليد، يجد أدنى صعوبة في تثبيت دعائمها تحت شرط الإيمان، لكنه وجد بخلاف ذلك، أن انتصاره سيكون هو العامل الحاسم في إنشاء بنى قرابات جديدة. ولذلك، يتوجب رؤية أحد أكثر مستويات الصراع التباسًا وقد جرت فعليًا، بين **الابن والحفيد**. لقد وجد الابن نفسه منساقًا وراء الرغبة، وربما واجب الدفاع عن دين أبيه **(دين عبد المطلب)** وهو يصطدم مع ابن أخيه، بينما كان الحفيد يشرع في تأسيس لحظة الانتقال من دين القبيلة إلى الدين التاريخي، وكان أمرًا متوقعًا، أن يتخلص من كل المعتقدات البسيطة التي تختلط فيها الوثنية بالتوحيد. وهذا هو أحد أكثر بواعث ودوافع الصراع الذي تفجر بين الابن والحفيد، ابن الأخ والعم. لقد جاء الحفيد، أخيرًا، لتنفيذ إرادة إلهية، بالتخلص من الدين (المحلي) الأسري والصغير، والانتقال به إلى الدين العالمي. وفي هذا المنحى، سوف يتحدّد معنى التوحيد بمفهومه الشامل، فالعناية الإلهية هي التي قررت نقل التوحيد من لحظته البدائية، كمعتقدات أسرية (عائلية وقبلية) مبعثرة، إلى لحظته الجديدة. وكما سعى المفسرّون والفقهاء إلى التقليل من قيمة هذا الجانب؛ فإنهم سعوا، بموازاة ذلك إلى تقديم تفسير للعداء،

---

(1) البلاذري: **أنساب الأشراف** 1/ 94 :ﷺ أيامًا قبل مجيء حليمة (من لبنٍ يقال له مسروح). لكن البلاذري يعود في ص: 96 ليقول إن النبي ﷺ سأل عن ابنها مسروح أخيه من الرضاعة فقيل له مات قبلها) ابن سعد، **الطبقات** 4/ 74 وما بعدها وكان رسول الله ﷺ يبعث إليها بصلة وكسوة، حتى جاءه خبرها أنها قد توفيت سنة سبع، مرجعه من خيبر، فقال: ما فعل ابنها مسروح).

(2) البلاذري: **أنساب** ج1/ 52 إن رواية البلاذري تؤكد بقوة على وجود هذه التقاليد في أساس عقيدة (عبد المطلب) فقد عثرت القبائل على نقش (حجر) ورد فيه إن (المغيرة بن قصي أوصى قريشًا بتقوى الله وصلة الرحم).

يحصر المسألة برمتها في نطاق المضايقات الشخصية المستمرة. وكنا رأينا من نصوص الرواة[1]، أن **أبي لهب**، يظهر في صورة الشخص المعاند الذي لا يرتضي قط، الرضوخ لإنذار النبي أهله بيته وعشيرته الأقربين بالعذاب الشديد، ومن دون أن يتم تفسير هذا العناد بصورة كافية ومقنعة. لكن، ثمّة تفسيرات أخرى تتناقض مع سائر التفسيرات السابقة، **فالنويري مثلًا**، يعزو سبب العداء لا لمسألة الموقف من الإسلام؛ بل إلى الموقف من **عبد المطلب**، إذ ترددت على مسامع **أبي لهب** في أوساط قريش، أن النبي ﷺ قال: إن (**عبد المطلب مات كافرًا**)[2] و(**أنه في النار**)[3]. ولأن **عبد المطلب** كان يحتل مكانة دينية واجتماعية مرموقة، فقد اهتزّ وجدان **بني هاشم وقريش**، فهو بالنسبة لهم أول من تحنث بحراء[4] وكان يطعم المساكين ويكثر الطواف في الكعبة .**وللتدليل على مكانة عبد المطلب الفريدة، يروي الواقدي**، نقلًا عن رواية **عبد الله بن جعفر، أن مخرمة بن نوفل الزهري** أخبره، أن **عبد المطلب** عندما مات وكان ـ الزهري شاهدًا على لحظة وفاته ـ قالت له أمّه **رُقيقة بنت صيفي بن هاشم** وكانت لدّة عبد المطلب ـ:

شق قميصك على خالك، لمن تستبقيه بعده. قال: (**ونظرتُ إلى نساء عبد مناف وقد جزرن الشعور**)[5].

ولذلك ثارت ثائرة أبي لهب ضد النبي ﷺ. وإذا ما أخذنا هذا الجانب من الرواية الخاصة بصراع العمّ وابن الأخ حول (دين الجدّ) ؛ فإن العامل القرابي لم يكن باستمرار مصدرًا من مصادر الخصومة؛ بل هو في

---

(1) النويري، نهاية 4/ 279، 4/ 308، 5/ 103: في تفسيره لآية(تبت) يحدد أعداء النبي ﷺ ويضع إطارًا لا يسمح بقراءة مغايرة، فالله تعالى سمّى أم جميل حمّالة الحطب، لأنها كانت تحمل الشوك فتطرحه في طريق رسول الله ﷺ، وأن للنبي أعداء كثر كانوا يناصبونه العداء، ولكن من دون توضيح طبيعة الصدام وأغراضه.

(2) **أنساب الأشراف** 1/ 84.

(3) كذلك.

(4) **أنساب الأشراف** 1/ 84 (وكان أول من تحنث بحرّاء والتحنث التأله . وكان إذا أهل هلال شهر رمضان دخل حراء ولم يخرج حتى يسلخ الشهر).

(5) البلاذري: **أنساب** 1/ 84.

أحيانٍ كثيرة، لعب دورًا مفاجئًا في حماية النبي ﷺ. ولعل هذا الدور النموذجي يتجلى على أكمل وجه في واقعة **الصحيفة**[1] التي كتبتها **قريش على بني هاشم**، ونصّت على إبعادهم خارج مركز المدينة المقدسة، ومحاصرتهم داخل شعب جبلية، وحرّمت على القبائل الزواج منهم أو التعامل معهم بطعام وشراب أو تجارة. ولم يكن هذا الثمن الفادح الذي دفعه **بنو هاشم**، وهم ظلوا في معظمهم على **(دين عبد المطلب)**، يُدفع بهذه السهولة، لو لم يكن عامل القرابة هو عامل حماية حقيقي، ففي سياق تنامي العداء للنبي ﷺ، خصوصًا بعد نزول **سورة الشعراء**، تصاعد عداء قريش له، ولم يعد الأمر متعلقًا بأسرته الصغيرة ـ بنو هاشم ـ التي أنذرها، بل سرعان ما تبدى كإنذار نهائي للعرب كلها، وبدا لبني هاشم مع تصاعد أشكال الأذى، أن القبيلة تُفرطُ في إيذاء ابنها، وأن من واجبها، وإنْ اختلفت معه، أن تقدم له الحماية. وهذا ما عنى توترًا بين الأسرة والقبيلة. وفي هذا الإطار، لعب **هاشم بن الحارث بن أسد بن عبد العُزَّى**[2] (ويكنى أبا البَختري) وهو من أبناء عمومة النبي، وكان من أشد المستهزئين به والمخاصمين له، دورًا مدهشًا في تنظيم أكبر عملية لكسر الحصار، حين نقض (الصحيفة) وأعلن براءته منها، ثم قام بنقل الطعام للمحاصرين[3]. والمدهش أن هذا العامل القرابي وفي سياق تنامي العداء، سرعان ما تحوّل إلى عامل حماية للنبي ﷺ. ولأن أبي لهب، بعد وفاة شقيقه أبي طالب، أصبح بحكم الواقع مسؤولًا أمام كل أفراد أسرته بما فيهم

(1) الزبيري : **أنساب قريش** : 6/ 213.

(2) اسمه العاص وأمُّه أروى بنت الحارث بن عبد العُزَّى بن عثمان بن عبد الدار بن قصي.

(3) الزبيري: **أنساب قريش** 6/ 213 ويبدو أن النبي ﷺ أصدر أمرًا بالعفو عن أبي البخْتري، وفاء لموقفه ذاك، حتى مع استمراره في تصعيد عداوته وسخريته. وحين راح المسلمون يفتشون عنه، كان لديهم أمر واضح: أن لا يُمس بسوء، وأن يُطلب منه العودة آمنًا. لكنهم لم يلتزموا بهذا القرار (قال المُجذر : فلقيته، فقلت: إن رسول الله أمرنا ألا نقتلك. قال: أنا وزميلي؟- ومعه رجل- فقلت : لا . قال :

لا يُسلمُ ابن حرّةٍ زميله حتى يموت أو يرى سبيله)

(وفشّد عليه فطعنه فقتله).

النبي ﷺ عن تقديم الحماية لهم، أيًّا تكن الظروف والأسباب، فقد وجد نفسه مضطرًّا إلى الوقوف معه بوجه قريش. وفي تلك اللحظات، اتضح أن توتر القرابات الأسرية قد بلغ نقطة حرجة، حين جابهت الأسرة الهاشمية قريش. يقول **النويري**[1]:

> **لما هلك أبو طالب، نالت قريش من رسول الله ﷺ** ما لم تكن تناله في حياة عمه. قال محمد بن سعد: فبلغ **ذلك أبا لهب، فجاءه فقال: يا محمد، امض لما أردت، وما كنت صانعًا إذا كان أبو طالب حيًّا فاصنعه، لا واللات، لا يوصل إليك حتى أموت.** قال: وسب ابن **الغيطلة النبي ﷺ فأقبل عليه أبو لهب فنال منه، فولى** وهو يصيح: **يا معشر قريش، صبأ ـ أبو لهب ـ، فأقبلت قريش حتى وقفوا على أبي لهب فقال: ما فارقت دين عبد المطلب، ولكني أمنع ابن أخي إن يضام حتى يمضي لما يريد، قالوا: قد أحسنت وأجملت ووصلت الرحم،** فلبث رسول الله ﷺ كذلك أيامًا يذهب ويأتي، **ولا يعترض له أحد من قريش، وهابوا أبا لهب** إلى أن جاء عقبة بن أبي معيط، وأبو جهل بن هشام إلى **أبي لهب** فقالا: **أخبرك ابن أخيك أين مدخل أبيك ؟** فقالا له: **يا محمد أين مدخل عبد المطلب ؟ قال: مع قومه، فخرج أبو لهب إليهما فقال:** قد سألته، فقال: مع قومه، **فقالا: يزعم أنه في النار، فقالا: يا محمد، أيدخل عبد**

(1) النويري، **نهاية** 16/ 197 -198 حدد النويري أعداء النبي ﷺ على هذا النحو: كان أهل العداوة والمباداة لرسول الله ﷺ وأصحابه الذين يطلبون الجدل والخصومة : أبو جهل بن هشام، وأبو لهب بن عبد المطلب، والأسود بن عبد يغوث، والحارث بن قيس ابن عدي، والوليد بن المغيرة، وأمية وأبي ابنا خلف، وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة، والعاص بن وائل، والنضر بن الحارث، ومنبه بن الحجاج، وزهير بن أبي أمية، والسائب بن صيفي بن عابد، والأسود بن عبد الأسد، والعاص بن سعيد بن العاص، والعاص بن هشام، وعقبة بن أبي معيط، وأبو الأصدي، والحكم بن أبي العاص، وعدي بن الحمراء .

المطلب النار؟، فقال: نعم، ومن مات على مثل ما مات عليه عبد المطلب دخل النار .**فقال أبو لهب**: والله **لا برحت لك عدوًا أبدًا وأنت تزعم أن عبد المطلب في النار**، فاشتد عليه هو وسائر قريش.

وطبقًا لهذه الرواية، فقد لعبت القرابات الأسرية في اتجاهين متناقضين، **الأول**، بعد وفاة أبي طالب، حين حتمت الظروف على **أبي لهب** أن ينهض بالدور نفسه الذي قام به وأن يقدم الحماية لابن أخيه، مهما كان الثمن والدافع، وبالطبع لم يكن أبو طالب على دين النبي، ومع ذلك فقد قدّم له الحماية بفعل قوة الروابط القرابية لا قوة المعتقد الديني، وهذا ما توجب على أبي لهب أن يقوم به، والمدهش أنه يقسم أمام النبي ﷺ باللات والعُزّى أن لا يمسّه أحد من قريش؟ وأن يتركه حتى يبلغ رسالته .**والثاني**، أن **أبا لهب** استمر في مخاصمة النبي، عندما تفجر الخلاف بينهما حول الموقف من (**دين عبد المطلب**). لقد لعبت الدوافع القرابية ذاتها، في اتجاهين متناقضين، فهي كانت السبب في عدائه للنبي، كما كانت سببًا في حمايته من أذى القبيلة، ذلك أن الوشاة نقلوا **لأبي لهب** قول النبي ﷺ حين سئل عن مكانة **جده عبد المطلب** في الآخرة، أنه **مات كافرًا**[1]. بيد أن مؤلف **السيرة الحلبية**[2] يشكك في كل هذه الروايات وينقل رأيًا مختلفًا فالنبي ﷺ عندما سئل عن جده قال: يبعث جدي في زي الملوك وأبهة الأشراف. لقد أثارت هذه المسألة نقاشًا تواصل حتى وقت ٍ قريب، وانخرط فيه فقهاء ومفسرّون وكتّاب تاريخ، تنازعتهم فيها أهواء ومعتقدات فلسفية ومذهبية وكلامية، وربما يكون **ابن حزم**[3] أحد أكثر الفقهاء الذين قاموا بمعالجة موضوع **النظام القرابي** من وجهة نظر دينية ـ فلسفية، فقد ارتأى في تفسيره لآية ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾[4]

(1) تتردد المزاعم عن صحّة هذه الرواية في الكثير من الروايات.

(2) الحلبي، **السيرة الحلبية**، 1/ 172.

(3) ابن حزم، **الفصل في الملل والأهواء والنحل**: 1/ 397.

(4) الحلبي، **السيرة الحلبية**، كذلك: (لما كان سنه ثمان سنين: أي بناء على الراجح من الأقوال المتكاثرة، ويرجحه ما يأتي: توفي عبد المطلب وله من العمر خمس وتسعون سنة، وقيل مائة وعشرون، وقيل وأربعون: أي ولعل ضعف هذا القول اقتضى عدم ذكر

أن الأمم كلها في هذه الدعوة، باتت متساوية، وأن معنى المساواة يتجلى في وجود رسول منهم ممن هم قومه، لينذرهم ويطلب إليهم أن يؤمنوا بالدين (فإن احتج محتج بالحديث الثابت ـ للنبي ـ الذي فيه أن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشًا من كنانة واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم، فمعناه ظاهر وهو أنه تعالى اختار كونه ﷺ من بني هاشم، وكون بني هاشم من قريش، وكون قريش من كنانة، وكون كنانة من بني إسماعيل، كما اصطفى أن يكون موسى من بني لاوي، وأن يكون بنو لاوي من بني إسحاق ﷺ، وكل نبي **من عشيرته** التي هو منها، ولا يجوز غير هذا البتة ونسأل من أراد حمل هذا الحديث على غير هذا المعنى أيدخل أحد من بني هاشم أو من قريش أو من كنانة أو من **إسماعيل النار أم لا**؟ فإن أنكروا هذا **كفروا وخالفوا الإجماع والقرآن والسنن** وقد قال ﷺ :**أبي وأبوك في النار وإن أبا طالب في النار**، وجاء القرآن بأن أبا لهب في النار وسائر كفار قريش في النار كذلك قال الله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۞ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۞ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ فإذا أقر بأنه قد يدخل النار منهم من يستحق أن يدخلها صحت المساواة بينهم وبين سائر الناس). بموازاة ذلك، وحين بدا أن النظام القرابي بات عرضة للاهتزاز، تحت وقع وأصداء الدين الجديد، تصاعد عداء أبي لهب للنبي، إذ إن **نظام القرابات** لم يعد مهددًا عن **قريش** وحدها (التي تريد من بني هاشم قبول الاعتداء على ابن أخيهم ودون أي رد فعل) وإنما بات الدين الجديد بذاته، هو مصدر الخطر، ففي عرف الإسلام، لا تشفع القرابات الأسرية للكافرين. لقد كانت الوشاية التي نقلها ابن أبي معيط، سببًا من بين أسباب كثيرة وعميقة في تأجيج عداء، سعى الفقهاء دومًا إلى تصويره كعداء شخصي وحسب .

ابن الجوزي لعبد المطلب في المعمرين. قال: وقيل اثنان وثمانون: أي وعليه اقتصر الحافظ الدمياطي، قال: وقيل مائة وأربعة وأربعون. اهـ). وقد قيل له : «يا رسول الله أتذكر موت عبد المطلب؟ قال نعم وأنا يومئذ ابن ثمان سنين».وعن أم أيمن أنها كانت تحدث أن رسول الله ﷺ كان يبكي خلف سرير عبد المطلب وهو ابن ثمان سنين. ودفن بالحجون عند جده قصيّ. وجاء عن ابن عباس رضي الله عنه قال رسول الله: « يبعث جدي عبد المطلب في زي الملوك».

2
قصي ورزَاح

ارتبط صعود دور **قصي** بحدوث تحوّل مفاجئ في وعيه **لنظام القرابات الأسرية**، وكان هذا عاملًا حاسمًا في قصة الاستيلاء على **مكة**؛ إذ تروى روايات كثيرة، كيف أنه خلال فترة صباه كان يعيش في مضارب **أخواله القضاعيين (اليشكريين اليمنيين من أزد شنوءة)**[1]، وكانت والدته تزوجت رجلًا من قضاعة هو **ربيعة بن حرام**، فعاش في كنفه بعيدًا عن مكة سوية مع شقيقه الأكبر **زهرة**. ثم ولدت فاطمة، أمّ قصي ابنًا دعي **رزَاح**، فكان أخًا **غير شقيق لقصي من أمّه**. وبحسب رواية **الطبري**[2]، فقد كان اسم **قصي**، **زيدًا**، **وأن أمه** تزوجت عندما كان لا يزال **يوم ذاك صغيرًا**، وقد شبّ شقيقه **زهرة** وكبر. فقدم **ربيعة بن حرام**[3] فتزوج فاطمة. لكن زهرة شقيقه، وكان قد

---

(1) الطبري: **تاريخ**، 1/ 332، ابن الأثير : **الكامل في التاريخ** 1/ 155، 205 وإنما قيل له قصي لأن أباه كلاب بن مرة القرشي، كان تزوج فاطمة بنت سعد بن سيل واسم سيل خير بن حمالة بن عوف بن غنم بن عامر الجادر بن عمرو بن جعثمة بن يشكر من أزد شنوءة حلفاء في بني الديل). يشكر وشاكر من قبائل العرب اليمنيين، ذكرهم النبي ﷺ في حديث شهير، والاسم يرد في **التوراة** في صورة يسكر.

(2) الطبري، **تاريخ** 1/ 151، 373 كان قصي يقول- فيما زعموا - (ولد لي أربعة فسميت اثنين بصنمي وواحدًا بداري وواحدًا بنفسي وهم عبد مناف وعبد العزى ابنا قصي وعبد العزى والد أسد وعبد الدار بن قصي وعبد قصي بن قصي درج ولده، وبرة بنت قصي، أمهم جميعًا حُبى بنت حليل بن حبشية ابن سلول بن كعب بن عمرو بن خزاعة. وحدثت عن هشام بن محمد عن أبيه قال، وكان يقال لعبد مناف القمر واسمه المغيرة، وكانت أمه حُبى دفعته إلى مناف، وكان أعظم أصنام مكة تدينًا بذلك فغلب عليه عبد مناف وهو كما قيل له كانت قريش بيضة فتفلقت فألمح خالصة لعبد مناف (ابن قصي).

(3) هو ربيعة بن حرام بن ضنة بن عبد بن كبير بن عذرة بن سعد بن زيد أحد بني قضاعة.

أصبح شابًا حين كان قصي يبلغ الفطام توًا، قرر الرحيل عن مضارب **قضاعة** والعودة إلى **مكة**. ولذا أخذ **ربيعة بن حرام** زوجته الجديدة ومعها الصبي الصغير زيد، أو قصي في ما بعد، فاحتملها إلى بلاده من أرض بني عذرة (أشراف الحجاز). أما زهرة فظل يتحيّن الفرصة للرحيل والعودة إلى مكة. وكان **لربيعة بن حرام**، ثلاثة أولاد آخرين من امرأة أخرى، وهم **حنّ بن ربيعة، ومحمود بن ربيعة، وُجلهمة بن ربيعة**. وهؤلاء أخوة غير أشقاء **لقصي** من والده، **وشبّ زيد ـ قصي ـ** في حجر زوج أمه **ربيعة**، فسماه **قصيًا**. ويعزو الإخباريون على عاداتهم في التنسيب وتأويل الأسماء، سبب تسميته بأنه كان لبُعد داره عن دار أعمامه القرشيين، فهو قصي بمعنى بعيد، وهذا برأينا تأويل للاسم جاء في وقت متأخر، غرضه تقديم تفسير أسطوري لدوره. ويبدو من سياق الروايات، أن **زهرة شقيق قصي** وبعد أن رحلت والدته إلى **ديار قضاعة**[1]، اتجه صوب **مكة** ليقيم هناك، ولم يبرحها قط، بينما ظل **قصي بأرض القبيلة لا ينتمي إليها**، كما يؤكد **الطبري**[2] إلا إلى **ربيعة بن حرام زوج والدته**. إن ملاحظة **الطبري** التي يبنيها على روايات متواترة عن شخصية قصي في هذه الحقبة، تثير بقوة مسألة دور القرابات في صياغة شخصيته التاريخية والأسطورية، فقد كان الفتى الصغير يشعر بالغربة في دار أخواله.

لكن حادثًا عرضيًا سرعان ما وقع، كان من نتائجه أن الفتى الصغير، أدرك بصورة مفاجئة قيمة وأهمية انتسابه القبلي[3]:

> وقد بلغ قصي وكان رجلًا شابًا، فأنبّه **القضاعي بالغربة** وقال له: ألا تلحق بقومك ونسبك ؟ فإنك لست منا. فرجع **قصي** إلى أمه وقد وجدَ في نفسه مما قال له القضاعي، فسألها عما قال له ذلك الرجل، فقالت له: أنت والله يا بني أكرم منه نفسًا ووالدًا، أنت **ابن كلاب**

---

(1) قضاعة : قبيلة شمالية وجنوبية (عدنانية- قحطانية).

(2) الطبري: **تاريخ**، ج1 / 205.

(3) الطبري: **تاريخ**، المصدر نفسه.

ابن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة القرشي، وقومك بمكة **عند البيت الحرام** وفيما حوله، فأجمع **قصي الخروج إلى قومه**، واللحاق بهم **وكره الغربة بأرض قضاعة**، فقالت له أمه: يا بني لا تعجل بالخروج، حتى يدخل عليك الشهر الحرام فتخرج في **حاج العرب**، فإني أخشى عليك أن يصيبك بعض البأس، فأقام قصي حتى إذا دخل الشهر الحرام خرج حاج **قضاعة**، فخرج فيهم حتى قدم **مكة**، فلمّا فرغ من الحج، أقام بها و- خطب - إلى **حليل بن حبشية الخزاعي** ابنته حُبى. ورغب فيه فزوجه، **وحُليل يومئذ فيما يزعمون يلي الكعبة وأمر** مكة. فأما ابن إسحاق فإنه قال في خبره: **فأقام قصي معه، يعني مع حليل** وولدت له ولده **عبد الدار وعبد مناف وعبد العزّى وعبد بني قصي.**

كانت **رحلة الحج** التي أوصلت **قصي** إلى **مكة**، استكشافًا ممنهجًا لقراباته القبلية (الأسرية الكبيرة) الضائعة والمنسيّة، لكنها في الآن ذاته، كانت، بدرجةٍ أقل من ذلك، تعبيرًا عن رغبة في مجابهة جامحة، وجريئة مع إشكالية تاريخية تخصّه في الصميم، وكان عليه أن يُقدم عليها دون تردد. ويتجلى وعي قصي لهويته داخل نظام القرابات، أكثر ما يتجلى في هذه المحطة من حياته الأسطورية، وهو وعي ينبني على فهم عميق لانتسابٍ أكثر عراقة، فهو قرشي **إسماعيلي** - من أبناء إسماعيل بن إبراهيم النبي - بُناة البيت الحرام. وهذا ما عنى بوضوح، أنَّ له الحق في إدارة البيت، وكانت الكعبة يومئذٍ تحت سيطرة **الخزاعيين الذين سوف يصبحون، بعد وقت قصير من هذه الرحلة**، أخوال أولاده من زوجته **حُبى**. ولذلك، تبدو رحلة الحجّ، بالنسبة له تصميمًا مبكرًا على استرداد الكعبة من أيدي القبيلة التي سيصبح صهر زعيمها، بأكثر ما تبدو مجرد استكشاف فضولي لشجرة أنسابه، وأنه لهذا الغرض قرر الاستعانة بأخيه غير **الشقيق رزاح**. تضيف رواية **الطبري**[1]:

(1) الطبري: **تاريخ**، كذلك.

فلما انتشر ولده وكثر ماله وعظم شرفه، **هلك حليل بن حبشية.** فرأى **قصي أنه أولى بالكعبة وأمر مكة من خزاعة وبني بكر**، وأن قريشًا ـ هي ـ فرعة إسماعيل بن إبراهيم وصريح ولده، فكلم **رجالًا من قريش وبني كنانة، ودعاهم إلى إخراج خزاعة وبني بكر من مكة**، فلما قبلوا منه ما دعاهم إليه وبايعوه عليه، **كتب إلى أخيه من أمه رزاح بن ربيعة بن حرام، وهو ببلاد قومه يدعوه إلى نصرته**، والقيام معه. فقام **رزاح بن ربيعة في قضاعة، فدعاهم إلى نصر أخيه والخروج معه إليه**، فأجابوه إلى ما دعاهم من ذلك.

إن فهمًا متطلبًا لمضمون رواية **الطبري** التي أعاد تكرارها معظم الإخباريين اللاحقين، يجب أن تلاحظ التشابك في نظام القرابات، فهو استعان بأخواله أخيه غير الشقيق رزاح، ضد أخوال أولاده الخزاعيين، ولكن بواسطة أعمامه القرشيين. وكان هذا ـ من الناحية القتالية ـ يعني أنه شكل حلفًا متينًا من قبيلتين كبيرتين مرهوبتي الجانب. إن تحالف **الأخوال والأعمام** في مواجهة **أخوال الأبناء**، يشير إلى هذا التشابك الأسري المعقّد، بوصفه حلفًا دينيًا بأكثر ما يشير إليه كحلف قبلي، لأن الصراع على مكة سوف يتخذ منذ هذه اللحظة، بعد الديني التاريخي. بيد أن رواية **ابن هشام في السيرة**[1] تؤكد أن **قصي** لجأ إلى **أخيه الشقيق زهرة المقيم في مكة عند أعمامه القرشيين**، فلم يلبث أن ساد فيهم. وكانت **خزاعة بمكة أكثر من بني النضر، ولذلك استنجد قصي أخاه غير الشقيق رزاحًا** (وكان وله ثلاثة إخوة من أبيه من امرأة أخرى) فأقبل هؤلاء وبمن أجابهم من **أحياء قضاعة**، وقصي مع أعمامه بنو النضر. فوقعت مجابهة عنيفة انتهت **بسقوط ولاية خزاعة**. غير أن ابن هشام يرّد ـ وعلى غير توقع ـ زواج قصي من **حُبى** إلى هذه الحقبة، وأن **الزواج تمّ بعد سقوط ولاية خزاعة**[2]، وهذا أمر منطقي ومقبول، لأن قصي في هذه الحقبة وبعد سقوط **ولاية خزاعة**، لم يتمكن من

(1) ابن هشام، **السيرة**1/ 105، 117، 583.

(2) ابن هشام، **السيرة** المصدر نفسه.

استرداد الكعبة من أيديهم بصورة تامّة وحقيقية، بسبب ضخامة الحلف القبلي الذي تمّ تشكيله، وهو حلف كانت لكل جماعة وبطن وفرع قبلي فيه، مطالب لا يمكن تجاهلها، فكان أن لجأ إلى مصاهرة الخزاعيين المغلوبين على أمرهم، ليصبح أكثر قربًا من إدارة البيت الحرام، انتظارًا لتطورات أخرى كانت تتراءى أمامه وكأنها قادمة لا محالة، فمع ضعف خزاعة، وطرد بطونها من أجزاء واسعة من مكة، وتزايد ظروف العزلة والضعف التي عاش فيها **حُليل** زعيمها الديني ـ الذي ظل ممسكًا بحق إدارة البيت بقوة وعناد ـ أصبحت المصاهرة سبيلًا وحيدًا أمام قصي للبقاء عند مسافة، تسمح له بأن يكون شريكًا في إدارة البيت الحرام. يقول **ابن هشام**(1):

> **فنفوا خزاعة، فتزوج قصي حُبى بنت حليل بن حبشية من خزاعة**، فولدت له أولاده الأربعة وكان حُليل آخر من ولي البيت، فلما ثقل جعل ولاية البيت إلى ابنته **حُبى**، فقالت قد علمت أني لا أقدر على فتح الباب.

في هذه اللحظة النموذجية، وحين كان زعيم خزاعة يحتضر، والحلف القبلي يتآكل وينفرط عقده مع هجرة مفاجئة لكثير من بطون خزاعة صوب اليمن عائدة إلى موطنها الأصلي، بسبب وباء العدسة الذي انتشر في مكة، وقعت حادثة **بيع مفاتيح الكعبة بزق خمر**. لقد اضطرّ **حُليل** إلى إجراء غير مسبوق في أعراف الكعبة الدينية، فقد عهد **إدارة البيت لابنته**، وهذا ما أثار حفيظة وسخط بقايا خزاعة وسائر القبائل، إذ عنى ذلك، أن حُبى ستلعب دور مماثلًا لدور كاهنات المعابد الأخرى، مثلًا معبد العُزّى في وادي نخلة، ولكن ـ وكما اشترطت عليه القبائل ـ شرط أن لا يسمح لها بفتح الأبواب، وأن يعهد بهذه المهمة لرجل من خزاعة هو **أبو غبشان**(2):

---

(1) ابن هشام، **السيرة**،[ص 106] (قَالَ ابْنُ إسْحَاقَ : فَوَلَدَ قُصَيّ بْنُ كِلَابٍ أَرْبَعَةَ نَفَرٍ وَامْرَأَتَيْنِ عَبْدَ مَنَافِ بْنِ قُصَيّ وَعَبْدَ الدّارِ بْنَ قُصَيّ، وَعَبْدَ الْعُزّى بْنَ قُصَيّ، وَعَبْدَ (قُصَيّ) ابْنَ قُصَيّ، وَتَخْمُرَ بِنْتَ قُصَيّ، وَبَرّةَ بِنْتَ قُصَيّ . وَأُمّهُمْ حُبَيّ بِنْتُ حُلَيْلِ بْنِ حَبَشِيّةَ بْنِ سَلُولَ بْنِ كَعْبِ بْنِ عَمْرِو الْخُزَاعِيّ . قَالَ ابْنُ هِشَامٍ : وَيُقَالُ حُبْشِيّةُ بْنُ سَلُولَ .

(2) ابن دريد : **الاشتقاق** ج2، 469، 470، 474 (هو أبو غبشان بن سليمان بن عمرو وكان قد حجب البيت، ومن ولده ذو الشمالين صحب النبي ﷺ وشهد بدرًا)،(وكان حُليل

فجعله إلى أبي غبشان[1]**، فاشترى قصي ولاية البيت منه بزق خمر وقعود**[2]، فلما رأت ذلك **خزاعة كثروا على قصي، فاستنصر أخاه**، فقاتل **خزاعة، فبلغنا والله أعلم أن خزاعة أخذتها العدسة حتى كادت تفنيهم، فلما رأت ذلك جلت عن مكة**، فمنهم من وهب مسكنه ومنهم من باع، فولي قصي البيت وأمر مكة، والحكم بها، **وجمع قبائل قريش** فأنزلهم أبطح **مكة** وكان بعضهم في **الشعاب ورؤوس جبال مكة** فقسم منازلهم بينهم فسمي **مجمعًا**.

تكمن أهمية هذه الرواية في قدرتها على تنظيم إطار للنقاش، حول السبب الحقيقي لجلاء خزاعة عن مكة، إذ من المحتمل أن المعارك الضارية والهزيمة التي لحقت بها، لم تكن السبب الوحيد للجلاء عن مكة، **وإن وباء العدسة** تفشى في مكة في هذا الوقت[3]، وثمّة دلائل أن كثيرين من قريش والقبائل، ماتوا بسبب هذا الوباء. وذلك ما يفسرّ لنا السبب الحقيقي لجلاء بعض البطون والفروع القبلية، منها الفرع الذي ينتمي إليه **أبو غبشان**، وبقاء أخرى من بينها الفرع الذي يمثله زعيم خزاعة الذي آثر أن يموت في مكة. كما يفسرّ لنا سبب عقد صفقة بيع البيت (المفاتيح) في الطائف، إذ من المحتمل أن كلًّا من قصي وأبو غبشان، اضطرّا في هذا الوقت، وخلال الحرب الطويلة إلى الهجرة المؤقتة صوب الطائف هربًا من تفشي الوباء. أما **ابن إسحاق**؛ فإنه يروي قصة استيلاء قصي على الكعبة بطريقة مغايرة، إذ إنه وخلال رحلة الحج، قرر الاستيلاء عليها. وهذه رواية مثيرة، لأنها ترسم خطًا موازيًا للنقاش، سنلاحظ فيه أن رحلة الحج كانت ذات غرض يتعلق

سادن الكعبة، فزّوج ابنته حُبى بقصي، وأوصى إليها، وأعطاها مفتاح الكعبة، فأعطته زوجها، فتحولت الحجابة من خزاعة إلى اليوم). وأبو غبشان هو المحترش(الذي يزعمون أنه باع البيت من قصي وله حديث، والمحترش مفتعل من الحرش، وغبشان فعلان من الغبش).

(1) ابن هشام، **السيرة**، وهو عند ابن هشام يدعى: سليم بن عمرو بن ملكان بن أفصى.

(2) بعير قعود.

(3) (الجدري).

بالاستيلاء على المدينة، وأن الطابع الديني كان شكليًا، وأنه استعان بأخيه القضاعي ـ غير الشقيق رزاح ـ وهذا أجاب قصيًا إلى ما دعاه إليه من نصرته. وحسب رواية ابن اسحاق، **فقد بدأ الهجوم خلال موسم الحج**، عندما تقدّم حلف قضاعة بقيادة إخوة قصي الثلاثة في حاج العرب، وهم مجمعون على قتال خزاعة وإخراجها من مكة. يقول **ابن اسحاق**[1]:

(فلما اجتمع الناس بمكة وخرجوا إلى الموقف **وفرغوا من الحج** ونزلوا منى، **وقصي مجمع لما أجمع له ومن تبعه من قومه من قريش وبني كنانة ومن معه من قضاعة)**.

إن تحليل ظروف تفجرّ الصراع خلال موسم الحج (حيث يحرّم القتال تقليديًا عند العرب)[2] سوف يفصح عن مغزى وقوعه بهذه السرعة،إذ من الواضح أنه تفجرّ على خلفية شعائر الحج. كانت صوفة[3]، وهي الجماعة

---

(1) انظر رواية ابن هشام، **السيرة** 1/ 117قَالَ ابْنُ إسْحَاقَ: (فَإِذَا فَرَغُوا مِنْ رَمْيِ الْجِمَارِ وَأَرَادُوا النّفْرَ مِنْ مِنًى، أَخَذَتْ صُوفَةُ بِجَانِبَيْ الْعَقَبَةِ، فَحَبَسُوا النّاسَ وَقَالُوا : أَجِيزِي صُوفَةَ فَلَمْ يَجُزْ أَحَدٌ مِنْ النّاسِ حَتّى يَمُرّوا، فَإِذَا نَفَرَتْ صُوفَةُ وَمَضَتْ خُلّيَ سَبِيلُ النّاسِ فَانْطَلَقُوا بَعْدَهُمْ فَكَانُوا كَذَلِكَ حَتّى انْقَرَضُوا، فَوَرِثَهُمْ ذَلِكَ مِنْ بَعْدِهِمْ بِالْقُعْدُدِ بَنُو سَعْدِ بْنِ زَيْدِ مَنَاةَ ابْنِ تَمِيم وَكَانَتْ مِنْ بَنِي سَعْدٍ فِي آلِ صَفْوَانَ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ شِجْنَةَ) .**الروض الآنف**: 1، 226 (كَانَ الْغَوْثُ بْنُ مُرّ بْنِ أُدّ بْنِ طَابِخَةَ بْنِ إلْيَاسَ بْنِ مُضَرَ يَلِي الْإِجَازَةَ لِلنّاسِ بِالْحَجّ مِنْ عَرَفَةَ وَوَلَدُهُ مِنْ بَعْدِهِ وَكَانَ يُقَالُ لَهُ وَلِوَلَدِهِ صُوفَةُ . وَإِنّمَا وَلِيَ ذَلِكَ الْغَوْثُ بْنُ مُرّ، لِأَنّ أُمّهُ كَانَتْ امْرَأَةً مِنْ جُرْهُم، وَكَانَتْ لَا تَلِدُ فَنَذَرَتْ لِلّهِ إنْ هِيَ وَلَدَتْ رَجُلًا : أَنْ تَصّدّقَ بِهِ عَلَى الْكَعْبَةِ عَبْدًا لَهَا يَخْدُمُهَا، وَيَقُومُ عَلَيْهَا، فَوَلَدَتْ الْغَوْثَ، فَكَانَ يَقُومُ عَلَى الْكَعْبَةِ فِي الدّهْرِ الْأَوّلِ مَعَ أَخْوَالِهِ مِنْ جُرْهُم، فَوَلِيَ الْإِجَازَةَ بِالنّاسِ مِنْ عَرَفَةَ لِمَكَانِهِ الّذِي كَانَ بِهِ مِنْ الْكَعْبَةِ، وَوَلَدُهُ مِنْ بَعْدِهِ حَتّى انْقَرَضُوا . فَقَالَ مُرّ بْنُ أُدّ لِوَفَاءِ نَذْرِ أُمّهِ).

(2) كانت العرب في الجاهلية تنفر من الحرب في موسم الحج لاعتبارات كثيرة، ولكنهم لم يكونوا قادرين إلا مع الإسلام على وضع ضوابط شرعية صارمة تمنعه وتحرّمه. لقد جاء نظام الأشهر الحرم، ومنها شهر ذي الحجة، ليعيد وضع موسم الحج خارج نطاق المنازعات، ويكون مناسبة للتجمع والتآخي.

(3) الأزرقي، **أخبار مكة** ج 5/ 202 عن الزبير بن بكار عن عبيدة (صوفة وصوفان يقال لكل من ولي البيت من غير لأهله أو أقام بشيء من المناسك في خدمة البيت أو بشيء من أمر المناسك وليسوا من قبيلة واحدة).

القبلية التي تشرف على شعيرة رمي الحصى ـ الجمرات ـ تتلاعب بأسلوب تطبيق الشعائر، وهو ما كان يثير حنق وغضب القبائل التي رأت فيه تلاعبًا من خزاعة بما اعتاد عليه حاج مكة. في هذا الوقت بدأت الوفود والمواكب بشعيرة الصعود إلى عرفة، كان قصي وإخوته يستعدون لخوض الحرب (ولم يبق إلا أن ينفروا للصدر. وكانت صوفة تدفع بالناس من عرفة، وتجيزهم إذا نفروا من منى، إذا كان يوم النفر، أتوا لرمي الجمار، **ورجل من صوفة يرمي للناس، لا يرمون حتى يرمي)**[1]. ولم يكن هذا مقبولًا، لأن ذوي الحاجات ممن كانوا يتعجلون، ويرغبون في تسريع وتيرة تطبيق الشعائر، يأتون إليه قائلين له: قمْ فارم حتى نرمي معك ؟ فيقول: لا والله حتى تميل الشمس. ولذلك، يضطرّ هَؤلاء إلى رميه بالحجارة، قائلين: ويلك قمْ فارم فيأبى عليهم، حتى إذا مالت الشمس، قام فرمى ورمى الناس معه. (فإذاَ فرغوا من رمي الجمار وأرادوا النفر من منى، أخذت صوفة بناحيتي العقبة فحبسوا الناس، وقالوا **أجيزي صوفة**، فلم يجز أحد من الناس حتى ينفذوا؛ فإذا نفرت صوفة ومضت، خلي سبيل الناس فانطلقوا بعدهم، فلمّا كان ذلك العام فعلت ذلك صوفة كما كانت تفعل، قد عرفت ذلك لها العرب وهو **دين في أنفسهم في عهد جرهم وخزاعة** وولايتهم، أتاهم قصي بن كلاب بمن معه من قومه من قريش وكنانة وقضاعة عند العقبة، فقالوا نحن أولى بهذا منكم، فناكروه فناكرهم فقاتلوه، فاقتتل الناس قتالًا شديدًا ثم انهزمت **صوفة**، وغلبهم قصي على ما كان بأيديهم من ذلك وحال بينهم وبينه)[2] إثر هذا الاشتباك الدموي، أعلنت خزاعة مساندتها لرجال صوفة، وكان معهم بنو بكر، وكان على قصي أن يستثمر النصر الخاطف الذي حققه، وهو ما انتبهت إليه خزاعة وحلفاؤها، فهو قد يواصل المعركة ضدهم، ويعدّ العدّة لنزع سلطانهم عن المدينة المقدّسة لا عن إدارة البيت وحسب. وبالفعل فقد:

(بدأهم وأجمع لحربهم وثبت معه أخوه رزاح بن ربيعة

---

(1) ابن هشام 1/ 122.

(2) ابن هشام، المصدر نفسه.

بمن معه من قومه من قضاعة، وخرجت لهم خزاعة وبنو بكر، وتهيئوا لحربهم والتقوا فاقتتلوا قتالًا شديدًا حتى كثرت القتلى من الفريقين جميعًا وفشت فيهم الجراحة)[1].

وما أن وضعت الحرب أوزارها بعد المعارك العنيفة في وادي منى، تداعوا إلى **الصلح** وقرروا فضّ النزع بواسطة التحكيم، فكان أن وقع اختيارهم على **الشّداخ يعمر بن عوف**[2]. وعلى **غير توقع من خزاعة وحلفاؤها، فقد حكم الشّداخ** بأحقية **قصي** في إدارة شؤون الكعبة وأمر مكة معًا. وبذلك خرج المكان المقدّس عند العرب، نهائيًا من يد القبيلة التي حكمته لمدة ثلاثمائة عام متواصلة. وبفضل الصلح والتحكيم، تولى **قصي** أمر البيت وأمر مكة (وجمع قومه من منازلهم إلى مكة وتملّك على قومه وأهل مكة فملكوه)[3]، فكانت له **الحجابة والسقاية والرفادة والندوة واللواء** (فحاز

---

(1) كذلك : على جري عادات الإخباريين المسلمين في تأويل الأسماء والألقاب، فقد افترض ابن اسحاق أن يعمر هذا سميّ الشّداخ لأنه حكم بإسقاط دية كل قتيل من خزاعة وبكر). حكم يعمر لصالح قصي فقضى أن (كل دم أصابه قصي من خزاعة وبني بكر موضوع يشدخه تحت قدميه، وأن ما أصابت خزاعة وبنو بكر من قريش وبني كنانة وقضاعة ففيه الدية مؤداة، وأن يخلى بين قصي بن كلاب وبين الكعبة ومكة، فسمي يعمر ابن عوف يومئذ الشداخ لما شدخ من الدماء)، الحلي: **المناقب** 134 (إني قد شدخت دماءهم) أي حقنتها.

(2) ابن هشام، **السيرة** كذلك، (هو ابن كعب بن ليث بن بكر بن عبد مناة بن كنانة) البلاذري: **أنساب الأشراف** .

(3) ابن هشام، **السيرة** : ج1 [ص 125 - 126] قالَ ابْنُ إسْحَاقَ (فَوَلِيَ قُصَيّ الْبَيْتَ وَأَمْرَ مَكّةَ، وَجَمَعَ قَوْمَهُ مِنْ مَنَازِلِهِمْ إلَى مَكّةَ، وَتَمَلّكَ عَلَى قَوْمِهِ وَأَهْلِ مَكّةَ فَمَلّكُوهُ . إلّا أَنّهُ قَدْ أَقَرّ لِلْعَرَبِ مَا كَانُوا عَلَيْهِ وَذَلِك أَنّهُ كَانَ يَرَاهُ دِينًا فِي نَفْسِهِ لَا يَنْبَغِي تَغْيِيرُهُ . فَأَقَرّ آلَ صَفْوَانَ وَعَدْوَانَ وَالنّسْأَةَ وَمُرّةَ بْنَ عَوْفٍ عَلَى مَا كَانُوا عَلَيْهِ حَتّى جَاءَ الْإِسْلَامُ فَهَدَمَ اللّهُ بِهِ ذَلِكَ كُلّهُ . فَكَانَ قُصَيّ أَوّلَ بَنِي كَعْبِ بْنِ لُؤَيّ أَصَابَ مُلْكًا أَطَاعَ لَهُ بِهِ قَوْمُهُ فَكَانَتْ وَالرّفَادَةُ وَالنّدْوَةُ، وَاللّوَاءُ فَحَازَ شَرَفَ مَكّةَ كُلّهُ . وَقَطَعَ مَكّةَ رِبَاعًا بَيْنَ قَوْمِهِ فَأَنْزَلَ كُلّ قَوْمٍ مِنْ قُرَيْشٍ مَنَازِلَهُمْ مِنْ مَكّةَ الّتِي أَصْبَحُوا عَلَيْهَا، وَيَزْعُمُ النّاسُ أَنّ قُرَيْشًا هَابُوا قَطْعَ شَجَرِ الْحَرَمِ فِي مَنَازِلِهِمْ فَقَطَعَهَا قُصَيّ بِيَدِهِ وَأَعْوَانِهِ فَسَمّتْهُ قُرَيْشٌ مُجَمّعًا لِمَا جَمَعَ مِنْ أَمْرِهَا، وَتَيَمّنَتْ بِأَمْرِهِ فَمَا تُنْكَحُ امْرَأَةٌ وَلَا يَتَزَوّجُ رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ، وَمَا يَتَشَاوَرُونَ فِي أَمْرٍ نَزَلَ بِهِمْ وَلَا يَعْقِدُونَ لِوَاءً لِحَرْبِ قَوْمٍ مِنْ غَيْرِهِمْ إلّا فِي دَارِهِ يَعْقِدُهُ لَهُمْ بَعْضُ وَلَدِهِ وَمَا تَدّرِعُ جَارِيَةٌ إذَا بَلَغَتْ أَنْ تَدّرِعَ مِنْ قُرَيْشٍ إلّا

شرف مكة كله **وقطع مكة أرباعًا**[1] بين قومه فأنزل كل قوم من قريش منازلهم). وبلغت مهابته في قريش والقبائل، أن قريش أرادت **قطع شجر الحرم**، فهابت الإقدام على خطوة من هذا النوع دون مشورته، فجاء بنفسه فقطعها. كانت الكعبة في هذا الوقت **بيتًا عتيقًا** صغيرًا وضيقًا، والرواة القدماء استفاضوا في وصف حجمها المحدود في هذا العصر. ولذلك، سعى قصي إلى دمج البيت الحرام بالبيئة السكنية للقبائل المستقرة، وخلق، بفضل ما يعرف **بنظام الأرباع**، فضاء يندمج فيه السكان وهم داخل منازلهم، بجموع الحاج الذين يطوفون في البيت، فقد روى **الفاكهي** عن محمد بن أبي عمر عن الحُميدي عن أبيه قال (ربما كنتُ في الطواف، فينقطع **شسع**[2] نعلي من الطواف **فأصبح بعض أهلي ـ من الطواف ـ فيأتي بشسع**)[3]. وبوسع المرء تخيّل جموع القبائل التي تطوف في موسم الحج في مكان ضيق، وبحيث يختلطون مع السكان، وهؤلاء يصبحون في موسم الحج، تلقائيًّا جزءً حيًّا من المشهد الديني. وقد رأى عمر بن الخطاب رضي الله عنه بنفسه أثناء الحج، رجلًا يطوف في البيت وقد انقطع شسع نعله، فنفح بنعله ـ قذفه ـ فوقعت في منزله من دار أسد. ولشدّة انزعاج الخليفة من المنظر الذي فاجأه، فقد خاطب الرجل قائلًا: إن داركم هذه قد ضيقت الكعبة ولا بدّ من هدمها وإدخالها في المسجد (ففعل فأعطاه ملًا فأبى أخذه)[4]. كانت الدور الملاصقة للكعبة من رباع بني أسد التي وزعها قصي، لا تزال حتى عهد قريب من الإسلام المبكر، علامة دالة على الفضاء الديني الذي خلقته تدابير قصي الخلاقة، وكانت لشدة تلاصقها مع الكعبة، أن الرجل من بني أسد، يمكنه أن يجلس مع مشايخ قريش في الحجر- حجر الكعبة ـ **(فتبدو له الحاجة، فيصيح**

فِي دَارِهِ يَشُقّ عَلَيْهَا فِيهَا دِرْعَهَا ثُمّ تَدّرِعُهُ ثُمّ يَنْطَلِق بِهَا إلَى أَهْلِهَا . فَكَانَ أَمْرُهُ فِي قَوْمِهِ مِنْ قُرَيْشٍ فِي حَيَاتِهِ وَمِنْ بَعْدِ مَوْتِهِ كَالدّينِ الْمُتّبِعِ لَا يُعْمَلُ بِغَيْرِهِ. وَاتّخَذَ لِنَفْسِهِ دَارَ النّدْوَةِ وَجَعَلَ بَابَهَا إلَى مَسْجِدِ الْكَعْبَةِ، فَفِيهَا كَانَتْ قُرَيْشٌ تَقْضِي أُمُورَهَا).

(1) الفاكهي : **أخبار مكة في قديم الدهر**، انظر : رباع قريش 3/ 264.

(2) الشسع : سيور النعل.

(3) الفاكهي، ج3/ 306.

(4) الفاكهي، **أخبار**، ج/ 3، 306، 307.

بجاريته، فتشرف عليه من منزله فيأمرها بحاجته)[1]. وقد ذهب قصي أبعد من ذلك، حين بدأ بوضع أسس جديدة لتنظيم مجتمع مكة لم تكن مألوفة، فقد فرض على قريش أن لا يتم الزواج إلا في دار الندوة، وهذه أصبحت فعليًا مقر أول حكومة في عصره، وكانت مراسم الاعتراف ببلوغ الفتاة سن البلوغ (إذا حاضت) تتم أمام مشايخ قريش الذين يجتمعون لهذا الغرض، وكان هذا تدبيرًا لم تألفه قريش من قبل، ولكنها تقبلته دون حرج، فالفتاة ابنة القبيلة، ولها الحق بالحصول علنًا على تكريم يليق بانتقالها إلى مرحلة الزواج، وتنال الاعتراف والمباركة ؛ بل إن الفتاة الصغيرة إذا ما **بلغت ولبست الدرع**[2]؛ فإنها تلبسه فقط في دار قصي، وهو من يشق الدرع بنفسه[3]. والمثير للاهتمام أن العرب سمّت دار الندوة، **المحيض، نسبة إلى الطقس الديني الذي تعرض فيه الفتاة نفسها على القبيلة عند بلوغها.** وبرأي رواة السيرة فقد كان أمره في **قريش والعرب في منزلة الدين المتّبع**:

(فما تنكح امرأة ولا رجل من قريش إلا في دار قصي بن كلاب وما يتشاورون في أمر ينزل بهم إلا في داره ولا يعقدون لواء لحرب قوم من غيرهم إلا في داره يعقدها لهم بعض ولده وما تدرع جارية إذا بلغت، أن تدرع من قريش إلا في داره، يشق عليها فيها درعها ثم تدرعه، ثم ينطلق بها إلى أهلها، فكان أمره في قومه من قريش في حياته وبعد موته كالدين المتبع[4]**، لا يعمل بغيره، تيمنًا بأمره ومعرفة بفضله وشرفه).**

(1) الفاكهي: **أخبار**،ج/ 3: 307.

(2) الدرع : ثوب شفاف اشتهرت به اليمن (وهو ما يعرف في المرويات العربية بدروع داود ـ نسج داود). ولعل قيام قصي بنفسه أو من يكلفه من أبنائه، بشق القماش (تفصيله) يدّلل على الطبيعة الدينية للطقس الذي يجري فيه الاعتراف بعذرية الفتاة، وبمسؤولية القبيلة عن حماية هذه العذرية، وتكريمها داخل فضاء روحي، يصبح فيه السكان جزء من الحاج.

(3) المصدر نفسه.

(4) ابن هشام، **السيرة** ج1/ 124-125 ينقل ابن اسحاق الرواية التالية: (قال سمعت السائب ابن خباب صاحب المقصورة يحدث أنه سمع رجلًا يحدث عمر بن الخطاب وهو خليفة حديث قصي بن كلاب هذا وما جمع من أمر قومه وإخراجه خزاعة وبني بكر من مكة

وضع **قصي** في هذه المرحلة من سيطرته المطلقة على **مكة**، قواعد وأسسًا جديدة لإعادة تنظيم المدينة، ربما كان أكثرها أهمية وتأثيرًا في الحياة اليومية للسكان، تقسيمها إلى وحدات سكنية شبه مستقلة. وكانت عملية إعادة تخطيط المدينة، ثم توزيع القبائل في أحياء خاصّة بها **(الأرباع)**[1] وبحيث يصبح بوسع كل بطن أو فرع قبلي، أن يقيم داخل ما يشبه حدودًا إدارية افتراضية، تدبيرًا حاذقًا يحاكي صورة الحواضر(العواصم) الكبرى، وقد يكون قصي استوحى هذا الجانب من التدابير الإدارية من صورة التقسيم الإداري الذي شرع الرومان في تطبيقه في هذا الوقت جنوب سورية. كانت **بيزنطة**، وريثة **روما** في هذا العصر نحو 450م، حاضرة بقوة في حياة العرب، بفعل تدفق الأنباء والمعلومات والأخبار على الجزيرة العربية، وكانت إجمالًا ترتبط بالحروب الطاحنة التي كانت تخوضها ضد الفرس واستمرت لوقت طويل، وبحيث تسنى للعرب ـ في سياق التفاعل الوجداني معها ـ التعرّف على الكثير ممّا كان يبدو مستعصيًا على الفهم، وبشكل أخص تلك الأمور التي تخص **هندسة البناء**، وذلك ما يمكن استنتاجه من مروية أسطورية عن تحطم **سفينة رومانية** (بيزنطية) عند **سواحل مكة**[2] **قبل الإسلام بقليل، إذ** هرعت القبائل

وولايته البيت وأمر مكة فلم يردد ذلك عليه ولم ينكره قال فأقام قصي بمكة على شرفه ومنزلته في قومه لا ينازع في شيء من أمر مكة إلا أنه قد أقرّ للعرب في شأن حجهم ما كانوا عليه وذلك لأنه كان يراه دينًا في نفسه لا ينبغي له تغييره).

(1) الفاكهي، **أخبار** ج/ 3، ص260 (عن سعيد بن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه عن جده ـ مطعم ـ قال ـ (منزلنا هذا بمكة أقطعه لنا قصي بن كلاب، وكذلك منازل قريش كلها بمكة).

(2) الفاكهي، **أخبار مكة**،ج/ 5، 227، **الروض الآنف**، [ص 344] (وَكَانَ الْبَحْرُ قَدْ رَمَى بِسَفِينَةٍ إلَى جَدّةٍ لِرَجُلٍ مِنْ تُجّارِ الرّومِ، فَتَحَطّمَتْ فَأَخَذُوا خَشَبَهَا فَأَعَدّوهُ لِتَسْقِيفِهَا، وَكَانَ بِمَكّةَ رَجُلٌ قِبْطِيّ نَجّارٌ فَتَهَيّأَ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ بَعْضَ مَا يُصْلِحُهَا) (سَفِينَةٌ خَجّتْهَا الرّيحُ إلَى الشّعَيْبَةِ وَهُوَ مَرْفَأُ السّفُنِ مِنْ سَاحِلِ بَحْرِ الْحِجَازِ، وَهُوَ كَانَ مَرْفَأَ مَكّةَ وَمَرْسَى سُفُنِهَا قَبْلَ جَدّةَ. وَالشّعَيْبَةُ بِضَمّ الشّينِ ذَكَرَهُ الْبَكْرِيّ، وَفَسّرَ الْخَطّابِيّ خَجّتْهَا: أَيْ دَفَعَتْهَا بِقُوّةٍ مِنْ الرّيحِ الْخَجُوجِ أَيْ الدّفُوعِ . قَالَ ابْنُ إسْحَاقَ : وَكَانَ بِمَكّةَ نَجّارٌ قِبْطِيّ، وَذَكَرَ غَيْرُهُ أَنّهُ كَانَ عِلْجًا فِي السّفِينَةِ الّتِي خَجّتْهَا الرّيحُ إلَى الشّعَيْبَةِ وَأَنّ اسْمَ ذَلِكَ النّجّارِ بَاقُومُ وَكَذَلِكَ رُوِيَ أَيْضًا فِي اسْمِ النّجّارِ الّذِي عَمِلَ مِنْبَرَ رَسُولِ اللّهِ ﷺ مِنْ طَرْفَاءِ الْغَابَةِ، وَلَعَلّهُ أَنْ يَكُونَ هَذَا، فَاَللّهُ أَعْلَمُ).

للاستيلاء على الخشب والمعدّات التي يمكن استخدامها في البناء، وقد ارتأى **الفاكهي ومؤلف الروض الآنف، كل على انفراد**، أنهم عقدوا اتفاقًا تجاريًا لتزويد مكة بالخشب لإعادة بناء **الكعبة**، وكَانَتْ رَضْمًا فَوْقَ الْقَامَةِ، الرّضْمُ أَنْ تُنَضّدَ الْحِجَارَةُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ مِنْ غَيْرِ مِلاطٍ[1]:

> عن عثمان بن ساج عن جريج، كان **رومي** يقال له **باقوم**، يتجر- يتاجر - إلى - **باب - المندب**، **فانكسرت سفينته** فأرسل إلى قريش: هل لكم أن تجروا عيري في عيركم - يعني التجارة - **وأنا أمدكم بما شئتم من الخشب ونجار، فتبنوا بيت إبراهيم**[2].

تقول العرب في مروياتها، أن **الكعبة**[3] بنيت نحو أربع مرات بالتتابع، الأولى حِينَ بَنَاهَا **شِيثُ بْنُ آدَمَ**، وَالثّانِيَةُ حِينَ بَنَاهَا **إبْرَاهِيمُ** عَلَى الْقَوَاعِدِ الأولى، وَالثّالِثَةُ حِينَ بَنَتْهَا **قُرَيْشٌ** قَبْلَ الإسلام بِخَمْسَةِ أَعْوَامٍ، وَالرّابِعَةُ حِينَ احْتَرَقَتْ فِي عَهْدِ **ابْنِ الزّبَيْرِ** بِشَرَارَةٍ طَارَتْ مِنْ أَبِي قُبَيْسٍ، فَوَقَعَتْ فِي أَسْتَارِهَا، فَاحْتَرَقَتْ. كان قصي يضع خطط توسيع **الكعبة**، ويعيد تقسيم المدينة إداريًا، ولكن من دون التفكير بهدمها وإعادة بنائها. وكانت الحدود الإدارية

---

(1) **الروض الآنف**: 238، 344.

(2) **الروض الآنف** [ص 339] [ص 340] [ص 341] [ص 342] [ص 343] [ص 344] [ص 336 إن الناس هابت الهدم (وَكَانَ شِقّ الْحَجَرِ لِبَنِي عَبْدِ الدّارِ بْنِ قُصَيّ، وَلِبَنِي أَسَدِ بْنِ الْعُزّى بْن قُصَيّ، وَلِبَنِي عَدِيّ بْنِ كَعْبِ بْنِ لُؤَيّ وَهُوَ الْحَطِيمُ، ثُمّ إنّ النّاسَ هَابُوا هَدْمَهَا وَفَرِقُوا مِنْهُ فَقَالَ الْوَلِيدُ بْنُ الْمُغِيرَةِ : أَنَا أَبْدَؤُكُمْ فِي هَدْمِهَا، فَأَخَذَ الْمِعْوَلَ ثُمّ قَامَ عَلَيْهَا، وَهُوَ يَقُولُ اللّهُمّ لَمْ تُرَعْ - قَالَ ابْنُ هِشَام : وَيُقَالُ لَمْ نزِغْ - اللّهُمّ إنّا لا نُرِيدُ إلا الْخَيْرَ ثُمّ هَدَمَ مِنْ نَاحِيَةِ الرّكْنَيْنِ، فَتَرَبّصَ النّاسُ تِلْكَ اللّيْلَةَ وَقَالُوا: نَنْظُرُ فَإِنْ أُصِيبَ لَمْ نَهْدِمْ مِنْهَا شَيْئًا وَرَدَدْنَاهَا كَمَا كَانَتْ، وَإِنْ لَمْ يُصِبْهُ شَيْءٌ فَقَدْ رَضِيَ اللّهُ صُنْعَنَا فَهَدَمْنَا. فَأَصْبَحَ الْوَلِيدُ مِنْ لَيْلَتِهِ غَادِيًا عَلَى عَمَلِهِ فَهَدَمَ وَهَدَمَ النّاسُ مَعَهُ، حَتّى إذَا انْتَهَى الْهَدْمُ بِهِمْ إلَى الأساس، أَسَاسِ إبْرَاهِيمَ ﷺ أَفْضَوْا إلَى حِجَارَةٍ خُضْرٍ قَالَ ابْنُ إسْحَاقَ : فَحَدّثَنِي بَعْضُ مَنْ يَرْوِي الْحَدِيثَ أَنّ رَجُلًا مِنْ قُرَيْشٍ، مِمّنْ كَانَ يَهْدِمُهَا، أَدْخَلَ عَتَلَةً بَيْنَ حَجَرَيْنِ مِنْهَا لِيَقْلَعَ بِهَا أَحَدَهُمَا، فَلَمّا تَحَرّكَ الْحَجَرُ تَنَقّضَتْ مَكّةُ بِأَسْرِهَا فَانْتَهَوْا عَنْ ذَلِكَ الأَسَاسِ)].

(3) **الروض الآنف** : [ص 337] [ص 338]

الجديدة **(الرباع)**[1] حول الكعبة وفي المدينة، أكثر التدابير التي لجأ إليها قصي، إثارة لإعجاب القبائل، وكانت بالفعل تدبيرًا خلاقًا أعاد تنظيم المدينة كمركز عالمي، يستمد مكانته من قدسيّة البيت الحرام. وبطبيعة الحال، لم تكن قريش والقبائل لتتوقع حدوث مثل هذا التغيّر في أنماط الإقامة والسكن، وبالنسبة لجماعات قبلية شبه مدينية، فقد بدت هذه الإجراءات بمثابة ثورة في أنماط الإقامة. ومع ذلك، بوسعنا اعتبار تنظيم الجانب الإداري لموسم الحجّ، من بين أكثر الأعمال أهميةً وتأثيرًا في الحياة اليومية للسكان، فقد عنى هذا التنظيم وبشكل مباشر، أن كل مواطن وبحسب إمكاناته المالية، سوف يصبح شريكًا في إطعام الحاج، وهذا الجانب قد يبدو دينيًا بالكامل، لكنه في الجوهر، وطبقًا للتقاليد القبلية في إطعام الضيوف، شرفًا ما بعده شرف، وبالطبع فقد تطلب هذا الإجراء تنظيم سقاية الجموع الهائلة التي كانت تتدفق على مكة ـ والكعبة ـ سنويًا في شهر ذي الحجّة، وهذا بدوره فرض شكلًا جديدًا من الإشراف على الآبار وعيون الماء في جبال مكة، وهي بوجه العموم شحيحة المياه[2]. وسوف نلاحظ عند التدقيق في هذه النقطة، أن **حفر زمزم** (إعادة حفرها بعدما ردمتها جُرْهُم قبل طردها) كان جزء من هذا التدبير، الهادف في الأساس، ومن دون إسقاط البعد الديني(المقدّس) إلى تأمين مياه الشرب للحاج. بيد أن أكثر هذه التدابير الإدارية الحازمة تدليلًا على أن قصي كان يتصرف كملك، لا مجرد والٍ من ولاة مكة، أنه أنشأ ما سوف يعرف **بدار الندوة**[3]، وهي دار يتشاور فيها قادة وزعماء القبائل والوجهاء بما يشبه

---

(1) الفاكهي، **أخبار** ج/ 3، 252 (كانت قريش في الجاهلية لا يبنون بيتًا مربعًا بمكة، رواه الواقدي عن الحسن بن عثمان بن أسلم) و(كان مبتدأ قطائع الرباع بمكة، أن قصي بن كلاب لمّا فرغ من حرب خزاعة رأسته قريش، واستقام له العز بمكة، وجمع قريشًا إليه وكان يقال له- المُجمع-) ص: 259 (فقطع مكة رباعًا له ولقومه من قريش، فأنزل كل قوم منازلهم التي في أيديهم إلى اليوم) ص: 260.

(2) الحلبي، **السيرة الحلبية** ج / 1، 6، والسقاية كانت حياضًا- أحواضًا- من أدم- من الجلود-توضع بفناء الكعبة، وينقل إليها الماء العذب من الآبار على الإبل- وكان هذا قبل حفر زمزم- الأزرقي، **أخبار مكة** : مياه مكة.

(3) الفاكهي، **أخبار مكة** 3: 310، 311 (وكانوا إذا بلغت الجارية أدخلت دار الندوة، ضرب قصي فيها درعها، ثم انصرفت إلى أهلها) -و- (وكانت دار الندوة تسمّى في

مقرًا لحكومة قبلية، سمح بظهورها في هذه الصورة الديمقراطية، طموح قصي إلى إعادة ترتيب كل شؤون الجماعات القبلية لا قريش وحدها. وكان أمرًا مثيرًا أن دخول **دار الندوة** كان يقتصر على الرجال الذين بلغوا الأربعين من عمرهم، ولم يكن يُسمح ـ باستثناء بني قصي وحلفاؤهم ـ بدخول أي شاب صغير السن. لقد مكنت سلسلة التدابير هذه، سائر القبائل من أن تحكم مكة بشكل ديمقراطي. ولذلك، رأت فيه **القبائل لا ملكًا بل نبيًا**، ولعل عبارة ابن إسحاق البليغة تدلل على ذلك (فكان أمره في **قومه من قريش في حياته وبعد موته كالدين المتبع**). وكان من المحتمّ أن تفضي كل هذه التدابير إلى خلق تقاليد مجتمع تكافل اجتماعي نادرة ولا مثيل لها، حتى أن شعراء الجاهلية استفاضوا في وصفه بعبارة (**الخالطين غنيّهم بفقيرهم**)[1]. لكن قصي، لسوء الحظ وحين أصبح مسنًا، وجد نفسه في آخر أيام حياته الأسطورية في مواجهة مشكلة أسرية معقدّة، فقد كان **عبد الدار**، ابنه البكر شخصًا ضعيفًا، بينما كان شقيقه الأصغر **عبد مناف** رجلًا ذكيًا ذا شرف، وكان يحظى بمحبة واحترام والده، وبحسب التقاليد القبلية، فلم يكن أماه سوى الرضوخ لقدره والقبول **بعبدار الدار** وريثًا، فقال قصي **لعبد الدار (أما والله لألحقنك بالقوم، وإن كانوا قد شرفوا عليك**، لا يدخل رجل منهم الكعبة حتى تكون أنت تفتحها، ولا يعقد لقريش لواء لحربهم إلا أنت بيدك، ولا يشرب رجل بمكة ماء إلا من سقايتك، **ولا يأكل أحد من أهل الموسم طعامًا إلا من طعامك**، ولا تقطع قريش أمورها إلا في دارك، فأعطاه داره دار الندوة التي لا تقضي قريش أمرًا إلا فيها، وأعطاه **الحجابة واللواء والندوة والسقاية والرفادة**، وكانت

الجاهلية محيضًا، وإنما كانت محيضًا لأن الجارية كانت إذا بلغت فعل أهلها ما وصفنا) و(أول من خربها- دار الندوة- من الخلفاء المأمون، فهي خراب) يقول قصي إنه سمى أولاده الأربعة هكذا : واحد باسم دار الندوة، أي الحكومة، وهذا هو عبد الدار (ولم يكن يدخل دار الندوة من غير بني قصي إلا ابن أربعين سنة، يدخلها بنو قصي) كلهم (وحلفاؤهم كبيرهم وصغيرهم) (ولها باب يشرع في المسجد الحرام) (وكانت دار الندوة يسكنها الخلفاء فيما مضى إذا حجوا وقد سكنها عمر (بن الخطاب) رضي الله عنه **السيرة الحلبية**، 1/ 6، ابن سعد: **الطبقات** / فصل ذكر قصي بن كلاب.

(1) الحلبي، **السيرة الحلبية**، المصدر نفسه.

الرفادة خرجًا تخرجه قريش في كل موسم من أموالها إلى قصي بن كلاب **فيصنع به طعامًا للحاج** يأكله، مَنْ لم تكن له سعةٌ ولا زادًا، ممن يحضر الموسم)[1]. **إن الأساس التاريخي لصراع القرابات داخل قريش، بين الشقيقين عبد الدار وعبد مناف (ثم ولديه هاشم وعبد شمس)[2] قد يعود في بعض جذوره إلى هذه الحقبة.** ويقال في المرويات العربية الإسلامية[3] أن النبي ﷺ وكان عند باب بني شيبة مع أبي بكر، سمع شاعرًا[4] جولًا يقول قصيدة في مديح عبد الدار:

يا أيها الرجل المحوّل رحلهُ ألا نزلت بآل عبد الدار

هبلتكَ أُمُكَ لو نزلتَ برحلهم منعوك من عدمٍ ومن إقتار

فالتفت النبي ﷺ إلى أبي بكر مبتسمًا، وقال، أهكذا قال الشاعر؟ فقال أبو بكر: لا والذي بعثك بالحق، ولكنه قال:

يا أيها المحوّل رحله ألا نزلت بآل عبد مناف

هبلتك أمُك لو نزلت برحلهم منعوك من عدمٍ ومن إقراف

الخالطين غنيهم بفقيرهم حتى يعود فقيرهم كالكافي

وبلغ هذا الصراع بين **بني عبد الدار** وبني **عبد مناف** ذروته بعد وفاة الشقيقين المتنافسين، عندما **تفجر نزاع بين أولاد العم حول المناصب** التي وزعها قصي على أولاده، وهي الرفادة والسقاية والحجابة ودار الندوة (فلمّا

(1) ابن هشام، **السيرة** 1/ 130 وذلك أن قصيًا فرضه على قريش فقال لهم حين أمرهم به (يا معشر قريش إنكم جيران الله وأهل بيته الحرام وإن الحاج ضيف الله وزوار بيته وهم أحق الضيف بالكرامة فاجعلوا لهم شرابًا وطعامًا أيام هذا الحج حتى يصدروا عنكم ففعلوا فكانوا يخرجون لذلك كل عام من أموالهم فيدفعونه إليه فيصنعه طعامًا للناس أيام منى فجرى ذلك من أمره على قومه في الجاهلية حتى قام الإسلام ثم جرى في الإسلام).

(2) الزبيري، **نسب قريش** 1/ 14 (فولد قصي بن كلاب عبد مناف، وعبد الدار، وعبد العُزّى، وعبد قصي) – و– ولد (عبد مناف، هاشم وعبد شمس وهما توأم).

(3) الحلبي، **السيرة الحلبية** : باب نسبه الشريف.

(4) الحلبي، **السيرة الحلبية**: باب نسبه الشريف.

مات عبد الدار وأخوه عبد مناف أراد **بنو عبد مناف، وهم هاشم وعبد شمس والمطلب**، وهؤلاء **إخوة لأب وأمّ**، أمهم عاتكة بنت مرّة، **ونوفل** أخوهم لأبيهم وأمه واقدة، أن يأخذوا تلك الوظائف من **بني عمهم عبد الدار**، ،أجمعوا على المحاربة)[1] وقد لاحظ رواة الأخبار والسيرة، أن **آل عبد مناف** كانوا يتكاثرون ويزدادون هيبة، وهذا أمر كان من شأنه تشجيع نزعتهم إلى أخذ مقاليد الأمور في مكة، خصوصًا وأن منافسيهم، أبناء عمومتهم من **آل عبد الدار** كانوا يضعفون أكثر فأكثر. لكن هذا التطور في الصراع، سرعان ما أدّى إلى انقسام مخيف في مجتمع قريش؛ **إذ انقسمت القبيلة إلى كتلتين، دعمت أحداهما بني عبد مناف**، فيما وقفت الأخرى إلى **جانب بني عبد الدار. وفي هذا العصر، ظهر، نتيجة للانقسام، حلفان متصارعان.** وفي المرويات العربية الكلاسيكية، غالبًا ما يجري توصيف هذا الانقسام، بطريقة أسطورية، حين يقال إن أمّ حكيم البيضاء، توأمة عبد الله ـ والد النبي ﷺ أخرج جفنة فيها **طيبٌ فوضعتها في ـ الحجر**[2]ـ، وقالت (منْ كان منّا فليدخل يده في هذا **الطيب**، فأدخلت **عبد مناف** أيديها، وبنو أسد بن عبد العُزّى، وبنو زُهرة، وبنو تيّم، وبنو الحارث بن فهر، فسمّوا **حلف المطيبّين**، فعمدت **بنو سهم**[3] **بن عمرو، فنحرت جزورًا**، وقالوا منْ كان منّا فليدخل يده في هذه الجزور، فأدخلت أيديها عبد الدار، وسهم وجمح ومخزوم وعدي، فسميّت **الأحلاف**، وقام الأسود بن حارثة فأدخل يده في **الدم**، ثم لعقها، فلعقت بنو عدي كلها **أيديها وسمّوا لَعَقة الدم**)[4].
كان صراع حلف (**الطيب**) وحلف (**الدم**) تعبيرًا شديد الرمزية عن انقسام في النظام القرابي، يتمتع بقابلية ذاتية على التجلي كصراع قدري.

---

(1) الحلبي، **السيرة الحلبية**، ج1/ 6.
(2) الزبيري : **نسب قريش**، 11/ 383.
(3) **سبل الهدى والرشاد** ج/ 2-154، 155، ابن كثير، **السيرة** : 1/ 101، 257-258.
(4) هذه المروية الأسطورية تنويع متأخر على أسطورة توأمة هاشم وعبد شمس اللذين فرقهما السيف والدم، وهنا أيضًا يصبح الطيب(البخور) رمز عبد مناف، بينما يصبح الدم رمز آل عبد الدار، وهما شقيقان أحدهما الأكبر عبد الدار ضد الأخ الأصغر عبد مناف.

3
عبد المطلب ونوفل

ؤاتخذ صراع القرابات في **الحقبة الطويلة السابقة على الإسلام** أشكالًا مختلفة، بعضها له صلة بنزاعات تقليدية وشائعة في مجتمع قبائل متنافسة، وبعضها الآخر له صلة بصعود دور **مكة** كمركز روحي وتجاري، كان يغذيّ، باستمرار ودون انقطاع تقريبًا، أحلام وطموحات قوى اجتماعية ودينية، لم تعد تنظر إلى هذه القرابات برغم تمسكها بها، وإفراد مكانة خاصة وأثيرة لها في العلاقات اليومية، إلا من منظور توظيفها في الحفاظ على المصالح الاجتماعية، وربما في حسم الصراع على هذا المركز. لقد تمكنت القبائل على مرّ التاريخ من الحفاظ على شبكة العلاقات في النظام القرابي التقليدي، وصيانتها وحمايتها من أي اختراق، وكان من المألوف، رؤية المصلحين الاجتماعيين والكهان والشعراء على حدّ سواء، وهم يدعون إلى حماية وتجديد هذه الشبكة، وقد أورد **البلاذري** خبرًا هامًا للغاية، نقله بتحفظ شديد، مفاده أن **قريش** عثرت على حجر **(نقش)** سُجلت فيه الكلمات التالية **(إن المغيرة بن قصي أوصى قريشًا بتقوى الله وصلة الرحم)**[1]. وأهمية هذا النقش، أنه يكشف بوضوح تام عن المكانة التي أفردتها القبائل لهذا النظام، لكنها بموازاة ذلك، حرصت على **صلة الأرحام كعامل حاسم**، يكتسب معناه الحقيقي بالإيمان. وهذا ما اتجه الإسلام إلى تطويره وتعميقه في وجدان القبائل. وإذا صحّ خبر **البلاذري** هذا؛ فإن **عبد مناف بن قصي** -

---

(1) البلاذري: **أنساب** 1/ 52 : عبد مناف، واسمه المغيرة وكان يُدعى القمر لجماله، وجعلته أمّه حُبى بنت حُليل خادمًا لمناف، وهو أعظم أصنام العرب، تديّنًا بذلك وتبركًا به، فسمّاه أبوه عبد مناف.

الذي كان يلقب بالمغيرة ـ كان موحدًّا كبيرًا من موحدّي الجزيرة العربية[1] **الذين انتبهوا مبكرًا إلى أهمية ربط القرابات بالدين. وهذا ما يفسرّ لنا عظمة مكانته في أسرة قصي، مع أنه الشقيق الأصغر لعبد الدار.** ويتضح هذا التحوّل بجلاء، كتطور حتمتّه جملة أسباب وظروف لعل من أهمها، ازدهار تجارة الإيلاف التي وضع أسسها الأولى **قصي، ثم واصلها أحفاده، وبشكل أخص هاشم بن عبد مناف**، وتمكنت قريش بفضلها من الانتقال نهائيًا من طور القبيلة الضعيفة إلى طور القبيلة التي حازت **الشرف الديني** والمال والنفوذ. وهذا التحول سوف يتخذ بُعدًا جديدًا، حين يصبح الإيلاف الذي قاده الأشقاء الأربعة أبناء عبد مناف، نظامًا متكاملًا لقيادة التجارة العالمية عبر مكة، ولم يكن لهذا التحول أن يحدث، لولا براعة هاشم وأشقائه في تنظيم الحياة العامة والاقتصادية. لقد تمكن **هاشم حفيد قصي**، مستفيدًا من سلطانٍ تمّ توطيده في مكة، وقوة زخم المكانة التي احتلتها أسرته، من إظهار مواهب دبلوماسية مذهلة، فقد وضع الأسس الأولى لاتفاقية تجارة الترانزيت (الإيلاف) بين مكة واليمن والشام، فكان **هاشم هو أول من سن الرحلتين لقريش رحلة الشتاء والصيف**[2]، وتمكن من عقد اتفاقية مع

---

(1) ابن بكار، **جمهرة أنساب قريش** : 17 / 372 كان حكيم بن حزّام واحدًا من كبار الموحدين وهو أول من ردد (لا إله إلا الله وحده لا شريك له، نعمَ الربّ الإله أحبه وأخشاه) وبرأي ابن بكار- استنادًا إلى رواية موثقة فقد كان يقول عن لقائه بالنبي ﷺ أول مرّة، أن ذلك كان في تهامة، حيث يوجد سوق من أعظم أسواقها يدعى (سوق حُباشة وكنتُ أحضره - وقال- رأيت رسول الله ﷺ واشتريتُ منه بزًّا من بزّ تهامة، وقدمت به مكة، فذلك حين أرسلت خديجة إلى رسول الله ﷺ تدعوه إلى أن يخرج لها في تجارة إلى سوق حُباشة، وبعثت معه غلامها ميسرة، فخرجا فابتاعا بزًّا من بزّ الجند وغيره، ممّا فيها من التجارة).

(2) **الروض الآنف**، [ص 131 ص 132] وَكَانَ الْمُطّلِبُ يُؤَالِفُ إلَى كِسْرَى، وَالْآخَرَانِ يُؤَالِفَانِ أَحَدُهُمَا إلَى مَلِكِ مِصْرَ، وَالْآخَرُ إلَى مَلِكِ الْحَبَشَةِ، وَهُمَا عَبْدُ شَمْسٍ وَنَوْفَلٌ. قَالَ وَمَعْنَى يُؤَالِفُ يُعَاهِدُ وَيُصَالِحُ وَنَحْوُ هَذَا، فَيَكُونُ الْفِعْلُ مِنْهُ أَيْضًا آلَفَ عَلَى وَزْنِ فَاعَلَ وَالْمَصْدَرُ إلافًا بِغَيْرِ يَاءٍ مِثْلُ قِتَالًا، وَيَكُونُ الْفِعْلُ مِنْهُ أَيْضًا آلَفَ عَلَى وَزْنِ أَفْعَلَ مِثْلُ آمَنَ وَيَكُونُ الْمَصْدَرُ إيلَافًا بِالْيَاءِ مِثْلُ إيمَانًا، وَقَدْ قُرِئَ لإيلفِ قُرَيْشٍ بِغَيْرِ يَاءٍ وَلَوْ كَانَ مِنْ آلَفْت الشّيْءَ عَلَى وَزْنِ أَفْعَلْت إذَا أَلِفْته لَمْ تَكُنْ هَذِهِ الْقِرَاءَةُ صَحِيحَةً.

الغساسنة المسيحيين، تتيح له تسيير قوافل آمنة ومحمية من كل القبائل، بينما كان شقيقه وتوأمه **عبد شمس**، ينجح في عقد اتفاقية مماثلة مع الحبشة ويوقع معهم اتفاقًا مماثلًا **فأخذ حبلًا من النجاشي الأكبر، فاختلفوا بذلك السبب إلى أرض الحبشة**[1] أما **نوفل**، فقد سافر بنفسه إلى **فارس**، ليوقع اتفاقية مماثلة **وأخذ لهم نوفل حبلًا (عهدًا) من الأكاسرة فاختلفوا بذلك السبب إلى العراق وأرض فارس**[2]. **وفي هذه الأثناء كان المطلب يسافر إلى اليمن، وينجح في عقد اتفاق مشابه ويأخذ** (حبلًا من ملوك حمير فاختلفوا بذلك السبب إلى اليمن فجبر الله بهم قريشًا فسموا المجبرين)[3].

ولذلك، حرص مشايخ قريش، مع تكدس الأموال بفضل التجارة، وازدهار مواسم الحج التي أدارها **آل عبد الدار**، على إعادة توزيع جزء كبير من هذه الثروة. وهذا ما عبرّ عنه بيت الشعر الجاهلي الذي أطرب النبي ﷺ حين أعاد أبو بكر ترديده على مسامعه في مديح **آل عبد مناف**[4]:

يا أيها الرجل المحول رحله ... هلا نزلت بآل عبد مناف

الآخذون العهد من آفاقها ... والراحلون لرحلة الإيلاف

---

(1) ابن سعد، **الطبقات** : 1/ 75 (أخبرنا هشام بن محمد بن السائب الكلبي عن أبيه عن أبي صالح عن ابن عباس قال: كان اسم هاشم عمرًا ؛ وكان صاحب إيلاف قريش، وإيلاف قريش دأب قريش، وكان أول من سن الرحلتين لقريش، ترحل إحداهما في الشتاء إلى اليمن وإلى الحبشة إلى النجاشي فيكرمه ويحبوه، ورحلة في الصيف إلى الشأم إلى غزة وربما بلغ أنقرة فيدخل على قيصر فيكرمه) الطبري، **تاريخ الملوك**: 1/ 371، ابن الجوزي، **المنتظم**: 1/ 194

(2) ابن الجوزي، **المنتظم**، 1/ 195

(3) المسعودي، **مروج**: 1/ 193 والمُطَيِّبون: بنو عبد مناف، وبنو أسد بن عبد العُزَى، وزُهْرة، وتيم، وبنو الحارث بن لؤي. وأخذت قريش الإيلاف من الملوك. اليعقوبي، **تاريخ** : 1/ 95 (وانصرف هاشم، فجعل كلما مرّ بحي من العرب أخذ من أشرافهم الإيلاف أن يأمنوا عندهم وفي أرضهم، فأخذوا الإيلاف من مكة والشام) **سمط النجوم**، 1/ 101، **المنمق**، 1/ 6، 7، 8، **المنتظم** 1/ 95، **الأوائل** : 1/ 411.

(4) لقد جرى التلاعب بهذا البيت في إطار التنافس بين آل عبد الدار وآل مناف، ولذلك ابتسم النبي ﷺ وهو يسمع الشاعر، فالبيت في الأصل في مديح جده المباشر.

والرائشون وليس يوجد رائش والقائلون هلم للأضياف[1]

والخالطون غنيهم بفقيرهم حتى يكون فقيرهم كالكافي

عمرو العلا هشم الثريد لقومه سفر الشتاء ورحلة الإيلاف

وتلاحظ رواية أخرى، أن هاشم هو من ابتكر هذا الحل التاريخي لفقراء قريش. كانت بعض البطون والأسر في قريش تحتفد[2]، أي تهرب من المدينة إلى البرية وتقيم في محفد (المرتفع من الأرض) لئلا يعلم أحد بجوعها، حتى نشأ **هاشم بن عبد مناف فلمّا عظم قدره في قومه فقال: يا معشر قريش إن العز مع كثرة العدد، وقد أصبحتم أكثر العرب أموالًا وأعزهم نفرًا، وإن هذا الاحتفاد قد أتى على كثير منكم (وقد رأيت رأيًا.** قالوا: رأيك رشيد، فمرنا نأتمر. قال **رأيت أن أخلط فقراءكم بأغنيائكم فأعمد إلى رجل غني فأضم إليه فقيرًا عدده بعدد عياله، فيكون يؤازره في الرحلتين، رحلة الشتاء ورحلة الصيف،** رحلة الصيف إلى الشام ورحلة الشتاء إلى اليمن، **فما كان في مال الغني من فضل عاش الفقير وعياله في**

---

(1) لاحظ هوبرت غريمة Hubert Grimme الذي لم يقرأ المرويات العربية القديمة بعمق كافٍ، أن (الإسلام لم يظهر مطلقًا إلى الحياة باعتباره نظامًا دينيًا، بل باعتباره محاولة ذات طبيعة اشتراكية لمواجهة أحوال سيئة). وهذه نظرة استشراقية تقليدية راجت خلال حقبة الصراع ضد الأيديولوجية الاشتراكية، ولذلك، اتسمت تحليلات المستشرقين لتاريخ: الإسلام، بالحرص على تصويره كـ (محاولة ذات طابعة اشتراكية). إن بيت الشعر الرائع (الخالطين غنيّهم بفقيرهم) يوثق لحقيقة أن مجتمع مكة كان مجتمعًا ديمقراطيًا نموذجيًا. وكما لاحظ نولدكه، فإن هذا النوع من الأعمال كان يستلهم أو يتمثل أعمال الهولندي كريستيان سنوك هورغورنيه Christian Snouck Hurgronjei الذي افترض دون وجه حق أن محمّد (تشبث بدين إبراهيم الذي سمت مكانته عند اليهود والمسيحيين والتصورات العائمة حول دينه) انظر: نولدكه، **تاريخ القرآن**، ج2/ 242 وفي **البداية والنهاية،** 2 / 253 الأصياف بدل الإيلاف. وروي هذان البيتان في **الروض الآنف 1**/ 157.

عمرو الذي هشم الثريد لقومه قوم بمكة منتهين عجاف

سننت إليه الرحلتان كلاهما سفر الشتاء ورحلة الإيلاف

(2) وكان احتفادها أن أهل البيت منهم كانوا إذا هلكت أموالهم خرجوا إلى براز من الأرض فضربوا على أنفسهم الأخبية ثم تناوبوا فيها حتى يموتوا خوفًا من أن يعلم بخلتهم.

ظله، وكان ذلك قطعًا)[1]. ومن غير شك، فقد حدث هذا التحول في مكانة قريش، بعد إزاحة خزاعة عن إدارة البيت الحرام، واستتباب الأمور لها ولبطونها، ونجاحها في تنظيم الحج وتقديم تسهيلات غير مسبوقة لجموع القبائل[2]. ولسوء الطالع، فقد تلازم هذا التحول مع بزوغ حقبة جديدة من التنافس والصراع **داخل نظام القرابات الأسرية في قريش** نفسها. وفي هذا السياق، يروي **البلاذري**[3] أن **عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف**، وجد نفسه بعد وفاة عمّه **المطلب بن عبد مناف** ـ الذي تسمّى باسمه[4] ـ وقد أصبح دون دعم كافٍ وحماية، فقد عُرف عن **المطلب** أنه كان يقدّم الحماية لابن أخيه وكان يكنّ له محبة خاصة. ولمّا كان **عبد المطلب** نشأ كطفل يتيم في حضن عمّه (بعد وفاة هاشم والده في غزّة أثناء رحلة تجارية) فقد كان هو القائم بأمره، حتى أنه كان يعرف بـ (عبد) المطلب، أي ابنه.

---

(1) **سبل الهدى والرشاد** 1/ 269.

(2) ابن كثير، **السيرة**، ص 1/ 100 (والرفادة وهي إطعام الحجيج أيام الموسم إلى أن يخرجوا راجعين إلى بلادهم. قال ابن إسحاق : وذلك أن قصيًا فرضه عليهم، فقال لهم : يا معشر قريش، إنكم جيران الله، وأهل مكة وأهل الحرم، وإن الحجاج ضيف الله وزوار بيته، وهم أحق بالضيافة، فاجعلوا لهم طعامًا وشرابًا أيام الحج حتى يصدروا عنكم . ففعلوا، فكانوا يخرجون لذلك في كل عام من أموالهم خرجًا فيدفعونه إليه، فيصنعه طعامًا للناس أيام منى، فجرى ذلك من أمره في الجاهلية حتى قام الإسلام، ثم جرى في الإسلام إلى يومك هذا). إن المرويات الإخبارية التقليدية عن حفر الآبار وإعداد الطعام للحاج، وهي كثيرة ولا حصر لها، تؤكد، بوجه الإجمال، مدى نجاح قريش في تقديم صورة مشرقة لجماعة تدير مكانًا دينيًا، بطريقة فيها الكثير من الإبداع، وهذا ما وطد من مكانة قريش، فقد توزعت الرفادة والسقاية بين بطون هاشم. ابن الأثير، **الكامل**: 1/ 244، الطبري، **تاريخ الرسل** :1/ 373.

(3) البلاذري، **أنساب الأشراف** 1/ 69.

(4) دارت الكثير من الأساطير والمرويات في كتب الإخباريين، حول سبب تسمية عبد المطلب بهذا الاسم، وهو كان يعرف بشيبة الحمد. انظر: **طبقات ابن سعد** (فكان إذا ورد اليمن نزل على عظيم من عظماء حمير فقال له يا عبد المطلب هل لك أن تغير هذا البياض فتعود شابًا قال ذاك إليك قال فأمر به فخضب بحناء ثم علي بالوسمة فقال له عبد المطلب زودنا من هذا فزوده فأكثر فدخل مكة ليلًا ثم خرج عليهم بالغداة كأن شعره حلك الغراب فقالت له نتيلة بنت جناب بن كليب أم العباس بن عبد المطلب يا شيبة الحمد).

لكن أحد أعمامه، **نوفل بن عبد مناف** وثب على أرض ابن أخيه، واستولى عليها، وكانت أرضًا خصبة وفيها أبنية في سفوح جبال **مكة ومحيطها، كان عبد المطلب** اشتراها من ماله، فاضطرب لذلك وانتابته الحيرة، فهو الآن مضطرّ لمواجهة عمّه المُغتصب، ولذلك:

استنهض قومه معه، فلم ينهض كثير أحد منهم، فكتب إلى **أخواله من بني النجار من الخزرج:**

يـــا طـــولَ ليلي وأحـــزاني وأشـــغـــالي
هـــل مـــن رســـولٍ إلى الـــنـــجـــار أخـــوالي[1]

أأنْ رأى رجـــلًا غـــابـــت عـــمـــومـــتـــه
وغـــاب أخـــوالـــهُ عـــنـــه بـــلا وال

أنحـــى عـــليه ولم يحـــفـــظ لـــه رحمًـــا
فـــمـــا أمـــنـــع المـــرء بـــين الـــعـــمّ والخـــال

وما أن وصلت رسالة عبد المطلب، حتى **هبّ أخواله بسلاحهم واتجهوا صوب مكة (فأناخوا بفناء الكعبة وتنكبوا القسيّ علقوا التروس. فلمّا رآهم نوفل، قال: لشرّ ما قدم هؤلاء، فخافهم وردّ أركاح[2] عبد المطلب)** [3]**ويروي الطبري** الرواية ذاتها، فقد اغتصب نوفل بن عبد مناف أرضًا في السفوح تعود لعبد المطلب، فمشى إلى رجالات قومه فسألهم

---

(1) ويزعم أنه ختم قصيدته بهذه الأبيات:

فاستنفروا وامنعوا ضيم ابن أختكم لا تـخـذلـوه فـمـا أمـتـم بـخـذال

(2) الطبري، **تاريخ**: 1085-1086 (أركاح : متسع من سفوح الجبال. قال شمر بن نمر الراني):

لـعـمـري لأخـوالِ الأغـرّ بـن هـاشـم من أعـمـامـه الأدنـيـن أحـنـى وأوصـل
أجابوا على نأي دعاء ابن أختـهـم وقـد نـالـه بـالـظـلـم والـغـدر نـوفـل
فـمـا بـرحـوا حـتـى تـدارك حـقـه وردّ عـلـيـه بـعـدمـا كـاد يـؤكـل

(3) البلاذري، المصدر نفسه.

النصرة على عمه، فقالوا لسنا بداخلين بينك وبين **عمك**. فلما رأى ذلك كتب إلى **أخواله** (فخرج **أبو أسعد بن عدس النجاري** في ثمانين راكبًا حتى أتى الأبطح وبلغ عبد المطلب)[1] فخرج يتلقاه فقال المنزل يا خال، فقال حتى ألقى نوفلًا. (قال تركته جالسًا في الحجر في مشايخ قريش فأقبل حتى وقف على رأسه ثم استل سيفه ثم قال ورب هذه البنية، لتردن على **ابن أختنا ركحه أو لأملأن منك السيف** قال: فإني ورب هذه **البنية أرد ركحه فأشهد عليه من حضر** ثم قال **المنزل بابن أختي**). أحدث هذا النزاع، وبالطريقة التي جرى فيها فضّهُ دون إراقة دماء، تغيّرًا مدهشًا في التحالفات القبلية والأسرية، فقد نقل **نوفل بن عبد مناف**، تحالفاته إلى **عبد شمس**، ولينشأ حلف جديد ضد **بني هاشم** من داخل شبكة القرابات المباشرة. وفي هذا الصدد، يقال في المرويات التاريخية ـ الأسطورية (**إن عبد شمس وهاشمًا توأمان** وإن أحدهما ولد قبل صاحبه، وإصبع له ملتصقة بجبهة صاحبه، فنحيت عنها فسال من ذلك دم، فتطير من ذلك)[2]. وهذه المروية بشروط إنشائها الأسطورية، سعت إلى تفسير الصراعات الأسرية بعد وفاة **قصي**، وتقديم مقاربة لأسباب صراع الشقيقين عبد مناف وعبد الدار، ومن ثم نشوء حلفين متصارعين، فتوزعت شبكة القرابات الأسرية الداخلية في ولائها للبيتين المتنازعين على النحو التالي[3]:

---

(1) الطبري، المصدر نفسه.

(2) الطبري، **تاريخ الملوك والرسل**، 1/ 194، ابن الجوزي، **المنتظم**، 1/ 71 (كان هاشم وعبد شمس أكبر ولد عبد مناف، وقيل: ولدا توأمين، وإن أحدهما ولد قبل صاحبه وأصبح أحدهما ملتصقة بجبهة صاحبه، فنحِّيت عنها، فسال من ذلك دم فتُطِير من ذلك. فقيل: يكون بينهما دم. وأخوهما المطلب أصغرهم، وأم الثلاثة: عاتكة بنت نمرة السلمية، وأخوهم: نوفل، وأمه واقدة، فسادوا كلهم بعد أبيهم عبد مناف، وكان يقال لهم: المجبرون، فلهم يقول القائل:

يا أيها الرجُلُ المُحوِّلُ رَحْلَه أي نزلْتَ بآلِ عَبْدِ مَنافِ)

(3) البلاذري، **أنساب الأشراف** 1/ 257-258، ابن سعد، **الطبقات الكبرى** : 1/ 77 (أما الرفادة والسقاية، فإنهما لم تزالا في حياة قصي إلى عبد بن قصي. ثم صارتا إلى عبد الدار بن قصي، حتى عظم شأن بني عبد مناف بن قصي. فقالوا: نحن أولى بما يتولاه بنو عبد الدار كان قصي جعل إلى عبد الدار من الحجابة واللواء والرفادة والسقاية والندوة،

ورأوا أنهم أحق به منهم لشرفهم عليهم وفضلهم في قومهم، وكان الذي قام بأمرهم هاشم ابن عبد مناف، فأبت بنو عبد الدار أن تسلم ذلك إليهم، وقام بأمرهم عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار، فصار مع بني عبد مناف بن قصي بنو أسد بن عبد العزى بن قصي وبنو زهرة بن كلاب وبنو تيم بن مرة وبنو الحارث بن فهر، وصار مع بني عبد الدار بنو مخزوم وسهم وجمح وبنو عدي بن كعب، وخرجت من ذلك بنو عامر بن لؤي ومحارب بن فهر فلم يكونوا مع واحد من الفريقين).

حلف المطيبين

(وهم الذين تعاقدوا أيضًا على حلف الفضول)

عبد مناف **(السقاية والرئاسة ـ دار الندوة)**

(ابن قصي)[1]

هاشم **عبد شمس** **المطلب** **نوفل**

بنو أسد بنو زهرة بنو تيّم بنو الحارث

(ابن عبد العزى بن قصي) **(ابن كلاب ـ شقيق قصي)** **(قبيلة أبي عبيدة الجراح)**

(الرفادة)

(1) ابن سعد، **الطبقات** 1/ 82 : كان المطلب- عم عبد المطلب جد النبي- ابن عبد مناف ابن قصي أكبر من هاشم ومن عبد شمس، وهو الذي عقد الحلف لقريش من النجاشي في متجرها، وكان شريفًا في قومه مطاعًا سيدًا، وكانت قريش تسميه الفيض لسماحته، فولي بعد هاشم السقاية والرفادة .

حلف (لعقة الدم)

عبد الدار

(بن قصي)

(اللواء والحجابة)

(عبد الدار وعبد العزى عما هاشم وعبد شمس والمطلب ونوفل)

بنو مخزوم[1] بنو جمح بنو سهم بنو عدي

(منهم قيس سارق غزال الكعبة) (بن كعب)

وتكاد الروايات التاريخية، تجمع على أن الصراع، نشب على خلفية التنافس حول المصادر الأساسية **الخمسة للسلطة الدينية في مكة وهي: دار الندوة (الحكومة) والرفادة والسقاية والحجابة واللواء.** لكن هذا الصراع سرعان ما تفجرّ من داخل الحلفين، فقد نشب صراع جديد بين هاشم وعبد شمس، ثم امتد ليشمل ألابناء والأحفاد في ما بعد. وقد رأت مرويتان **للطبري**

(1) سوف يتضح الصراع بين الحلفين في أجلى صوره مع حادثة القمار التي تسببت في تحول العاص بن هشام المخزومي إلى عبد (قين) يعمل في خدمة أبي لهب.

وابن سعد[1] في تفسيرهما لجذور هذا الصراع من داخل شبكة القرابات الأسرية المباشرة، أن **هاشم بن عبد مناف**، كان تزوج امرأة من **بني عدي بن النجار** ذات شرف، وتشرط على من يخطبها المقام بدار قومها، فتزوجت بهاشم فولدت له **شيبة الحمد** ـ الذي سوف يصبح اسمه **عبد المطلب** ـ. وقد حكمت الأقدار على عبد المطلب أن يتربى بين أخواله. وعلى غرار ما حدث مع جده قصي، كان الصبي الصغير شيبة، أو عبد المطلب، مضطرًّا للبحث عن شجرة أنسابه الحقيقية. والمدهش أن الرواة يتحدثون عن واقعة شبيهة إلى حدّ بعيد بواقعة جرت مع جده، حين كان يلعب مع فتيان الأنصار، فقال وهو يهتف مبتهجًا أنا **ابن هاشم**. وسمعه رجل من عابري السبيل، فلما وصل **مكة** قال لعمه **المطلب بن عبد مناف** (قد مررت بدار **بني قيلة** فرأيت فتى يناضل فتيانهم، فاعترى إلى أخيك ـ أي انتسب إلى أخيك هاشم ـ وما ينبغي ترك مثله في **الغربة**)[2]. وهكذا، تكررت الواقعة ذاتها، ولكن بطريقة موازية، فبدلًا من فرار **ابن الأخت من ديار أخواله صوب مضارب أعمامه**، جاء الأعمام هذه المرة بأنفسهم ليستردوا ابن الأخت. في البداية امتنعت الأم عن ردّ الابن إلى أعمامه، ثم أذعنت في النهاية حين ألح عليها الفتى، فرحل

---

(1) الطبري، **تاريخ**: 1/ 370 (قالوا: تزوج هاشم بن عبد مناف امرأةً من بني عدي بن النجار، ذات شرف، تشرط على من خطبها المقام بدار قومها، فتزوجت بهاشم، فولدت له شيبة الحمد، فربي في أخواله مكرمًا، فبينا هو يناضل فتيان الأنصار إذ أصاب خصله، فقال: أنا ابن هاشم. وسمعه رجل مجتاز، فلما قدم مكة، قال لعمه المطلب بن عبد مناف: قد مررت بدار بني قيلة، فرأيت فتىً يناضل فتيانهم، فاعتزى إلى أخيك، وما ينبغي ترك مثله في الغربة. فرحل المطلب حتى ورد المدينة، فأراده على الرحلة، فقال: ذاك إلى الوالدة، فلم يزل بها حتى أذنت له، وأقبل به قد أردفه، فإذا لقيه اللاقي وقال: من هذا يا مطلب ؟ قال: عبد لي، فسمي عبد المطلب. فلما قدم مكة وقفه على ملك أبيه، وسلمه إليه، فعرض له نوفل بن عبد مناف في ركح له، فاغتصبه إياه، فمشى عبد المطلب إلى رجالات قومه، فسألهم النصرة على عمه، فقالوا: لسنا بداخلين بينك وبين عمك، فلما رأى ذلك كتب إلى أخواله) ابن سعد، **الطبقات** : 1/ 272، 273، 77، 71، ابن الأثير، **أسد الغابة** : 1/ 71، **الكامل في التاريخ** : 1/ 155، 346، الطبري 1/ 386.

(2) الطبري، **تاريخ**: 1/ 369-370، ابن الأثير، **الكامل** : 1/ 341-342، ابن هشام: **السيرة** 1/ 137-138.

المطلب مع عمه. وطوال الطريق إلى مكة، وكلما سأله راكب في الصحراء عن الفتى الذي يحمله معه على البعير، كان **المطلب** يقول (**هذا عبدي**)[1] فسمي **عبد المطلب**. فلما قدم مكة **وقفه على ملك أبيه وسلمه إليه**. ويبدو أن هذه الرواية، **فهمت على أنها رواية الأخوال الذين سعوا إلى التقرّب من قريش، بعدما توطّدت سيطرتها على مكة (قال محمد بن أبي بكر فحدثت بهذا الحديث موسى بن عيسى**[2] **فقال: يا بن أبي بكر، هذا شيء ترويه الأنصار تقربًا إلينا، إذ صّير الله الدولة فينا، وعبد المطلب كان أعز في قومه من أن يحتاج إلى أن تركب بنو النجار من المدينة إليه)**[3]. (قلت أصلح الله الأمير

---

(1) الطبري، **تاريخ** 1/ 370 (فمكث بيثرب سبع سنين أو ثماني سنين. ثم إن رجلًا من بني الحارث بن عبد مناة مر بيثرب، فإذا غلمان ينتضلون، فجعل شيبة إذا خسق- هتف- قال: أنا ابن هاشم، أنا ابن سيد البطحاء، فقال له الحارثي: من أنت ؟ قال: أنا شيبة بن هاشم بن عبد مناف. فلما أتى الحارثي مكة، قال للمطلب وهو جالس في الحجر: يا أبا الحارث، تعلم أني وجدت غلمانًا ينتضلون بيثرب، وفيهم غلام إذا خسق قال: أنا ابن هاشم، أنا ابن سيد البطحاء. فقال المطلب: والله لا أرجع إلى أهلي حتى آتي به، فقال له الحارثي: هذه ناقتي بالفناء فاركبها، فجلس المطلب عليها، فورد يثرب عشاء، حتى أتى بني عدي بن النجار، فإذا غلمان يضربون كرة بين ظهري المجلس، فعرف ابن أخيه فقال للقوم: أهذا ابن هاشم ؟ قالوا: نعم، هذا ابن أخيك، فإن كنت تريد أخذه فالساعة قبل أن تعلم به أمه فإنها إن علمت لم تدعه، وحلنا بينك وبينه. فدعاه فقال: يا بن أخي، أنا عمك، وقد أردت الذهاب بك إلى قومك - وأناخ راحلته - فما كذب أن جلس على عجز الناقة، فانطلق به، ولم تعلم به أمه حتى كان الليل، فقامت تدعو بحربها على ابنها، فأخبرت أن عمه ذهب به، وقدم به المطلب ضحوة، والناس في مجالسهم، فجعلوا يقولون: من هذا وراءك ؟ فيقول: عبد لي، حتى أدخله منزله على امرأته خديجة بنت سعيد بن سهم، فقالت: من هذا ؟ قال: عبد لي، ثم خرج المطلب حتى أتى الحزورة، فاشترى حلة فألبسها شيبة، ثم خرج به حين كان العشي إلى مجلس بني عبد مناف، فجعل بعد ذلك يطوف في سكك مكة في تلك الحلة، فيقال: هذا عبد المطلب، لقوله: «هذا عبدي» حين سأله قومه).

(2) الأمير ابن موسى كان والي المدينة في هذا الوقت.

(3) ابن سعد، **الطبقات الكبرى** :3/ 73 يروي الرواية التالية عن محمد بن أبي بكر رضي الله عنه الذي يروي بدوره الرواية الآنفة عن عبد المطلب، ويقول عنه أنه هو من قتل عثمان رضي الله عنه (أخبرنا محمد بن عمر، حدثني عبد الرحمن بن عبد العزيز عن عبد الرحمن

قد احتاج إلى نصرهم من كان خيرًا من عبد المطلب؟ قال: وكان متكئًا فجلس مغضبًا، وقال: من خير من عبد المطلب؟ قلت محمد رسول الله. قال صدقت وعاد إلى مكانه وقال لبنيه: اكتبوا هذا الحديث من ابن أبي بكر).

لكن صراع عبد المطلب مع قراباته لم ينته مع هذه الحادثة التي كادت تشعل حربًا ضارية بين **الأخوال والأعمام**، إذ في أعقاب المجابهة التي كان فناء الكعبة مسرحها، وبوقت قصير فقط، **قرر عبد المطلب حفر زمزم**. لكنه اصطدم بقراباته المباشرة، وكانت تلك مفارقة أخرى، لأن حفر البئر المقدّسة من جديد، وهي البئر التي حفرها إسماعيل وطمرتها جُرْهُم[1] بعد جلائها عن مكة، عنى أن عبد المطلب سوف يحوز شرفًا دينيًا يؤهله للعب دور أكبر في الحياة الدينية للعرب لا لقريش وحدها، وحين نشب النزاع بين عبد المطلب وقريش، قال له ابن عمه **عديّ بن نوفل بن عبد مناف**[2]:

ابن محمد بن عبد أن محمد بن أبي بكر تسور على عثمان من دار عمرو بن حزم ومعه كنانة بن بشر بن عتاب وسودان بن حمران وعمرو بن الحمق فوجدوا عثمان عند امرأته نائلة وهو يقرأ في المصحف سورة البقرة، فتقدمهم محمد بن أبي بكر فأخذ بلحية عثمان فقال: قد أخزاك الله يا نعثل، فقال: عثمان لست بنعثل ولكن عبد الله وأمير المؤمنين، فقال محمد: ما أغنى عنك معاوية وفلان، فقال عثمان: يا بن أخي دع عنك لحيتي فما كان أبوك ليقبض على ما قبضت عليه. فقال محمد: ما أريد بك أشد من قبضي على لحيتك، فقال عثمان: أستنصر الله عليك وأستعين به. ثم طعن جبينه بمشقص في يده، ورفع كنانة بن بشر بن عتاب مشاقص كانت في يده فوجأ بها في أصل أذن عثمان فمضت حتى دخلت في حلقه، ثم علاه بالسيف حتى قتله.

(1) عديّ هذا هو والد المطعمّ ـ مطعمّ بن عدي الذي أجار النبي حين حاصرته قريش بعد عودته من الطائف.

(2) الطبري، **تاريخ** ج / 1، 369-370، ابن الأثير، **الكامل** :1/ 242-243، ابن سعد: **الطبقات**، فصل قصي بن كلاب. ويتضح من سائر هذه الروايات أن عبد المطلب كتب إلى أخواله يطلب منهم حمايته من ظلم عمه، فوصل أحد أخواله وهو أبو سعد بن عدي من المدينة قادمًا إلى مكة في ثمانين فارسًا . وعندما نزل في الأبطح تلقاه عبد المطلب بنفسه وقال : المنزل يا خال. فقال: لا والله حتى ألقى نوفلًا، فقال: تركته في الحجر جالسًا في مشايخ قريش، فأقبل حتى وقف عليهم، فقام نوفل وقال : يا أبا سعد أنعم صباحًا. فقال أبو سعد: لا أنعم الله لك صباحًا . وسل سيفه وقال : وربُّ هذه البنية، لئن لم ترّد على ابن أختي أركاحه، لأملأن منك هذا السيف. فقال: قد رددتها عليه.

يا عبد المطلب، أتستطيل[1] علينا وأنت فذّ[2] لا ولد لك؟ فقال عبد المطلب: أتقول هذا، وإنما كان نوفل أبوك في حجر هاشم[3] فقال له عدّي: وأنت أيضًا كنت عند أخوالك من بني النجار حتى ردّك المطلب. قال: أما لقلّة تعيّرني، فو الله لئن أتاني الله عشرة من الولد ذكورًا لأنحرّن أحدهم عند الكعبة[4].

كان عبد المطلب، حسب رواية **الواقدي** التي نقلها **البلاذري في أنساب الأشراف**[5] **يتحنّث (يتعبد) في حرّاء**. والتحّنث، التأله والتبرر، وكان إذا أهل هلال شهر رمضان دخل **بحرّاء** فلم يخرج حتى يسلخ الشهر، ويطعم المساكين، ويعظّم الظلم بمكة ويكثر الطواف[6]. وهذا هو المغزى الحقيقي لما يعتبره الرواة والإخباريون الكلاسيكيون العرب، رؤيا **عبد المطلب في فناء الكعبة**، حين كان في قيلولة، فتراءى له ملاك يطلب منه أن **يحفر زمزم**. وخلال حادثة حفر البئر المقدّسة، وقع نزاع جديد بينه وبين قريش بسبب ما اعتبرته نوعًا من عدوان على المقدّس، فهذه البئر **بئر إسماعيل**، ولا يجوز مسّها وإنْ كان الغرض من ذلك إعادتها للحياة. كما أن النزاع سرعان ما تطور ليأخذ بُعدًا مختلفًا عمّا كانت عليه سائر النزاعات السابقة، فهذه المرّة، وبمحض المصادفة فقط، عثر عبد المطلب على **غزالي الذهب**،

(1) تستطيل : تتطاول علينا.

(2) فذ: تقال للرجل الوحيد الذي ليس له أبناء.

(3) لأن هاشمًا كان خلف على أمه نكاح مقت، أي إنه تزوج امرأة أبيه على جري عادات العرب في الجاهلية، فأصبح نوفل تحت رعايته فكان والده وشقيقه في آن. البلاذري، **أنساب الأشراف** 1/ 78.

(4) وقعت هذه الحادثة على الأرجح وطبقًا لرواية الواقدي، قبل عام الفيل بخمس سنوات أي نحو عام 565 م، وقد تحققت أمنية عبد المطلب فولد له أحد عشر ابنًا. وكان الابن الحادي عشر هو عبد الله والد النبي ﷺ الذي قدّمه للنحر كما نذر، لكن قريش حلت دون ذبحه وافتداه والده بمائة من الإبل.

(5) البلاذري، **أنساب** : 1/ 84.

(6) البلاذري، **أنساب**، 1/ 84 كذلك، كانت العرب تعرف شهر رمضان وكان الحنفاء يصومون الشهر حتى أقره الإسلام شهرًا إسلاميًا.

فوهب أحدهما للكعبة ووضعه في جدارها الداخلي، بينما يقال إن الثاني كان من **فضة لا** نعرف على وجه الدقة مصيره. وهذا **الغزال الذهبي** هو الذي سيكون موضوع نزاع **قريش وخزاعة**. لكن **عبد المطلب**، بفطنته وقدرته المذهلة على إدارة الصراع بطريقة سلمية، تمكن من تهدئة مخاوف قريش وإقناعها، أن حفر زمزم، سيكون عاملًا حاسمًا في توطد مكانة الكعبة، وأن مشكلة **سقاية الحاج** ستكون أخف وطأة بفضل هذا التدبير، وأن ما حصل عليه من ثروة مدفونة في البئر، لن تكون ملكًا شخصيًا له وحده، ولذا أهدى بعض السيوف والحلي للبيت الحرام، فيما أهدى لبعض الوجهاء سيوفًا نادرة، ويقال إن **سيف ذي الفقار عند علي بن أبي طالب** كان من بين ما عثر عليه **عبد المطلب** في البئر. ويبدو من جملة أخبار ومرويات، أن عبد المطلب لجأ إلى تدبير حاذق، بعد تفجر النزاع بينه وبين قريش حول حفر زمزم، حين عقد حلفًا سياسيًا (جامعًا) مع خزاعة. ولم يكن لمثل هذا التدبير، أن يكتسب قوته وقيمته التاريخية إلا في هذه اللحظة، عندما شعر عبد المطلب أن النزاع مع قريش (بعد حصوله على كنز جُرْهُم المدفون في زمزم) لن يخمد نهائيًا إلا بتأسيس حلف قوي مع خزاعة أخوال جده عبد مناف. يقول **الزبيري**[1]، إنه عقد الحلف مع خزاعة وكتب كتبًا شهدته القبائل، وكانت نسخة كتاب التحالف[2] تقول:

> **هذا ما تحالف عليه عبد المطلب بن هاشم ورجاله، عمرو بن ربيعة من خزاعة** ومن معهم من أسلمْ ومالك ابني أفصى بن حارثة، تحالفوا على التناصر والمؤاساة، ما بلَّ بحرُ بصوفه، حلفًا جامعًا غير مُفرّق. الأشياخُ على الأشياخ، والأصاغر على الأصاغر، والشاهدُ على الغائب، وتعاهدوا وتعاونوا أوكد عهد، وأوثق عقد، لا يُنقض ولا يُنكث ما أشرقت شمس بثبير[3]،وحنَّ بفلاة بعير، وما قام

(1) الزبيري: **أنساب الأشراف**، 1/ 71-72.

(2) وهذا هو الحلف الذي عناه عمر بن سالم الخزاعي حين خاطب النبي ﷺ بقصيدة جميلة:

لاهمَّ إنيّ ناشدٌ محمّدًا   حلف أبينا وأبيه الأُتلدا

(3) جبل في ضواحي بمكة.

الأخشبان[1] وعمرّ بمكة إنسان، حلفُ أبد، لطول أمد، يزيده طلوع الشمس شدّا، وظلام الليل مدّا، وأن عبد المطلب وولده ومن معهم دون سائر بني النضر بن كنانة، ورجال خزاعة متكافئون متضافرون ومتعاونون، فعلى عبد المطلب النصرة لهم ممن تابعه على كل طالب وتر في بر أو بحر أو سهل أو وعر وعلى خزاعة النصرة لعبد المطلب وولده من بعده على جميع العرب في شرق أو غرب أو حزن أو سهل وجعلوا الله على ذلك كفيلًا، وكفى به حميلًا)[2].

وضع عبد المطلب من خلال أبرام وثيقة عهد أبدي مع خزاعة، حدًّا نهائيًا لنزاع تاريخي حول الكعبة، لكنه من جانب ثانٍ، أنهى إلى الأبد أيضًا مطالبات البطون المنافسة داخل قريش، بانتزاع الحق في إدارتها، وهو بذلك، يستكمل ما بدأه جده قصي من تثبيت لأسس الدولة ـ المدينة التي لا مكان فيها للملك، لأن الولاية بطابعها الديني ووظيفتها الروحية، كانت تستجيب لمتطلبات وحاجات هذا النمط من الإدارة القبلية. ومن المؤكد، أن عبد المطلب بعد تأسيس الحلف الوثيق (الأبدي) مع خزاعة، بدا أكثر قدرة على نشر (دينه) الأسري. يقول **البلاذري**[3]، في وصف زهد وتعبّد **عبد المطلب** وعلاقته الخاصة والاستثنائية **بحفيده النبي**[4] ﷺ:

---

(1) جبلا مكة الشهيران.

(2) الحَميل : المعتمد عليه.

(3) البلاذري: **أنساب**: ج1/ 82.

(4) الأزرقي : **أخبار مكة** 1: 56 يروي الأزرقي الرواية التالية عن لقاء عبد المطلب مع سيف ابن ذي يزن 579 م بعد تحرير اليمن من الأحباش، فهو تلقى بشارة ولادة النبي ﷺ من سيف، الذي كان يهوديًا : (قال: يا عبد المطلب إني مفوض إليك من سر علمي أمرًا لو غيرك يكون لم أبح به له، ولكني وجدتك معدنه فأطلعتك طلعه وليكن عندك مطويًا حتى يأذن الله فيه فإن الله بالغ فيه أمره، إني أجد في الكتاب المكنون، والعلم المخزون، الذي اخترناه لأنفسنا واحتجناه دون غيرنا، خبرًا جسيمًا، وخطرًا عظيمًا فيه شرف للحياة، وفضيلة للناس عامة ولرهطك كافة ولك خاصة، قال: أيها الملك مثلك سر، وبر فما هو فداك أهل الوبر والمدر زمرًا بعد زمر، قال: فإذا ولد بتهامة غلام به علامة، كانت له

وحدثني محمّد بن إسماعيل الضرير الواسطي، حدثنا علي بن عاصم عن داود بن هند، عند العباس بن عبد الرحمن الهاشمي عن الكندير بن سعير عن أبيه قال: حججتُ البيت في الجاهلية؛ فإذا أنا بشيخ مربوع يطوف بالبيت وهو يقول:

رُدَّ عـلـيَّ راكـبـي مـحـمـدًا   واصـطـنـعـنّ بـرّدهِ عـنـدي يـدا

فقلت من هذا الشيخ؟ قالوا: هذا **عبد المطلب بن هاشم**. قلت ما شأنه ؟ قالوا: ضل إبلًا له، فخرج في طلبها ابنه **محمد بن عبد الله**، وقد أبطأ عليه، فقد أخذه ما ترى. قال: فما برحت حتى رجع رسول الله ﷺ وهو غلام وجاء بالإبل، فسمعت **عبد المطلب يقول له: يا بُنيّ لقد جزعت عليك جزعًا، لا تفارقني بعدُ حتى أموت.**

إن هذه العلاقة العاطفية الخاصّة التي ربطت الحفيد بالجدِّ، هي التي سوف تكون واحدة من أكثر منطلقات الدعوة للإسلام، لتأكيد رابطته الأسرية القوية به. وهو ما ينفي بشكل قاطع، المزاعم الرائجة في مؤلفات الإخباريين المسلمين عن قول النبي إن (منزلة عبد المطلب في الآخرة، النار)، وينسف بالتالي، المزاعم القائلة أن عداوة

الإمامة، ولكم به الزعامة، إلى يوم القيامة، فقال له عبد المطلب: أبيت اللعن لقد أتيت بخبر ما آب بمثله وافد قوم، ولولا هيبة الملك وإعظامه وإجلاله لسألته من سارة آبائي ما أزداد به سرورًا، فإن رأى الملك أن يخبرني بإفصاح فقد أوضح لي بعض الإيضاح، قال: هذا حينه الذي يولد فيه أو قد ولد اسمه محمد بين كتفيه شامة، يموت أبوه وأمه ويكفله جده وعمه، وقد ولدناه مرارًا والله باعثه جهارًا، وجاعل له منا أنصارًا، يعز بهم أولياءه، ويذل بهم أعداءه، ويضرب بهم الناس عن عرض، ويستبيح بهم كرائم الأرض، يعبد الرحمن، ويدحر الشيطان، ويكسر الأوثان ويخمد النيران، قوله فصل، وحكمه عدل، يأمر بالمعروف ويفعله، وينهى عن المنكر ويبطله، قال: فخر عبد المطلب ساجدًا فقال له: ارفع رأسك، ثلج صدرك، وعلا كعبك، فهل أحست من أمره شيئًا ؟ قال: نعم أيها الملك كان لي ابن وكنت به معجبًا وعليه رفيقًا فزوجته كريمة من كرائم قومه، آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة فجاءت بغلام سميته محمدًا، مات أبوه وأمه وكفلته أنا وعمه، بين كتفيه شامة، وفيه كلما ذكرت من علامة).

أبي لهب له كانت تستند إلى هذا السبب .**ولعل بيت الشعر الوحيد الذي ينسب للنبي**[1]، وقاله في مناسبة تتعلق بتكذيب قريش له، هو الذي يعبرّ بعمق عن هذا الجانب:

أنـــا الـــنـــبـــيّ لا كـــذب أنـــا ابـــن عـــبـــد الـــمـــطـــلـــب

لكن **عائشة**[2] رضي الله عنها تروي أن النبي ﷺ كان يتمثّل بشعر ابن رواحة ويقول طرفة ـ بن العبد ـ «ويأتيك بالأخبار من لم تزود». أما جندب بن عبد الله البجلي، فقد روى أنه يوم أصيب إصبعه بجرح ترنم ببيت شعر:

هـــل أنـــت إلا إصـــبـــع دمـــيـــت وفـــي ســـبـــيـــل الـــلـــه مـــا لـــقـــيـــت

(1) ابن هشام، **السيرة** 2/ 151-152

(2) اليافعي، **مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان** : 1/ 26

رسم توضيحي للقرابات المتصارعة

قصي بن كلاب

(أولاده أربعة)

عبد مناف   عبد الدّار (أولاده)   عبد العُزّى[1] (أولاده)   عبد قصي (لا عقب له)

هاشم   عثمان   عبد مناف   السبّاق   أسد   الحويرث   المطلب

الأسود   نوفل   عثمان (البطريق)   أبو زمعة

زمعة   ورقة (لا عقب له)

(أولاد هاشم)

عبد المطلب (11 ولدًا)   عبد شمس   المطلب   نوفل

عبد الله ــــ أبو لهب   أميّة ــــ أبو عمرو   عدي

محمد   حرب   أبو معيط (أبان)[2]   مُطعم

أبو سفيان   عقبة[3]   (قدم الحماية للنبي)[4]

معاوية   جبير

معاوية

(1) الزبيري، 1/ 250 (البيت والعدد في ولد عبد العُزّى).

(2) عقبة بن أبي معيط، واسم أبي معيط أبان بن أبي عمرو بن أمية بن عبد شمس.

(3) ويكنى أبا الوليد، وكان من أشد الناس أذىً لرسول الله.

(4) أثناء حصار قريش لبني هاشم.

(أولاد عبد المطلب 7 من أصل 11)

ضرار العباس حمزة أبو طالب أبو لهب الحارث عبد الله

عقيل ـــــ علي عُتيبة ـــ مُعتب ـــ عُتبة النبي ﷺ

(الابن الرابع لقصي)

عبد قصي

وهب مُنهب بُجير

طُليب[1] الحارث

(هدر النبي ﷺ دمه لأنه كان شديد ألأذى. قتله علي بن أبي طالب)

(1) استشهد يوم اليرموك، والدته أروى بنت عبد المطلب بن هاشم. رثته والدته بقصيدة رائعة منها :

إن طُليبًا نصرَ ابن خاله آساه في ذي دمه وماله

لكن ابن أختها المجدّع بالله قُتل يوم أحد كافرًا - أمه شقيقتها أميمة بنت عبد المطلب- الزبيري 1/ 19.

أبناء عبد الدار (الابن البكر لقصي)

عثمان	عبد مناف	السبّاق[1]

عبد العزى هاشم كلدة عثمان

عبد الله المقرئ[2] عامر النضر[3] (قتله علي بن أبي طالب)

بغيض

(شلت يده بعدما كتب الصحيفة)

(1) كان بنو السبّاق أول من بغى في مكة ولم يبق منهم أحد.

(2) أرسله النبي ﷺ إلى المدينة ليعلم أهلها القرآن.

(3) قالت ابنته قُتيلة بنت النضر بن الحارث تخاطب النبي ﷺ وترثي أباها:

أمحمّدٌ ولأنت ضنءُ نجيبة ... من قومها والفحل فحلٌ معرّق

ما كان ضرّك لو مننتَ فربمّا ... مَنْ الفتى وهو المغيظ المحنق

فالنضر أقرب من تركتَ قرابة ... وأحقهم إنْ كان عتيقٌ يُعتق

(أبناء عبد الله بن عبد العُزّى بن عثمان بن عبد الدار بن قصي)

طلحة (قتله علي بن أبي طالب)

عثمان (قتله الحمزة عم النبي)

عثمان شيبة[1]

أبناء السّباق بن عبد الدار بن قصي

الحارث

الأسود

(أسره النبي يوم بدر)

عوف

أبو مسرّة

عبيد

(1) الزبيري 1/ 252 سلمّه النبي ﷺ مفاتيح الكعبة - ولشقيقه- وهم أصحاب التبية والسدانة في الكعبة . قال لهم النبي ﷺ وهو يسلمهم المفاتيح: خذوها يا بني طلحة، خالدةً تالدة، ولا يأخذها منكم إلا ظالم).

عبد الدار (الابن البكر لقصي)

الحارث   السباق [1]   عوف   عبيدة

عبيد الله

عامر   منبه

الأسود   عثمان

(قتل كافرًا يوم بدر)   مسّرة   (قتل يوم الأحزاب كافرًا)

عبد الله

(1) نسب قريش 1/ 83 (وكان بنو السباق بن عبد الدار أول من بغى بمكة) **جمهرة** 1/ 5 : (وأم نوفل: واقدة من بني مازن بن صعصعة السلمية، خلف عليها هاشم بن عبد مناف بعد أبيه؛ وكانت العرب تسمى هذا النكاح نكاح المقت؛ فولدت له ابنتين: خالدة وضعيفة. وكان هاشم وعبد شمس توأمين، وخرج عبد شمس في الولادة قبل هاشم).

محمد وأمية بن أبي الصلت

(القرابة من الأم)[2]

قصي

عبد مناف

هاشم (عمرو) ـــــ توأم ـــــ عبد شمس المطلب

عبد المطلب (أولاده)

عبد الله نوفل عبد العزّى أمية رقية سبيعة

محمد ﷺ (حبيب) (أم أمية بن أبي الصلت)

(1) جمهرة الأنساب1/ 116.

عمر بن الخطاب وأبو جهل

(القرابة من الأم)

مخزوم[1]

عمر

عبد الله

المغيرة

هشام	أبو حذيفة	هاشم	الفاكه
مخزوم[1]			
أبناؤه	أمية [2]	حنتمة	عمر
		(أم عمر بن الخطاب)	أبو قيس

(1) البلاذري، **أنساب الأشراف**: 3/ 349 والعاص بن هشام قتل يوم بدر كافرًا، وانظر : **جمهرة أنساب العرب** لابن حزم 1/ 66 : استنادًا إلى ابن حزم؛ فإن بيت مخزوم(المغيرة ابن عبد الله بن عمر بن مخزوم) الذي ينتسب إليه أبو الحكم فيه عدد كبير من الأبناء(12) ولدًا وهم هشام؛ والوليد؛ وأبو حذيفة، واسمه مهشم؛ وأبو أمية، واسمه حذيفة؛ وهاشم؛ والفاكه؛ ونوفل؛ وأبو ربيعة، واسمه عمرو؛ وعبد الله وأبو زهير، واسمه تميم. وعبد شمس، وحفص. فأما هاشم، فإنه ولد حنتمة أم عمر بن الخطاب؛ ولا عقب لهاشم، ولا للفاكه، ولا لعبد الله. وكان للفاكه ابن اسمه أبو قيس، قتل يوم بدر كافرًا. كما قتل نوفل يوم الخندق كافرًا. فولد هشام بن المغيرة: أبو جهل، اسمه عمرو، وكنيته أبو الحكم (وأبو جهل لقب).

(2) أمية بن أبي حذيفة بن المغيرة، خال عمر بن الخطاب- فأمه ابنة عم أم عمر- وقتله علي ابن أبي طالب.

العاص [1] أبو الحكم [2] (قتل يوم الخندق كافرًا)

هشام[3] عكرمة[4]

(1) **أنساب الأشراف** 1/ 131 العاص بن هشام بن المغيرة، ابن خال عمر بن الخطاب وقتله عمر.

(2) هو الذي أطلق عليه النبي اسم (أبي جهل).

(3) جاء هشام بن العاص بن هشام بن المغيرة يوم الفتح إلى النبي ﷺ فنظر إلى خاتم النبوة، ووضع يده عليه، فأقعده بين يديه وضرب في صدره ثلاثًا، ثم قال: اللهم أذهب عنه الغل والحسد.

(4) وكان فارسًا، أسلم يوم فتح مكة، وكانت له صحبة واستشهد بالشام يوم أجنادين سنة ثلاث عشرة وهو الثبت، ويقال يوم اليرموك سنة خمس عشرة ولا عقب لعكرمة وكان يكنى أبا هشام.

4
محمد وأبي لهب

اتخذ صراع القرابات في الكثير من مؤلفات الإخباريين[1] والفقهاء المسلمين باستمرار، بعدًا أسطوريًا شيقًا، فهو يظهر كسبيل وحيد لاعتناق الإسلام. **والنبي** ﷺ نفسه في هذه المؤلفات، **يُصوّر** وقد صارع **الملاك جبريل** (جبرائيل)[2] عندما كان صبيًا صغيرًا يرعى الأغنام. يقول **الفاكهي** [3]**إن جبريل جاء إلى النبي وهو يلعب مع الصبيان، فصرعه ثم غسل قلبه**، وأن تلك اللحظة كانت أولى علامات النبوة، والرواية التي ينقلها الفاكهي بإسناد حسن تُروى على لسان **أنس بن مالك**، قال:

إن رسول الله ﷺ **أتاه جبريل** عليه السلام وهو يلعب مع الصبيان

(1) النويري: **نهاية الأرب** 16/ 197، الفاكهي، **أخبار**: 1017 -1018 - وفي رواية موازية تنسب لابن مالك أيضًا: (حدثني محمد بن صالح قال: حدثني يونس عن ابن شهاب عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ قال:« فرج سقف بيتي بمكة، ثم أتيت بطست فيه من ماء زمزم، فشق بطني، فغسل جوفي وحشي إيمانًا وحكمة ») . توفي أبو لهب في العام الثاني للهجرة وعمّه العباس اعتنق الإسلام بعد وقعة بدر، بينما كان أبو طالب في هذا لوقت على فراش الموت ومن دون أن يلبي دعوة النبي ﷺ.

(2) لا يتعيّن رؤية هذا النوع من الأخبار على أنه (من الإسرائيليات) الدخيلة على بنية السرد العربي القديم، وهذا اصطلاح خاطئ لا أساس له، لأن العرب في الجاهلية وحتى مطلع الإسلام، كانوا ينظرون إلى مرويات التوراة، بوصفها مرويات قبائل عربية. وفي التوراة، سفر التكوين، يصارع يعقوب رجلًا- هو ملاك الرّب - حتى الفجر، وحين يصرعه ينكسر حق يعقوب، لكنه سوف يحصل منه على البركة قبل أن يطلقه، فقد تغيّر اسمه من يعقوب إلى إسرائيل.

(3) الفاكهي، **أخبار**: 1017 -1018.

فأخذه فصرعه[1]، فاستخرج القلب، ثم شق القلب فاستخرج منه علقة، فقال: **هذا حظ الشيطان منك**، ثم غسله بماء زمزم، ثم لأمه[2]، ثم أعاده في مكانه، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه، يعني ظئره[3]، فقالوا: إن محمدًا قد قتل، فاستقبلوه وهو منتقع[4] لونه، قال أنس رضي الله عنه: لقد كنت أرى أثر **المخيط في** صدره ﷺ.

كما روى المسلمون في الإطار ذاته، مروية أسطورية عن **الأسود بن يغوث بن وهب بن عبد مناف، وهو من أقرباء النبي ﷺ، فقد جاءه جبريل بنفسه (حتى أحنى ظهره والنبي ﷺ ينظر، فقال:(خالي. خالي) فقال جبريل: دعه عنك، فمات الأسود)[5] لأنه لم يسلم. كما توجد إشارة أخرى في سورة الحجر[6] إلى أحد أقرباء النبي ﷺ المباشرين، هو أبي زمعة الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العُزّى**، وكان من **المُستهزئين** ممن نزلت بحقهم آية ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾، وهي آيةُ فسرت بطريقة سردية مماثلة، يظهر فيها جبريل وقد رمى (**في وجهه ورقة فعمي وكان من كُبراء قريش.**) وُيقال في بعض المرويات[7]، أن **الأسود هذا** كان رجلًا مهيبًا، حتى أن **النبي** ﷺ قال وهو يذكر ناقة **ثمود في حديث** له **(فانبعث لها رجل عزيز منيع في رهطٍ مثل أبي زمعة)**. ومع ذلك، فقد ظل صراع النبي ﷺ مع عمّه **أبي لهب**، يحتل مكانة خاصة داخل هذا النسيج المتشابك من النزاعات التي تفجرّت في مجتمع مكة، ربما لأن الهجاء القرآني جاء قاسيًا بصورة غير متوقعة. كان أبو لهب جارًا للنبي ﷺ، وبسبب وجود

---

(1) الصرع : السقوط والوقوع.

(2) لأمْهُ : ضمَّ بعضه إلى بعض.

(3) الظئر : أي أبناء مرضعات مثله، والمرضعة لغير ولدها هي ضئر.

(4) تغير من خوف أو ألم.

(5) أبو عبد الله المُصعب بن عبد الله بن المُصعب الزبيري: نسب قريش، نشرة إ. ليفي بروفينسال، طبعة دار المعارف، القاهرة، دون سنة نشر، 8/ 266.

(6) سورة الحجر 95 آية 15 ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾.

(7) ابن بكار، **جمهرة نسب قريش**، تحقيق الأستاذ محمود محمد شاكر، القاهرة 1381هجرية ج/ 17: 363، يروي الزبير هذه الرواية عن عمّه أبي عبد الله المصعب الزبيري.

منزله قبالة منزل النبي، فقد توفرت الفرص لإيذائه، حتى أن عائشة رضي الله عنه اشتكت مرارًا من أكوام القامة التي كان يرميها عند باب النبي ﷺ (وكان ذلك الزقاق طريق النبي ﷺ إلى المسجد فيما يُقال والله أعلم يدعى إلى اليوم **زقاق أبي لهب**)[1]، ولذلك اتخذ الصراع بين النبي ﷺ وعمّه، من هذه الزاوية وحسب، طابعًا شديد الخصوصية، فهو لم يكن مجرد صدام عابر، يمكن أن يحدث هنا أو هناك؛ بل كان متواصلًا بأشكال مختلفة من الأذى. وقد سعى الإخباريون المسلمون في سياق سرد تاريخ هذا الصراعات إلى ردّ بعض الأحداث للعقاب الإلهي، فقد روى ابن الأثير[2]، فقد أبو لهب بمكة عند وصول أنباء هزيمة مشركي قريش في معركة بدر، ومات **الأسود بن عبد يغوث ابن وهب بن عبد مناف بن زهرة، وهو ابن خال النبي**، وكان من المستهزئين، وكان إذا رأى فقراء المسلمين قال لأصحابه (هؤلاء ملوك الأرض الذين يرثون ملك كسرى.) وكان يقول للنبي (أما كلمت اليوم من السماء يا محمد. فخرج من أهله فأصابه السموم فاسود وجهه، فلما عاد إليهم لم يعرفوه وأغلقوا الباب دونه، فرجع متحيرًا حتى مات عطشًا. وقيل: إن جبرائيل أومأ إلى السماء فأصابته الأكلة فامتلأ قيحًا فمات).

ولعل واقعة اضطهاد أبي لهب لمولى النبي ﷺ **أبي رافع**، وكان هذا رجلًا ضعيفًا، هي مجرد استطراد في هذا الأذى الشخصي. وقد روى أبو رافع بنفسه رواية مؤثرة عن اصطراعه مع أبي لهب في فناء الكعبة. يقول[3]: (كُنْت غُلَامًا لِلْعَبّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطّلِبِ، وَكَانَ الإسلام قَدْ دَخَلَنَا أَهْلَ الْبَيْتِ، فَأَسْلَمَ الْعَبّاسُ **وَأَسْلَمَتْ أُمّ الْفَضْلِ** وَأَسْلَمْت. وَكَانَ الْعَبّاسُ يَهَابُ قَوْمَهُ وَيَكْرَهُ خِلافَهُمْ وَكَانَ يَكْتُمُ إسْلامَهُ، وَكَانَ ذَا مَالٍ كَثِيرٍ مُتَفَرّقٍ فِي قَوْمِهِ، وَكَانَ أَبُو لَهَبٍ **قَدْ تَخَلّفَ عَنْ بَدْرٍ** فَبَعَثَ مَكَانَهُ الْعَاصِيَ بْنَ هِشَامِ بْنِ الْمُغِيرَةِ، وَكَذَلِكَ كَانُوا صَنَعُوا، لَمْ يَتَخَلّفْ رَجُلٌ إلا بَعَثَ مَكَانَهُ رَجُلًا، فَلَمّا جَاءَهُ الْخَبَرُ عَنْ مُصَابِ أَصْحَابِ بَدْرٍ مِنْ قُرَيْشٍ، كَبَتَهُ اللّهُ وَأَخْزَاهُ وَوَجَدْنَا فِي أَنْفُسِنَا قُوّةً وَعِزّا. قَالَ وَكُنْت رَجُلًا ضَعِيفًا، وَكُنْت أَعْمَلُ الأَقْدَاحَ، **أَنْحِتُهَا فِي حُجْرَةِ زَمْزَمَ، فَوَ اللّهِ إنّي لَجَالِسٌ فِيهَا أَنْحِتُ**

(1) الفاكهي، **أخبار** ج/ 1: 270.

(2) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ** 1/ 263.

(3) **الروض الآنف** [ص 98].

أَقْدَاحِي، وَعِنْدِي أُمّ الْفَضْلِ جَالِسَةٌ وَقَدْ سِرْنَا مَا جَاءَنَا مِنَ الْخَبَرِ، إِذْ أَقْبَلَ **أَبُو لَهَبٍ** يَجُرّ رِجْلَيْهِ بِشَرّ حَتّى جَلَسَ عَلَى طُنُبِ الْحُجْرَةِ، فَكَانَ ظَهْرُهُ إلَى ظَهْرِي، فَبَيْنَمَا هُوَ جَالِسٌ إذْ قَالَ النّاسُ هَذَا **أَبُو سُفْيَانَ بْنُ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطّلِبِ**[1] فَقَالَ **أَبُو لَهَبٍ** هَلُمّ إلَيّ فَعِنْدَك لَعَمْرِي الْخَبَرُ، قَالَ فَجَلَسَ إلَيْهِ وَالنّاسُ قِيَامٌ عَلَيْهِ فَقَالَ: يَا ابْنَ أَخِي، **أَخْبِرْنِي كَيْفَ كَانَ أَمْرُ النّاسِ** ؟ قَالَ وَاَللّهِ مَا هُوَ إلا أَنْ لَقِينَا الْقَوْمَ فَمَنَحْنَاهُمْ أَكْتَافَنَا يَقُودُونَنَا كَيْفَ شَاؤوا وَيَأْسِرُونَنَا كَيْفَ شَاؤوا، وَاَيْمُ اللّهِ مَعَ ذَلِكَ مَا لُمْت النّاسَ **لَقِينَا رِجَالًا بِيضًا عَلَى خَيْلٍ بُلْقٍ بَيْنَ السّمَاءِ وَالأَرْضِ وَاَللّهِ مَا تَلِيقُ شَيْئًا، وَلَا يَقُومُ لَهَا شَيْءٌ) وحين سمع أبو رافع**[2] **هذا الحديث الشيق عن الملائكة الذين قاتلوا قريش يوم بدر، حتى رفع** طُنُبَ الْحُجْرَةِ بِيَدِه ثم قال مخاطبًا أبي لهب: **تِلْكَ وَاَللّهِ الْملائِكَةُ**، فَرَفَعَ **أَبُو لَهَبٍ يَدَهُ فَضَرَبَ** بِهَا وَجْهِه ضَرْبَةً شَدِيدَةً (وَثَاوَرْتُهُ فَاحْتَمَلَنِي فَضَرَبَ بِي الأَرْضَ ثُمّ بَرَكَ عَلَيّ يَضْرِبُنِي، وَكُنْت رَجُلًا ضَعِيفًا، **فَقَامَتْ أُمّ الْفَضْلِ إلَى عَمُودٍ مِنْ عُمُدِ الْحُجْرَةِ فَأَخَذْته فَضَرَبْته بِهِ ضَرْبَةً فَلَعَتْ فِي رَأْسِهِ شَجّةً** مُنْكَرَةً وَقَالَتْ اسْتَضْعَفْته أَنْ غَابَ عَنْهُ سَيّدُهُ) فَقَامَ مُوَلّيًا ذَلِيلًا (فَوَ اللّهِ مَا عَاشَ إلّا سَبْعَ لَيَالٍ حَتّى رَمَاهُ اللّهُ **بِالْعَدَسَةِ**[3]

---

(1) كان الحارث والد سفيان أبًا للنبي ﷺ بالرضاعة.

(2) **الروض الآنف**: 99 أبو رَافِعٍ هذا كان اسمه الحقيقي أَسْلَمُ، وَقَالَ ابْنُ مَعِينٍ اسْمُهُ إبْرَاهِيمَ وَقِيلَ اسْمُهُ هُرْمُزَ وَكَانَ عَبْدًا قِبْطِيّا، **الروض الآنف**، 98 **أسد الغابة** : 1/ 48 - هو- (أسلم، أبو رافع مولى رسول الله ﷺ .غلبت عليه كنيته، واختلف في اسمه؛ فقال ابن المدينة: اسمه أسلم، ومثله قال ابن نمير، وقيل: هرمز، وقيل: إبراهيم، وقد تقدم في إبراهيم. وهو قبطي، كان للعباس فوهبه للنبي ﷺ وقيل: كان مولى لسعيد بن العاصي فورقه بنوه، وهم ثمانية، فأعتقوه كلهم إلا خالدًا؛ فإنه تمسك بنصيبه منه، فكلمه رسول الله ﷺ ليعتق نصيبه، أو يبيعه، أو يهبه منه، فلم يفعل، ثم وهبه رسول الله أعتقه، وقيل: أعتق منهم ثلاثة، فأتى أبو رافع رسول الله ﷺ يستعينه على من لم يعتق، فكلمهم فيه رسول الله، فوهبوه له، فأعتقه. وهذا اختلاف، والصحيح: أنه كان للعباس عم النبي ﷺ فوهبه للنبي فأعتقه، فكان أبو رافع يقول: أنا مولى رسول الله، وبقي عقبه أشراف المدينة).

(3) الْعَدَسَةَ قَرْحَةٌ كَانَتْ الْعَرَبُ تَتَشَاءَمُ منها، وَيَرَوْنَ أَنّهَا تُعْدِي أَشَدّ الْعَدْوَى فَلَمّا رُمِيَ بِهَا أَبُو لَهَبٍ تَبَاعَدَ عَنْهُ بَنُوهُ فَبَقِيَ ثَلاثًا لا تُقْرَبُ جِنَازَتُهُ وَلا يُدْفَنُ. فَلَمّا خَافُوا السّبّةَ دَفَعُوهُ بِعُودٍ فِي حُفْرَتِهِ، ثُمّ قَذَفُوهُ بِالْحِجَارَةِ مِنْ بِعِيدٍ حَتّى وَارَوْهُ. وَقَالَ ابْنُ إسْحَاقَ فِي رِوَايَةِ يُونُسَ(لَمْ

فَقَتَلْته). إن جزء من المصاعب التي واجهت النبي ﷺ في الدعوة إلى الدين الجديد، كان لا يزال مستمرًا، ومتواصلًا مع أعداء جدد من داخل أسرته، وأحد هؤلاء، **ركانة بن عبد يزيد بن هاشم بن عبد المطلب** الذي سارع إلى قبول دعوة النبي ﷺ، بصعوبة بالغة وبعد صراع مرير. ويقدم **أبو الفداء بن كثير**[1]، نقلًا عن ابن إسحاق مروية أسطورية موازية عن صراع النبي ﷺ مع **ركانة** .قال ابن إسحاق:

وحدثني أبي إسحاق بن يسار قال: كان **ركانة بن عبد يزيد ابن هاشم بن المطلب بن عبد مناف** أشد قريش، فخلا يومًا برسول الله ﷺ في بعض شعاب مكة، فقال له رسول الله ﷺ: **يا ركانة ألا تتقى وتقبل ما أدعوك إليه.** قال: إني لو أعلم أن الذي تقول حق لاتبعتك. فقال له رسول الله: «**أفرأيت إن صرعتك أتعلم أن ما أقول حق ؟**» قال: نعم. قال: « **فقم حتى أصارعك** ». قال: فقام **ركانة إليه فصارعه**، فلما بطش به رسول الله ﷺ أضجعه لا يملك من نفسه شيئًا. ثم قال: عد يا محمد. فعاد فصرعه، فقال: **يا محمد والله إن هذا للعجب، أتصرعني؟** قال: «وأعجب من ذلك إن شئت أريكه، إن اتقيت الله واتبعت أمري». قال: وما هو؟ قال: **أدعو لك هذه الشجرة التي ترى فتأتيني** ». قال: فادعها .**فدعاها فأقبلت حتى وقفت بين يدي رسول الله ﷺ فقال لها**: **ارجعي إلى مكانك! فرجعت إلى مكانها.** قال: فذهب ركانة إلى قومه فقال: **يا بنى عبد مناف ساحروا بصاحبكم أهل الأرض**، فو الله ما **رأيت أسحر منه قط.** ثم أخبرهم بالذي رأى والذي صنع. هكذا روى ابن إسحاق هذه القصة **مرسلة بهذا البيان.**

يَحْفِرُوا لَهُ وَلَكِنْ أُسْنِدَ إلَى حَائِطٍ وَقُذِفَتْ عَلَيْهِ الْحِجَارَةُ مِنْ خَلْفِ الْحَائِطِ) ويقال إنّ عَائِشَةَ كَانَتْ إذَا مَرّتْ بِمَوْضِعِهِ ذَلِكَ غَطّتْ وَجْهَهَا.

(1) ابن هشام، ج/ 2، 83.

كما يروي[1] بإسناد حسن عن **الشافعي عن ابن عباس** الرواية نفسها وهي استطراد في مرويات كثيرة عن **صراع النبي** ﷺ مع أبناء عمومته[2]:

(قال ابن إسحاق: وحدثني أبي إسحاق بن يسار قال: كان **ركانة بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف** أشد قريش، **فخلا** يومًا برسول الله ﷺ **في بعض** شعاب مكة، فقال له رسول الله ﷺ: **يا ركانة ألا تتقي وتقبل ما أدعوك إليه.** قال: إني لو أعلم أن الذي تقول حق لاتبعتك. فقال له رسول الله: «**أفرأيت إن صرعتك أتعلم أن ما أقول حق ؟**» قال: نعم. قال « **فقم حتى**

(1) أبو الفداء إسماعيل بن كثير: **السيرة النبوية** ج/ 2: 83 **والروض الآنف** 3/ 177 يرويان مروية أسطورية عن صراع النبي ﷺ نقلًا عن ابن إسحاق، مع أحد أقربائه ويدعى ركانة: قال ابن إسحاق : وحدثني أبى إسحاق بن يسار قال (كان ركانة بن عبد يزيد ابن هاشم بن المطلب بن عبد مناف أشد قريش، فخلا يومًا برسول الله ﷺ في بعض شعاب مكة، فقال له رسول الله ﷺ: يا ركانة ألا تتقي وتقبل ما أدعوك إليه. قال : إني لو أعلم أن الذي تقول حق لاتبعتك . فقال له رسول الله : « أفرأيت إن صرعتك أتعلم أن ما أقول حق ؟» قال: نعم. قال (« فقم حتى أصارعك»). قال : فقام ركانة إليه فصارعه، (فلما بطش به رسول الله ﷺ أضجعه لا يملك من نفسه شيئًا . ثم قال: عد يا محمد . فعاد فصرعه، فقال يا محمد والله إن هذا للعجب، أتصرعني؟ قال: «وأعجب من ذلك إن شئت أريكه، إن اتقيت الله واتبعت أمري » . قال : وما هو؟ قال: «أدعو لك هذه الشجرة التى ترى فتأتيني» . قال: فادعها . فدعاها فأقبلت حتى وقفت بين يدي رسول الله ﷺ . فقال لها : ارجعي إلى مكانك فرجعت إلى مكانها. قال: فذهب ركانة إلى قومه فقال: يا بني عبد مناف ساحروا بصاحبكم أهل الأرض، فو الله ما رأيت أسحر منه قط. ثم أخبرهم بالذي رأى والذي صنع. هكذا روى ابن إسحاق هذه القصة مرسلة بهذا البيان).

(2) ابن سعد، **الطبقات،** 1/ 374، 375، **الكامل** لابن الأثير :8/ 264-265: وقد روى أبو بكر الشافعي بإسناد جيد، عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن يزيد بن ركانة صارع النبي ﷺ، فصرعه النبي ﷺ ثلاث مرات، كل مرة على مائة من الغنم، فلما كان في الثالثة قال: يا محمد ما وضع ظهري إلى الأرض أحد قبلك، وما كان أحد أبغض إليّ منك، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله . فقام عنه رسول الله ﷺ ورد عليه غنمه.

أصارعك». قال: فقام **ركانة إليه فصارعه، (فلما بطش به** رسول الله ﷺ أضجعه لا يملك من نفسه شيئًا. ثم قال: **عد يا محمد.** فعاد فصرعه، فقال: **يا محمد والله إن هذا للعجب، أتصرعني** ؟ قال: «وأعجب من ذلك إن شئت أريكه، إن اتقيت الله واتبعت أمري». قال: وما هو؟ قال: **أدعو لك هذه الشجرة التي ترى فتأتيني»**. قال: فادعها .**فدعاها فأقبلت حتى وقفت بين يدي رسول الله** ﷺ فقال لها: **ارجعي إلى مكانك فرجعت إلى مكانها.** قال: فذهب ركانة إلى قومه فقال: **يا بني عبد مناف ساحروا بصاحبكم أهل الأرض،** فو الله ما رأيت **أسحر منه قط.** ثم أخبرهم بالذي رأى والذي صنع. هكذا روى ابن إسحاق هذه القصة **مرسلة بهذا البيان)**.

كما رأى صاحب **السيرة الحلبية**[1]، أن **أبي جهل** قال يومًا **لقريش: (يا معشر قريش يزعم محمد أن جنود الله** الذين يقذفونكم في النار ويحبسونكم فيها **تسعة عشر،** وأنتم أكثر الناس عددًا، فيعجز كل مائة رجل منكم عن واحد منهم؟) وفي رواية أخرى (أن بعض قريش وكان شديدًا قويّ البأس، بلغ من شدته أنه كان يقف على جلد البقرة، ويجاذبه عشرة لينزعوه من تحت قدمه فيتمزق الجلد ولا يتزحزح عنه) وأن هذا الرجل قال لقريش، أنه يمكن أن يتولى نيابة عنهم صدّ سبعة عشر من جنود الله (الذين توعد بهم النبي ﷺ) ثم قال: (واكفوني أنتم اثنين). ويقال إن هذا دعا النبي ﷺ إلى المصارعة، وقال له: **يا محمد إن صرعتني آمنت بك، فصرعه النبي** - ﷺ -

(1) الحلبي: **السيرة الحلبية**، الجزء: 1: 486 - وقال- أبو جهل: (أنا أكفيكم عشرة فاكفوني تسعة، فأنزل الله تعالى ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾ [المدثر: 31] أي لا يطاقون كما تتوهمون ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً﴾ [المدثر: 31] وماذا أراد الله بهذا العدد: وهذا العدد لحكمة استأثر الله تعالى بعملها، وقد أبدى بعض المفسرين لذلك حكمًا. وقد جاء في وصف الملائكة «أن أعينهم كالبرق الخاطف، وأنيابهم كالصياصي» أي القرون « ما بين منكبي أحدهم مسيرة سنة» وفي رواية «ما بين منكبي أحدهم كما بين المشرق والمغرب، لأحدهم قوة مثل قوة الثقلين، نزعت الرحمة منهم»).

مرارًا فلم يؤمن) . والأصل في هذه المروية الأسطورية التي تصورًا رجلًا مجهولًا له قوة سبعة عشر من جنود الله،، ومع ذلك يصرعه النبي ﷺ، أن المسلمين المتأخرين، وعندما سعوا إلى تفسير آية ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾[1] التي نزلت بحق **أبي جهل**، نسجوا الكثير من القصص بهدف تقريب فهم المؤمنين لهذه الآية. بيد أنهم لم يلاحظوا بدقة كافية، أنها كانت تتضمن إشارات إلى نوع وطبيعة الخلاف الذي نشب بين النبي ﷺ **وأبي جهل**، فقد تفجرّ هذا النزاع منذ البداية على خلفية تحريم الخمر والزنا، وهما مسألتان مسألة بدتا غاية في الحسّاسة، بالنسبة لمجتمع، رأى إلى الزنا كنمط من أنماط الزواج لا يجوز تحريمه والقطع معه، ونظر إلى الخمر، بوصفه تقليدًا دينيًا يرتبط بالمعابد الوثنية، حتى أن **سادن معبد العُزّى**[2] كان يُمتدح من الشعراء لأنه كان يقدم الطعام والشراب. ولذلك كان أبو جهل من أكثر المعارضين للنبي حتى أنه كان يحرض الذين يذهبون للقائه على رفض دعوته هذه فيقول لهم: **(إنه يحرّم الخمر ويحرّم الزنا، ويحرّم ما كانت تصنع العرب، فارجعوا فنحن نحمل أوزاركم)**[3]. وفي سورة **العلق**[4]، ثمّة إشارة أخرى إلى **أبي جهل**، تتعلق بمناسبة أثارت استياء قريش، فقد هدد بأنه سوف يضع قدمه على عنق النبي ﷺ حين يشاهده يسجد، فنزلت ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۞ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾. ومن المحتمل، أن سائر هذه الأخبار الأسطورية هدفت في المقام الأول إلى تبيان طبيعة المصاعب والأهوال التي جابهت ولادة الإسلام من داخل النظام القرابي[5]، بأكثر ما هدفت إلى نقل

---

(1) سورة العنكبوت، الآية: 13.

(2) ابن الكلبي : **الأصنام** 1/ 3 (وهي أحدث من اللات ومناة. وذلك أني سمعت العرب سمت بهما قبل العزى).

(3) ابن شيبة- أبي بكر بن عبد الله بن محمد- **المغازي**، درسه وحققه وخرّج آثاره د. عبد العزيز بن إبراهيم العمري، دار أشبيلية، المملكة العربية السعودية 1999، ص 113.

(4) البيضاوي، **تفسير البيضاوي** م / 1 : 287 سورة العلق 96 4 والآيات 6-7.

(5) النويري، **نهاية الأرب** 16/ 215، طبقًا لرواية النويري وآخرين بالتواتر، فقد عرض النبي ﷺ نفسه على قبائل العرب وبشكل متواصل طوال عام كامل، ولم يحصل في كل مرة على أي تأييد، وكان يقال له إن أسرتك تعرفك أكثر منا، وذلك، كما يقال عادة، لأن أبي لهب ظل يمشي خلف النبي كلما رآه يدعو العرب إلى الإسلام . ـ ف ـ (أقام

أخبار تاريخية عنه. وفي إطار هذا السرد المنظمّ، كانت صورة أبي لهب الأكثر تجسيدًا لمعنى العداء الأسري، فقد كانت لهذا الصراع جذور تضرب عميقًا في تربة كراهية قديمة. يقول صاحب تاريخ دمشق **ابن عساكر**[1]:

اصطرع أبو طالب وأبو لهب، فصرع أبو لهب أبا طالب، وجلس على صدره، فمد النبي ﷺ **بذؤابة أبي لهب،** والنبي ﷺ يومئذ **غلام**. فقال له **أبو لهب**: **أنا عمك، وهو عمك**، فلم أعنته علي؟ فقال: **لأنه أحب إليَّ منك.**

قد يصعب قبول هذه الرواية كخبر تاريخي موثق، وأكثر من هذا، يصعب تقبلها كمصدر من مصادر النزاع الذي سوف ينسب بينهما، لأن قصة اصطراع العميّن، عندما كان النبي ﷺ غلامًا، لا تبدو منطقية. ومع ذلك؛ فإن هذه المرويات الشيقة بطابعها الأسطوري، حيث تظهر القوى الخارقة للبشر

رسول الله ﷺ بمكة ثلاث سنين من أول نبوته يدعو مستخفيًا، ثم أعلن في الرابعة، فدعا الناس إلى الإسلام عشر سنين يوافي المواسم كل عام، يتبع الحاج في منازلهم بعكاظ ومجنة، وذي المجاز يدعوهم ؛ حتى بلغ رسالة ربه تعالى، وأبو لهب يمشي وراءه يقول لا تطيعوه فإنه صابئ كاذب، فيقولون : أسرتك وعشيرتك أعلم بك حيث لم يتبعوك، فيقول : اللهم لو شئت لم يكونوا هكذا. قال الواقدي: فكان من سمى لنا من القبائل الذين أتاهم رسول الله ﷺ ودعاهم وعرض نفسه عليهم: بنو عامر بن صعصعة، ومحارب بن خصفة، وفزارة، وغسان، ومرة، وحنيفة، وسليم، وعبس، وبنو نصر، وبنو البكاء، وكندة، وكلب، والحارث بن كعب، وعدرة، والحضارمة ؛ فلم يستجب منهم أحد).

(1) الإمام العالم الحافظ أبي القاسم ابن عساكر: **تاريخ مدينة دمشق**، دراسة وتحقيق: علي شيري، الجزء الأول، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت- دمشق، الباب الرابع والعشرون : في ذكر مصارعة الشياطين وخوف الشياطين منه (قال أبي بن كعب: قال رسول الله ﷺ: من قرأ (تبت) أرجو أن لا يجمع الله بينه وبين أبي لهب في دار واحدة.. وفيه أيضًا «مرت درة ابنة أبي لهب برجل فقال: هذه ابنة عدو الله أبي لهب. فأقبلت عليه، فقالت: ذكر الله أبي لنباهته وشرفه، وترك أباك لجهالته. ثم ذكرت للنبي ﷺ ما سمعت. فخطب الناس فقال: لا يؤذين مسلم بكافر. 432 مات عتبة بدعوة من الرسول عندما أتاه قائلًا: يا محمد، هو يكفر بالذي ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۞ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ [النجم: 8 ـ 9] فقال الرسول: اللهم، سلط عليه كلبًا من كلابك).

والملائكة على حدٍ سواء، هي من طراز المرويات التي تنتمي إلى سرد تقليدي عرفته الثقافة العربية القديمة، ووجد صداه في الكتب المقدسة للأديان الكبرى، وفي كتب التفاسير الشعبية (التلمود مثلًا). وإذا ما وضعنا صراع النبي ﷺ مع عمّه أبي لهب في سياق تاريخي صحيح، فسوف نلاحظ أنه تنويع على صراعات وقعت داخل نظام القرابات، قبل وقتٍ طويل من ولادة النبي ﷺ وكان موضوعها في الغالب، يتصل بالمصالح والحقوق والمعتقدات، **فعبد المطلب**، جد النبي ﷺ خاض صراعًا مريرًا مع **عمّه نوفل**، لا لأن هذا اغتصب منه أرضًا، وإنما لأنه كان في الواقع صاحب (دين) لم تتقبله قريش في البداية، ولكنها تعايشت معه وتقبلت، طالما أن عبد المطلب اكتفى على طريقة الحنفاء، بالتحنث في غار حراء. كما أن هذا الصراع يمكن أن يتجلى في صورٍ مماثلة، كاستطراد في تنافس بين الأشقاء وأبناء الأشقاء بالتعاقب، هاشم ضد **عبد شمس**، ثم أولاد هاشم ضد أولاد عبد شمس. وهؤلاء بدورهم، كانوا يواصلون صراعًا أسبق، حين اصطدم ابنا قصي، **عبد مناف وشقيقه عبد الدار**. وفي هذا الإطار، يتعيّن إبداء ما يكفي من الحذر، عند قراءة هذا النوع من المرويات، فهي تسعى دون قصد أحيانًا إلى إضفاء طابع أسطوري أو قدري على هذه الصراعات التقليدية والمألوفة في مجتمع، كان مزيج التجارة والدين فيه، يصطبغ بصبغة قبلية شبه مدينية، وبحيث تتواصل تقاليد التنافس والقتال، بوصفها جزء عضويًا من ثقافته وليست أمرًا طارئًا أو عابرًا. وفي الواقع لم يكتف رواة الأخبار بنقل هذا النوع من المرويات الأسطورية ؛ بل قاموا بسردها كأخبار تاريخية دخلت في بنية السرد التقليدي لسيرة النبي ﷺ، فعلى غرار أسطورة صراع النبي ﷺ **مع جبريل**، أنشأ السارد العربي ـ الإسلامي في وقت متأخر، وفي سياق تعداد مناقب **عمر بن الخطاب** ـرضـ أسطورة موازية مستوحاة بصورة مباشرة من قصة صراع النبي نفسها، ولكن لتناسب مناقب **عمر**، إذ يزعم **ابن الجوزي**[1] **أن عمر بن**

(1) ابن الجوزي أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد، **مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب**، تحقيق زينب إبراهيم القاروط، أعاد تحقيقه حلمي بن إسماعيل 1966، دار الكتب العلمية، بيروت ط 3- 1983، ص 51 (قد سبق قول رسول الله ﷺ لعمر، ما سلك عمر فجّا إلا وسلك الشيطان غير فجه. عن الشعبي قال، قال عبد الله بن مسعود

الخطاب رضي الله عنه صارع الشيطان (الجني) في زقاق من أزقة المدينة فصرعه. إن بعض الصراعات الجانبية التي خاضها النبي ضد شخصيات نافذة في قريش، تعكس بقدر مذهل من الوضوح، أن تقديمه لنفسه كنبّي مرسل، أثار حسد وغضب منافسين قبليين في **الطائف ومكة**، وقد عبرّ عن ذلك صراحة **الوليد بن المغيرة** أمام رجالات قريش، وبشكل أخص أمام بني هاشم **(أيُنَزل على محمّد وأترك وأنا كبير قريش وسيّدها، ويُترك أبو مسعود عمرو بن عمر الثقفي سيّد ثقيف ونحن عظماء القريتين)**[1]. من منظور الصراعات التقليدية التي نشبت داخل نظام القرابات، لم تنظر قريش إلى الإسلام، نظرة رفض تام، لأنه تضمّن تصورات دينية تتعارض مع معتقداتها المتوارثة وحسب، فهذا أمر كانت مكة تشهده باستمرار وتعرفه، خصوصًا مع وجود موحّدين ودعاة، لطالما رفعوا أصواتهم بضرورة العودة إلى دين إبراهيم، وإنما لأنه بدرجة أكبر من ذلك، بدا لها تجسيدًا لطموحات قوى جديدة، تريد تكريس سيطرتها على مكة، وكانت هذه باستمرار نقطة حسّاسة في سياق الصراعات، فكل دعوة إلى «دين» أو إلى تنصيب ملك في مكة، وكانت هذه من الأفكار الرائجة مع تصاعد أشكال التنافس الدولي، بين الروم والفرس على الجزيرة العربية، تراءت وكأنها محاولة من فرع عائلي لفرض سلطانه الروحي على بقية الفروع. إن العبارة الأثيرة التي تتردد في كتب التاريخ **(أن قريش لقاح، لا تمّلك ولا تُملك)**[2]. ذات أساس ثقافي متين يتصل بالضبط

رضي الله عنه لقي رجل من أصحاب رسول الله ﷺ الشيطان في زقاق من أزقة المدينة ـ يثرب ـ فدعاه الجني- إلى الصراع فصراعه الإنسيّ، فقال: دعني، ففعل. فقال: هل لك في المعاودة، ففعل، فصراعه فجلس على صدره، فقال: أراك سخيًّا ضئيلًا، كأن ذراعيك ذراعا كلب، فكذاك أنت، أو الجنيّ كذلك، قال- أي الجنيّ- والله إني منهم، فقال الإنسي، ما أنا بالذي أدعك حتى تخبرني ما الذي يُعيذنا منكم؟).

(1) ابن هشام، **السيرة** ج1/ 356 فنزلت آية ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: 31].

(2) أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله : **أساس البلاغة**، 1/ 428 لقاح : أي إنهم لا يدينون للملوك، وهم لم يُمّلكوا. ونوق لواقح ولقّح، وقد لقحت لقاحًا ولقحًا وتلقّحت، وألقحها الفحل ولقّحها. وعندي لقحة ولقوح: درور وهي الحلوب وجمعها لقاح.

بهذه المسألة[1]. ففي اللغة[2] تعني لقاح أن القبيلة تلد الرجال وليست عاقرًا (ونوق لواقح ولقّح، وقد لقحت لقاحًا ولقحًا وتلقّحت، وألقحها الفحل ولقّحها. وعندي لقحة ولقوح: درور وهي الحلوب وجمعها لقاح. ويقال: اللقوح الرّبعيّة مالٌ وطعامٌ.» ونهي ـ النبي ـ عن بيع الملاقيح والمضامين» أي الأجنّة والتي هي نطف في الأصلاب جمع: ملقوح. قال مالك بن الرّيب:

إنا وجدنا طرد الهوامل　　　خيرًا من التأنان والمسائل

وعدة العام وعامٍ قابل　　　ملقوحة في بطن نابٍ حائل

ومن المجاز: لقحت النّخلة، وهذا وقت لقاح النخل، وألقح فلان نخلة ولقّحها باللقاح وهو ما يلقح به من طلع) كما فهم بعض اللغويين المسلمين[3] المعنى القديم الذي استخدمه قدماء العرب[4] ارتباطًا بالخصب[5] (وقوم لَقاح: **لا يعطون السلطان طاعة**، واللقّاح: ما تلقح به

قال:

ألسنا المكرمين لمن أتانا　　　إذا ما حاردت خور اللقاح

لأن اللبن باللقاح يكون. ويقال: اللقوح الرّبعيّة مالٌ وطعامٌ. « ونهى عن بيع الملاقيح والمضامين » أي الأجنّة والتي هي نطف في الأصلاب جمع: ملقوح. قال مالك بن الرّيب:

إنا وجدنا طرد الهوامل　　　خيرًا من التأنان والمسائل

ومن المجاز: لقحت النّخلة، وهذا وقت لقاح النخل، وألقح فلان نخلة ولقّحها باللقاح وهو ما يلقح به من طلع والشجر ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ [الحجر: 22]: ذات لقاح.

(1) وأساقفة نجران حين التقوا النبي ﷺ في وقتٍ تالٍ من تطور ونجاح الدعوة سألوا (أنسجد لك كما نسجد للملوك أم ندعوك ربًّا).

(2) أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله : **أساس البلاغة**، 1/ 428.

(3) الخليل بن أحمد الفرهيدي، **العين** ـ 1/ 175.

(4) عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين : **المزهر** 1/ 342.

(5) ابن المعتز، **البديع**: 1/ 3 (قال أبو سعيد اللقاح من العرب الذين لا يدينون للملوك) الصاحب بن عباد، **المحيط في اللغة**: 1/ 176 (اللُّقَاحُ: ماءُ الفَحْلِ. واللَقَاحُ: مَصْدَرُ لَقِحَتِ النّاقَةُ لقَاحًا: إذا حَمَلَتْ. وإذا اسْتَبَانَ حَمْلُها قيل: اسْتَبَانَ لَقَاحُها، فهي لاقِحٌ. والمَلْقَحُ: مَصْدَرٌ كاللِّقَاح. وأوْلادُ المَلاقِيْحِ: نُهِيَ عنها في المُبَايَعَةِ، وهي أوْلادُ الشّاءِ في بُطُوْنِ الأُمَّهَاتِ. واللِقْحَةُ: النّاقَةُ الحَلُوْبُ).

النخلة) (وإذا نُتِجَتِ الإبِلِ فبعضُها وَضَعَ وبعضها لم يَضَع فهي عِشارٌ، فإذا وَضَعْنَ كُلُّهُنَّ فَهُنَّ لِقاح، فإذا أُرسِلَ فيهِنَّ الفَحْلُ بعد ذلك فهُنَّ الشَّوْلُ. واللَّقاحُ: ما تُلْقَحُ به النَّخلة من النَّخلة الفُحّالة. ألقَحُوا نَخْلَهم القاحًا ولقَّحوها تَلقيحًا في المبالغة. واستَلْقَحَتِ النخلةُ أَنَى لها أن تُلْقَح. وحيٌّ لَقاحٌ: لم يُملَكوا قطٌّ). كانت حسّاسيّة قريش المفرطة من دعوة النبي ﷺ وفي أحد أوجهها، تنطلق من هذا التمنّع التاريخي، فهي **(لقاح)** لا تدين لأحد. وكانت حادثة شهيرة وقعت على مقربة من **بزوغ فجر الإسلام**[1]، قد ساهمت في توطيد هذه النزعة بصورة مذهلة؛ إذ ظهر مُطالب بالملكية في مجتمع مكة الديمقراطي، لكنه ينتسب إلى فرع منافس لهاشم، ونادى علنًا بتنصيبه والاعتراف به ملكًا على قريش ومكة[2]. كان **عثمان بن الحويرث بن أسد بن عبد العُزّى بن قصي، أحد أبناء عمومة النبي ﷺ وعمّ ورقة بن نوفل المباشر**، ويدعى **(البطريق)**[3] قد أعلن **انتقاله إلى الأرثوذكسية على المذهب الشرقي**، بعد زيارة قام بها إلى الشام، والتقى خلالها ملوك الغساسنة، ثم عاد إلى مكة وقدّم نفسه كمطالب بالمُلك. وتشير جملة من الوقائع إلى أن ملوك الشام، وكلاء بيزنطة، سعوا إلى تنصيبه ووجدوا في انتسابه إلى **شجرة أنساب قصي**، ذريعة لتمرير هذا المطلب. وهؤلاء ساعدوه في الحصول على تفويض من **بيزنطة**، بأن يعلن عن نفسه ملكًا. في هذا الوقت كان النبي ﷺ يشاهد بنفسه صراع قراباته الأسرية حول هذا المطلب. كان البطريق سافر(**إلى قيصر**، فسأله أن يملكه على قريش، وقال ـ للقيصر ـ أحملهم على دينك، يدخلون في طاعتك، ففعل، وكتب له عهدًا وختمهُ بالذهب، فهابت قريش قيصر، وهمّوا أن يدينوا له، ثم قام أبو زمعة الأسود

---

(1) **أسد الغابة**، 1/ 8 (أخبرنا ابن إسحاق قال: حدثني المطلب بن عبد الله بن قيس عن أبيه عن جده قيس بن مخرمة قال: ولدت أنا ورسول الله - ﷺ - عام الفيل كنا لدتين قيل: وكان مولد رسول الله ﷺ يوم الاثنين لعشر ليال خلون من ربيع الأول، ويقال لليلتين خلتا منه، وقيل لثمان خلون منه عام الفيل، وذلك لأربعين سنة مضت من ملك كسرى أنوشروان بن قباذ، وكان ملك أنو شروان سبعًا وأربعين سنة وثمانية أشهر).

(2) البلاذري : **أنساب الأشراف** : 8/ 210.

(3) البلاذري، كذلك.

بن المطلب[1]، فصاح والناس في طواف: إن قريشًا **لقاح، لا تمُلِك ولا تُمَلك، فاتسعت قريش** على كلامه، ومنعوا عثمان مما جاء به، فمات عند **ابن جفنة**[2] فاتهمت **بنو أسد، ابن جفنة** بقتله). وقد رثاه **ورقة بن نوفل** في قصيدة جميلة ونادرة من قصائده:

هل أتى ابنتي عثمان أنَّ أباهما حانت منيتهُ بجنب المرصد)

لقد تفجرّ النزاع بين **البطريق** (عثمان بن الحويرث بن أسد بن **عبد العُزّى بن قصي**) وبين **أبي زمعة الأسود** بن المطلب بن **عبد مناف بن قصي**، بينما كانت قريش تتخذ موقفًا شبه محايد، وإنْ أصبحت تاليًا طرفًا في صراع هو في الأصل، استمرار لصراع قديم داخل شجرة أنساب قصي، بين أولاده ثم أحفاده الذين واصلوا نزاع الأشقاء، عبد مناف وعبد الدار وعبد العُزّى. وربما بدت قريش في سياق هذا التفجرّ، أكثر ترددًا حيال قبول فكرة تنصرّها على مذهب اليعاقبة[3]، كما رغب عثمان البطريق العائد إلى مكة بكتاب تنصيبه من قلب القيصر البيزنطي، وذلك بسبب مخاوفها من أن يؤدي أي انخراط في هذا الصراع الأسري إلى تورطها، وتهديد **تجارة الإيلاف** عبر الشام. يقول **ابن بكار**[4]:

> وكان عثمان بن الحويرث قدم **مكة** بكتاب **قيصر** مختومًا في أسفله بالذهب ـ و ـ **همّت قريش** أن تدين له) و(أن **قيصر حملَ عثمان** على بغلٍ عليها سرج عليه الذهب حين ملكه).

كان عثمان يطمح إلى حسم هذا الصراع الطويل، والانتقال بفرعه

---

(1) في الصفحات السابقة رأينا أبو زمعة الأسود بن عبد المطلب وهو يحبط محاولة البطريق أن يصبح سيّدًا على قريش، وهو الذي صاح بالعبارة الشهيرة (إن قريشًا لقاح، لا تملك ولا تُملَك) وهو الذي وصفه النبي ﷺ برغم أنه من (المستهزئين به) ونزلت بحقه آية قرآنية تندد به بأنه (رجل عزيز).

(2) عمرو بن جفنة الغساني أحد ملوك الغساسنة في الشام 628م.

(3) مذهب يعقوب البرادعي أسقف الشام، انظر كتابنا: **المسيح العربي: النصرانية في الجزيرة العربية، والصراع البيزنطي- الفارسي**، الريس للنشر 2009 ص، ص 34-36-259 -279

(4) ابن بكار، **جمهرة نسب**، ج 17/ 435- 426.

العائلي(فرع عبد العُزّى) إلى حقبة تمكنه من إعادة تأسيس سلطة جدّه قصي، وكان نموذج **الدولة ـ المدينة** الذي بناه قصي، لا يزال فاعلًا ومستمرًا في الجزيرة العربية، وبحيث أن بيزنطة تحينّت الفرص لنسج علاقات خاصة مع قريش، عبر تقديم التسهيلات التجارية لقوافلها، ولذلك سارعت إلى قبول اقتراح وكلائها في الشام، بتنصيب عثمان ملكًا على قريش ومكة. في هذا الوقت، اتضح أن قريش لم تكن تعترض على تنصرّ عثمان أو دعوته لها بأن تقبل المسيحية على المذهب المونوفيزي (اليعقوبي)، لكنها خشيت من فكرة قبول تأسيس الملكية. لقد كان النبي ﷺ قبل مبعثه بسنوات، يراقب هذا الصراع بين أبناء عمومته حول الملكية، وهي فكرة بدت غريبة بالنسبة له ولسائر قريش، لأن نموذج الدويلة الديمقراطية (المدينة ـ الدولة) التي بناها قصي، كان يلبي حاجاتها الإدارية والسياسية، وخصوصًا الحاجة إلى تطوير إدارة البيت الحرام، ولم تكن هذه الدويلة بأي صورة من الصور ذات صلة بالملكية، إذ كانت سلطة قصي أقرب إلى سلطة الوالي منه إلى الحاكم المطلق، بما أن نظام الولاية[1] كان تراثًا عربيًا مستمرًا. يضيف **ابن بكار** أن عثمان **(البطريق)** رغب في:

(أن يملك قريشًا، وكان من أظرف قريش وأعقلها، حتى قدم على قيصر، وقد رأى موضع حاجتهم إليه ومتجرهم إلى بلاده، فذكر له مكة ورغبّه فيها ثم قال: تكون زيادة في ملكك كما **ملك كسرى صنعاء**، فملكه عليهم وكتب إليهم. فلمّا قدم عليهم قال: يا قوم إن قيصر ملكنيّ عليكم، وأنا ابن عمكم وأحدكم، وإنما آخذ الجراب في القِرَاظ والعُكة من السمن والإهاب، فاجمع ذلك ثم ابعثه إليه، فأنا أخاف إن أبيتم أن يمنع عنكم الشام فلا تتجروا به ويقطع مرفقكم منه)[2].

---

(1) وهذا ما يؤكد سيل غير منقطع من الروايات عن ولاية العماليق، ثم ولاية جُرْهُم، ثم ولاية خزاعة، وأخيرًا ولاية قصي التي أظهرت إمكانية تطوير هذا النظام، وبحيث يقترب إلى منطقة هي ما قبل الملكية وفوق الولاية . وهذا نموذج يتلاءم والدولة ـ المدينة.

(2) ابن بكار، **جمهرة**، 17/ 435.

ما أن استمعت قريش إلى خطاب **البطريق** في الكعبة، وسرت شائعات عن **احتمال قيام البيزنطيين بعرقلة التجارة مع الشام**، حتى بادر عدد من الوجهاء إلى **ترتيب مراسم تتويجه** في المساء[1]. وما أن بدأوا في الطواف ـ في المساء نفسه ـ حتى دخل **أبو زمعة الأسود بن عبد المطلب (فصاح على أحفل ما كانت قريش في الطواف: يا آل عباد الله، ملك في تهامة ؟ فانحاشوا انحياش حُمر الوحش ثم قالوا: صدق واللّات والعُزّى ما كان بتهامة ملك قط، فانتقصت قريش عمّا كانت قالت له ولحق بقيصر ليعلمه، ومات مسمومًا)** وبطبيعة الحال، يمكن ردّ جزء هام من ثقافة التنافس إلى تاريخ قديم ومتواصل رسخت فيه تقاليد ديمقراطية حقيقية. وعلى الأرجح ذهب **عثمان بن الحويرث** (الذي سوف يعرف بالبطريق) للقاء ملوك الشام الغساسنة، والطلب منهم تقديمه للقيصر البيزنطي كمطالب بالملكية في مكة عام 618م. والرواية الإخبارية العربية تقول: إنه التقى الملك الغساني **عمرو بن جفنة** (وهو عمرو بن جبلة وجفنه الأصغر جده). وهذا صحيح، ففي هذا الوقت حكم **عمرو الشام من عام 618 ـ 628م**، وكان حريصًا على تقديم البراهين عن إخلاصه للبيزنطيين، وإقناعهم بضرورة التوسع نحو الجزيرة العربية، للحدّ من نفوذ فارس المتعاظم في اليمن، ومنعها من تحويل صنعاء إلى منصّة انطلاق في عمق الجزيرة. وحين عاد البطريق إلى **مكة مسيحيًا أرثوذكسيًّا على المذهب الشرقي** (اليعقوبي) كانت دعوة النبي ﷺ للإسلام قد دخلت **سنتها الثامنة**، وقد رأى بنفسه كيف أن قريش تمنّعت حيال دعوته للمسيحية، بفضل مجابهة **أبي زمعة الأسود** العلنية في فناء الكعبة وأثناء الطواف. ولقد رأى عثمان، أنه كمسيحي أرثوذكسي وصديق للبيزنطيين، يمكن أن يضمن لقريش تجارة آمنة عبر الشام، لكنه كمطالب بالملكية، لم يتمكن قط من تقديم مبررات كافية، تساعده في الحصول على تأييد القبائل. ومع أنه تباهى بمكانته الاجتماعية في قريش، وبأنه **أحق من الجميع** في حمل أول لقب ملكي(البطريق) فقد كان أضعف بكثير ممّا تصوّر حماته في

---

(1) ابن بكار، 7/ 426 (وأخذ بقلوبهم ما ذكر عن متْجرهم فأجمعوا على أن يعقدوا التاج على رأسه عشية).

الشام.إن الجملة الاستفهامية التي تحمل الكثير من الدهشة والذهول: (**ملك في تهامة ؟**) التي هتف بها شيوخ قريش، لا تعبّر عن مدى الشعور بالمفاجأة من هذه الدعوة وحسب، وإنما بأكثر من ذلك، كانت تعبّر عن رفض مطلق لفكرة تحويل الولاية الدينية التاريخية التي أسسّها قصي، إلى ملكية، بدت نظامًا غريبًا على تقاليد مكة القبلية. وعلى هذا النحو، اتخذ الصراع داخل النظام القرابي طابعه الديني ـ الاجتماعي المرّكب والصاخب، ولم يعد مجرد مقاومة من جانب بعض بطون وفروع قريش للإسلام. وإذا ما دققنا في شجرة أنساب المتصارعين داخل هذا النظام، فسوف نجد أن **البطريق وأبي زمعة الأسود،** كانا **عمّين** مباشرين **لورقة بن نوفل** بن أسد بن عبد العُزّى، **وهما يرتبطان بقرابة غير مباشرة مع النبي. ومن المحتمل أن** هذا التطور في علاقات مكة مع بيزنطة حدث ـ على الأرجح واستنادًا إلى مرويات الإخباريين ـ كنتيجة حتمية للصراع **البيزنطي ـ الفارسي** الطويل والدامي، فقد تمكنت بيزنطة من فرض سيطرتها على اليمن بواسطة الاحتلال الحبشي عام 525م، والتخلص من حكم ذي نواس الحميري الملك اليمني اليهودي. ولذلك، جاء صعود دور المسيحية وتطور علاقات بيزنطة مع الحبشة خلال القرنين الرابع والسدس الميلادي مرتبطًا بالتطورات التي حدثت في اليمن خلال السنوات الممتدة من عام 525م حتى عام 579م عام التحرير، حين نجح سيف بن ذي يزن، وبدعم مباشر من الفرس في طرد الأحباش. وحين كانت المسيحية العربية الشرقية وبشكل أخص المذهب المونوفيزي) تنتصر في الحبشة خلال هذين القرنين مع صعود الملك **كالب (غالب)** ثم منليك، **وتشهد العلاقات الحبشية ـ البيزنطية** ازدهارًا ملحوظًا[1] كان الصراع البيزنطي ـ الفارسي يحتدم أكثر فأكثر. وبحسب كتاب السيرة النبوية، ثمة اتفاق شبه تام أن ولادة النبي ﷺ كانت في عام الفيل، وهو عام الحملة الحبشية على مكة، وهي الحملة التي قادها المستعمرون الأحباش انطلاقًا من اليمن، لبسط نفوذ بيزنطة في الجزيرة العربية. وحين

---

(1) **جلال الملوك**، نصوص حبشية قديمة، ترجمة مجدي عبد الرزاق سليمان، القاهرة- المجلس الأعلى للثقافة 2002 ص18.

بلغ النبي التاسعة من عمره ـ وفي بعض الروايات بعد سنتين من مولده ـ[1]، كان حكم الأحباش في اليمن قد سقط، ونجحت ثورة **سيف بن يزن في طرد المحتلين، وفقط بفضّ عاملين متلازمين، دعم فارس العسكري ومساندة القبائل اليمنية للثورة**. وأتت معد يكرب (بن بسيف بن ذي يزن) وفود من العرب وزعماؤها[2] للتهنئة باسترداد ملكه المُغتصب، وفيهم **عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف وأمية بن عبد شمس بن عبد مناف، وخويلد بن أسد بن عبد العزّى بن قصي وأبو زَمْعَة جَدُّ أمية بن أبي الصَّلْت الثقفي، وقيل: أبو الصلت أبوه**[3] **وعبد الله بن جدعان** (فدخلوا إليه وهو في أعلى قصره بمدينة صنعاء المعروف **بغُمْدَان**)[4] وكان مُضَمَّخًا (بالعنبر، وسواد المسك يلوح على مَفْرِقه، بين يديه، وعلى يمينه وشماله الملوك وأبناء الملوك وأبناء المَقَاول. فتكلمت الخطباء، ونطقت الزعماء، وقد تقدّمهم عبد المطلب بن هاشم فقال: إن اللّه جل جلاله قد أحلك ـ أيها الملك ـ مَحَلًا رفيعًا، صعبًا منيعًا، شامخًا، وأنبتك مَنْبتًا طابت أرومته،

---

(1) **مختصر تاريخ دمشق** 7/ 17، (حدث عن هشام بن محمد بن السائب بسنده عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: إن في حديث الأولين عجبًا: حدثني حاضني أبو كبشة عن مشيخة خزاعة أنهم أرادوا دفن سلول بن أبي حبشية، وكان سيدًا معظمًا شريفًا، فأتوا مقبرتهم فحفروا له، فوقعوا على باب مغلق ففتحوه، فإذا فيه سرير وعليه رجل عليه حلل عدة وعند رأسه كتاب فيه: أنا أبو شمر ذو النون، مأوى المساكين، ومستعاذ الغارمين، ورأس مثابة المستصرخين. أخذني الموت غصبًا، وأورثني بقوته أرضًا، وقد أعيا الملوك الجبابرة والأبالجة والقساورة. قال رسول الله ﷺ: وكان ذو النون سيف بن ذي يزن).(روى الفقيه المالكي روى عن أبي يزن الحميري، بسنده إلى أبي زرعة بن سيف بن ذي يزن قال: كتب إلي رسول الله ﷺ كتابًا، هذا نسخته، فذكرها، وفيها: « ومن يكن على يهوديته أو نصرانيته، فإنه لا يغير عنها، وعليه الجزية، على كل حالم ذكر وأنثى، حر أو عبد دينار، أو قيمته من المغافر» لم يزد على هذا. (1/ 138 وذلك بعد مولد رسول الله ﷺ بسنتين أتته وفود العرب وأمراؤها وشعراؤها تهنئه وتذكر ما كان من بلائه وطلبه بثأر قومه، وأتاه وفد قريش، منهم عبد المطلب بن هاشم وأمية بن عبد شمس وعبد الله ابن جدعان وأسد بن عبد العزى ووهب بن عبد مناف وقصي بن عبد الدار).

(2) المسعودي، **مروج الذهب** 1/ 34، 1/ 303، **سمط النجوم** 1/ 161-1/ 88.

(3) الطبري، **تاريخ الملوك** 1/ 107 -1/ 323.

(4) غمدان من قصور اليمن التاريخية الشهيرة.

وعزت جُرْثُومته، وثبت أصله وَبَسَق فرعه، في أَكرم معدن، وأطيب موضع وموطن، فأنت ـ أبيت اللعن ـ رأس العرب ورَبيعها الذي تُخْصِب به، وأنت ذروة العرب الذي له تنقاد، وعمودها الذي عليه العماد، ومَعْقلها الذي تلتجئ إليه العباد، سَلَفُكَ خير سلف، وأنت لنا منهم خير خلف، فلن يخمل ذكر من أنت سلفه، ولن يهلك من أنت خلفه، أيها الملك، نحن أهل حرم الله، وسَدَنَة بيته، أشْخَصَنَا إليك الذي أبهجنا من كشف الكرب الذي فَدَحَنَا، ونحن وفد التهنئة، لا وفد المرزئة)[1]. كانت خطبة عبد المطلب البليغة تعبيرًا دقيقًا عن طموح القبائل العربية، لنسج علاقات جديدة مع اليمن المدعومة من فارس، للحدّ من ضغوط البيزنطيين. ولذلك، سمع عبد المطلب من الملك معد يكرب(بن سيف) ما يسره (فقال له الملك: وأيهم أنت أيها المتكلم. قال: أنا عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، فقال الملك معدي كرب بن سيف: ابْنُ أختنا؟ قال: نعم، قال: أدْنُوه مني)[2].
ثم قام أبو زَمْعَة جدّ أمية بن أبي الصلت الثقفي، فأنشد قصيدته الشهيرة:

اشرب هنيئًا عليك التاج مرتفقًا في رأس غمدان دارٌ فيك محلالا

واشرب هنيئًا فقد شالت نعامتهم وأسبل اليوم في برديك إسبالا

وفي هذه اللحظة التاريخية الحرجة، وحين كانت مكة موضوعًا صراعيًا بين الفرس والبيزنطيين، وبينما كان بعض المشاركين في الصراع مثل **الحويرث** (البطريق) ينسج علاقات سياسية خاصة مع البيزنطيين، ويقترح عليهم فرضه ملكًا على مكة، كان **عبد الله بن جدعان**، وربما تحت تأثير **أمية بن أبي الصلت** (اليهودي المتعاطف مع الفرس) ينسج هو الآخر علاقات سياسية خاصة مع فارس. ويبدو من روايات كثيرة، أن الفرس هم الذين بادروا إلى طلب اللقاء **بعبد الله بن جدعان**، بعد محاولة خصومهم البيزنطيين تنصيب الحويرث البطريق ملكًا نصرانيًا على مكة. وعلى الأرجح، جرت أولى **اتصالات ابن جدعان مع الملك الفارسي العظيم أنو شروان (532 ـ 579م) في أعقاب فشل البيزنطيين بتنصيب البطريق**. لقد كانت شهرة

(1) المسعودي، ومختصر تاريخ دمشق1/ 135

(2) المسعودي، مروج 1/ 363

وكرم وشجاعة وحكمة **ابن جدعان**، تغدو أسطورية في أعين العرب، أكثر فأكثر بفضل مآدبه الشهيرة، وأعطياته التي فاقت كل وصف، وراحت تتخطى حدود الجزيرة (وكان له ذكر في العرب[1]، فسأل **كسرى** يومًا عن **دين العرب**، وأمر البيت وقال: إني لأحب أن ألقى من أهل مكة رجلًا ذا عقل وفهم فأساله عن أمورهم، فذكر له قوم من العرب كانوا بحضرته أمر **عبد الله بن جدعان**، فكتب إلى **صاحب اليمامة** يأمره بالمسير إلى **مكة ليشخص إليه ابن جدعان مكرمًا**، فأشخصه إليه، فلما رآه كسرى أعجبته هيئته وعقله ونبله، وكان قد أهدى إليه عصبًا يمانيًا وأدمًا ـ جلود ـ فقبل هديته وآنسه، فكان يدعو به يسائله وبينهما ترجمان، فإذا قام منصرفًا قال: **ما ظننت أن في العرب مثل هذا في حلمه وثخانته وجودة رأيه.** وكان يؤاكله، ثم إنه وصله، وزوده من ثياب العراق وطرائفه، وقال له وهو يأكل: هل لك في حاجة تذكرها؟ قال: نعم، تهب لي هذا الطباخ الذي يتخذ لك هذه الحيسة، يعني الفالوذج، فوهب له طباخًا، فلما انصرف فقدم مكة، أمر باتخاذ الفالوذج فكان يتخذ ويطعمه أهل مكة).

كانت الصداقة التي ربطت ابن **جدعان وأنو شروان**، تتخذ طابعها الحقيقي كمظهر من مظاهر التنافس على الكعبة بين البيزنطيين والفرس، ولكنه ظل تنافسًا خاملًا مع فشل البيزنطيين وعزوف الفرس عن الدخول في صراع ضد القبائل العربية في وقت، كان فيه الصراع بينهما يبلغ نقطة حرجة خصوصًا مع مرض **أنو شروان** وصعود قوى منافسة له داخل البلاط الفارسي. ومع ذلك، وقعت في هذا العصر حادثة لها دلالة خاصة، لأنها تكشف عن نفوذ **ابن جدعان** بين القبائل، فقد هرب الحارث بن ظالم، أحد أكفأ ضباط النعمان بن المنذر ملك الحيرة واتجه صوب مضارب تميم في الجزيرة العربية طلبًا للحماية. وفي هذا الوقت كانت تميم التي تحتفظ بعلاقات جيدة مع الفرس، ترغب في إظهار مكانتها أمام ملوك الحيرة، ولذا قدّمت له الحماية وأوصلته إلى مكة بسلام (واستجار **بعبد الله بن جدعان، فكره النعمان ومن جمع له أن يأتوا مكة وهي حرم، فكتب النعمان إلى**

(1) البلاذري، أنساب، 3/ 343

كسرى يعلمه بفتك الحارث وأنه يسعى بالفساد في عمله، ويسأله أن يكتب إلى صاحب اليمامة في أشخاصه إليه) به، فلمّا صار صاحب اليمامة قرب مكة، كره أن يطأها بجيش، وانتظر يومًا من أيام أسواقهم بعكاظ ليتسنى له لقاء مشايخ العرب(فلما اجتمعوا فيه لقي **ابن جدعان**، فسأله أن يسلم إليه **الحارث بن ظالم** فقال: إنه فارقني، فأشخص صاحب اليمامة **ابن جدعان إلى كسرى**)[1]. وفي هذا الوقت وقعت حادثة أخرى زادت من تعقيد الوضع، فقد اشتكى تجار من قريش من سوء المعاملة التي يلقونها في اليمن ـ رحلات الإيلاف ـ على يد أحد **عمال أنو شروان**، ويدعى باذام. كانت علاقات فارس باليمن المحرّرة تتسم بقدر من التعقيد. صحيح أنهم لم يعلنوا عن أي حضور علني لهم في الحياة السياسية، وتركوا انطباعًا قويًا عند القبائل أنهم ساهموا بتحرير اليمن، ولن يكونا مستعمرين جدًا لها، لكنهم في الآن ذاته، تركوا حامية عسكرية كانت تتصرف كصاحبة سلطة. ولذا استغل ابن جدعان الحادث وذهب بنفسه إلى فارس مع والي اليمامة المنصبّ من الفرس في عدة من قريش. يقول الواقدي: (كان بنو تيم في حياة **ابن جدعان**، كأهل بيت واحد يقوتهم ابن جدعان، وكان يطعم كل يوم **في داره الدهر كله جزورًا**، فينادي مناديه: من أراد اللحم والشحم فعليه بدار ابن جدعان، ووفد على ملك فارس فقال له: بلغني أنك **أعظم العرب مروءة**، فسلني حوائجك، فسأله طباخًا يعمل الفالوذج، فكان يطعمها قريشًا). لقد تمكن ابن جدعان من تهدئة خواطر الفرس وملوك الحيرة، بعد

---

(1) **أنساب الأشراف** 1/ 39-40 (وحدثني أبو الحسن المدائني، عن الوقاصي، قال سمعت الزهري يقول: كان وجز بن غالب ينكر عبادة الأصنام ويعيبها، ويطعن على أهلها، وكان يكنى أبا كبشة. فشبهوا النبي ﷺ به. وكان مولد رسول الله ﷺ في عام الفيل، يوم الاثنين لعشر ليال خلون من شهر ربيع الأول. ويقال لليلتين خلتا منه. ويقال لاثنتي عشرة ليلة خلت منه، وذلك لأربعين سنة مضت من ملك أنو شروان كسرى بن قباذ بن فيروز بن يزدجرد الخشن بن بهرام بن سابور ذي الأكتاف ملك الفرس. وكان ملك أنو شروان سبعًا وأربعين سنة وثمانية أشهر. وكان على الحيرة يوم ولد رسول الله ﷺ عمرو بن المنذر بن امرئ القيس، وهو عمرو بن هند، وذلك قبل ولاية النعمان بن المنذر المعروف بأبي قابوس).

تدخله في حل قضية الضابط الفار الحارث بن ظالم، وذلك ما ضاعف من هيبته في العرب كلها. لكنه لم يسع قط إلى استخدام هذه العلاقات أو استغلالها، ولا بأي شكل من الأشكال، لصالح تنصيبه ملكًا كما فعل البطريق. وفي هذا الوقت أيضًا كان ابن جدعان ينجح في تأسيس أهم حلف قبلي في مكة. وما انفك النبي ﷺ في أحاديثه مع الجماعة الإسلامية الأولى، يردّد على أسماعهم، كيف أن ابن جدعان كان أحد مؤسسي أعظم أحلاف قريش، وأن ما من حلف في الجاهلية أحبّ للنبي منه[1]. يقول النبي ﷺ **(لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفًا ما أحب أن لي به حمر النعم). وكانت بعض قبائل مكة تحالفت ألا يظلم أحد في المدينة المقدسة، بمكة إلا أقاموا معه حتى ترد له ظلامته. وفي هذا الوقت، كذلك، وصل أمية بن أبي الصلت صديق ونديم ابن جدعان. كان أميّة يهوديًا، وشاعرًا عُرف بالتوحيد. وحين وصل أميّة إلى دار أبي زهير عبد الله بن جدعان بعد تأسيس الحلف، امتدحه بقصيدة شهيرة:**

أأذكر حاجتي أم قد كفاني حياؤك إن شيمتك الحياء

وعلمك بالحقوق وأنت فرع لك الحسب المهذب والسناء

كريم لا يغيره صباح عن الخلق الجميل ولا مساء

يباري الريح مكرمة وجودًا إذا ما الكلب أحجره الشتاء

وأرضك أرض مكرمة بناها بنو تيم وأنت لها سماء

كان عبد الله بن جدعان مولعًا بالخمر، لكنه وربما تحت تأثير صداقته مع **أمية** اليهودي(المتنصّر بعد سلسلة زيارات إلى الشام) ترك شرب الخمر، وظل بعض الرواة يرددون مقاطع من قصيدة له يقول فيها:

شربتُ الخمر حتى قال صحبي ألست عن الشراب بمستفيق

وحتى ما أوسد في منام أبيت به سوى الترب السحيق

ثم حرمها على نفسه، فلم يقربها؛ وكان قد كبّر؛ فأخذت **بنو تميم** على

(1) ابن بكار، نسب قريش 1/ 96.

يده ومنعوه أن يعطي من ماله شيئًا؛ فكان الرجل إذا أتاه، قال له: «ادن مني»، حتى إذا دنا منه لطمه، ثم قال: «**اذهب، فاطلب لطمتك أو ترضى منها**» **فيطالبه الرجل بلطمته، فيرضيه بنو تميم من مال عبد الله بن جدعان**؛ ففي ذلك يقول ابن **قيس الرقيات**، حين فخر بسادات قريش، فذكر هذا، فقال:

والـذي إن أشـار نـحـوك لـطـمًـا تـبـع الـلـطـم نـائـل وعـطـاء

وحتى أيامه الأخيرة ظل ابن جدعان يحتفظ بعلاقات متينة مع الفرس، وكان يرسل الهدايا لهم مع ابنه بالتبني أبو مليكة(المسمى زهير)، وقد روى البلاذري بإسناد جيد عن أبي عبيدة عن أبي عمرو بن العلاء[1] قال: (كان ابن جدعان يوجه أبا مليكة وغيره بالهدايا إلى ملك الحيرة، وإلى كسرى، ويفد إليهم في الأمور، ويكاتبهم) وحدث أن وفده تعرّض للسلب في مضارب بطن من بطون بني تميم، فما كان كنه إلا أن أغار عليهم برجال أشداء من قريش، وفرض عليهم احترام وفوده إلى العراق وفارس. وينقل مؤلف النجوم الزاهرة عن **الفاكهي** في وفاة ابن جدعان هذا، خبرًا غريبًا[2] فقال: (هلك عبد الله ابن جدعان، فبكته الجن والإنس، فأما بكاء الجن: فحدثني إبراهيم بن يوسف المكي قال: حدثنا إسماعيل بن زياد، عن ابن جريج؛ أن عبد الله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: إن النباش بن زرارة أخا حاجب بن زرارة التميمي، وكان حليفًا لقريش، قال: خرجنا تجارًا في الجاهلية، **وعبد الله بن جدعان حي** حين خرجنا، فلما سرنا نحو خمس عشرة ليلة، نزلنا ذات ليلة، واشتهينا أن نصبح بذلك المكان، قال: فنام أصحابي وأصابني أرق شديد، فإذا هاتف يهتف يقول: من الطويل (**وكان مهلك ابن جدعان قبل المبعث ببضع عشرة سنة**)[3].

ألا هـلـك الـبـهـلـول غـيـث بـنـي فـهـر وذو العزّ والمجد التّليد وذو الفخر

---

(1) البلاذري، **أنساب**3/ 345.

(2) سمط النجوم 1/ 97.

(3) البلاذري، **أنساب** 1/ 87، **عيون الأخبار** 1/ 367 (كان لعبد اللّه بن جدعان جفنة يأكل منها القائم والراكب. وذكر غيره أنه وقع فيها صبيّ فغرق).

ولما مروا بنعش ابن جدعان صرخت **ضباعة بنت عامر**[1]، وكانت **عند ابن جدعان**، خلف عليها بعد **أبي هوذة الحنفي**[2] (فلم تلد منه، وكان عقيمًا فسألته الطلاق فطلقها فتزوجها **هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم**، فولدت له سلمة، فقال لها زوجها هشام: ما هذا؟). لقد دهش هشام أن زوجته تبكي طليقها الراحل ابن جدعان؟ (قالت: إنه نعم زوج الغريبة. فقال: **أي والله والقريبة**، ما ألومك أن تبكي **سيد قريش**. قالوا: وكان ابن جدعان عقيمًا فادعى بنوة رجل فسماه زهيرًا، وكناه أبا مليكة). إن مجتمعًا ديمقراطيًا بهذا القدر من التسامح والتفهم والتنظيم هو المجتمع الذي ولدت فيه فكرة الإسلام بوصفها فكرة المجتمع نفسه، وهي خلاصة وعيه لهويته الدينية التوحيدية. وفي هذه الأجواء ولدت فكرة (الدين الجديد) التاريخي، بديلًا عن الدين العائلي (دين عبد المطلب) أو الدين القبلي (دين قريش). ويتبدى موقف **أبي أُحيحة سعيد بن العاص بن أميّة**، كأكثر المواقف التي تكشف عن الطبيعة الهشة للصراعات الجانبية التي اصطدم بها النبي ﷺ في هذه المرحلة من حياته، وهي كما رأينا، لم تكن ناجمة عن رفض قوي ومتماسك من حيث الحجج الدينية، بمقدار ما كانت صادرة عن قلق له طبيعة قبلية، ويتصل بتنافس الفروع والبطون على المكانة الاجتماعية، فقد كان **أبو أحيحة** هذا، حين ظهر النبي ﷺ ينشر في قريش أخبارًا مذهلة، فالنبي ﷺ بالنسبة له رجل **يُكلمّ من السماء** (حتى أتاه **النضر بن الحارث**[3] فقال ـ له ـ:

---

(1) البلاذري، **أنساب**: 3/ 343 هي (ضباعة القشيرية بن قرط بن سلمة بن قشير بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة).

(2) **الروض الآنف**، 3/ 21 هوذة الحنفي ملك اليمامة غير المتوّج والذي أوشك أن يضع التاج على رأسه بعد أن نسج علاقات متينة مع الفرس. (وَكَانَ أَوّلَ مَنْ تَتَوّجَ مِنْهُمْ سَبَأُ بْنُ يَشْجُبَ بْنِ يَعْرُبَ بْنِ قَحْطَانَ وَلَمْ يُتَوّجْ مِنْ الْعَرَبِ إلّا قَحْطَانِيّ كَذَلِكَ قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ فَقِيلَ لَهُ قَدْ تَتَوّجَ هَوْذَةُ بْنُ عَلِيّ الْحَنَفِيّ صَاحِبُ الْيَمَامَةِ، وَقَالَ فِيهِ الْأَعْشَى

مَنْ يَرَى هَوْذَةَ يَسْجُدْ غَيْرَ مُتّئِبِ إذَا تَعَمّمَ فَوْقَ التّاجِ أَوْ وَضَعَا

وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ لَمْ يَكُنْ تَاجًا، وَإِنّمَا كَانَتْ خَرَزَاتٌ تُنَظّمُ وَكَانَ سَبَبُ تَتَوّجِ هَوْذَةَ أَنّهُ أَجَارَ لَطِيمَةً لِكَسْرَى مَنَعَهَا مِمّنْ أَرَادَهَا مِنْ الْعَرَبِ، فَلَمّا وَفَدَ عَلَيْهِ تَوّجَهُ لِذَلِكَ وَمَلّكَهُ).

(3) قتله علي بن أبي طالب .

بلغني أنك تحسن القول في **محمّد**، فكيف ذاك وهو يسبُّ الآلهة **ويزعم أن آباءنا في النار**، ويتوعد منْ لا يتبعه بالعذاب ؟)[1]. ومن غير شك، فقد كان الوعيد القرآني بأن **أبي لهب** سوف **يُصلى نارًا ذات لهب**، والهجاء القرآني اللاذع **للوليد بن المغيرة** الذي توعده النصّ القرآني **بنار سقر**، والمزاعم التي انتشرت للتو في مجتمع مكة، بأن النبي ﷺ **يقول إن عبد المطلب في (النار)** ساهمت جميعًا في تصعيد هذا العداء، واحتلت هذه الفكرة، سوية مع **تحريم الزنا والخمر**، حيز الأولية في السجال ضد الإسلام. لقد شرح **عمرو بن العاص**[2] لأحد المعترضين من الشبان على قبوله مبادئ الإسلام، بدقة لا مثيل لها وببلاغة لا ينقصها الصدق، الأسباب الحقيقية لصدود قريش ومقاومتها، ودخولها في عداء مع النبي ﷺ، وذلك عندما سئل **(ما أبطأ بك عن الإسلام، وأنت أنت في عقلك؟)** قال: **(أنحن أهدى أم فارس والروم ؟** قال: بل نحن. قلت فما يمنعنا فضلنا عليهم في الهدى إنْ لم تكن إلا هذه الدنيا، وهم فيها أكثر منا أمرًا)؟ وقد (وقع في نفسي، أن ما يقول محمّد حق من البعث بعد الموت، ليجزى المُحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته. يا ابن أخي، هو الذي وقع في نفسي ولا خير في التمادي في الباطل). كانت مثل هذه الأفكار الجديدة والثورية، تملك قوة تأثير هائلة، لا في تحديد مجرى ومستويات التوتر فالصراع، وإنما كذلك في دفع المجتمع نفسه إلى التأمل بمكانة العرب بين الأمم. لكن النبي ﷺ وفي هذا الوقت أيضًا، وجد نفسه لا في مواجهة أبي زمعة **الأسود بن عبد المطلب بن عبد مناف بن قصي**، وهذا بدوره كان يدخل في صراع عنيف ضد **البطريق، ويخرج منتصرًا**، **بعد أن نجح في حشد بطون قريش كلها على مقاومة دعوته، وإنما كذلك بمواجهة منافسين**

---

(1) ابن الجوزي: **المنتظم** ج3/ 150. قد يكون عثمان بن الحويرث - على الأرجح- لقبّ نفسه بهذا اللقب (البطريق) أو أن الأمبراطور جستنيان منحه هذا اللقب (بتريسيوس) سنة 529م كما منحه لملك الشام الحارث بن جبلة مكافأة له على إخلاصه.

(2) الزبيري: **نسب قريش** ج11/ 410 قال ابن العاص: (إنا كنا مع قوم لهم علينا تقدّم وسنٌ، توازي حُلومهم الجبال، ما سلكوا فجّا فتبعناهم إلا وجدناه سهلًا، فلمّا أنكروا على النبي ﷺ أنكرنا معهم، ولم نفكر في أمرنا، وقاتلناهم. فلمّا ذهبوا وصار الأمر إلينا انتظرنا في أمر النبي ﷺ فإذا الأمر بين، فوقع في قلبي الإسلام).

وطامعين مثل أبي الحكم (الذي أسماه النبي أبي جهل). ولعل الرواية التي ينقلها ابن كثير، تفسر على أكمل وجه، الجوهر الحقيقي لصراع القرابات. يقول[1]: إن النبي ﷺ التقى **أبا الحكم** فقال له: (يا أبا الحكم، هلمَّ إلى الله وإلى رسوله، أدعوك إلى الله). فقال أبو الحكم: يا محمد، هل أنت مُنتهٍ عن سبّ آلهتنا ؟ هل تريد إلا أن نشهد أنك قد بلغّت ؟ **فنحن نشهد أن قد بلغّت، فو الله لو أنى أعلم أن ما تقول حق لاتبعتك). لكن ما أن انصرف النبي ﷺ عنه حتى ذهب أبو الحكم إلى علي بن أبي طالب فقال له** (والله إني لا علم أن ما يقول حق، ولكن [يمنعني] شيء، إن بني **قصي** قالوا: فينا الحجابة. فقلنا: نعم.ثم قالوا فينا السقاية فقلنا: نعم. ثم قالوا فينا الندوة. فقلنا: نعم. ثم قالوا: فينا اللواء. فقلنا: نعم. ثم أطعموا وأطعمنا، حتى إذا تحاكت الركب قالوا: منا نبيّ. والله لا أفعل). وقال **البيهقي**: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، قال أخبرنا أبو العباس محمد بن يعقوب الأصم، حدثنا محمد بن خالد، حدثنا أحمد بن خلف، حدثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق. قال (مرّ النبي - ﷺ - على **أبي جهل وأبي سفيان**، وهما جالسان، **فقال أبو جهل: هذا نبيكم يا بني عبد شمس.** قال أبو سفيان: وتعجب أن يكون منا نبيّ .**فالنبي يكون فيمن أقل منا وأذل**[2]. فقال أبو جهل: **أعجب أن يخرج غلام من بين شيوخ نبيًّا** ؟ ورسول الله ﷺ يسمع، فأتاهما فقال: «**أما أنت يا أبا سفيان، فما لله ورسوله غضبت ولكنك حميت للأصل).** وعند الذهبي رواية أخرى[3] يزعم فيها المغيرة بن شعبة أنه كان مع أبي جهل عندما صادفا رسول الله في الطريق: قال يونس بن بكير، عن هشام بن سعيد، عن زيد بن أسلم، عن **المغيرة بن شعبة** قال: إنّ أول يوم عرفت رسول ﷺ **أنّي أمشي أنا وأبو**

---

(1) ابن كثير، **السيرة النبوية** 1/ 507.

(2) ابن كثير، **السيرة**، كذلك. يتحفظ ابن كثير على رواية البيهقي التي يستكمل بها مرويات سابقة عليه، ويرى أن هذا الحديث (مرسل من هذا الوجه، وفيه غرابة. وقول أبي جهل، لعنه الله، كما قال الله تعالى مخبرًا عنه وعن أضرابه ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾ ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [سورة الفرقان 41، 42].

(3) الذهبي : **تاريخ الإسلام**1/ 29.

جهل، إذ لقينا رسول الله ﷺ فقال لأبي جهل: يا أبا الحكم هلّم إلى الله وإلى رسوله، أدعوك إلى الله، فقال أبو جهل: (**يا محمد هل أنت منته عن سبّ آلهتنا، هل تريد إلّا أن نشهد أن قد بلّغت، فو الله لو أنّي أعلم أن ما تقول حق ما اتّبعتك**، فانصرف رسول الله ﷺ وأقبل عليّ ـ أبي جهل ـ فقال: **والله إنّ لأعلم أنّ ما يقول حق، ولكن بنو قصيّ قالوا: فينا الحجابة، فقلنا: نعم، فقالوا: فينا النّدوة، قلنا، نعم، ثم قالوا: فينا اللّواء، فقلنا: نعم، وقالوا: فينا السّقاية، فقلنا: نعم، ثم أطعموا وأطعمنا حتى إذا تحاكت الركب قالوا: منّا نبيّ، والله لا أفعل**). في هذا الوقت، كما رأينا **كان أميّة بن أبي الصلت يجدع أنف ناقته** ويعود أدراجه إلى الطائف في قطيعة نهائية مع الإسلام. كانت لأميّة علاقة خاصة بعبد الله بن جدعان (الذي قطع يد أحد سراق غزال الكعبة). وفي هذا الوقت كانت علاقة النبي ﷺ مع ورقة بن نوفل، الطيبة والمتينة، تكسبه قوة في وجه منْ كانوا يواجهونه بالصدود[1]. مع أن ورقة النصراني الذي عُرف بزهده ورقة قلبه ومعرفته العميقة، ظل متمسكًا بدين عيسى ابن مريم، ولم يتقبّل المذاهب الكبرى، الشرقية والغربية؛ فإن هذه العلاقة لم تتعرض للاهتزاز، وربما على العكس، بدت عاملًا مساعدًا في حماية الدين الجديد، لأن الدعوة الوليدة في هذا الوقت كانت ستواجه خطرًا حقيقيًا يصعب صدّه دون قرابات روحية وقبلية. لقد دار هذا الصراع في أحد أوجهه الكثيرة حول امتياز النبّوة. ولعل المروية الخاصة بصراع **أبي الحكم**(أبو الجهل) **مع بني عبد المطلب** حول ما أسماه (**ظهور نبيّة**) **هي عاتكة بنت عبد المطلب**، عمة النبيّ، يؤكد أن جوهر الصراع داخل النظام القرابي كان يتركز في هذا الجانب من احتكار امتياز النبوّة، بعد احتكار كل أشكال السلطة الدينية (السقاية والجباية والرفادة ودار الندوة). يروي الأصفهاني الرواية التالية[2]. رأت **عاتكة بنت عبد المطلب**، عمّة النبي ﷺ حلمًا مفزعًا، ولشدّة

---

(1) ابن بكار: جمهرة، ج/17: 410 (حدثنا الزبير وحدثني عبد الله بن معاذ الصنعاني عن معمّر عن الزّهري عن عروة بن الزبير قال: سئل رسول الله ﷺ عن ورقة بن نوفل كما بلغنا، فقال: قد رأيته في المنام عليه ثياب بيض، فقد أظنُ أن لو كان من أهل النار لم أر عليه البياض).

(2) الأصفهاني، **الأغاني**، 1 / 402.

خوفها من أن يكون الحلم نوعًا من رؤيا، فقد رغبت في قصّ حكايته على شقيقها العباس، وطلبت منه أن يكتمه، لكن العباس أخلّ بالشرط حين اضطرّ إلى رواية الحلم لزوجته، وهذه قامت بروايته لجاراتها. وخلال أيام كانت قريش كلها تتحدث عن رؤيا عاتكة. وكان أكثر الساخطين على عاتكة ورؤياها، **أبو الحكم** (أبو جهل) وهو زعيم مخزومي منافس للقرشيين، وبشكل أخصّ لبني عبد المطلب. حلمت عاتكة، أن ناقة هائجة، أو بعيرًا هائجًا اعتلى ظهر الكعبة، ثم صعد على جبل أبي قبيس، وأخيرًا سقطت صخرة من أعلى الجبل ودمرت مكة كلها. والعباس، شقيقها الذي أفزعه الحلم، روى بنفسه كيف كان ردّ فعل أبي جهل حين بلغه نبأ رؤيا عاتكة:

> فلمّا فرغت أقبلت إليه حتى جلست. فقال لي **أبو جهل: يا بني عبد المطّلب، متى حدثت فيكم هذه النّبيّة؟ قلت**: **وما ذاك؟ قال: الرؤيا التي رأت عاتكة. قلت: وما رأت؟ قال: يا بني عبد المطّلب، أما رضيتم أن تتنبّأ رجالكم حتى تتنبّأ نساؤكم! قد زعمت عاتكة في رؤياها أنّها قالت: انفروا في ثلاثٍ؛ فسنتربّص بكم هذه الثلاث؛ فإن يكن ما قالت حقًّا فسيكون، وإنْ تمض الثلاث ولم يكن من ذلك شيء، نكتب كتابًا عليكم أنّكم أكذب أهل بيتٍ في العرب.**

كانت رؤيا عاتكة، كما رواها الأصفهاني بإسناد عن عكرمة عن عروة بن الزّبير، تشير إلى حادث هلعي سوف يقع في مكة. وكانت صورة راكب البعير، أو الناقة التي سوف تعتلي ظهر الكعبة، ثم تمضي صوب جبل أبي قبيس، كافية لإثارة الفزع. قال: (وقد رأت عاتكة بنت عبد المطّلب رؤيا أفزعتها، فبعثت إلى أخيها العبّاس بن عبد المطلب، فقالت: يا أخي، والله لقد رأيت الليلة رؤيا أفظعتني، وتخوّفت أن يدخل على قومك «منها» شرٌّ أو مصيبة، فاكتم عني ما أحدّثك. قال لها: وما رأيت؟ قالت: رأيت **راكبًا أقبل على بعيرٍ** له حتى وقف بالأبطح، ثم صرخ بأعلى صوته: إن انفروا يا آل غدر لمصارعكم في ثلاث؛ وأرى الناس قد اجتمعوا إليه، ثم دخل المسجد والناس يتبعونه؛ فبينما هم حوله مثل به **بعيره على ظهر الكعبة، ثم صرخ**

بأعلى صوته: انفروا يا آل غدر لمصارعكم في ثلاث، ثم مثل به بعيره على رأس أبي قبيس فصرخ بمثلها، ثم أخذ صخرةً فأرسلها فأقبلت تهوي، حتّى إذا كانت بأسفل الجبل ارفضّت، فما بقي بيتٌ من بيوت مكة ولا دارٌ من دورها إلّا دخلتها منها فلقة). في هذا الوقت كان النبي ﷺ يغير مع جماعة صغيرة من المسلمين على قافلة من قوافل قريش ويستولي عليها. وفي هذه اللحظة ظهر ـ كما تنبأت عاتكة ـ رجل **على بعير، وهو يصرخ، وقد جدع أنف ناقته وشق قميصه.** يروي العباس ردّة فعل أبي جهل على النحو التالي (قال العبّاس: فو الله ما كان إليه منّي كبيرٌ إلا أن جحدت ذلك وأنكرت أن تكون رأت شيئًا. قال: ثم تفرّقنا. فلمّا أمسينا لم تبق امرأةٌ من بني عبد المطّلب إلّا أتتني فقالت: أقررتم لهذا الفاسق الخبيث أن يقع في رجالكم، ويتناول النساء وأنت تسمع، ولم يكن عنك غيرٌ لشيءٍ مما سمعت؟ قلت: قد والله فعلت، ما كان منّي إليه من كبيرٍ، وأيم الله لأتعرضن له؛ فإن عاد لأكفينّكنّه. قال: فغدوت في اليوم الثالث من رؤيا عاتكة وأنا حديدٌ مغضبٌ قال: فدخلت المسجد فرأيته، فو الله إنّي لأمشي نحوه إذ خرج نحو باب ـ و- قلت في نفسي: ما له لعنه الله! أكلّ هذا فرقًا أن أشاتمه؛ فإذا هو قد سمع ما لم أسمع، صوت ضمضم بن عمرو الغفاريّ وهو يصرخ ببطن الوادي **واقفًا على بعيره قد جدّع ـ أنف ـ بعيره وحوّل رحله وشقّ قميصه وهو يقول : «يا معشر قريش اللّطيمة اللطيمة!»** أموالكم مع أبي سفيان بن حرب قد عرض لها محمد في أصحابه، لا أرى أن تدركوها. الغوث، الغوث).

إذا ما قمنا بمعالجة رؤيا **عاتكة بوصفها أسطورة لا مجرد حلم؛ فإن الترابط الدلالي بين الرجل وبعيره الهائج الذي يرتقي ظهر الكعبة،** ثم يصعد جبل أبي قبيس(المقدس عند قريش والعرب) وبعدها تتداعى بيوت مكة كلها، وبين ظهور رجل من قريش يدعى ضمضم الغفاري وهو يصرخ هائجًا مثل البعير(ويقوم بجدع أنفه) فإن هذه الأسطورة في هذه الحالة تغدو حلمًا، وتدور في نطاق العدوان على المقدس. ويمكن في مستوى موازٍ رؤيتها على أنها حلم، تمتّ روايته كأسطورة، **لأن البعير الهائج ظهر في المكان المقدس.** ولذا سيقوم الرجل راكب البعير **بجدع أنف بعيره،** تعبيرًا عن الفزع من العدوان على المكان المقدس، ذلك أن اللطيمة، وهي التعبير الفريد الذي

يستخدمه العرب للإشارة فقط إلى قافلة البخور والطيب، وليس أي بضاعة أخرى، هي من أعزّ ممتلكات البيت الحرام، لأنها قافلة تنقل للكعبة البخور والطيب من اليمن. وسائر هذه الروايات صحيحة تاريخيًا، وهي تكشف بدقة وعمق، أن جوهر الموقف العدائي الذي اتخذته **قريش وبطون قصي**، كان يتصل بالصراع على الكعبة، فقد وجدت قريش، وبعض بطون قصي، أن اعترافها بنبي من فرع هاشم، سوف يحرمها إلى الأبد من حق كسر **احتكار الرفادة والسقاية والحجابة واللواء ودار الندوة**، وهي الركائز الخمس الكبرى التي قامت عليها السلطة الدينية، وإن هذا الاحتكار بالتتابع من جانب بني عبد مناف وعبد الدار، وإنْ كان مقبولًا على مضض في عهود سابقة؛ فإنه لن يعود مقبولًا باستمرار. ولعل عبارة أبي الحكم ـ أبي جهل ـ أنه (يشهد بأن النبي قد بلغّ) رسالته، ولكنه لن يقبل به نبيًّا، إلا لأن هذا الاعتراف يعني اعترافًا بحق احتكار جديد، تصبح فيه النبوّة من بني عبد المطلب دون سائر البطون. وفي قلب هذا التنافس المحموم والمتشابك والمتواصل دون انقطاع تقريبًا بين أبناء العم وأبناء الخال، ترعرعت عداوة **أبي لهب** للنبي ﷺ بوصفها استطرادًا في صراع، اتخذ منذ وقت طويل أبعادًا دينية واجتماعية، تجاوزت وعبرت حدود مكة، **المدينة ـ الدولة**، ولم تكن مجرد عداوة شخصية عابرة، أدّت أو تسببت بها واقعة «**إلقاء حطب** »، خيالية ابتدعها خيال مفسرين متأخرين. وليس دون معنى، أن سائر الإخباريين القدامى، ربطوا باستمرار بين موقف **أمية بن أبي الصلت** من الإسلام، وبين سماعه مصادفة في طريق عودته من الشام، متجهًا إلى للقاء النبي ﷺ ربما لإعلان اعتناقه الدين الذي انتظره، وبين سماعه، مصادفة أيضًا، أن ابني خالته صُرعًا في معركة بدر، وذلك ما دفع إلى النحيب وإلى أن يقوم **بجدع أنف ناقته**، ثم يتجه إلى منزل شقيقته في الطائف ليموت كمدًا. إن أمية الذي استرّد في لحظة الفجيعة تقاليد اليهودية العربية القديمة، لم يجد معادلًا موضوعيًّا، قابلًا لتجسيد الشعور بالخطيئة، وممارسته رمزيًا إلا **بجدع أنف ناقته**، ربما بديلًا عن **جدع أنفه** .لقد كانت لحظة قبوله الإسلام، هي ذاتها لحظة انتهاك قراباته الأسرية المباشرة، ولذا تبدت له مكافئًا رمزيًا للزنا (للخطيئة).

الفصل الثالث

طقوس جدع الأنف

تروي أسطورة **حفر زمزم**، القصة الكاملة لولادة أفكار التوحيد الكبرى التي بزغت في مجتمع مكة، وهي إلى جانب ذلك، تروي على نحوٍ كافٍ من التفاصيل، تاريخ الصراع داخل نظام القرابات حول هذه الأفكار. وإذا كنا رأينا أن آية ﴿تَبَّتْ يَدَآ﴾ التي نزلت بحق **أبي لهب**، تتصل بحادث تاريخي له صلة بسرقة **غزال الكعبة الذهبي**، فمن المؤكد أن هذا الحادث يرتبط بأسطورة حفر زمزم، وهذه بدورها ترتبط بقصة صعود أسرة **عبد المطلب** وتوطد مكانة (دينه) في مجتمع، كان لا يزال يمتلك ديناميكيات التعايش بين أفكار التوحيد والوثنية. وما تتوجب رؤيته في هذا الإطار، جانبان متوازيان، أحدهما السطح الأسطوري للمرويات الخاصّة بعلاقة **حفر البئر المقدّسة بالعثور على الغزال الذهبي، وثانيهما السطح التاريخي، وبخاصّة** علاقات القبائل العربية مع **الفرس والبيزنطيين** في هذا العصر. إن السؤال المركزي الذي يتوجب طرحه ـ في الجانب الأول ـ هو التالي: لماذا تلازمت صورة **الغزال الذهبي** كمعبود من **معبودات العرب**، مع طقوس الحفاظ على **غزارة ماء زمزم**؟ ولماذا استمرت طقوس دفن المقتنيات الثمينة من السيوف والمنحوتات الذهبية في البئر؟

تقول أسطورة **حفر زمزم**، كما رواها الإخباريون، أنها ارتبطت بحلم استثنائي[1]، رآه **عبد المطلب** أثناء نومه في فناء **الكعبة**، وأنه قرر أن يعيد

---

(1) الفاكهي، **أخبار مكة** : 1/ 1014 : قال الأعشى أعشى بن قيس بن ثعلبة في زمزم:

ولا أنت من أهل الحجون ولا الصفا   ولا لك حق الشرب من ماء زمزم

حفرها. وحسب رواية **المسعودي**، فقد بدأ **عبد المطلب حفر زمزم في عصر الملك الفارسي قباذ بن فيروز**[1]. ولأن **زمزم** ترتبط بأسطورة وصول **إسماعيل** أبي كل العرب **إلى مكة**، وهي بئره المقدّسة التي حفرها **جبريل**[2]، يوم رآه طفلًا وحيدًا مع أمه هاجر يوشك على الموت عطشًا، فقد تلازمت أسطورة إعادة حفرها، مع وقوع معجزة ولادة أبناء عبد المطلب العشرة، بعدما كان رجلًا (فذًا) أي أبًا لطفل واحد فقط (هو الحارث ابنه البكر). كما ارتبطت هذه المعجزة، بقصة فداء الابن الأصغر الحادي عشر **عبد الله**، والد الرسول ـ ﷺ ـ، وهذه ارتبطت بدورها بقصة صعود أسرته وقيادتها لتجارة **الإيلاف** التي أسسّها **قصي** ثم قادها من بعده هاشم. إن المكانة الخاصّة والاستثنائية **لزمزم** في معتقدات العرب في الجاهلية والإسلام وحتى اليوم، يمكنها أن تفسرّ بعض جوانب التلازم بين هذه سائر المرويات. إن التأمل في ما كتبه ورواه العرب، ثم المسلمون عن ماء زمزم المقدّس، قد يساهم في رؤية هذا البُعد في العلاقة بين تطور الأفكار التوحيدية، وتصاعد الصراعات داخل النظام القرابي، ذلك أن قريش التي اعترضت بشدّة، وقاومت قرار **عبد المطلب إعادة حفر زمزم**، لأنها (**بئر أبينا إسماعيل**) أدركت، بفطرتها الدينية، أن المسألة سوف تتخطى قضية الحصول على مصدر مائي جديد، لتأمين سقاية الحجيج، وهؤلاء كانوا يتوافدون في الموسم على مكان شحيح الماء وشبه مجدب؛ وأنها في الجوهر تتصل بتعزيز هيبة ومكانة عبد المطلب الدينية والاجتماعية والسياسية.

من المنظور الرمزي، تبدو **بئر زمزم**، مثل أسطورة كبرى مطمورة، يصعب أو يستحيل الوصول إلى أعماقها، دون أن نعيد حفرها، وأنهما معًا، البئر والأسطورة، تختزنان كنوزًا تركها القدماء قبل أن تضطرّهم الظروف إلى الخروج من مكة. وكما أن البئر تحتوي في أعماقها على الماء العذب، المقدّس، وعلى غزالين من ذهب، وسيوفًا نادرة صنعتها شعوب أخرى؛ فإن

(1) المسعودي، **مروج** : 1/ 198-199.

(2) حسب المرويات الأسطورية الإسلامية فقد ضرب حافر حصان جبريل الأرض فتفجر الماء لهاجر أم إسماعيل.

الأسطورة نفسها تتضمن سلسلة لا تنقطع من الأساطير والمرويات العذبة عن تاريخ منسيّ، وعلى كنوز ثمينة تركتها شعوب وجماعات قديمة أخرى. ولذلك؛ فكلما واصلنا الحفر داخل الأسطورة، كلما صار بوسعنا أن نحصل لا على الماء العذب، وإنما كذلك على مدفوناتها وكنوزها الذهبية، وقد نجد أنفسنا، ويا للمصادفة، داخل التاريخ نفسه، المتشابك والمُتراكب من الصراعات والتنافسات المحمومة داخل النظام القرابي. إن التأمل في الكلمات التالية التي سجلها **النويري** في (**نهاية الأرب**)[1] نقلًا عن رواية **وهب بن منبه** الإخباري اليهودي الذي اعتنق الإسلام، قد تعطي فكرة عن مغزى هذه القدسّية. يقول وهب:

> والذي نفسي بيده، إنها **لفي كتاب الله مضنونة**، وإنها لفي كتاب الله **برة**، وإنها لفي كتاب الله **شراب الأبرار**، وإنها لفي كتاب الله **طعام طعم وشفاء سقم**).

ولكي يدّلل **وهب** على أن لماء زمزم، قدرة خارقة لا على إرواء عطش الحجيج، وإنما شفاء كل مريض كذلك، فهو يستعين بكتاب الله، فهي فيه (**برّة**) أي شافية من السقم. قال ابن خثيم[2]: (قدم علينا وهب بن منبه مكة **فاشتكى**، فجئناه نعوده، فإذا عنده من **ماء زمزم**: فقلنا له. لو استعذبت، فإن هذا الماء فيه غلظ ؟ قال:

---

(1) النويري: **نهاية** 1: 294 (وعن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: التضلع من ماء زمزم براءة من النفاق. وعن الضحاك بن مزاحم أنه قال: بلغني أن التضلع من ماء زمزم براءة من النفاق، وأن ماءها يذهب بالصداع، وأن التطلع فيها يجلو البصر، وأنه سيأتي عليها زمان تكون أعذب من النيل والفرات. قال : قال لنا الخزاعي: وقد رأينا ذلك في سنة إحدى أو اثنتين وثمانين ومائتين (للهجرة) وذلك أنه أصاب مكة أمطار كثيرة، وسال واديها في سنة تسع وسبعين وسنة ثمانين ومائتين، فكثر ماء زمزم، وارتفع حتى قارب رأسها، فلم يكن بينه وبين شفتها العليا إلا سبع أذرع أو نحوها، وعذبت حتى كان ماؤها أعذب مياه مكة التي يشربها أهلها، وإنّا رأيناها أعذب من مياه العيون. وعن الضحاك بن مزاحم أيضًا أن الله يرفع المياه العِذاب قبل يوم القيامة غير زمزم، وتغور المياه العذبة غير زمزم).

(2) النويري، كذلك.

ما أريد أن أشرب حتى أخرج منها غيره، والذي نفس وهب بيده، إنها لفي **كتاب الله زمزم**، لا تنزف ولا تذم، وإنها لفي كتاب الله برة شراب الأبرار، وإنها لفي كتاب الله مضنونة، وإنها لفي كتاب الله طعام من طعم **وشفاء من سقم**، والذي نفس وهب بيده لا يعمد أحد إليها فيشرب منها حتى يتضلع، إلا **نزعت منه داء** أو **أحدثت له شفاء**).

يُفهم من هذا النصّ وسواه، ممّا لا حصر له، وهو نصٌ مُعاد إنتاجه في معظم كتب الفقه والتفاسير والمرويات الإخبارية، إنَّ **حفر زمزم** اكتسب بُعده الاستثنائي كعمل مقدّس، لا من مكانتها في ذاكرة العرب بوصفها بئر الجدّ الأعلى إسماعيل، ولا من وظيفتها في تأمين حاجة جماعات تعيش في مكان شحيح المياه ؛ بل من قدرتها المذهلة على الشفاء من السقم. والمثير للدهشة، أن هذا الماء المقدس حسب وصف زوار وهب الذين جاؤوا لرؤيته في مرضه، ماء غليظ، وهو لشدّة ملوحته، كان يعالج بنبذ الزبيب فيه[1]. وسوف نلاحظ العلاقة بين هذا الخليط من الماء العذب والماء المالح الذي تتشكل منه صورة زمزم، وبين قصة خلق الإنسان من طين ممزوج بماء معذب وماء مالح. أما **كعب الأحبار**[2] فقد قال عن **زمزم شيئًا مماثلًا**:

إنّا نجدها مضنونة، ضنَّ بها لكم، وإن أول من سُقي ماءها **إسماعيل** عليه السلام، طعام من طعم، وشفاء من سقم). وعن مجاهد قال: (ماء زمزم إنْ شربته تريد به شفاءً، شفاك الله، وإنْ شربته للظمأ، أرواك الله، وإنْ شربته لجوع، أشبعك الله، وهي هزمة جبريل عليه السلام بعقبه).

كل ما قيل آنفًا من إطراء **لزمزم**، وبخاصة تمجيدها بوصفها رمز **المياه المقدسة**، يصدر عن **حبرين يهوديين** اعتنقا **الإسلام**، لكنه في المقابل، يمثل ويجسّد تصورات مشتركة عند المسلمين وعند عرب الجاهلية سواء بسواء. وهو

(1) الحبر اليهودي الذي أسلم وكان كبار الإخباريين.

(2) **سفر التثنية** 2/ 16 (النص العربي).

إلى جانب ذلك، يعبّر عن فكرة أعم تتصل اتصالًا عضويًا بفكرة **المياه المقدّسة** في المعتقدات القديمة السابقة على التوحيد، بأكثر ما يتصل بمسألة وجود جماعات بدوية عطشى، تنظر إلى الماء باعتباره مقدسًا. بكلام موازٍ، ليست هذه القداسة الاستثنائية التي تُضفى على **ماء زمزم**، نتاج حاجة بدو تائهين في الصحراء، أو حلم حجيج يتدفق إلى البيت الحرام، يفتشون عن الماء ويتشوّقون له؛ بل هي نتاج رؤية فلسفية ـ دينية بدئية لعلاقة الإنسان بالماء المقدّس، فالإنسان نفسه ـ في هذه المعتقدات ـ نتاج ماء، هو خليط من العذوبة والملوحة. ولعل أسطورة خلق الإنسان الأول كما روتها الأساطير السومرية ـ البابلية، تشير إلى هذا الجانب بقوة ووضوح، فقد خلقت الآلهة الإنسان من خلط ومزج نوعين من الماء، أحدهما عذب والآخر أجاج. إن أسطورة **الإله نونو** عند الأكديين، وهو الإله الذي صورته معتقدات العراقيين القدامى في صورة **إنسان ـ سمكة (ويرسم اسمه في صورة أو ـ أنس)**، تتحدث عن كائن أول يخرج من البحر، أي من الماء المالح، ليوصل الرسالة إلى اليابسة حيث الماء العذب، وهي واحدة من سلسلة أساطير سعت إلى تفسير قدسية الماء. لكن، ماذا تعني هذه القداسة التي يلحّ عليها كل من **وهب بن منبه وكعب الأحبار** وسائر المسلمين حتى اليوم ؟ يكشف هذا برأينا، عمّا هو مسكوت عنه في روايات من هذا النوع، ذلك أن **زمزم** كانت مقدّسة في الديانات الوثنية السابقة على **اليهودية**، كما أنها ظلت مقدسة في **الإسلام**، وهي اليوم تزداد قداسة ويجري تعظيم مكانتها بصورة مطرّدة مع كل موسم حج. وما يدلل على أن **لزمزم**، مكانة دينية قديمة ومتوارثة سابقة على **الإسلام**، وأنها البئر ذاتها التي حفرها **إسماعيل**، فقد يكون أمرًا ملائمًا رؤية هذا البعد في الكتب المقدسة وفي الموروث الثقافي القديم. لقد **ورد ذكر زمزم في التوراة**[1] **(سفر لتثنية)** باسم النسبة لجماعة تدعى **الزمزميون**[2]. **وهذا أمر**

(1) النص العبري **תורה נביאים כתוב ים כערבית ונגלית** 18، 19، 20 سفر التثنية **(דברים)**
THE SOCIETY FOR DISTRUTING HEBREW
SCRIPTURES 1Rectory Lane. Edward. Middles H A87LF ENGLAND U.

(2) العيدروس، **النور السافر عن أخبار القرن العاشر** 1/ 154 (كمفتي الحجاز شيخ الإسلام عبد العزيز الزمزمي)

لم يكشف عنه قط، وأنا أقدّمه لسائر القرّاء بوصفه اكتشافًا الغرض منه تعزيز القدرة على فهم أعمق لهذا الجانب من الأسطورة (وهنا النصّ العربي لتسهيل عودة القراء):

(وأَنْتَ مَارٌّ الْيَوْمَ بِتُخْمِ مُوآبَ، بِعَارَ. 19 فَمَتَى قَرُبْتَ إِلَى تُجَاهِ **بَنِي عَمُّونَ**، لَا تُعَادِهِمْ وَلَا تَهْجِمُوا عَلَيْهِمْ، **لأَنِّي لَا أُعْطِيكَ مِنْ أَرْضِ بَنِي عَمُّونَ** مِيرَاثًا، **لأَنِّي لِبَنِي لُوطٍ قَدْ أَعْطَيْتُهَا مِيرَاثًا**. 20 هِيَ أَيْضًا تُحْسَبُ أَرْضَ رَفَائِيِّينَ. سَكَنَ الرَّفَائِيُّونَ فِيهَا قَبْلًا، لكِنَّ الْعَمُّونِيِّينَ **يَدْعُونَهُمْ زَمْزُمِيِّينَ**).

وهنا النصّ العبري:

18 אתה עבד היום את – גבול מואב את-ער 19 מקרב מול עמונ אל-תצום ואל –תתגד בם כי לא אתנ מארצ בני-עמונ לך ירשה כי לבני-לוט נתתיה יושה 20 ארצ- רפאים תחשב אף – חוה רפאים ישבו-כה לפנים והעמנים יקראו להם זמזמים

والترجمة الدقيقة تقول:

(وأنت اليوم تمضي صوب مرتفعات مآب ثم **العرّ**[1]. فتقترب وتتجه إلى عمون، فلا تجابههم ولا تصطدم بهم، لأنني لا أعطي لك، من أرض بني ـ عمون. وما أعطيت لبني لوط فهم يرثونها. أما أرض رفائيم فهي أمامهم وتحسب للرفئيم يقيمون فيها أيضًا، والعمونيون يدعونهم **زمزميين**).

هؤلاء **الزمزميون** الذين عرفوا، ذات يوم بعيد في التاريخ، باسم **بئرهم المقدّسة**، **هم عبّاد زمزم**، وهم كانوا في المكان نفسه، وعرفتهم شعوب كثيرة بهذا الاسم مثل **العمونيين**، مثلهم مثل **أصحاب البئر المعطلة** التي ورد ذكرها

(1) العر من جبال اليمن

في القرآن. وفي حدود هذه النقطة وعلى تخومها، يتعيّن التوقف عند الفكرة التالية: **إن عبد المطلب لم يدخل في نزاع مرير مع أقربائه المباشرين، حول حفر بئر (بئر أبينا إسماعيل)**، إلا لأن إعادة حفرها يعني من بين ما يعنيه، إعادة بعث وإحياء **البئر المعطلة** .لقد دار سجال متواصل وعميق بين الفقهاء المسلمين حـول مـضـمـون آيـة﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ في سورة الحج[1]. ارتأى **الطبري**[2] **استنادًا إلى تأويل ابن عبد الأعلى وابن ثور ومعمر وقتادة إن (وبئرٍ معطلة)** بمعنى تركها أهلها عطلًا. أما **ابن كثير**[3] فقد ارتأى (وبئر مُعطلة) **أي (لا يُستقى منها ولا يردها أحد بعد لكثرة وارديها والازدحام عليها). وقد حدد القرطبي**[4] هؤلاء الذين تركوا البئر مهجورة بأنهم **(بقايا ثمود). أما البغوي،** فقد ارتأى أنها مخلاة من أهلها (وقيل إن البئر المعطلة والقصر المشيد **باليمن.** أما القصر المشيد فعلى قلة جبل والبئر في سفحه، ولكل واحد منهما قوم كانوا في نعمة فكفروا، **فأهلكهم الله وبقي ـ بقيت ـ البئر** والقصر المشيد). **بينما قال البيضاوي**[5]: **(أنها تُركت لا يُستقى منها لهلاك أهلها). لكن النيسابوري**[6] أن المعنى ينصرف إلى (وكم بئر عطلناها عن سقائها مع أنها عامرة فيها الماء ومعها الآت الاستقاء).

وفي هذه البئر المقدّسة التي أحياها **عبد المطلب، بالضد من إرادة قريش، وجد الغزالين الذهبيين**[7]. **إن** رؤية الصراع الذي خاضه **عبد**

---

(1) سورة الحج: الآية 45.

(2) الطبري، تفسير 18/ 653 (حُدثت عن الحسين قال سمعت أبا معاذ يقول، أخبرنا عبيد قال: سمعت الضحاك يقول في قوله: (وبئر معطلة) قال: لا أهل لها).

(3) ابن كثير: ج5/ 438 (وقصر مشيد) قال عكرمة : يعني المبيّض بالجص. وقال آخرون هو المنيف المرتفع.

(4) القرطبي : ج13/ 33 و(روى أبو روق عن الضحاك: إن هذه البئر كانت بحضرموت في بلدة يقال لها حاضوراء).

(5) البيضاوي : ج4/ 371.

(6) النيسابوري: ج5/ 409.

(7) ابن هشام، **السيرة** : ج1 / 146.

المطلب، وابنه البكر الحارث، وفقط من منظور تحطيم **عقيدة البئر المعطلة** التي كانت سائدة، وإحلال عقيدة بديلة، قد يكشف عن مستوى غير مرئي من **تطور أفكار التوحيد في الجزيرة العربية،** ارتباطًا بإحياء **عقيدة التعبد لإله السماء الواحد المطلق (لله)** لا لإله الماء القديم الذي انتسبت إليه الجماعة. وهذا هو برأينا جوهر ولبّ الصراع حول حفر **زمزم** .وذلك ما يفسر لنا حيرة واضطراب روايات الإخباريين المسلمين الذين يقولون تارة، أن **جُرْهُم** هي التي دفنت **الغزالين** قبل رحيلها عن مكة بعد أن طردتها خزاعة، وتارة يقال إن **خزاعة** هي صاحبة **الغزالين،** وفي مرات غير قليلة، يُنسب الغزلان لملوك **التبت أو فارس أو الحبشة،** فهم لم يتوصلوا إلى ربط ديناميكي للعلاقة الدلالية والطقوسية، بين **الغزال الذهبي والبئر المقدّسة،** يساعد في فهم هذه الأسطورة، كما يساعد في فهم آية ﴿تَبَّتْ يَدَآ﴾. لقد كان **هؤلاء الزمزميون** الذي عرفتهم قبائل وجماعات وشعوب أخرى، باسم النسبة إلى بئرهم المقدسة، **المعطلة** التي طمرتها **جُرهم أو خزاعة** أو اندثرت بعد **إسماعيل،** وزوال دين إبراهيم التوحيدي وبزوغ عصر الوثنية، يقدّسون بئرًا قديمة مثلهم **مثل الثموديين،** أصحاب **البئر المعطلة.** وهؤلاء كما نعلم من أسطورة **ناقة صالح،** انقرضوا بعد أن ذبحوا الناقة التي كانت تستقي من **بئر معطلة** دون أن يصدها أحد. بيد أن تعطيل الآبار وممارسة طقوس إهداء الحلي والمنحوتات والأصنام الذهبية لها، وتركها دون أن يشرب منها أحد سوى البحيرة والسائبة من الإبل، كما هو الحال مع ناقة صالح، يتصل بتقاليد رائعة، **فالبئر في فلسفة العرب القدماء، كائن مثلها مثل الحيوان أو الإنسان، تترك فلا يقترب منها أحد،** بعد وقت ما من استخدامها، وتصبح مقدّسة (محرّمة) لا يقترب منها أحد، وتمامًا كما ابتكر العرب نظام السائبة والبحيرة والوصيلة والحامي، وهو نظام ثقافي متكامل، تجري فيه طقوس **جدع الأنف** أو الأذن، ويقوم على قاعدة تقول، إن الناقة، مثلًا، إذا ولدت عشرة بطون متتابعة، تركت سائبة، لا يركبها أحد ولا ينتفه بلبنها، ولا يؤكل لحمها، وهذا تكريم ما بعده تكريم لحيوان القبيلة (التي تجسدت فيها الإلهة الأم). والبئر المعطلة، هي في سياق هذا النظام، البئر التي شربت منها القبيلة لوقت طويل، وقد حان الوقت لتعطيلها(تحريمها) وتركها دون أن يقترب منها أحد، فلا يشرب ماؤها، وتصبح مع الوقت مزارًا من مزارات القبيلة ترمى

فيه الهدايا (القرابين). إن خوف قريش من إعادة حفر زمزم، يقع في نطاق هذا التحريم المتواصل، والخوف الغريزي من وقوع العدوان على المقدس، كما حدث مع قتل ناقة صالح، ذلك أن إعادة حفر البئر المعطلة، يتبدى كعدوان على المقدس، فهي بئر معطلة حرّم الاقتراب منها لشرب مائها؛ واقتصر الاقتراب فقط على تقديم الهدايا والنذور لإله الماء الذي بفضل عاشت القبيلة ونجت من العطش لوقت طويل. وكل هذا يعني، أن طمر زمزم لم يكن مجرد عملٍ طائش قام به الجُرْهُميون أو الخزاعيون قبل خروجهم؛ بل كان طقسًا دينيًا يقوم على تحريم (تقديس) الماء القديم، ومنع الاقتراب منه، لأنه ماء مقدس أوقفته الجماعة المتعبّدة لحيواناتها لا يجوز للبشر أن يقتربوا منه. وفي سياق هذه القداسة والطقوس والشعائر المصاحبة لها، عرفت الكعبة طقس تقديم الهدايا لزمزم، حيث يضع الملوك سيوفهم، أو يقدّمون لها القرابين، ورمزيًا الأصنام والتماثيل الذهبية. إن المرويات التاريخية الشائعة في كتب الإخباريين العرب والمسلمين، عن عثور عبد المطلب على كنز جُرهم المدفون في زمزم، تشير إلى هذا الجانب من الطقوس الدينية التي عرفتها عبادة إله الماء، وأن الأمر لا يتعلق بدفن الكنوز أثناء الخروج من مكة خوفًا من القبائل؛ بل يتصل بهذا الطقس التعبدي. سوف نروي ـ هنا ـ باقتضاب شديد، قصة إعادة حفر بئر زمزم كما روتها كتب الإخباريين: عندما حفر **عبد المطلب جد النبي** ﷺ زمزم، جاءته **قريش** فقالت: ما هذا الصنيع ؟ إنا لم نكن نزنك بالجهل، فلم تحفر في **مسجدنا** ؟ **فقال عبد المطلب**: إني لحافر هذا البير[1] ـ البئر ـ ومجاهدٌ من صدَّني عنها، فطفق هو وابنه الحارث وليس له ولد يومئذ غيره، فسفه عليهما يومئذ ناس من قريش (**فنازعوهما وقاتلوهما**، وتناهى عنه ناس من قريش لما يعلمون من **عتق نسبه وصدقه واجتهاده في دينهم** يومئذ، حتى إذا أمكن الحفر واشتد عليه الأذى، نذر إنْ وفى له عشرة من الولد أن ينحر أحدهم)[2]. ثم حفر حتى أدرك **سيوفًا دفنت في زمزم حين دفنت. فلما رأت**

---

(1) بير : لهجة حجازية.

(2) ابن هشام، **السيرة** 1/ 111 وما بعدها، **الروض الآنف**، 1/ 259، 260، 261.

قريش أنه قد أدرك السيوف قالوا: يا عبد المطلب أجزنا مما وجدت، فقال عبد المطلب: هذه السيوف لبيت الله الحرام (فحفر حتى أنبط الماء في القرار، ثم بحرها حتى لا ينزف، ثم بنا عليها حوضًا)[1] فطفق هو وابنه ينزعان فيملآن ذلك الحوض فيشرب به الحاج، **فيكسره ناس من حسدة قريش بالليل،** فيصلحه عبد المطلب حين يُصبح. فلما (أكثروا فساده، دعا **عبد المطلب** ربه فأري في المنام، فقيل له: قل: **اللهم إني لا أحلها لمغتسل،** ولكن هي **للشارب حلّ وبل ثم كفيتهم)**[2]. فقام عبد المطلب حين اختلفت قريش في المسجد ـ الكعبة ـ، فنادى بالذي أُري، ثم انصرف فلم يكن **يفسد حوضه ذلك عليه أحد من قريش** إلا رمي في **جسده بداء،** حتى تركوا حوضه وسقايته. في هذا المنحى التاريخي ـ الأسطوري المتشابك من مروية حفر البئر، يمكن الاستنتاج أن عبد المطلب حفر في جوف الكعبة حيث توجد زمزم، وليس في أي مكان آخر كما تزعم روايات أخرى[3]، وهذا أمر هام للغاية في سياق إعادة بناء المروية واستكشاف إشاراتها الرمزية، وأن محاولات قريش انصبّت على ردم الحفر كلمّا انتهى منه، لكنه تمكنّ من إتمام العمل حين رأى حلمًا، وقرر بعده أن يحل ماء البئر للشارب ويحرّم الاغتسال منه. لقد عادت البئر المعطلة إلى الحياة وقذفت كنوزها الثمينة. وسوف يصاحب هذا التحوّل في حياة الجماعة البشرية، تحول موازٍ ومثير في شخصية عبد المطلب، فقد كان له ولد واحد هو الحارث حين باشر الحفر، ثم ما أن فرغ منه حتى ولد له عشرة من الأبناء ولم يعد فذًا(ثم تزوج عبد المطلب النساء، فولد له عشرة رهط فقال: **اللهم إني كنت نذرت لك نحر أحدهم، واني أقرع بينهم، فأصب بذلك من شئت، فأقرع بينهم، فطارت القرعة على عبد الله بن عبد المطلب، وكان أحب ولده إليه،** فقال عبد المطلب: اللهم **أهو أحب إليك أم مائة من الإبل؟** ثم اقرع بينه وبين المائة من الإبل، فكانت القرعة على المائة من

---

(1) ابن كثير، **السيرة** : 1/ 169، 170.

(2) ابن إسحاق، **السيرة** : 1/ 18، ابن الجوزي، **المنتظم** 1/ 200، ابن الأثير، **الكامل**، 1/ 242، 243، 244.

(3) الطبري : **تاريخ الملوك**، 1/ 98، 1/ 368.

الإبل فنحرها)[1]. تقول رواية **المسعودي**[2]: حدثني محمد بن يحيى عن محمد بن إسحاق قال:

> حدثني غير واحد من أهل العلم، أن **عبد المطلب أُري في منامه أن يحفر زمزم في موضعها الذي هي فيه، فحفرها بين أساف ونائلة، الوثنين اللذين كانا بمكة،** فلما استقام حفرها وشرب أهل مكة والحاج منها، **عفت على الآبار التي كانت** بمكة قبلها، لمكانها من البيت والمسجد وفضلها على ما سواها من المياه، ولأنها بير- بئر- **إسماعيل بن إبراهيم في الموضع الذي ضرب فيه جبريل برجله، فهزمه** ونبع الماء منه، قال **ابن إسحاق**: وكان سبب حفرها أن **عبد المطلب بن هاشم، بينا هو نائم في الحجر فأمر بحفر زمزم في منامه، وهو دفين بين صنمي قريش أساف ونائلة** عند منحر قريش.

أما الراوي الأهم للأسطورة **ابن إسحاق**[3]، فيقول: وحدثني يزيد بن أبي حبيب عن مرثد بن عبد الله عن عبد الله بن يزيد اليافعي، أنه سمع **علي بن أبي طالب** رضي الله عنه يحدث **حديث زمزم حين أمر عبد المطلب بحفرها.** قال:

> **قال عبد المطلب**: إني لنائم في الحجر، **إذ أتاني آتٍ** فقال: **احفر طيبة.** قلت: وما طيبة ؟ قال: ثم ذهب عني فرجعت إلى

---

(1) **البيهقي، لباب الأنساب والألقاب والأعقاب 1/ 10، مختصر تاريخ دمشق1/** 140، 141، الطبري : 1/ 372.

(2) ابن فضل الله العمري: **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**1/ 27 المسعودي، **مروج** 1/ 220 ابن الضياء : **تاريخ مكة المشرفة والمسجد الحرام** 1/ 21 (وكان ماء زمزم قد نضب وذهب لما أحدثت جرهم في الحرم ما أحدثت حتى عفا مكان البئر ودرس، فقام مضاض ابن عمرو وبعض ولده في ليلة مظلمة فحفر في موضع زمزم وأعمق ثم دفن فيها الأسياف والغزالين).

(3) ابن إسحاق، **السيرة**، 1/ 19، ابن هشام، **السيرة** 1/ 111 ابن كثير : **السيرة** 1/ 171 ابن حبيب، **المنمق** 1/ 97، اليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، 1/ 98، ابن مطهر المقدسي: **البدء والتاريخ** 1/ 220

مضجعي فنمت فيه، فجاءني فقال: **احفر برة؟ فقلت: وما برة** ؟ ثم ذهب عني، فلما كان من الغد رجعت إلى مضجعي فنمت فيه فجاءني، فقال: **احفر زمزم، فقلت وما زمزم** قال: **لا تنزف أبدًا ولا تذم، تسقي الحجيج الأعظم عند قرية النمل**. قال: فلما أبان له شأنها ودلّ على موضعها وعرف أنه قد صدق، غدا بمعوله ومعه ابنه **الحارث** ليس له يومئذ ولد غيره، فحفر فلما بدا لعبد المطلب الطيّ، كبَّر فعرفت قريش أنه قد أدرك حاجته، فقاموا إليه فقالوا: يا عبد المطلب إنها بير- بئر- إسماعيل، وأن لنا فيها حقًا فأشركنا معك فيها، فقال: ما أنا بفاعل، إن هذا الأمر خُصّصت به دونكم وأعطيته من بينكم. قالوا: فأنصفنا فإنا غير تاركيك حتى نحاكمك فيها قال: فاجعلوا بيني وبينكم من شئتم أحاكمكم إليه، قالوا: **كاهنة بني سعد بن هزيم** قال: نعم. وكانت بأشراف الشام، فركب **عبد المطلب ومعه نفر من بني عبد مناف، وركب من كل قبيلة من قريش** نفر. قال: والأرض إذ ذاك مفاوز فخرجوا، حتى إذا كانوا ببعض المفاوز، بين **الحجاز والشام** فني ـ أي نفد ـ ماء **عبد المطلب** وأصحابه، **فظمئوا حتى أيقنوا بالتهلكة** واستسقوا ممن معهم من قبائل قريش، فأبوا عليهم وقالوا: إنا في مفازة نخشى فيها على أنفسنا مثل ما أصابكم، فلما رأى عبد المطلب ما صنع القوم، وما يتخوف على نفسه وأصحابه قال: ماذا ترون؟ قالوا: ما رأينا إلا تبع لرأيك، فأمرنا بما شئت قال: فإني أرى أن **يحفر كل رجل منكم** لنفسه بما بكم الآن من القوة، **فكلما مات رجل دفعه أصحابه في حفرته ثم واروه**، حتى يكون آخركم رجلًا واحدًا، فضيعة رجل واحد أيسر من ضيعة ركب جميعًا، قالوا: سمعنا ما أردت، فقام كل رجل منهم يحفر حفرته ثم قعدوا ينتظرون **الموت عطشًا**.

في سياق الحلم، سوف تتولد عن أسطورة حفر زمزم، أسطورة أخرى موازية عن حفر آبار جديدة في الصحراء، ولكن من دون أن يعثر عبد المطلب

هذه المرة على الكنز. إنه الكنز الذي لا يمكن إعادة اكتشافه أو الحصول عليه مرة أخرى، لأنه كنز البئر المعطلة وليس أي بئر. لقد واجهت الجماعة التي قصدت الكاهنة بين الحجاز والشام، بحثًا عن حل لتقاسم غنائم البئر، محنة غالبًا ما يتوقعها المرتحلون في الصحراء، فقد نفد الماء عندهم، وكان عليهم أن يقوموا بعمل أسطوري، أن يواصلوا الحفر حتى الموت، رجلًا إثر رجل في صحراء موحشة حتى ينبط الماء، و إذا مات رجل منهم، قاموا بدفنه في الحفرة ذاتها، وهذا سلوك طقسيّ يشير إلى أن الجماعة كانت تقدم نذورًا بشرية لإله الماء في الصحراء، وأنها كانت على غرار أصحاب البئر المعطلة، يرمون هداياهم البشرية داخل البئر بأمل أن يتفجر الماء. لذلك، وإذا ما قمنا بشبك هذين المستويين من السرد، فسوف نلاحظ أن حفر البئر الأسطورية زمزم، تطلب قيام الجماعة نفسها بعمل شبيه في سياق إحياء الآبار المعطلة، وهذه دلالة لا تماريها العين، على أنها كانت مستعدّة لأن تتقبل فكرة الفداء، أن تفتدي إله الماء بنفسها. ولنلاحظ هنا أيضًا، أن عبد المطلب قدم ابنه عبد الله نذرًا للآلهة، بعدما فرغ من حفر البئر، وهو جاء بنفسه إليها حيث يوجد **هبل**[1]، ليقدم ابنه فداء. وهذا هو المغزى الحقيقي للترابط بين حفر زمزم وتقديم عبد الله أضحية من جهة، وبين حفر الآبار في الصحراء ودفن الرجال فيها. إنه العمل الرمزي نفسه وقد تكرر في صورتين متماثلتين.إن فكرة تقبل الجماعة البشرية للموت واحدًا بعد آخر، حتى يحصلوا على الماء، تبدو تطويرًا للعقيدة التي جاء بها عبد المطلب: عقيدة تقديم أضحيات بشرية لإله الماء، وهي عقيدة قديمة، فرض الحدث إعادة بعثها من جديد. وليس دون معنى، أن قريش خاطبت عبد المطلب، حين نذر أن يذبح ابنه بعد حفر زمزم، بالقول، **إنه يسنّ سنة سوف تفني قريش والعرب**[2]؟ ويمكن الاستدلال

---

(1) فقال عبد المطلب:

لاهـمَّ أنـت الـمـلـك الـمـحـمـود ربـي وأنـت الـمـبـدأ الـمـعـيـد

فـخـرّج لـنـا الـغـداة مـا نـريـد مـن عـنـدك الـطـارف والـتـلـيـد

لاهمّ، برأينا هي الأصل في صيغة اللهّم. وهذا اللفظ يعود إلى لهجة عربية قديمة من لهجات العرب تعرف بالعبرية. واللفظ يرسم في صورة אלהים ءيلوهيم.

(2) المسعودي: **مروج الذهب** 1/ 220.

إلى العناصر المكوّنة والأصلية في ما يعرف (بدين عبد المطلب) في هذه الحقبة، بأنها تدور في نطاق بعث طقس قديم يتصل بالنذور المقدسة لإله الماء (البئر) وأن قريش أحبطت مسعاه هذا، حين فرضت عليه أن يفتدي ابنه بمائة من الإبل. وبذلك، تنسج أسطورة حفر زمزم، من تلقاء نفسها، وبفعل ديناميكيات خطابها الدلالي، أسطورة حفر بئر أخرى، وأن يتواصل هذا العمل الشاق دون توقف، ثم «**قعدوا ينتظرون الموت عطشًا**». وبذلك يضفي سارد الأسطورة قدسية جديدة، تجعل منها، وكما وصفها وهب، بئرًا **لا تنزف، أي لا ينضب ماؤها**، ولا تُذم. إنها تولّد الماء في مكان آخر، وحيث يواجه الجماعة البشرية المرتحلة خطر الموت عطشًا. لكن **عبد المطلب** وهو يقترح على قبيلته حلًا وحيدًا، أن يحفروا بئرًا في الصحراء، لكي يواجهوا خطر الموت من العطش، أدرك جسامة المهمة، ولذا قال لأصحابه «**والله لا نبتغي لأنفسنا حيلة، فعسى أن يرزقنا ماء ببعض البلاد**».[1] لقد كان على الجماعة المهاجرة، الباحثة عن كاهنة لعرض أمر زمزم عليها، أن تواصل الرحيل والبحث عن ماء قريب. بيد أن حادثًا استثنائيًا ومفاجئًا سرعان ما وقع ليغيّر مسار الواقعة كليًا،إذ بينما كان الرجال ومن معهم من قريش ينظرون في ما هم فاعلون، **تقدّم عبد المطلب إلى راحلته فركبها، فلما انبعثت به انفجرت من تحت خفها عين ماء عذب**، فكبّر **عبد المطلب** وكبّر أصحابه[2]. وهذه الواقعة المثيولوجية (الأسطورية) تُعيد إنتاج واقعة أسطورية موغلة في القدم، هي أسطورة **قيام جبرائيل الملاك بحفر زمزم**، حين ارتطم حافر حصانه بأرض صلبة فانفجر الماء، لتشرب منه **هاجر وابنها إسماعيل**. لقد عاد **الحفيد عبد المطلب إلى الصحراء**، ليقوم بما قام به **جده الأعلى إسماعيل**. بيد أنه وهو يفتش عن الكاهنة بحثًا عن حلّ للنزاع مع قريش، يقوم بعمل رمزي يُعيد من خلاله إنتاج أسطورة حفر جبرائيل الملاك للبئر. وهكذا، نزل عبد المطلب فشرب وشربوا واستقوا حتى وملأوا أسقيتهم، ثم دعا رجال القبائل فقال:

---

(1) ابن إسحاق، المصدر نفسه.

(2) من المؤكد أن هذه الأسطورة كتبت في عصر الإسلام، مع نشوء تقاليد التكبير الدينية الجديدة، إذ يفترض أن لعبد المطلب في هذا الوقت ولد واحد هو الحارث، وأن عبد الله والد النبي ﷺ لم يكن قد ولد بعد.

هلموا إلى الماء فقد سقانا الله فاشربوا واستقوا، فشربوا واستقوا، فقال رجال قريش ممن نازعوه في أمر زمزم (قد قضى الله لك علينا يا عبد المطلب، والله لا نخاصمك في زمزم أبدًا، هو الذي سقاك زمزم فارجع إلى سقايتك راشدًا). وهكذا عادوا أدراجهم من دون أن يصلوا إلى الكاهنة (وخلوا بينه وبين زمزم)[1]. وهكذا أيضًا، يكون عبد المطلب قد أنقذ الجماعة من الموت عطشًا مرتين، مرة حين أعاد حفر بئر **جده المعطلة** ومرة أخرى حين **حفرت راحلته عين ماء عذب.** يتصل حفر زمزم كعمل رمزي، بتطور **شخصية عبد المطلب** الدينية، وانتقاله إلى التبشير بدعوة جديدة. وهذا ما يعبرّ عنه السرد المتواتر عن حلمه وهو في فناء الكعبة. يقول **ابن إسحاق**[2]: (وسمعت أيضًا من يحدث في أمر زمزم: عن **علي بن أبي طالب** رضي الله عنه أنه قيل لعبد المطلب حين أُمر بحفر زمزم، **ادع بالماء الرواء غير المكدر،** فخرج عبد المطلب، حين قيل له ذلك إلى قريش، فقال: **أتعلمون إني قد أمرت أن أحفر** زمزم قالوا: فهل **بيَّن لك أين هي** ؟ قال: لا، قالوا: فارجع إلى مضجعك الذي رأيت فيه ما رأيت، إنْ يكن حقًا **من الله بيَّن لك،** وانْ يكن من **الشيطان لم يرجع إليك.** فرجع عبد المطلب إلى مضجعه فنام فأري فقيل: احفر زمزم، إنْ حفرتها لمُ تذم، وهي **تراث أبيك الأعظم.** فلما قيل له ذلك، قال: وأين هي؟ قيل له: عند **قرية النمل حيث ينقر الغراب)**[3]. ويفهم من هذا النصّ أن **عبد المطلب،** وسائر **قريش** لا يعرفون ما المقصود بزمزم، ولذلك سألوه أن يعود إلى منامه، وأن يسأل ربّه أين تقع هذا البئر.إن هذا المنحى من السرد التاريخي في كتب السيرة النبوية يعيد وضع زمزم كليًا داخل الإطار الأسطوري لا التاريخي، ونحن لا يمكن - من المنظور التاريخي ـ أن نتقبل فكرة أنه وقريش لا يعرفون موضعها وهي في جوف الكعبة ؟ بينما يمكن لنا تقبل ذلك من المنظور الأسطوري، بما أنها رواية تتعلق بهذا الجانب

(1) المسعودي، **مروج الذهب**، 1/ 220، ابن مطهر المقدسي: **البدء والتاريخ**: 223، الإمام محمد بن عبد الوهاب، **مختصر سيرة الرسول**، الطبعة الأولى، الناشر وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد - المملكة العربية السعودية 1418هـ، 1/ 81.

(2) ابن هشام 1/ 146.

(3) المصدر نفسه.

المسكوت عنه في (**دين عبد المطلب**) فهو دين جديد يقوم على إبطال عقيدة (**البئر المعطلة**) السائدة، ومنع تقديم القرابين لها، وهذا هو بالضبط المغزى الحقيقي لمروية افتداء عبد الله بمائة من الإبل. تضيف رواية ابن **إسحاق**[1]:

> فغدا عبد المطلب ومعه ابنه الحارث، وليس له يومئذ ولد غيره، **فوجد قرية النمل** ووجد **الغراب ينقر عندها بين الوثنين أساف ونائلة**، فجاء بالمعول وقام ليحفر حيث أُمر، فقامت إليه قريش، حين رأوا أنه عازم على إتمام عمله، فقالت قريش والله لا ندعك تحفر بين **وثنينا** هذين اللذين ننحر عندهما، فقال عبد المطلب للحارث، دعني أحفر والله لأمضين لما أمرت به. فلما عرفوا أنه غير نازع، خلوا بينه وبين الحفر وكفوا عنه فلم يحفر إلا يسيرًا حتى بدا له **الطيّ طيّ البير- البئر**- فكبّر وعرف أنه قد صدق، فلما تمادى به الحفر وجد فيها **غزالين من ذهب وهما الغزالان اللذان دفنتهما جرهم حين خرجت من مكة**، ووجد فيه أسيافًا قلعية ودروعًا وسلاحًا.

إذا ما تقبلنا هذه المروية لأغراض التحليل، فمن المؤكد أن زمزم ليست ولم تكن داخل الكعبة، وأنها موجودة في مكانٍ ناءٍ وغامض هو «**قرية النمل**» حيث ينقر **الغراب بين الوثنين أساف ونائلة**. لمن ما علاقة هذين الوثنين بالماء، وهل كانا هناك يحرسان (**البئر المعطلة**)؟ **لقد نقل ساردو المروية، ابتداء من ابن إسحاق**، سياقها السردي التاريخي الذي قامت عليه إلى سياق أسطوري شامل، وبحيث بات من المتعذر قبولها كمروية تاريخية، لأننا ـ في حال تقبلنا ذلك ـ سيتعيّن علينا أن نتقبل فكرة وجود زمزم في مكان أسطوري يستحيل التعرّف عليه من دون حلم جديد، يتجلى فيه الرّب، ليحدد للقبيلة مكان بئرها المقدّسة. ولذلك، طلبت قريش من عبد المطلب أن يعود ثانية إلى مضجعه في الحجر(حجر الكعبة) وينتظر البشارة. إن مروية اقتسام كنز زمزم بين **عبد المطلب وقريش وهبل**، يمكنها

---

(1) كذلك.

أن ترسم تصورًا محددًا للعلاقة بين البئر وإله الماء القديم هبل، أكبر آلهة قريش وحارس بئرها المقدسة، إذ (قالت له قريش: إن لنا معك في هذا شركًا وحقًا قال: لا، ولكن هلم إلى أمرٍ نَصفٍ بيني وبينكم، نضربُ عليها بالقداح، قالوا: وكيف نصنع؟ قال: **اجعل للكعبة قدحين، ولي قدحين، ولكم قدحين**، قالوا: أنصفت، **فجعل قدحين أصفرين للكعبة، وقدحين أسودين لعبد المطلب، وقدحين أبيضين لقريش**. ثم قال: أعطوها من يضرب بها عند **هُبل**)[1].

> فضرب بالقداح فخرج الأصفران على **الغزالين للكعبة**، وخرج **الأسودان على الأسياف والدروع لعبد المطلب**، **وتخلف قدحا قريش**، فضرب **عبد المطلب الأسياف على باب الكعبة، وضرب فوقه أحد الغزالين من الذهب**، فكان ذلك أول **ذهب حليت به الكعبة. وجعل الغزال الآخر في بطن الكعبة في الجبِّ** الذي كان فيها، يجعل فيه ما يُهدى إلى الكعبة، وكان **هُبل صنم قريش في بطن الكعبة على الجبّ**، فلم يزل **الغزال هناك حتى أخذه النفر الذي كان من أمرهم ما كان. فظهرت زمزم**[2].

هناك مجموعة أخطاء ومغالطات في رواية ابن إسحاق التي بنى عليها كثير من الإخباريين رواياتهم، أولاها، أن عبد المطلب بدأ الحفر في مكان يدعى **قرية النمل** حيث ينقر **الغراب**، وهو مكان يوصف بأنه الموضع الذي نصبت فيه العرب تمثال **أساف ونائلة**، بينما نعلم من سائر الروايات الأسطورية الأخرى، أنه **حفر زمزم في جوف الكعبة حيث يوجد هبل، ومن حوله القداح**، وذلك ما يدلل عليه قول قريش، إنها سوف تمنعه من أن يحفر في المسجد (أي داخل الكعبة)، وتأكيدها أن هذه البئر بئر أبينا **إسماعيل**[3]. وحول هذه البئر نصبت قريش **أساف ونائلة**. وثانيها، أن ابن إسحاق ينفرد

(1) كذلك.

(2) المسعودي، مروج، 1/ 104، 319.

(3) المسعودي، 1/ 188.

برواية وضع الغزال الثاني في جوف الكعبة، وأنه الغزال الذي سُرق، بينما نعلم من مرويات سرقة الغزال أن أبي لهب ورهطه تسلقوا الجدار وتناولوا الغزال الموضع هناك. ومع ذلك، فإن أهمية هذه الأسطورة، تكمن في أنها تكشف لنا عن **لغز الغزال الثاني الضائع**، فقد نصبه عبد المطلب في جوف الكعبة عند **فوهة البئر ـ الجب ـ قرب هبل؟** ولذلك، يتعين علينا إسقاط الحاشية الأخيرة التي يبدو أنها ألصقت بنص الأسطورة من قبل مؤرخين ورواة أساطير ومرويات مسلمين، وتقول: فلم يزل **الغزال هناك حتى أخذه النفر الذي كان من أمرهم ما كان فظهرت زمزم**[1] ويتضح الآن أن عبد المطلب عثر على غزالين، نصب أحدهما في جوف الكعبة عند هبل كبير آلهة العرب، ونصب الثاني عند الباب. وهذا هو الغزال الذي سطا عليه اللصوص وسرقوه. وفي **مروج الذهب**[2] ترد الرواية التالية **التي تؤكد ما ذهبنا إليه**:

> فممن كان مقرًا **بالتوحيد، ملبيًا للوعيد، تاركًا للتقليد،** عبدُ المطلب بن هاشم بن عبد مناف، وقد كان حفر بئر زمزم، **وكانت مَطْوِية، وذلك في ملك كسرى قباذ**[3]**، فاستخرج منها غزالتي ذهب عليهما الدر والجوهر، وغير ذلك من الحلي، وسبعة أسياف قلعية، وسبعة أدرع سوابغ؛ فضرب من الأسياف بابًا للكعبة، وجعل إحدى الغزالتين صفائح ذهب في الباب، وجعل الأخرى في الكعبة**، وكان عبد المطلب أول من أقام **الرفادة والسِّقاية للحاج**، وكان أول من **سقي الماء بمكة عَذْبًا**، وجعل باب **الكعبة مذهبًا**، وكان قد نذر إنْ رزقه اللّه عز وجل عشرة أولاد ذكور أن يقرب أحدهم لله تعالى[4].

---

(1) من الواضح إن هذه إضافة متأخرة على أصل النص، قام بها إخباري مسلم لم يكن يعرف بدقة كافية حكاية سرقة الغزال، لأن العصابة قامت بتسلق جدران الكعبة ولم تدخل إلى جوفها.

(2) المسعودي، مروج، 1/ 220.

(3) المصدر نفسه.

(4) كذلك.

في هذا الوقت لم يكن لعبد المطلب سوى ولد واحد هو الحارث، الابن الأكبر. كان عبد المطلب قد نذر، حين أمر بحفر زمزم، لئن حفرها وتمَّ له أمرها وولد له من الولد عشرة ذكور، ليذبحن أحدهم، فزاد الله في شرفه وولده فولد له عشرة نفر، **الحارث وأمه من بني سواءة بن عامر** أخو هلال بن عامر، وعبد الله، وأبو طالب، والزبير وأمهم المخزومية، والعباس وضرار وأمهما النمرية، **وأبو لهب وأمه الخزاعية، والغيداق وأمه الغبشانية خزاعية،** وحمزة والمقوم وأمهما الزهرية. وطبقًا لمنطق هذه الأسطورة، كما سردها الإخباريون والقصاصون في الجاهلية، فقد كانت البئر نتاج حلم بالماء، وأن العثور على الغزالين الذهبيين كان مجرد حادث عرضي. لكنها تُسرد تقليديًا على أنها استطراد في سرد متواتر لأسطورة أقدم، كان العرب يتداولون نصّها، وهي تقول إن إسماعيل أبو كل العرب، هو منْ حفر البئر المقدسّة، وأنها كانت ترتبط كذلك بأسطورة عطشه وهو طفل.أما **المسعودي**[1] فهو ينسب دفن **الغزالين إلى الفرس**، مفسرًا اسم **زمزم** بطريقة مثيرة، فهي من زمزمة الفرس، أي طريقة شربهم للماء؟ (وقد كانت أسلاف الفرس تقصد البيت الحرام، وتطوف به، تعظيمًا له، ولجدَها إبراهيم عليه السلام، وتمسكًا بهديه، وحفظًا لأنسابها، وكان آخر من حج منهم **ساسان بن بابك** وهو جد **أردشير بن بابك**، وهو أول ملوك ساسان وأبوهم الذي يرجعون إليه كرجوع المروانية إلى مروان بن الحكم، وخلفاء العباسيين إلى العباس بن عبد المطلب، ولم يل الفرس الثانية أحد إلا من ولد **أردشير بن بابك** هذا، فكان **ساسان إذا أتى البيت طاف به وزمزم على بئر إسماعيل**، فقيل: إنما **سميت زمزم لزمزمته عليها**)[2] وفي ذلك (يقول الشاعر في قديم الزمان:

زَمْـزَمَـتِ الـفـرْس عـلـى زَمْـزَم وذاك مـن سـالـفـهـا الأقـدم)[3]

وعلى الأرجح، قد يبدو أمرًا مقبولًا الافتراض أن هذا التفسير ناجم عن أجواء الفتوحات الإسلامية التي خلقت واقعًا جديدًا، يسمح بافتراض أن مركز

(1) كذلك.
(2) كذلك.
(3) المسعودي، مروج 1/ 104.

العرب الديني القديم مكة، شهد مثل هذا الولاء الروحي من جانب ملوك الفرس والتبت؛ إذ يقال في بعض مرويات المسعودي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لمّا فتح مدائن كسرى، كان مما بُعث به إليه **هلالان،** فبعث بهما **فعلقهما في الكعبة.** يضيف المسعودي (حدثني سعيد بن يحيى البلخي، قال: أسلم ملك من ملوك التبت، وكان له صنم من ذهب يعبده في صورة إنسان)[1] وكان على رأس الصنم **تاج من الذهب** مكلل بخرز الجوهر والياقوت الأحمر والأخضر والزبرجد، وكان على سرير مربع مرتفع من الأرض على قوائم، والسرير من فضة، وكان على السرير فرشة الديباج، وعلى أطراف الفرش أزرار من ذهب وفضة مرخاة، والأزرار، فلما أسلم ذلك الملك، أهدى السرير والصنم إلى الكعبة، فبعث به إلى أمير المؤمنين **عبد الله المأمون هدية للكعبة،** والمأمون يومئذ بمرو من خراسان، فبعث به المأمون إلى الحسن بن سهل بواسط، وأمره أن يبعث به إلى الكعبة، فبعث به مع نصير بن إبراهيم الأعجمي، رجل من أهل بلخ من القواد، فقدم به مكة في **سنة أحدى ومائتين،** وحج بالناس تلك السنة إسحاق ابن موسى بن عيسى بن موسى، فلما صدر الناس من منى، نصب نصير بن إبراهيم السرير وما عليه من الفرشة والصنم، في وسط **رحبة عمر بن الخطاب،** بين الصفا والمروة، فمكث ثلاثة أيام منصوبًا ومعهم لوح من فضة مكتوب فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم هذا سرير فلان بن فلان ملك التبت، أسلم وبعث بهذا السرير هدية إلى الكعبة، فاحمدوا الله الذي هداه للإسلام، وكان يقف على السرير محمد بن سعيد ابن أخت نصير الأعجمي، فيقرأه على الناس بكرة وعشية، ويحمد الله الذي هدى ملك التبت إلى الإسلام.وعن مجاهد، قال: **كان في الكعبة على يمين من دخلها جب عميق حفره إبراهيم خليل الرحمن وإسماعيل** عليهما السلام حين رفع القواعد، وكان يكون فيه ما يهدى للكعبة **من حلي أو ذهب أو فضة أو طيب أو غير ذلك.**

> **وكانت الكعبة ليس لها سقف، فسرق منها على عهد جرهم مال مرة بعد مرة، وكانت جرهم ترتضي لذلك رجلًا يكون عليه يحرسه**، فبينا رجل ممن ارتضوه عندها إذ **سولت له نفسه فانتظر حتى إذا انتصف النهار، وقلصت الظلال، وقامت المجالس، وانقطعت الطرق، ومكة إذ ذاك شديدة الحر، بسط رداءه، ثم نزل في البئر فأخرج ما فيها فجعله في ثوبه، فأرسل الله عز وجل حجرًا من البئر فحبسه حتى راح الناس، فوجدوه فأخرجوه**، وأعادوا ما وجدوا في ثوبه في البئر، فسميت تلك البير ـ البئر ـ الأخسف، فلما أن خسف بالجرهمي وحبسه الله عز وجل، **بعث الله عند ذلك ثعبانًا وأسكنه في ذلك الجب في بطن الكعبة أكثر من خمسمائة سنة** يحرس ما فيه، فلا يدخله أحد إلا رفع رأسه وفتح فاه، فلا يراه أحد إلا ذعر منه، وكان ربما يشرف على جدار الكعبة، **فأقام كذلك في زمن جرهم وزمن خزاعة وصدرًا من عصر قريش، حتى اجتمعت قريش في الجاهلية على هدم البيت وعمارته، فحال بينهم وبين هدمه** حتى دعت قريش عند المقام عليه والنبي ﷺ معهم وهو يومئذ غلام لم ينزل عليه الوحي بعد، فجاء عقاب فاختطفه ثم طار به نحو أجياد الصغير.

إن الزّج باسم الفرس[1] تارة، والأحباش تارة أخرى ـ وفي مرويات إخبارية أخرى يجري الزّج بملوك التبت ـ، قد يشير إلى البُعد العالمي لانتشار عبادة إله الماء القديم في ثقافات شعوب المنطقة، ولكن لا توجد لدينا دلائل كافية تثبت مزاعم **المسعودي** القائلة، أن الفرس كانت تهدي إلى الكعبة هدايا ثمينة وأموالًا وجواهر، أو أن ابن بابك صاحب الديانة الخرّمية (مزدك الخرمي وليس ساسان مؤسس المملكة الساسانية) أهدى **غزالَيْنِ من ذهب** وجوهر وسيوفًا وذهبًا كثيرًا (**فقذفه في زمزم. وقد ذهب قوم من مصنفي**

(1) كذلك.

الكتب في التواريخ وغيرها من السير، أن ذلك كان لجرهم حين كانت بمكة. وُجرْهُم لم تكن ذات مال فيضاف ذلك إليها، ويحتمل أن يكون لغيرها، واللّه أعلم)[1]. ومثل هذه المزاعم، قد تكون صدرت في وقت ما من انتصار الإسلام، وهي استخدمت لتفسير سرّ الغزالين. ولعل رواية إهداء ملك التبت السرير الذهبي، أو ملك فارس هذين الغزالين، هي من المرويات الإسلامية المتأخرة التي سردها الإخباريون بعد الفتوحات تحت تأثير هذا النوع من المرويات الجديدة. وما يثير اهتمامنا في **رواية المسعودي عن محاولة عبد المطلب ذبح ابنه عبد الله**، أنها تفرد **للأخوال من بني مخزوم**، دورًا استثنائيًا في **حماية ابن أختهم والد النبي** ﷺ ومنع عبد المطلب من ذبحه عند أقدام **هُبل**، إذ يقول **المسعودي** إن عبد المطلب حين همّ بذبح ولده (قامت له **أخواله** بنو مخزوم وعظماء قريش وأهل الرأي منهم وقالوا: والله لا تذبحه فإنك إنْ تفعل تكن **سنّة علينا في أولادنا، وسنة علينا في العرب)**[2]. لقد رأى الأخوال من بني مخزوم في سلوك عبد المطلب، أمرًا يتجاوز نطاق الدين، وعدّوه عدوانًا من الأعمام على ابن الأخت الصغير، تمامًا كما حدث مع عبد المطلب نفسه، يوم بطش به عمّه نوفل، فهبّ بنو النجار أخواله لحمايته. وهكذا، هبّ الأخوال من قلب الصراع بين عبد المطلب وقريش، ليقدموا الحماية لابن أختهم، وهو ما يمكن اعتباره متوالية هندسية قابلة تلقائيًا للتكرار كواقعة تاريخية ذات بُعد أسطوري. وفي إطار سرد هذا الصراع الذي ينتقل من الحيز الداخلي إلى الحيز الخارجي، ويصبح صراعًا قبليًا، موضوعه ومادته الرئيسة الشرعة الدينية الجديدة المرفوضة، يمكن رؤية التحول الذي طرأ على (دين عبد المطلب) فهو لم يكتف ببعث الحياة إلى **البئر المعطلة**، أي عمليًا إبطال عبادتها والتقرّب إليها بالهدايا الثمينة، وإنما سنّ شرعة جديدة، هي تحوير من تحويرات شرعة أبيه إبراهيم الذي قدم إسماعيل نذرًا للآلهة. ومن المحتمل، إذا ما أخذنا هذه الواقعة الأسطورية لأغراض التحليل، كواقعة مقبولة تساهم في توضيح فكرة الفداء المُعاد بعثها من جديد في عصر عبد

---

(1) كذلك.

(2) المسعودي، مروج 1/ 220

المطلب؛ فإن الأمر الجوهري الذي يتوجب استنتاجه هو التالي: إن (**دين عبد المطلب**) في هذه اللحظة التاريخية الفاصلة التي اضطرّ فيها هو نفسه إلى خوض صراع علني مع قريش، شهد ما يمكن عدّه أولى الإشارات القوية لإمكانية عودة الشرعة الإبراهيمية، ولكن في سياق الحفاظ على أسس (الدين الوثني) السائد، ولذلك، لم تجد قريش في سلوك عبد المطلب إلا مسًّا محدودًا في مقدساتها. ولأن هذا الدين الأسري (العائلي) توقف عند تخوم هذه اللحظة وتجمّد كدين صغير، كما أن صاحبه لم يتمكن من تطوير دعوته وتجذيرها وتحويلها إلى دين (قومي). وهذا هو الفارق التاريخي بين الإسلام و(**دين عبد المطلب**) الذي رأى فيه النبي ﷺ كدين (عائلي) تجمّد في لحظة تطوره التي لاحت مع حفر زمزم.إن النصّ الذي يقدّمه المسعودي لهذه المروية، هو خلاصة دمج مثير لأسطورتين، الأولى أسطورة رحلة عبد المطلب مع رجال قريش إلى كاهنة الحجاز لفض النزاع حول كنز زمزم، والثانية أسطورة تقديم عبد الله كنذر، وبحيث بات علينا ونحن نقرأ نصّ المسعودي، أن نفترض ـ بخلاف المرويات الأخرى ـ أن رجال قريش وعبد المطلب أكملوا طريقهم، ووصلوا إلى الكاهنة، ولكن ليستشيروها في أمر آخر، يتعلق بنذر عبد المطلب وليس حول الكنز؟

> فقالت له قريش: إن **بالحجاز عرافة** لها تابع فسلها، ثم أنت على رأس أمرك إنْ أمرتك بذبحه ذبحته، وانْ أمرتك بأمر لك فيه فرج قبلته. قال: **فانطلقوا حتى قدموا المدينة** فوجدوا المرأة فيها يقال لها تخبير، فقصَّ عليها عبد المطلب خبره فقالت: ارجعوا اليوم عني حتى يأتيني تابعي فأسأله، فرجعوا عنها حتى كان الغد ثم غدوا عليها فقالت: نعم قد جاءني الخبر كم الدية فيكم؟ قالوا: عشر من الإبل. قالت: فارجعوا إلى بلادكم وقربوا عشرًا من الإبل، ثم اضربوا عليها بالقداح)[1].

تحدّد رواية المسعودي على أكمل وجه التاريخ الحقيقي للأسطورة، إذا

(1) كذلك.

ما افترضنا أن للأسطورة تاريخًا محتملًا لإنشائها أو روايتها أول مرة، ذلك أن الحادث الافتراضي لتقديم عبد الله كنذر، كان في عصر **قباذ بن فيروز** (488 ـ 531م) وهو عصر قريب تمامًا من عصر استيلاء **قصي** على الكعبة. بيد أن أسطورة الفداء هذه، وهي تكرار لأسطورة فداء إسماعيل(وفي التوراة يقدم إبراهيم ابنه إسحاق) ليست حادثًا تاريخيًا مؤكدًا، لانعدام وجود أي وثيقة تاريخية تدعمه، وتدفعنا إلى تقبلها، ومع ذلك، فنحن ـ ودون حرج ـ نتقبلها بوصفها حادثًا دينيًا معترفًا به ولا نجادل بشأنه. ما يثير اهتمامنا في بنية الأسطورة، هو أنها تضع زمزم في مكانٍ ناءٍ، وبحيث أن عبد المطلب اضطر إلى أن يفتش عن موضع قرية النمل وحيث ينقر الغراب هناك، وحيث وجد لأول مرة تمثال أساف ونائلة، إلهي العرب، فهما كانا في **قرية النمل** البعيدة عن الكعبة، وأنهما نقلا في وقتٍ ما إلى داخلها. ويُستدّل من بيت شعر جاهلي ينسب لأبي طالب أن موقع **أساف ونائلة كان أسفل مكة حيث تتجمع مياه السيول**، وهذا أمر له دلالته هامة للغاية في سياق فهم دلالات العلاقة بين وجود الصنمين وطقوس عبادة الماء:

وحَيْثُ يُنِيخُ الأَشْعَرُونَ رِكَابَهُمْ بِمُفْضَى السُّيُولِ مِن إِسَافٍ ونَائِلِ[1]

يضيف ابن سعد (الطبقات) تفصيلًا هامًا لأسطورة حفر زمزم: فقد رأى العرب قبل مبعث النبي ﷺ ظلمة غشيت مكة. ويقول أحد شهود العيان (حتى ما أرى جبلًا ولا سهلًا ثم رأيت نورًا يخرج من زمزم مثل ضوء المصباح، كلما أرتفع عُظمَ وسطعَ حتى ارتفع فأضاء لي أول ما أضاء البيت، ثم عظم الضوء حتى ما بقي من سهل ولا جبل، إلا وأنا أراه ثم سطع في السماء ثم انحدر حتى أضاء لي **نخل يثرب**)[2] فقصّ هذا الشاهد وهو خالد بن سعيد على أخيه عمرو بن سعيد، فقال له: (لقد رأيت عجبًا وأني لأرى هذا أمرًا يكون في **بني عبد المطلب، إذ رأيت النور خرج من زمزم**)[3]. إن أساطير الأصنام والهدايا الذهبية المقدّمة لإله الماء، حيث

(1) **تاج العروس** : 5715 / 1

(2) ابن سعد، **الطبقات** : 1/ 81، 86، 155.

(3) ابن سعد، **الطبقات** : 1/ 162.

يسطع نور النبوّة من جوفها فيضيء مكة ويثرب، تبدو كما لو أنها أسطورة واحدة كبرى، مترابطة الوحدات، تعطي كل وحدة فيها إشارات متعددّة المستويات. لقد ارتأى **معظم الإخباريين أن مناة**، مثلًا كانت من الأصنام المعظمة المقدّسة عند **الخزرج**، وكانوا يحلفون بها ويقفون عندها، وكانت العرب في الجاهلية تسمّي الأوس والخزرج جميعًا الخزرج. وترجع بعض الروايات تاريخ **مناة إلى عمرو بن لحي**، مؤسس **حكم خزاعة في مكة**، فتزعم أنه هو الذي نصبها على ساحل البحر مما يلي منطقة **قديد**. وكان المتعبدون يذبحون حولها ويهدون لها. ويظهر من روايات **ابن الكلبي**، أن **مناة** كانت من الأصنام المعظمة عند جميع العرب لا عند أهل الطائف وحدهم. وبرأيه أن **ابن الكلبي** قصد بعبارة: (**وكانت العرب جميعًا تعظمه وتذبح حوله، عرب الحجاز الذين كانوا يعظمون مناة**)[1]. وقد بقي هذا الصنم إلى عام الفتح، عندما نظّم النبي ﷺ حملة سنة ثمان للهجرة وهي عام الفتح، فهدم معبدها وأخذ المسلمون ما فيه من هدايا، ومن بين الهدايا الثمينة، سيفان كان **الحارث بن أبي شمر الغساني** ملك غسان، أهداهما لمعبد مناة، أحدهما يسمى **مخذوم**، والآخر **رسوب**، وهما سيفا الحارث اللذان ذكرهما علقمة الفحل في شعره:

مُظاهرُ سَربالي حديد عليهما — عقيلًا سيوفٍ مخذم ورسوب

فجالدُتهم حتى اتقوك بكبشهم — وقد حان من شمس النهار غروب

فوهب النبي **لعليّ بن أبي طالب** أحد هذين السيفين، فيقال، **إن ذا الفقار، سيف علي هو أحدهما. ويقال: إن علي بن أبي طالب وجد هذين السيفين في معبد الإله الفلس**، وهو صنم من أصنام طيء، حيث بعثه النبي فهدمه. وينقل **الواقدي في إحدى رواياته**[2] إن الذي هدم مناة، **سعد بن زيد الأشهلي**، سنة ثمان للهجرة. وفي رواية أخرى أن الذي هدم الصنم أبو

---

(1) ابن الكلبي، **الأصنام**: 1/ 3 (وكانت منصوبة على ساحل البحر من ناحية المشلل بقديد، بين المدينة ومكة).

(2) الواقدي، **المغازي** : 1/ 3 (ثم هدم مناة، هدمها سعد بن زيد الأشهلي في رمضان سنة ثمان.

سفيان. ويبدو من جملة مرويات، أن بعض القبائل كانت لا تزال تتخوف وتتهيّب من هدم **مناة**. لكن أسطورة وجود الإله الوثني هُبل في جوف الكعبة، يمكن أن تسلط الأضواء على العلاقة بين **اليد المقطوعة وبين سرقة الغزال الذهبي**. لكن رواية **الفاكهي**[1] تؤكد أن عبد المطلب عثر على الغزالين في مكانين منفصلين. قال:

(فنام فأتي في المنام، فقيل: احتقر فقال: وما أحتقر ؟ قال: احتقر زمزم، قال: وما زمزم؟ قال: لا تنزف، ولا تذم، تسقي الحجيج الأعظم، قال: فانتبه فأخبرهم برؤياه، قالوا: أفلا سألته: أين موضعها ؟ قال: فنام فأتي في المنام، فقيل له: احتقر، قال وأين ؟ قال: **مسلك الذر وموضع الغراب بين الفرث والدم**، قال: فاستيقظ فأخبرهم، قالوا: **هذا موضع خزاعة، ولا يدعونكم تحتفرون في موضع نصبهم**، قال: وقد قالوا له في المنام: إن قومك يكونون عليك أول النهار، ويكونون معك آخر النهار، قال: ولم يكن من ولده إلا الحارث بن عبد المطلب، قال: فأقبل هو والحارث يحفران، فحفرا فاستخرجا **غزالًا من ذهب** في أذنيه قرطان، **ثم حفرا فاستخرجا حلية ذهب وفضة**، ثم حفرا فاستخرجا **سيوفًا ملفوفة في عباءة**، ثم حفرا **فاستخرجا الماء** ثم أقرع بينهم، فأصاب الحلية البيت، وأصابته السيوف، **وأصاب قومه الغزال**)[2].

(1) الفاكهي، **إخبار مكة في قديم**،. ج 5 : 1005 وهو يورد رواية أخرى موازية عن ابن عباس - عن ابن عباس رضي الله عنهما قال « إن عبد المطلب رأى في المنام أن أحفر برة، فأصبح مهمومًا برؤياه، حتى إذا كانت الليلة الثانية قيل له: احفر برة، شراب الأبرار، فأصبح مهمومًا بما رأى، فلما كانت الليلة الثالثة أتي فقيل له : احفر زمزم، لا تنزف، ولا تذم، بين الفرث والدم، اغد بكرة فسترى على الآلهة يعني أصنام كفار قريش فرثًا يبحثه غراب، قال : فغدا، فإذا هو بغراب يبحث فرثًا، فحفر، فإذا هو بالحسى، فنثلها فوجد فيها أسيافا وغزالًا من ذهب، فأما الأسياف فضربت على باب الكعبة، وعلق الغزال في بطنها.

(2) الفاكهي، المصدر نفسه.

يضيف **الفاكهي** (قال ابن إسحاق: **وجد فيها غزالين من ذهب، وهما الغزالان اللذان كانت جرهم دفنتهما حين أخرجت من مكة، ووجدوا أيضًا أسيافًا مع الغزالين**)[1]. تقول رواية **الأزرقي**[2] عن أول من نصب الأصنام في الكعبة والاستقسام بالأزلام (إن البئر التي كانت في جوف الكعبة، كانت على يمين من دخلها وكان عمقها ثلاثة أذرع، يقال إن **إبراهيم وإسماعيل** حفراها

---

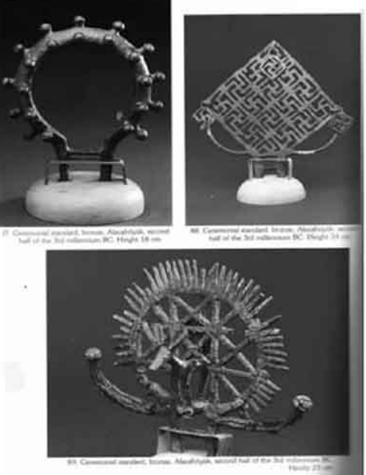
(1) الأزرقي، أخبار مكة وما جاء فيها من آثار. ص : 51 وما بعدها، والرواية الموازية تقول: حدثني جدي عن ابن عيينة عن إبراهيم بن ميسرة قال: تذاكروا المهدي عند طاوس وهو جالس في الحجر فقلت يا أبا عبد الرحمن أهو عمر بن عبد العزيز ؟ فقال: لا إنه لم يستكمل العدل وإن ذلك إذا كان زيد المحسن في إحسانه وحط عن المسيء منا إساءته ولوددت أني أدركته وعلامته كذا وكذا، حدثنا أبو الوليد قال حدثني جدي: حدثنا ابن عيينة حدثنا الوليد بن كثير عن ابن تدرس عن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنه قالت: لما نزلت ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ جاءت أم جميل بنت حرب بن أمية امرأة أبي لهب ولها ولولة وفي يدها فهر فدخلت المسجد ورسول الله ﷺ جالس في الحجر ومعه أبو بكر رضي الله عنه فأقبلت وهي تلملم الفهر في يدها وتقول: مذممًا أبينا، ودينه قلينا، وأمره عصينا، قالت: فقال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله هذه أم جميل وأنا أخشى عليك منها وهي امرأة فلو قمت، فقال: إنها لن تراني وقرأ قرآنًا أعتصم به، ثم قرأ ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾[الإسراء: 45] قلت: فجاءت حتى وقفت على أبي بكر رضي الله عنه وهو مع رسول الله ﷺ ولم تره فقالت: يا أبا بكر فأين صاحبك ؟ قال: الساعة كان ها هنا قالت: إنه ذكر لي أنه هجاني وأيم الله إني لشاعرة وإن زوجي لشاعر ولقد علمت قريش إني بنت سيدها، قال سفيان قال الوليد في حديثه فدخلت الطواف فعثرت في مرطها فقالت: نفس مذمم، فقال النبي ﷺ: ألا ترى يا أبا بكر ما يدفع الله تعالى به عني من شتم قريش يسموني مذممًا وأنا محمد فقالت لها أم حكيم ابنة عبد المطلب: مهلًا يا أم جميل، إني لحصان فما أكلم، وثقاف فما أعلم وكلتانا من بني العم، ثم قريش بعد أعلم.

(2) الأزرقي، **أخبار الكعبة** 1/ 50 فرغ الأزرقي من تأليف هذا الكتاب على أرجح الأقوال سنة (244هـ). وكان الكتاب كما بينّ محققوه صغيرًا، لكن رواة الأزرقي أضافوا إليه أخبارًا كثيرة حتى أصبح بحجمه الحالي، وفي هذه الأخبار ما يصل إلى عام (310هـ) . ويرى بعض الباحثين أن في الكتاب الكثير من الوقائع التي ترقى إلى سنة (126هـ) الأمر الذي يعني أن المؤلف الحقيقي للكتاب هو جده أبو الوليد الذي كان من أصحاب الإمام الشافعي، وأن الأزرقي الحفيد هو من قام هو بترتيبه وزاد عليه فنسب الكتاب إليه؛ كما وصلنا في صورته الحالية .

ليكون فيها ما يهدي للكعبة، فلم تزل كذلك حتى كان **عمرو بن لحي، فقدم بصنم يقال له هبل من هيت من أرض الجزيرة، وكان هبل من أعظم أصنام قريش** عندها **فنصبه على البئر في بطن الكعبة وأمر الناس بعبادته**، فكان الرجل إذا قدم من سفر بدأ به على أهله بعد طوافه بالبيت، وحلق رأسه عنده). وهبل هذا، هو الذي خاطبه أبو سفيان يوم أحد (أعل هبل) أي أظهر دينك، وكان من خرز العقيق على صورة إنسان، **وكانت يده اليمنى مكسورة فأدركته قريش فجعلت له يدًا من ذهب**. ولأن أسطورة **هبل** **وذراعه المقطوعة**، ذات صلة حميمة **بطقوس قطع اليد أو جدع الأنف**، كما أنها ذات صلة بأسطورة صراع الشقيقين **هابيل وقابيل**، فسوف نقوم بمعالجة جديدة لواقعة سرقة الغزال الذهبي، وحكم قريش بقطع يد أبي لهب.







الفصل الرابع

يدُ هبل الذهبية

لكن ما هي العلاقة بين أسطورة **هابيل وقابيل**، وأسطورة **هُبل**[1] الصنم الذي جلبه **عمرو بن لحي الخزاعي** ونصبه في جوف الكعبة قرب حفرة تدعى غبغب، وزعم أن فيها حية ضخمة؟ وهل ثمة علاقة دلالية بين الاسمين **هابيل وُهبل**؟ مثل هذه الأسئلة تفرض أثناء البحث عن الدلالات والمضامين الحقيقية للشعائر والطقوس والمعتقدات القديمة عند العرب في الجاهلية، التفتيش عن المنظومات الرمزية خارج التماثلات اللغوية المخادعة، وذلك بالعودة المباشرة إلى الأساطير. ليس المهم أن نبحث عن التماثل الشكلي في مباني الأسماء؛ وإنما المهم أن نكتشف البُعد الحقيقي لكل وأي تماثل أو تشابه في بنيات الأسطورة. روى **الأزرقي**[2] أن أول من نصب الأصنام في الكعبة وشرّع الاستقسام بالأزلام كان **عمرو بن لحي** زعيم خزاعة، وذلك عندما قدم من هيت (من أرض الجزيرة، بصنم يقال له هُبل. وكان من أعظم أصنام قريش، فنصبه على البئر في بطن الكعبة وأمر الناس بعبادته، فكان الرجل إذا قدم من سفر، بدأ به على أهله بعد طوافه بالبيت وحلق رأسه عنده). ولكن **ابن الكلبي** يروي رواية أخرى، تقول أنه كان يدعى **هبل خزيمة** (لان أول من نصبه **خزيمة بن مدركة بن إلياس ين مضر**)[3] وفي هذه الحالة، **يصبح هُبل من أصنام قريش القديمة التي ورثتها عن جدها خزيمة، ولم يأتِ**

---

(1) جواد علي، **المفصل**: 6/ 328 ارتأى استنادًا إلى علماء الآثار أن الأفعى التي تحدثت الروايات الإخبارية عن وجودها في بئر زمزم عند هبل هي رمز له.

(2) **أخبار مكة**: 1/ 50.

(3) كذلك.

به عمرو بن لحي من خارج الجزيرة، وهذا أمر هام للغاية لأنه يكشف عن جذور الوثنية القديمة، وقريش كما نعلم من شجرات الأنساب، بطن من بطون **كنانة**، وكنانة بطن من مضر. **وُهبل** هذا، بحسب وصف ابن الكلبي (الأصنام) كان من خرز العقيق على صورة إنسان، وكانت يده اليمنى مكسورة **فأدركته قريش فجعلت له يدًا من ذهب**. فهل يتعيّن علينا طرح السؤال المثير التالي: منْ الذي كسر (قطع) يد هُبل؟ ومن الذي صنع له - في ما بعد ـ **يدًا بديلة من الذهب**، ولماذا؟ **إن شرعة قطع يد السارق** التي طبقتها قريش، هي ركن أساسٍ في ثقافة دينية قديمة راسبة ومستمرة. ولم تكن في الأصل شرعة إسلامية، وبرأينا، يرتبط بتر أو قطع اليد، بتقليد ديني له صلة بقطع القلفة (الختان البدائي) الذي مارسته القبائل، فهو جزء من منظومة رموز ذات صلة بتقاليد بتر جزء من الجسم (عضو) وتقديمه للآلهة، **وأن هذا التقليد كان في الأصل يخص عالم الحيوان كما هو الحال في نظام البحيرة، وهي الناقة التي يشرم أنفها**. ولذلك، فمن المنظور الرمزي، فمن المحتمل أن يكون **هابيل** تجسّد، وتجليّ تاليًا في صورة **هُبل**، وأن أسطورة تقدمته الحيوانية للآلهة، وفوزه ببركتها، جزء من أسطورة صراع الراعي والفلاح، فقد سرق البركة من شقيقه الفلاح قابيل، ولذا قام بمعاقبته **بقطع يده**. وبذلك يستقيم مفهم المروية الأسطورية عن عثور قريش على التمثال **مقطوع اليد**. هذا الإله الوثني بيده الذهبية وجسده المصنوع من العقيق، ظل لوقت طويل في جوف الكعبة وكانت له **خزانة قرابين** فيها سبعة قداح يقف عندها حاجب، يضرب بها على الميت والعذرة[1] والنكاح. أما قربانه **فمائة بعير**. ولعل أشهر حادثة تؤكد أن قربانه مائة الإبل، هي التي روتها كتب السيرة النبوية عن ما يعرف بالإخباريات العربية الإسلامية بحادث الذبح، حين قدّم عبد المطلب سيّد مكة العظيم ابنه عبد الله، والد النبي ﷺ قربانًا لهُبل،فافتداه بمائة من الإبل، ذُبحت وتركت في الوادي يأكل منها الناس والطيور الجارحة. ولكن، أليست هذه الرواية مليئة بالتناقضات؟ إذ كيف يمكن جلب صنم من خارج الجزيرة العربية، بينما يقال إنه كان من أعظم أصنام قريش؟ ومتى أصبح من آلهة

(1) العذرة : الختان.

قريش؟ ولماذا نصبه زعيم خزاعة في جوف الكعبة عند فوهة البئر، ولماذا طلب من الناس عبادته؟ ولماذا حددت القرابين المقدمة له بمائة بعير؟ تعني هُبل، كثير اللحم والشحم. وفي حديث **عائشة**[1] رضي الله عنها: **والنساء يومئذ لم يهتبلهنّ اللحمٌ**، أي لم يصبحن بعدُ بدينات ممتلئات شحمًا ولحمًا. ويحسب منطوق الأسطورة، فقد كان هُبل إله الرعي والصيد عند العرب، يقدم القرابين من حيواناته إلى الآلهة.، وهو تجسيد للإله القديم هابيل الراعي. يعني هذا أن كلًا من **هابيل الراعي، وُهبل إله الرعي والصيد**، يشتركان في الصفات ذاتها والوظيفة الرمزية ذاتها، فهما يدّلان على نمط من العبادة القديمة الزائلة المرتبطة بطور تاريخي عرفته الجزيرة العربية، وارتبط بحقبة الرعي الطويلة. وما يؤكد ذلك أن العرب رأت إلى هبل بوصفه كبير الإبل[2]. ويبدو بحسب منطوق الأسطورة، كما رواها **الطبري**[3] **أن هابيل** واجه منافسة قوية من شقيقه **الفلاح قابيل الذي انتصر عليه** في النهاية وقتله، وذلك واضح من السياق الذي جرى فيه التنافس على تقديم الأضاحي للآلهة. لقد تقبلت الآلهة، التقدمة من هابيل لأنها كانت قرابين حيوانية (ذبائح، عتائر) بينما رفضت قربان شقيقه قابيل الفلاح، لأنها من نبات الحقل. أما اسم قابيل، فممّا يدّل على وظيفته، الصلة اللغوية الحميمة التي تجمعه بكلمة (القبل). وفي العبرية تعني **ك ـ ب ـ و ـ ل** **כבול** المرتفعات ـ الحقول ـ أي أنه بخلاف شقيقه رجل حقول ومرتفعات. فما معزى هذا الصراع الذي انتهى بمصرع هابيل ثم خلوده، وزوال اسم **قابيل**[4]؟

---

(1) الخليل بن أحمد الفراهيدي، **العين** 1/ 272 هبل: الهِبِلُّ: الشَّيْخُ الكبيرُ والمُسَنُّ من الإبل، قال:

أنـا أبـو نـعـامـةَ الـشَّـيْـخُ الـهِـبِـلّ أنـا الـذي وُلِـدْتُ فـي أخـرى الإبِـلْ

وهَبَلَتْهُ أُمُّه، أي: ثكلتْهُ، والهَبَلُ كالثُّكْلِ.

والمَهْبِلُ: مَوْضِع الولد في الرَّحِم

(2) إن تفسير الفراهيدي أعلاه يؤكد ما ذهبنا إليه.

(3) الطبري: **سير الملوك**، 1/ 367، **المنتظم** 1/ 387، **الكامل في التاريخ**، 1/ 230.

(4) النويري: **نهاية** 13/ 36 قال: ثم أمر الله تعالى شيث بن آدم بقتال قابيل، وكان قابيل قد اعتزل في ناحية من الأرض، فعمرها، وخدع أختًا له فأحبها، ورزق منها أولادًا كثيرة فسار إليه شيث بجميع أولاده، وتقلد سيف أبيه، وكان بين يديه عمود من الياقوت تحمله

لقد خلدّت القبائل ذكرى **إلهها القتيل هابيل إله الرعي والصيد،** بتصويره في صورة **صنم يدعى هُبل،** وفقط في سياق تعبيرها عن عصر الرعي الطويل. وهذا ما يدّلل عليه وجود **صنم على هيئة إنسان صنع جسده من العقيق بيد مجدوعة، وفي وقت تالٍ، لتصنع له يدًا بديلة من الذهب.** وهذا يعني أن **قريش لم تدرك الصنم مكسور اليد** كما يزعم الإخباريون؛ والأدق أنها ورثته من خزيمة والدها الأعلى (وهذا مغزى عبارة أدركته) وهو في هذه الصورة. وبكل يقين فالدلالة الرمزية التي لا تماريها العين تكمن هنا: إن اليد الذهبية التي صنعتها القبائل، وليس قريش وحدها، تتجسد فيها كل دلالات البركة والخير. إنها اليد الذهبية التي قدمت القرابين للآلهة. وهذا هو المغزى الحقيقي **لتحديد القرابين بمائة بعير.**إنه إله المحرّقات القديم **هابيل الذي صرعه شقيقه الغيور قابيل، وذلك هو المغزى ذاته لتقديم النذور الحيوانية لهبل (نذره مائة من الإبل). إن جدع أنف الصنم** ـ انظر الصور المرفقة وهي لملوك سومر وآكد في العراق **صور رقم 2ـ** أو قطع يد التمثال الذي يجسد الإله، تتدرج بدورها **في نسق ثقافي قديم عرفته سائر المجتمعات القديمة، فعند اليونانيين والرومان ـ** انظر صور آلهة الإغريق والرومان المرفقة مع النص **رقم 3 ولاحظ جدع**

الملائكة يضيء بالليل والنهار، وسار وقد أحدقت به الملائكة ؛ فتوجه إبليس إلى قابيل وأعلمه خبر أخيه، فتأهب للقائه وقد داخله الفزع ؛ ثم جاء شيث فقابله، فاقتتلا، فانكب قابيل على وجهه، فأخذه شيث أسيرًا، وأسر جماعة من أولاده .ثم أقبلت الملائكة إلى قابيل فسلكوه في سلسلة من سلاسل جهنم، وغلوا يد إلى عنقه، وساقوه بين يدي شيث مهانًا وهو يقول : يا شيث احفظ الرحم بيني وبينك . فقال : لا رحم بيننا بعد أن قتلت أخاك ظلمًا .ثم أمر شيث الملائكة فساقوه مغلولًا إلى عين الشمس بالمغرب، فلم يزل مواجهًا للشمس حتى مات كافرًا، وصارت ذريته عبيدًا وإماء لشيث وأولاده .ثم أخذ شيث بعد ذلك في عمارة المدن حتى بنى نيفًا على ألف مدينة في كل مدينة منارة ينادي عليها: « لا إله إلا الله، آدم صفوة الله، محمد رسول الله» . وكان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر هو وأولاده، حتى عمرت الدنيا، وأنزل الله تعالى على شيث خمسين صحيفة، فكانوا يقرأونها ويعملون بما فيها من غير عداوة ولا تباغض ولا تحاسد ولا فسق بينهم ؛ وكان إبليس يحسد شيثًا وأولاده، فأقبل إبليس إليه في صورة امرأة حسناء، فقال لها : من أنت ؟ قالت : امرأة أرسلني الله إليك لتتزوج بي، ولست من بنات آدم . فقال : إن ربي لم يأمرني بذلك ولا أخبرني.

الأنف ـ يمكن ملاحظة أن **إلهة الصيد دوسيرا**، تظهر في بعض المنحوتات **مقطوعة الثدي**، كما أن الكثير من تماثل الآلهة تظهر **مقطوعة (مجدوعة) الأنف**. وعند العرب، يبدو أن **الجدع** كان مألوفًا، ولعل المثل العربي القديم **(لأمر ما جدع قصير أنفه) وهو مثل يضرب في سياق سرد قصة صراع جذيمة مع الزباء، وله صلة بهذا التقليد الديني.**









تقول أسطورة جدع أنف قصير وزير جذيمة[1]: كان لجذيمة وزير اسمه قصير. قال لجذيمة: لا تمش إلى هذه المرأة فإني لست آمنها عليك! فقال: لا يطاع لقصير أمر، فأرسلها مثلًا. فلما دخل عليها أمرت جواريها فأخذن يده. قالت له: أي قتلة تريد أن أقتلك فقال: إن كان لا بدّ فاقتليني قتلة كريمة! فأطعمته حتى شبع وسقته حتى ثمل وفصدت شريانه حتى نزف دمه ومات. فبلغ قصيرًا خبره **فجدع أنفه** وأظهر لها أن **عمرو بن عدي ابن أخت جذيمة هو الذي جدعه،** لأنه أشار إليه بتزويج الزباء. **فراسل قصير الزباء وأطمعها في ملك جذيمة،** فركبت إليه وصار قصير إليها بأمان وأخبرها بسعة التجارات فدفعت إليه مالًا فأتاها بربح كثير ثم زادته في المال فأتاها بربح عظيم، فأنست به وجعلته من بطانتها. وأخبرته: إني حفرت من قصري على الفرات هذا إلى القصر الآخر على الجانب الآخر من الفرات سربًا تحت الماء، وجعلت باب السرب تحت سريري هذا، ومخرجه تحت سريري الآخر؛ فإن راعني أمر خرجت إلى الجانب الآخر. فحفظه قصير ومضى بالمال وحمل ألفي رجل في ألفي صندوق على ألف جمل وعلى الرجال الدروع، ومعهم السيوف وأقبل بهم إلى الزباء. فلما قرب من مدينتها صعدت الزباء سور مدينتها تنظر إلى العير مثقلة فقالت: (ما للجمال مشيها وئيدًا، أجندلًا يحملن أم حديدًا أم صرفانًا باردًا شديدًا أم الرّجال جثّمًا قعودًا) فجاء قصير بالعير ودخل المدينة فأناخ الجمال وثار الرجال من الصناديق بالسيوف، وضربوا من أدركوه. فلما علمت الزباء قصدت السرب لتدخل فيه فبادرها عمرو بن عدي وكان من رجال الصناديق، ووقف على باب السرب بالسيف فعلمت أنه قاتلها، فمصت سمًا تحت خاتمها. وقالت: بيدي لا بيد عمرو، **فأرسلته مثلًا. ومن الأمثال: لأمر ما جدع قصير أنفه**[2]. والأرجح أن

---

(1) المسعودي، **مروج الذهب**: 1/ 208 ابن الأثير، **الكامل في التاريخ** 1/ 118، الحلي: **المناقب الزيدية**: 1/ 118

(2) وفي معاجم اللغة، الجدع هو القطع البائن في الأَنف والأُذن والشَّفةِ واليد ونحوها عدا عن صلة هذه الكلمة بالقحط فجَداعِ: السَّنةُ الشديدة تذهب بكل شيء والجَداعُ: الموت. وحكي عن ثعلب: عام تَجَدَّعُ أَفاعِيه وتجادَعُ أي يأُكل بعضها بعضًا لشدّته، وكذلك تركت البلاد تَجَدَّعُ وتَجادَعُ أفاعيها أَي يأُكل بعضها بعضًا، قال: وليس هناك أَكل ولكن

الجدع كان عادة جاهلية في تقديم القرابين والأضاحي لآلهة العرب القدماء، ولكنه لمّا أبطل أصبح **الأجدع يعني**: **الشيطان** ومنه جاء التعبير المصري في العامية المصرية اليوم **(جدع)**.

وفي (تاريخ الملوك والرسل)[1]:

> وقال بعضهم بل الذي غزا حزقيا صاحب شعيا **سنحاريب ملك الموصل** وزعم أنه لما أحاط بيت المقدس بجنوده بعث الله ملكا فقتل من أصحابه في ليلة واحدة مائة ألف

يريد تقَطَّعُ. ومنه نفهم لماذا غير الإسلام اسم جدع كما حصل روي عن مسروق أَنه قال: قدمت على عمر فقال لي: ما اسمُك؟ فقلت: مَسروقُ بن الأَجْدَع، فقال: أَنت مسروق بن عبد الرحمن، حدثنا رسول الله ﷺ، أَنَّ الأَجدع شيطان، فكان اسمُه في الديوان مسروق بن عبد الرحمن. وعبد الله بن جُدْعانَ (كذا بالأصل، وفي القاموس: وعبد الله ابن جدعان جواد معروف.) وأَجْدَعُ وجُدَيْعٌ: اسمانِ. وبنو جَدْعاءَ: بطن من العرب، وكذلك بنو جُداع وبنو جُداعةَ. ـ والسلت ـ الصلت، الجدع،الرجل أَسْلَتُ إِذا أُوعِبَ جَدْعُ أَنفه. والأَسْلَتُ: الأَجْدَع، وبه سمِّي الرجل، وأَبو قَيْس بن الأَسْلَتِ الشاعرُ. قال: وأَصلُ السَّلْتِ القَطْعُ. وسَلَتَ رأْسَه أَي حَلَقه.ورأْس مَسْلوتٌ، ومَحَلْوُتٌ، ومَحْلُوقٌ بمعنى واحد.وسَلَتَ الحَلَّاقُ رأْسه سَلْتًا، وسَبَتَه سَبْتًا إِذا حَلَقَه. وهذا ربما يفسر لماذا كان أمية بن أبي الصلت محبًا لعبد الله بن جدعان وهو الحنفي الشهير. يقول أمية: (دخلت إلى شيخنا وسيدنا ابن جدعان وقد عمل فيه الشراب فأخذت إحدى حظيتيه وأحب ماله إليه).

(1) الطبري: **تاريخ**، 1/ 313 (ووظف عليه خراجًا يؤديه إليه فكان يوياقيم يجبي ذلك فيما زعموا من بني إسرائيل ويحمله فيما زعموا اثنتي عشرة سنة ثم ملك أمرهم من بعده يوياحين بن يوياقيم فغزاه بختنصر فأسره وأشخصه إلى بابل بعد ثلاثة أشهر من ملكه وملك مكانه متنيا عمه وسماه صدقيا فخالفه فغزاه فظفر به فأوثقه وحمله إلى بابل بعد أن ذبح ولده بين يديه وسمل عينيه وخرب المدينة والهيكل وسبى بني إسرائيل وحملهم إلى بابل فمكثوا بها إلى أن ردهم إلى بيت المقدس كيرش بن جاماسب بن أسب من أجل القرابة التي كان بينه وبينهم وذلك أن أمه أشتر- أستير- ابنة جاويل وقيل حاويل الإسرائيلي فكان جميع ما ملك صدقيا مع الثلاثة الأشهر التي ملك فيها يوياحين فيما قيل إحدى عشرة سنة وثلاثة أشهر ثم صار ملك بيت المقدس والشام لأشتاسب بن لهراسب وعامله على ذلك كله بختنصر).

وخمسة وثمانين ألف رجل وكان ملكه إلى أن توفي تسعًا وعشرين سنة ثم ملك بعده فيما قيل أمرهم منشا بن حزقيا إلى أن توفي خمسًا وخمسين سنة ثم ملك بعده أمون بن منشا إلى أن قتله أصحابه اثنتي عشرة سنة ثم ملك بعده يوشيا بن أمون إلى أن قتله **فرعون الأجدع المقعد ملك مصر** إحدى وثلاثين سنة ثم ياهواحاز بن يوشيا وكان **فرعون الأجدع** قد غزاه وأسره وأشخصه إلى مصر وملك **فرعون الأجدع يوياقيم بن ياهواحاز**.

ويبدو أن قصص **جدع الأنف** التي شاعت في مجتمعات القبائل العربية، كممارسة دينية طقوسية قديمة، استمدت عناصرها الإنشائية من تعرّفهم المباشر، أو بواسطة قصص متناقلة حملها رحالة وتجار على تماثيل ومنحوتات، تركتها حضارات كبرى، مصرية وسومرية وآشورية ويونانية ورومانية، ولذلك افترضوا أن تمثال أبي الهول، مثلًا الذي ينتصب مجدوع الأنف في الجيزة بمصر، وقد غرز أقدامه في الرمال، أنه فرعون مصري كان قد جدع أنفه بنفسه، كما خلطوا بين الحارث الغساني العرج، والفرعون المصري الأعرج، وهذا تخيّل محرّف من **طقوس جدع الأنف**. ولذلك، روى الإخباريون قصة موت شعب ثمود وزواله من المسرح التاريخي، بوصفها قصة **بطل مدنس أجدع الأنف** (شيطان). ولعل رواية النويري [1] **لعقر**

(1) النويري، **نهاية**3/ 316، 318، 330 ولحيته بطوله، غير أنه كان يمر بالشجرة العظيمة فينطحها برأسه فيكسرها ؛ فلما رأته عنيزة رجعت بناتها إلى صدوف، وقالت: من تطيب نفسه أن يزوج مثل هؤلاء من هذا؟ فلم تزل بها حتى رجعت بهن إليه، وعرضهن عليه ؛ فاختار منهن الرباب، وأجاب إلى عقر الناقة، واجتمع إليه مصدع وأخوه ورعين وداود خادم الأصنام وريان ولبيد والمصرد وهزيل ومفرج فهؤلاء التسعة الذين ذكرهم الله في كتابه، قال الله تعالى: « وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون فطافوا بأجمعهم على قبائل ثمود وأعلموهم بما أجمعوا عليه من عقر الناقة، فرضي بذلك كبيرهم وصغيرهم، واجتمع هؤلاء التسعة بسيوفهم وذلك في يوم الأربعاء، وقعدوا ينتظرون الناقة، فأقبلت حتى قربت من البئر؛ فنادت عنيزة:يا قدار،اليوم، وانظر كذلك الطبري 1/ 85، 88، والمسعودي : 1/ 186.

ناقة صالح تروي هذا الجانب على أكمل وجه، فقد تواطأت القبيلة على عقر الناقة، وأن نساء القبيلة هنّ منْ قمن بالتحريض على ذلك:

> وأقبلت صدوف إلى عنيزة فأخبرتها بذلك ففرحت به. قالت: إلا أنه منفرد، ولكن قومي إلى عزيز ثمود قدار، فإنه شاب لم يتزوج فاعرضي عليه بناتك لعله يفعل، ففعلت عنيزة ذلك، وزينت بناتها وأقبلت بهن إلى قدار، وكان أقبح رجل في ثمود، وكان في عينيه زرقة، وكأنهما عدستان، **وأنفه أفطس.**

ولنلاحظ هنا، أن **قيدار**، عزيز قوم ثمود، أي زعيمها قام بنفسه **بالعدوان على المقدس** وذبح الناقة، وكان **أفطس الأنف** (مجدوع الأنف). إن أساطير **جدع الأنف عند العرب**، وتحويره الرمزي قطع اليد، أو جدع الأنف والأذن، تشير إلى هذا الجانب المسكوت عنه، فهو ممارسة **دينية طقوسية ذات جذور قديمة، لها صلة بالختان،** ولعلها مع زوال أو **تعطيل** طقس الختان بعد تراجع الإبراهيمية في الجزيرة العربية وبزوغ عصر الوثنية الطويل، عادت للظهور في صورتها الرمزية الجديدة. ولعل أسطورة سيطرة قصي جد النبي ﷺ على مكة، بعد أن تمكن من السيطرة على البيت الحرام، وإزاحة خزاعة عنها، هي من بين أكثر الأساطير التي تروي تاريخ هذا الصراع بوصفه صراع قرابات أسرية، فقد كان قصي يعيش بين أخواله الخزاعيين، بعد انفصال والدته عن والده القرشي، ولكنه ظل يتطلع إلى العودة إلى مكة والعيش مع أعمامه القرشيين. وحين انتهى صراع القرابات الأسرية بطرد الأخوال وانتصار الأعمام، فقد تبدى واضحًا شكل هذا الصراع وطبيعته بين الأعمام والأخوال. تنتمي خزاعة إلى **بكر بن عبد مناة. وهؤلاء كانوا من عبّاد الإلهة الكبرى، مناة إلهة القدر(مناة من المنيّة أي الموت) وهم انتسبوا إليها على جري تقاليد أقدم،** وينتهي تسلسلها القبلي بجرهم، بينما تنتمي قريش إلى هاشم. كانت خزاعة تفرض سيطرتها على الكعبة وهي التي طردت جرهم عن البيت في عصر سيدها عمرو بن الحارث بن مضاض الجُرْهُمي. ويبدو من روايات كثيرة أن **المضّاض كان كاهنًا كبيرًا من كهنة جُرْهُم وقد** اعتزل الناس في وقت مبكر، ويقال إن سيّد جرهم ما

أن شعر باقتراب لحظة سقوط حكم القبيلة في مكة، حتى عمد إلى دفن **غزالي الكعبة**[1] وهما من ذهب، وحجر الركن وهو الحجر الأسود وإلى سيوف محلاة وأشياء أخر فدفنها في زمزم وارتحل بقومه عائدين إلى اليمن. ولذلك ترتبط قصة حفر زمزم لا بأسطورة دفن غزالي الذهب، وإنما كذلك بوجود كاهن أعظم، أهدى بنفسه هذين الغزالين لإله الماء. قال حسان، مستذكرًا كيف دفن زعيم جُرْهُم غزالي الذهب[2]:

يا سالب البيت ذي الأركان حِليته أدِّ الغزال فلن يخفى لمستلب

سائل بني الحارث المُزري لمعشره أين الغزال عليه الدر من ذهب

بئس البنون وبئس الشيخ شيخُهم تبًا لذالك من شيخ ومن عَقِبِ

ما يثير اهتمامنا، في بعض الروايات، زعمها أن أحد أبرز المشاركين في سرقة الغزال، ينتمي إلى فرع **عبد الدار**، واسمه **مليح بن شريح بن الحارث بن السباق بن عبد الدار**، وهو الفرع الذي دخل في صراع مرير

(1) ابن الأثير: **الكامل** 1/ 254 كانت خزاعة قد أقامت بتهامة بعد تفرق أولاد عمرو بن عامر من اليمن، فأرسل الله على جرهم الرعاف أفناهم، فاجتمعت خزاعة على إجلاء من بقي منهم، ورئيس خزاعة عمرو بن ربيعة بن حارثة فاقتتلوا، فلما أحس عامر بن الحارث الجرهمي بالهزيمة خرج بغزالي الكعبة والحجر الأسود يلتمس التوبة وهو يقول:

لاهم إن جرهما عبادك

الناس طرف وهم تلادك

بهم قديمًا عمرت بلادك

فلم تقبل توبته، فدفن غزالي الكعبة ببئر زمزم وطمّها، وخرج بمن بقي من جرهم إلى أرض جهينة، فجاءهم سيل فذهب بهم أجمعين.

(2) ابن حبيب، **المنمق**: 530/ **وشرح ديوان حسان للبرقوقي ص 47 وما يليها والأبيات ص 52 قال الشاعر:**

عليك بتقوى الله في كل حالة ولا تترك التقوى اتكالًا على النسب

فقد رفع الإسلام سلمان فارس وقد وضع الكفر الشريف أبا لهب

ومتواصل مع أبناء عمومته من **عبد مناف**[1]. ويبدو أن اختراع هذا الشخص من جانب الإخباريين المسلمين، وهو شخص لا وجود له، جرى تحت ضغط الشعور المتواصل بالنزاعات التي نشبت داخل شبكة القرابات. لقد دار هذا الصراع في بعض أوجهه المسكوت عنها، داخل القرابات الأسرية في مجتمع القبائل والبطون المتنافسة على إدارة البيت الحرام، وهذا ما تشير إليه أسطورة صراع **هابيل وقابيل**، بوصفها الأسطورة الكبرى لصراعٍ، تتمثل فيه بدرجة عالية من التوتر، سائر أشكال الصراعات.

(1) لم أجد نسبه في كتب **الأنساب** . انظر **جمهرة أنساب العرب** 1/ 57 ولد عبد الدار بن قصي: عبد مناف، وعثمان، والسباق. فأما بنو السباق، فكثروا جدًا؛ ثم بقوى بمكة، هم وبنو خالد بن عبد مناف بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة، ففنوا وهلكوا إلا القليل، وصار بعض بني السباق في عك؛ منهم: الأسود بن عامر بن الحارث بن السباق بن عبد الدار، قتل يوم بدر كافرًا. ومنهم: سويبط بن سعد بن حرملة بن مالك بن عميلة بن السباق، من مهاجرة الحبشة، وأبو السنابل بن بعكك بن السباق وولد عبد مناف بن عبد الدار: هاشم، وكلدة، فولد كلدة: علقمة؛ والحارث؛ فولد الحارث: النضر، أحد أعداء الله تعالى، قتل يوم بدر كافرًا. أمر رسول الله ﷺ بضرب عنقه صبرًا بالصفراء؛ والنضير، أحد مهاجرة الحبشة، استشهد يوم اليرموك رضي الله عنه؛ وعبد المنذر. وولد النضير المرتفع، وعطاء، ونافع؛ فولد المرتفع بن النضير: محمد بن المرتفع بن النضير، ومن ولد عبد المنذر: محمد بن أيوب بن عبد المنذر، قتل يوم الحرة.

الفصل الخامس

محمد وأمية

في الموارد التاريخية الإسلامية، غالبًا ما تبدت مسألة تقبُّل **أمية بن أبي الصلت الإسلام**، وكأنها مسألة صراع **بين الشعر والنثر**. لقد أصغى **أميّة** مندهشًا إلى النبي ﷺ وهو يتلو عليه **سورة ياسين**، وبدا له أن ما يتلوه عليه من كلام، **هو نثر ديني من نوع فريد لم يألفه في كتب اليهود والنصارى، وأكثر من هذا، أنه نوع أدبي قادر على أن يكتسح كل شعر** مألوف أو متداول عرفته العرب. ولذا أجاب عن سؤال رجالات قريش، وكانوا يصغون معه إلى ما يتلوه النبي من آيات، حول موقفه من دينه الجديد، وبعد أن سمع منه ما سمع، بالقول: اتركوني وسأنظر في أمره. ثم نهض وغادر المكان. لم يقل أمية كما قالت قريش، أنه أمام **ساحر أو كاهن من كهنة العرب، أو أمام شاعر** مثله كما زعمت قريش، واكتفى بأن طلب مهلة ينظر فيها بأمره. وتكشف مسألة نكوص **أمية الشاعر عن الإسلام، بعد محاولة أولى جرى خلالها لقاء مثير بينه وبين النبي ﷺ**، عن وجه آخر مسكوت عنه من صراع النظام القرابي في مجتمع قريش، وداخل مجتمع مكة الديمقراطي الذي ارتعدت فيه الفرائص أمام الدين الجديد. كما تكشف وإلى حد ما، عن شكلٍ آخرَ **من صراع النبي مع الشعراء** في لحظة حاسمة من تاريخ الإسلام. كان **أمية يهوديًا من يهود الطائف**[1]، **ومن**

---

(1) البلاذري، **أنساب**: 3/ 383 (أمية بن أبي الصلت الثقفي اليهودي) و 4/ 332 (أمية بن أبي الصلت بن ربيعة بن عوف بن عقدة الشاعر، وكان يهوديًا وله يقول رسول الله ﷺ: آمن شعره، وكفر قلبه). ونزلت فيه آية ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ﴾[الأعراف: 175] .

قرابات النبي ﷺ غير المباشرة[1]**، ويتمّتع بمكانة فريدة لا سابق لها في تاريخ ثقيف، وتاريخ الطائف التي لطالما نافست مكة على الدور الديني في جزيرة العرب**، وقد سمع بنفسه قول أهل الطائف، لولا الإسلام، **لرأت ثقيف كلها في أميّة نبيًا مرسلًا**[2]، ولكادت قريش أن تقبل به دون تردد. لذلك، وحين ظهر أميّة فجأة في حياة النبي ﷺ كراغب في التعرّف إلى دعوته الدينية، فقد اتخذ الصراع معه بُعدًا مُتراكبًا، يتصل عضويًا بالتنافس الديني والاجتماعي والجغرافي بين الطائف ومكة. وبرغم أنها كانت قرية صغيرة[3] إلا أن وجود كعبة **(اللات)**، وهي التي عدّها العرب من أكبر آلهتها الأنثوية (الإلهة الأم) أكسبتها قوة دينية وتجارية منافسة لكعبة الحجاز وتجارة الإيلاف، وقد قاد أمية مع بضعة رجال من ثقيف تجارتها بين البحرين والشام وصولًا إلى نينوى. ومن المؤكد أن قوة الحضور الديني للطائف، ظلت حتى في لحظة انتصار الإسلام ذات زخم واستمرارية بين المسلمين، فقد **حرّم النبي - ﷺ - أن تعضد عضاة وج** (عاصمة الطائف) أو تصاد **ظبائها وغزلانها**، تمامًا كما هو الحال مع **الحرم المكيّ**. وقد كتب النبي بنفسه كتابًا في هذا التحريم[4] جاء فيه:

> **بِسْمِ اللّهِ الرّحْمَنِ الرّحِيمِ مِنْ مُحَمّدٍ النّبِيّ رَسُولِ اللّهِ إلَى الْمُؤْمِنِينَ: إنّ عِضَاهَ وَجّ وَصَيْدَهُ لا يُعْضَدُ. مَنْ وُجِدَ يَفْعَلُ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ فَإِنّهُ يُجْلَدُ وَتُنْزَعُ ثِيَابُهُ فَإِنْ تَعَدّى ذَلِكَ فَإِنّهُ**

---

(1) تتشابك هذه القرابات في شجرات أنساب الأمهات، فوالدة أمية هي رقية بنت عبد شمس ابن عبد مناف بن قصي. انظر الرسم التوضيحي لشجرات الأنساب تاليًا.

(2) ابن دريد، **الاشتقاق**: 303 (كان بعضُ العلماء يقول: لولا النبيُّ ﷺ لادَّعت ثَقِيفٌ أنَّ أمية نبيٌّ. لأنَّه قد دارَسَ النَّصارى وقرأ معهم، ودارسَ اليهودَ وكلَّ الكتُبِ قرأ. ولم يُسلِمْ، ورثَى قتلَى بدرٍ).

(3) المقدسي البشاري، **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم** 1/ 38 (ومن مكة إلى الطائف طريقان تأخذ من بئر ابن المرتفع مرحلة ثم إلى قرن مرحلة ثم إلى الطائف مرحلة والأخرى على عرفات مرحلتين في الجبل).

(4) **الروض الآنف** [ص 316].

يُؤْخَذُ فَيُبْلَغُ بِهِ إِلَى النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ. وَإِنَّ هَذَا أَمْرُ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ[1].

ولأن أميّة كان يرى في نفسه نبيًّا، كما رأى في بعض الحالات أنه ينتظر ظهور نبي[2] لعله هو، فقد ردد على أسماع العرب البيت التالي:

ألا رسـول لـنـا مـنـا يـخـبـرنـا ما بعد غايتنا من رأس مجرانا[3]

بيد أنه، أثناء خروجه إلى **البحرين** حيث كثرة من يهود القبائل هناك، سمع نبأ ظهور نبي في مكة (فأقام أمية بالبحرين ثماني سنين ثم قدم **الطائف** فقال لهم: ما يقول **محمد بن عبد الله**؟ قالوا يزعم أنه **نبي فهو الذي كنت تتمنى**)[4]. وهكذا، فقد خرج حتى قدم عليه بمكة .**وأميّة** يروي بنفسه قصة هذا اللقاء: فقلت ـ له ـ (**يا ابن عبد المطلب ما هذا الذي تقول**؟ قال: أقول إني رسول الله)[5]. كان الجواب قاطعًا ولم يترك أدنى فرصة أمامه للرّد.

لقد كان اللقاء الأول بين **النبي** ﷺ **وأميّة** عاصفًا، وترك أثرًا لا يُمحى في ذاكرته[6]، وأدرك آنئذٍ أنه سارع للقائه وهو عازم على أن لا يتقبل نبيًا

---

(1) وَكَتَبَ خَالِدُ بْنُ سَعِيدٍ : بِأَمْرِ الرَّسُولِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ فَلا يَتَعَدَّهُ أَحَدٌ، فَيَظْلِمَ نَفْسَهُ فِيمَا أَمَرَ بِهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَذَكَرَ فِي الْكِتَابِ وَجّا، وَأَنَّهُ حَرَامٌ عِضَاهُهُ وَشَجَرُهُ يَعْنِي حَرَامًا عَلَى غَيْرِ أَهْلِهِ كَتَحْرِيمِ الْمَدِينَةِ وَمَكَّةَ. وَوَجّ هِيَ أَرْضُ الطَّائِفِ- المصدر نفسه.

(2) عبد القادر البغدادي، **خزانة الأدب** : 1/ 88.

(3) البغدادي، **خزانة الأدب**، المصدر نفسه.

(4) ابن إسحاق، **السيرة** 1/ 32.

(5) ابن هشام، **السيرة**: 1/ 134 (وروى الحافظ ابن عساكر عن الزهري أنه قال: قال أمية بن أبي الصلت:

ألا رسـول لـنـا مـنـا يـخـبـرنـا ما بـعـد غـايـتـنـا مـن رأس مـجـرانـا

قال: ثم خرج أمية بن أبي الصلت إلى البحرين، وتنبأ رسول الله ﷺ، وأقام أمية بالبحرين ثماني سنين، ثم قدم الطائف فقال لهم: ما يقول محمد بن عبد الله ؟ قالوا: يزعم أنه نبي، هو الذي كنت تتمنى. قال: فخرج حتى قدم عليه مكة فلقيه، فقال: يا ابن عبد المطلب ما هذا الذي تقول ؟ قال: أقول إني رسول الله وأن لا إله إلا هو).

(6) **تاريخ دمشق**، 9/ 385.

موعودًا منافسًا. ويبدو أن اتفاقًا على ترتيب هذا اللقاء في حجر الكعبة، تمّ بسرعة وبموافقة سادات قريش الذين وجدوا فيه فرصة تاريخية للتخلص من النبي ﷺ. كما جرى الاتفاق على أن يأتي كل منهما مع جماعة، ليتناظرا، وليكشف كل منهما دلائل نبوّته. إن السيرة النبوية المكتوبة لا تشير إلى أن النبي تقبل فكرة اللقاء مع مدع للنبوّة، تحت أي ظرف باستثناء هذا اللقاء، وهو جرى بكل تأكيد على خلْفية البيت الشهير الذي قاله أمية، ورأى فيه النبي أنه تبشير بنبوته هو، وأن بيت الشعر هذا، يتضمّن كل العناصر اللازمة التي تؤيد دعوته بقوة، فها هو **شاعر يهودي** يتنبأ بظهوره، وكم سعى المؤرخون المسلمون وهم يكتبون سيرة النبي ﷺ إلى تأسيس هذا الجانب من الإسلام على قاعدة صلبة، تقول من بين ما تقول، إن الحاخامات اليهود والقساوسة النصارى، بشرّوا بظهوره. وهذا أساس صحيح ومتين للقاء، فهو مناسبة لضمّ أكبر شعراء العرب إلى الإسلام. وقد وصل **أمية** قادمًا من الطائف (في جماعة من قريش، وغدا رسول الله ﷺ في نفر من أصحابه حتى جلسوا في ظل البيت، قال: فبدأ أمية فخطب، ثم سجع، ثم أنشد الشعر حتى إذا فرغ، قال: **أجبني يا ابن عبد المطلب**، فقال رسول الله ﷺ: ﴿يسٓ ۞ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۞ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾[1] حتى إذا فرغ منها، **وثب أمية يجر برجليه إلى راحلته**)[2]. ولذا هبتّ قريش وتبعته إلى باب الكعبة حتى سمع رجالاتها أجابته حين سألوا (ما تقول يا أمية؟ قال: **أشهد أنه على الحق**، قالوا: فهل تتبعه؟ قال: حتى أنظر في أمره)[3]. لم يحدث بعد هذا اللقاء، استنادًا إلى مرويات الإخباريين، أي لقاء آخر، ولم يتسن لأميّة أن يقول رأيًا قاطعًا بشأن دعوة النبي، إذ سافر إلى الشام، بينما كان النبي ﷺ يصل إلى يثرب. ومن المؤكد في ضوء كثرة من المرويات الصحيحة والمقبولة، أن أمية في هذا الوقت كان قد تحوّل من **اليهودية إلى النصرانية**، وهو تحوّل شهدته الجزيرة العربية واليمن تحت تأثير عوامل الصراع **البيزنطي ـ الفارسي** وتجارة الإيلاف، معًا وسواء بسواء.إن هذا

---

(1) سورة يس، الآيات 1 ـ 3.

(2) ابن هشام، **السيرة** : 1/ 128، 129، 131، 134.

(3) ابن الجوزي، **المنتظم** : 1/ 313.

التحوّل من ديانة إلى أخرى، كان أمرًا شائعًا ومألوفًا في مجتمع مكة الديمقراطي، ولذلك غالبًا ما يخلط المؤرخون في ما يتعلق **بورقة بن نوفل أو أمية بن أبي الصلت**، مثلًا، بين كونهما اعتنقا النصرانية أو اليهودية، ولم يكن لمثل هذا الخلط أي قيمة تاريخية أو ثقافية. وفي **الطبراني الكبير**[1] يروي **أبو سفيان بن حرب** الرواية التالية:

قال خرجت تاجرًا في رفقةٍ، فيهم **أمية بن أبي الصلت**، فذكر قصةً فيها أن نبيًا يُبعث بالحجاز من قريش، وأنه كان يظن أنه هو، إلى أن تبين له أنه من قريش وأنه يبعث على رأس الأربعين ـ عامًا[2] ـ يضيف أبو سفيان، أن أمية سأله عن **عتبة بن ربيعة** زوج خالته، وكان يعتقد أن **عتبة هذا، وكان من أشراف قريش**، قد يكون هو النبي الموعود. وحين قال له أبو سفيان أنه رجل طاعن في السن، رد أمية متأسفًا: ما دام رجلًا مسنًا وليس في الأربعين، فقد جاوزته النبوة، فرد أبو سفيان بغضب: إن كبر السن زاد **عتبة** شرفًا، فصمت أمية. ثم سأل أبو سفيان **أمية**: **لم لا يكون هو نبيًا**، فقال له إنه جاوزها (قال فلما رجعت إلى مكة وجدت النبي ﷺ قد بعث فلقيت أمية، فقال لي اتبعه، فإنه على الحق. قلت: **فأنت ؟ قال: لولا الاستحياء من صبيات ثقيف إني كنت أحدثهّن إنيّ هو، ثم يرينني تابعًا لغلامٍ من بني عبد مناف**).**في هذا الوقت كان عُتبة الذي يرتبط بعلاقة قرابة حميِمة مع أمية بن أبي الصلت، يشعر بالضيق من اتساع دائرة المسلمين داخل البيت الهاشمي، خصوصًا بعد إسلام الحمزة**[3] . كان عُتبة بن ربيعة سيدًا حليمًا قال ذات يوم وهو جالس في نادي قريش والنبي ﷺ يجلس وحيدًا في فناء الكعبة: يا معشر قريش ألا أقوم إلى هذا فأكلمه أمورًا، لعله أن يقبل بعضها فنعطه أيها شاء ويكف عنا؟ فوافقت قريش على اقتراح عُتبة دون تردد. وبالفعل ذهب إليه وخاطبه بلطف

---

(1) **الإصابة**: 1/ 86.

(2) ابن كثير، **السيرة** : 1/ 123 عن معاوية بن أبي سفيان، عن أبيه، قال: خرجت أنا وأمية بن أبي الصلت الثقفي تجارًا إلى الشام، فكلما نزلنا منزلا أخذ أمية سِفرًا له يقرؤه علينا، فكنا كذلك حتى نزلنا قرية من قرى النصارى فجاؤوه وأكرموه وأهدوا له وذهب معهم إلى بيوتهم.

(3) ابن إسحاق، **السيرة** : 1/ 74.

جمّ (يا ابن أخي إنك منا حيث قد علمت في **العشيرة والمكان في النسب**، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرقت به جماعتهم وسفهت به أحلامهم وعبت به آلهتهم ودينهم، **وكفرت من مضى من آبائهم**، فاسمع مني أعرض عليك أمورًا تنظر فيها لعلك أن تقبل منها بعضها، فقال النبي ﷺ: قل يا أبا الوليد أسمعُ منك. فقال يا ابن أخي إن كنت إنما تريد بما جئت من هذا القول مالًا جمعنا من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالًا، وإن كنت إنما تريد شرفًا شرفناك علينا حتى لا نقطع أمرًا دونك، وإن كنت تريد مُلكًا ملكناك، **وإن كان هذا الذي يأتيك رئيًا تراه ولا تستطيع أن ترده عن نفسك طلبنا لك الطب**، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه، ولعل هذا الذي تأتي به شعر جاش به صدرك، فإنكم لعمري يا بني عبد المطلب تقدرون منه على ما لا يقدر عليه أحد). وما أن فرغ عُتبة من خطبته حتى سأله النبي: أفرغت يا أبا الوليد؟ قال: نعم، قال: فاستمع مني، قال: افعل، فقال بسم الله الرحمن الرحيم ﴿حمٓ ۞ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۞ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا﴾[1] فلما سمعها **عتبة** أنصت له، وألقى بيده خلف ظهره معتمدًا عليها يستمع منه حتى انتهى إلى السجدة فسجد فيها، ثم قال: قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك، فقام عُتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: **نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به**، فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: (ورائي، **إني والله قد سمعت قولًا ما سمعت بمثله قط، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا الكهانة**). لم يكن ثمّة أبلغ من هذا الوصف. لقد بدت بلاغة القرآن الذي كان النبي ﷺ يتلو آياته في كل مكان، قوة ثقافية استعصت على كل وصف، فهي ليست بلاغة الشعر الذي يعرفه العرب، ولا هي بلاغة سجع الكهان **ولا سحرهم. وكانت لنصوص الآيات سحرها الخفي**. إثر ذلك بقليل وفي طريق عودة أميّة من الشام، **وقعت معركة بدر** التي وضعت حدًّا لهذه العلاقة. لكن رواية أخرى[2] ترى **أن أمية تقبل الإسلام بعد هذا اللقاء، وأنه ارتد بعد معركة بدر**، فقد (كان أمية آمن

---

(1) سورة فصلت، الآيات: 1 ـ3.
(2) الإصابة: 1/ 85.

بالنبي، فقدم الحجاز ليأخذ ماله من **الطائف** ويهاجر، فلما نزل بدرًا قيل له: **إلى أين يا أبا عثمان؟ قال: أريد أن أتبع محمدًا** فقيل: له هل تدري ما في هذا القليب قال لا قيل: فيه **شيبة وعُتبة بن ربيعة ابنا خالك**[1]، **فجدع أنف ناقته وشق ثوبه وبكى** وذهب إلى الطائف فمات). لم يتسن لقريش أن تحصل على جواب صريح من أمية على سؤالها بخصوص نبوّة محمد ﷺ والجواب الذي كانت تنتظره بلهفة ورغبة عارمة ليبتّ في أمره، جاء بعد انتشار أنباء معركة بدر، إذ تقول روايات أخرى[2]، أعادت صياغة الرواية الأصلية بطريقة محرّفة قليلًا، أنه عندما عاد من الشام ـ وليس من البحرين ـ نزل بدرًا، ثم ترّجل يريد لقاء النبي ﷺ حين سمع بوجوده في المكان، ولم يكن يرغب في إشهار إسلامه (فتصور له **إبليس في هيئة رجل**، فقال له: يا أبا الصلت ما تريد؟ قال: أريد محمدًا، قال: أتدري من في القليب[3]؟ قال: فيه **عُتبة بن ربيعة وشيبة، ابنا الخالة، فجدع أذني ناقته وقطع ذنبها)**[4]. ما أن سمع **أميّة من إبليس**، حسب رواية **ابن الأثير**، أن ابني خالته قتلا، حتى اتجه صوب الطائف فقدم على أخته (فقال: دعيني أنام، فوضع رأسه، قالت أخته: فإني انظر **فانشقت ناحية من سقف البيت، فإذا طائران أبيضان، فوقع أحدهما على بطن أمية فنقر صدره نقرة فشقته، فأخرج قلبه**، فقال له الطائر الأعلى: **أوعى**، قال: وعى، قال: أقبل، قال: **أبى**، قال: **ثم رد قلبه وطار، فاتبعهما أمية ببصره**، فقال: لبيكما، لبيكما ها أنا ذا لديكما، لا مال يغنيني ولا عشيرة تحميني. واستوى السقف، فاستوى أمية جالسًا، فقالت أخته: يا أخي هل تجد شيئًا، قال: لا إلا حرًا في صدري، وجعل يمسح صدره)[5]. ثم خرج من عندها حتى أدركه الموت.

---

(1) في رواية **الإصابة** هما بني خاله، وفي رواية **المنتظم** 3/ 146 هما ابني خالته.

(2) **الإصابة**، كذلك، وفيه نزلت آية ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا﴾[الأعراف: 175].

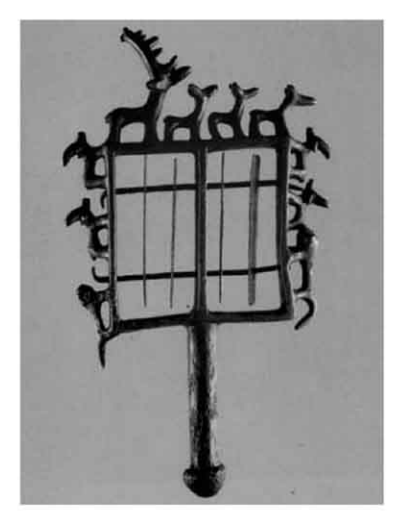
(3) القليب بين مكة والطائف.

(4) جدع أنف أو أذن الناقة.

(5) **ديوان أمية**: ص 516، **والبداية والنهاية** 2 / 285، **والأغاني** 4 / 129: **البداية والنهاية** (قال مؤلف الكتاب: ومعنى قولها: وثب على سريري اتكأ، أي نام، وهي لغة حميرية يقال: وثب الرجل إذا قعد. أخبرنا ابن ناصر، قال: أخبرنا أبو عبد الله الموصلي، قال:









أخبرنا أبو القاسم بن بشران، قال: حدثنا أبو سهل بن زيد قال: أخبرنا إسماعيل بن إسحاق القاضي، قال: حدثنا العلاء بن الفضل بن عبد الملك، قال: حدثني محمد بن إسماعيل بن الطريح بن إسماعيل الثقفي، عن أبيه، عن جد أبيه قال: شهدت أمية من أبي الصلت حين حضرته الوفاة فأغمي عليه طويلًا فرفع رأسه، ونظر إلى باب البيت فقال: لبيكما، لبيكما ها أنا ذا لديكما، لا قوي فأنفر ولا بريء فأعتذر. ثم أغمي عليه طويلًا ثم أفاق، فرفع رأسه ونظر إلى باب البيت فقال: لبيكما، لبيكما ها أنا ذا لديكما لا عشيرتي تحميني ولا ذو مال يفديني.

ثم أغمي عليه طويلًا ثم أفاق فرفع رأسه، فقال:

كل حي وإن تطاول دهرًا — صائر مرة إلى أن يزولا

(الفاكهي: 1901 - حدثنا حسن بن حسين أبو سعيد، قال : حدثنا علي بن الصباح، قال: حدثنا هشام بن الكلبي عن أبيه، قال: أنشد النبي ﷺ شعر أمية بن أبي الصلت، فقال ﷺ آمن شعره وكفر قلبه).

وهذه الرواية يرويها **الفاكهي**[1] ويعيد صياغتها على النحو التالي:

عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: حدثتني **أخت أمية بن أبي الصلت أو ابنته**، قالت: بينا أمية بالطائف نائمًا على سرير له وأنا على باب البيت **أدبغ**[2] **إهابًا**[3] لي، **إذ أقبل طائران أبيضان** فوقعا على البيت، ففرجا السقف، **فأقبل أحدهما حتى وقع على صدر أمية**، ووقف الآخر مكانه، قالت: **ففرج صدره ثم اطلع فيه**، فقال له الذي فوق السطح: وعى، قال: وعى، قال: زكا، قال: **أبى**[4] قالت: فطارا واستوى السقف وقام أمية يقول: واصدراه، وجعلت أصرخ واميتاه، قلت: وإنك لحي؟ قال نعم، فأخبرته بما رأيت، فقال: أراد الله بي خيرًا فصرفه عني والله لا تزال حزازة في نفسي حتى أموت». وسمعت إبراهيم بن أبي يوسف المكي يحدث، قال حدثنا عبد المجيد بن أبي رواد عن سفيان الثوري عن محمد بن السائب الكلبي، عن أبي صالح عن ابن عباس، رضي الله عنهما قال: حدثتني **الفارعة أخت أمية بن أبي الصلت** قالت: حضرت أمية بن أبي الصلت، ثم ذكر نحو الحديث الأول، وزاد فيه: فقال أمية: **لبيكما لبيكما، ها أنا ذا لديكما**، إني لا ذو قوة فأنتصر ولا ذو مرة فأعتذر. قال: ثم أغمي عليه، ثم أفاق فقال مثل قوله الأول: لبيكما لبيكما، ها أنا ذا لديكما، ثم قال: **إنْ**

(1) الفاكهي، **أخبار** : فقرة 1899 ـ 1900 - حدثنا محمد بن أبي عمر، قال : حدثنا سفيان عن زائدة عن عبد الملك بن عمير عن أبي سلمة، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ قال: «إن أصدق بيت قاله شاعر: ألا كل شيء ما خلا الله باطل، وكاد أمية بن أبي الصلت أن يسلم».

(2) معالجة الجلد بمادةٍ لِيَلِينَ ويزول ما به من ونتن.

(3) الجلد من البقر والغنم والوحش ما لم يُدبغ.

(4) رفض وامتنع.

تغفر اللهم تغفر جمّا وأيَّ عبدٍ لك لا ألمَّا ثم أغمي عليه، ثم أفاق وهو يقول:

كــــل عـــيـــش وإنْ تـــطـــاول دهـــرًا
صـــــائـــــر أمـــــره إلى أن يـــــزولا

ليتني كـــنـــتُ قـــبـــل مـــا قـــد بـــدا لي
في قـــلال الجـــبـــال أرعـــى الـــوعـــولا

ويقال في بعض الموارد الإسلامية، إن العرب جميعًا أخذت من أمية قوله: (**باسمك اللهُّم) وأنه أول من قالها**[1] **ومعلوم أن شعر أمية يمتاز بخاصيّة فريدة، فهو شعر ديني** فيه ضروب من دلائل التوحيد، والإقرار بالبعث والجزاء والجنة والنار[2]. **ويبدو أن المسلمين المتأخرين، وتحت تأثير قصص الصراع بين أمية والنبي ﷺ رفضوا (الاعتراف بهذا الشعر، ورأى بعضهم أنه منحول** (صحّحه يونس بن حبيب وحماد الرواية)[3]. لكن المروية الخاصّة بلقاء النبي ﷺ مع شقيقة أمية، توضحّ على العكس ممّا ذهب إليه هؤلاء، أن شعره الديني كان يستهويه بصورة استثنائية، فعندما قدمت **الفارعة**[4] على النبي بعد فتح الطائف، وكانت ذات لبّ وعفاف وجمال (وكان رسول الله ﷺ

---

(1) **الروض،** 4/ 48 (وَأَمّا قَوْلُ سُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو لَهُ- أي للنبي - وَلَكِنْ اُكْتُبْ بِاسْمِك اللّهُمّ، فَإِنّهَا كَلِمَةٌ كَانَتْ قُرَيْشٌ تَقُولُهَا. وَأَوّلُ مَنْ قَالَهَا أُمَيّةُ بْنُ أَبِي الصّلْتِ، وَمِنْهُ تَعَلّمُوهَا وَتَعَلّمَهَا هُوَ مِنْ رَجُلٍ مِنْ الْجِنّ).

(2) ابن عبد البر، **الاستيعاب في معرفة الأصحاب** 1/ 478.
http://www.alwarraq.com ـ مصدر الكتاب : موقع الوراق.

(3) ابن عبد البر: **الاستيعاب**: 1/ 478، **عيون الأخبار**1/ 351.

(4) ابن عبد البر: **الاستيعاب** 3/ 111:

باتت همومي تسري طوارقها — أكف عيني والدمع سابقها
ما رغب النفس في الحياة وإن — تحيا قليلًا فالموت سائقها
يوشك من فرَّ من منيته — يومًا على غرة يوافقها
من لم يمت غبطة يمت هرمًا — للموت كأس والمرء ذائقها

يعجب بها)[1] فإن أول سؤال طرحه عليها هو (**هل تحفظين من شعر أخيك شيئًا فأخبرته خبره وما رأت منه وقصت قصته في شق جوفه وإخراج قلبه ثم** صرفه مكانه وهو نائم) فقال النبي ﷺ يا فارعة كان مَثلُ أخيك كمثل الذي آتاه الله آياته (**فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين**)[2]. وقد يكون من المحتمل أن المؤلفين المسلمين، قاموا في وقتٍ تالٍ من انتصار الإسلام، باستلهام **قصة الفارعة عن الملاكين اللذين شقا صدر أمية بن أبي الصلت** في كتابة مروية مشابهة عن النبي ﷺ يشوبها الكثير من الاضطراب عن ملاكين أو رجلين جاءا من السماء، وقاما بشق صدره وإخراج قلبه وتنظيفه بالماء والثلج، فتارة يقال إن الحادث وقع له عندما كان صغيرًا يرعى الأغنام، وتارة يقال إنه وقع أثناء الإسراء. يقول ابن إسحاق[3] في السيرة، نقلًا عن مرضعته حليمة السعدية، وهذه نقلًا عن ابنها الذي كان في صحبته في البرية، إن النبي يوم كان صغيرًا كان (**مع أخ له من الرضاعة في بهم لنا، جاءنا أخوه يشتد، فقال: ذاك أخي القرشي قد جاءه رجلان عليهما ثياب بيض، فأضجعاه فشقا بطنه. فخرجت أنا وأبوه نشتد نحوه، فنجده قائمًا منتفعًا لونه، فاعتنقه أبوه، وقال: أي بني، ما شأنك؟ قال: جاءني رجلان عليهما ثياب بيض، فأضجعاني فشقا بطني، ثم استخرجا منه شيئًا فطرحاه، ثم رداه كما كان، فرجعنا به معنا، فقال أبوه: يا حليمة لقد خشيت أن يكون ابني قد أصيب، انطلقي بنا، فنرده إلى أهله**).

وحسب كُتّاب السيرة، فقد قصّ النبي هذه الرواية في أكثر من مناسبة، فعن (يحيى بن جعدة، قال: قال رسول الله ﷺ: إن ملكين جاءاني في صورة

(1) **الاستيعاب**، المصدر نفسه.

(2) **الاستيعاب**: كذلك (وذكر الخبر بتمامه محمد بن إسحاق عن ابن شهاب عن سعيد بن المسيب واختصرته واقتصرت منه على النكت التي يجب الوقوف عليها، حدثنيه بتمامه أبو القاسم خلف بن قاسم قال: حدثنا أحمد بن الحسن بن عتبة الرازي قال: حدثنا روح بن الفرج القطان قال: حدثنا وثيمة بن موسى، قال: حدثنا سلمة بن الفضل عن ابن إسحاق قال: حدثني محمد بن شهاب عن سعيد بن المسيب قال: قدمت الفارعة بنت أبي الصلت على رسول الله ﷺ فذكر الحديث بتمامه).

(3) ابن إسحاق، **السيرة**، 1/ 29.

كركين، معهما ثلج وماء بارد، فشرح أحدهما صدري، ومج الآخر منقاره، فغسله)[1]. هذا الدمج الخلاق والمدهش لمرويتين، أحداهما تخص أمية الذي تصورّ نفسه نبيًّا، وأخرى تخص النبي ﷺ لا ينبغي أن يُنظر إليه على أنه مجرد محاكاة قام بها السارد المسلم لبقايا أسطورة يبدو أنها كانت شائعة في الجاهلية، وإنما بوصفه محاولة لتقديم دلائل قوية على النبوّة، وهو أمر، كما نعلم، كان موضوعًا سجاليًا في مجتمع مكة الديمقراطي، فقد ارتدّت بعض القبائل بعد وفاة النبي، وشاعت قصص عن التشكيك بنبّوته. ومع ذلك، يستحق هذا الدمج معالجة خاصة سوف نقوم بها في سياق سرد العلاقة بين النبي ﷺ وأميّة .**كان أمية حسب مرويات الإخباريين المسلمين تاجرًا**، وكان يقود قوافل التجارة إلى الشام بنفسه (فلقي أهل الكتاب وأخبروه أن نبيًا يبعث في العرب، فلما بلغه ظهوره ـ عليه الصلاة والسلام ـ **اغتاظ وتأسف**، ثم أتى المدينة يسلم، فرده الحسد، فرجع إلى الطائف، فبينما هو يشرب مع فتية، إذ صاح غراب ثلاثة أصوات وطار، فقال: أتدرون ما قال؟ قالوا: لا، قال: إنه يقول: **إن أمية لا يشرب الكأس الثالثة حتى يموت**، فقالوا: لتكذبن. قال: أحسوا كأسكم، فلما انتهت إليه أغمي عليه، فسكت طويلًا، ثم أفاق)[2] فقال:

لبيكما لبيكما،

ها أنا ذا لديكما،

---

(1) ابن قتيبة الدينوري، **عيون الأخبار**: 1/ 252 (حدّثني العَلاء بن الفضل قال: حدّثني محمد بن إسماعيل عن أبيه عن جده عن جد أبيه قال: سمعتُ أميةَ بن أبي الصلْت عند وفاته وأغميَ عليه طويلًا ثم أفاق، ورفع رأسه إلى سقف البيت وقال: لبيكما لبيكما، ها أنا ذا لديكما، لا عشيرتي تَحمِيني، إلا مالي يَفدِيني. ثم أغميَ عليه طويلًا ثم أفاق فقال:

كل عيش وإن تطاولَ دهرًا صائرٌ مرة إلى أن يزولا

ليتني كنتُ قبل ما قد بدا لي في رؤوس الجبال أرعَى الوُعُولا

ثم فاضت نفسُه).

(2) **تاريخ دمشق**1/ 213 (قيل: إنه من حضرموت ولكن عداده في ثقيف روى عنه ابن عمرو ابن الشريد ويعقوب بن عاصم، يعد في أهل الحجاز. روى أبو عاصم قال: حدثنا عبدالله ابن عبد الرحمن بن يعلى قال: حدثني عمرو بن الشريد أن أباه أخبره أنه أنشد النبي ﷺ من شعر أمية بن أبي الصلت مائة قافية فقال: كاد يسلم - يعني أمية).

ثم أنشأ يقول:

إنّ يوم الحساب يومٌ عظيمٌ شاب فيه الصّغير يومًا طويلا
ليتني كنت قبل ما قد بدا لي في رؤوس الجبال أرعى الوعولا
كلّ عيشٍ وإن تطاول دهرًا صائرٌ مرّةٌ إلى أن يزولا

من منظور العلاقات الدلالية، يمكن قراءة القصيدة بالتلازم مع قراءة حكاية **غزال الكعبة الذهبي**، فالشاعر المتأله، الحائر والباحث عن دين عظيم، والذي خيّل إليه في الكثير من اللحظات الوجدانية العميقة، أنه النبي المنتظر، لا يجد مناصًا من التفكير بمعنى الوجود، ويتمنى لو أنه من قبل أن يكتسب وعيه الشقيّ بالعالم، كان في رؤوس الجبال مع الوعول (يرعى الوعولا). إن الترابط بين الدلالات والرموز، يتضح في هذا المنحى من التفكير، فعبادة الإله الوعل (الأيل الإله الذكر- ءيل) البدئية، والقديمة التي عرفتها العرب، تظل أقل تطلبًا من التفكير بالطريقة المثلى للتقرّب من الله. ولأن **الغزال، الإلهة الأنثى كانت من معبودات العرب وآلهتها الطوطمية**، وأشكال التقرّب والطقوس والشعائر المصاحبة لعبادتها أقل تطلبًا كذلك؛ فإن استذكارها سيبدو ترياقًا شافيًا من الحيرة والاضطراب، وهو أمر تكشف عنه القصيدة بوضوح. كان أميّة، حين وقعت حادثة سرقة الغزال الذهبي، من أكثر الأشخاص الذين لم يولوا المسألة أدنى اهتمام، فقد بدا، بالنسبة لثقيف وحتى لقريش نفسها في ذروة مجده الشعري والروحي كشاعر - نبي، وهذا تقليد عربي قديم نجده في اليهودية، حيث كل الأنبياء كانوا من الشعراء.

وفي هذا العصر، كان النبي ﷺ محاطًا بشعراء ومتألهين وعبّاد وشعراء موحدين وخطباء كانوا جميعًا من الأحناف الحائرين الباحثين عن مخلص يعيد بعث دين إبراهيم، ولذا بدت صداماته مع قراباته الأسرية وكأنها مجرد تفصيل ثانوي وشديد العرضية، أمام صدام من نوع آخر كان يكتسب في كل لحظة من لحظاته، بُعده كمواجهة بين أديان صغيرة لم تختمر بالتجربة الروحية الكبرى بعد، وبين دين جديد يَعدُ **العرب برسالة عالمية**[1]. كان

(1) الملل والنحل 1/ 204.

هناك إلى جانب **أمية**، **ورقة بن نوفل**، **وزيد بن عمرو بن نفيل**[1] الذي التقى بالنبي يوم كان شابًا، ثم التقى به بعد البعثة النبوية. يروي أبو بكر الصديق[2] رضي الله عنه أنه كان جالسًا بفناء الكعبة، وكان **زيد بن عمرو بن نفيل** قاعدًا، فمرّ به **أمية بن أبي الصلت** فقال: كيف أصبحت يا باغي الخير؟ قال: بخير. قال: هل وجدت؟ قال: لا، ولم آل من طلب. فقال:

كل دين يوم القيامة إلا ما قضى الله والحنيفة بور

ثم أردف وهو يخاطبه (أما إن هذا النبي الذي يُنتظر، منا أو منكم، أو من أهل فلسطين). كان **زيد** في هذا الوقت يقضي الكثير من أوقاته في فناء الكعبة، وبدت له أنباء ظهور نبي في بيت عبد المطلب أنباء سارة، ويقال إنه في أحدى المرات كان يسند ظهره إلى الكعبة، وهو يردد بصوت مرتفع: أيها الناس هلموا إليَّ؛ **فإنه لم يبق على دين إبراهيم أحد غيري. حدث اللقاء الأول بينه وبين النبي ﷺ حين اضطرّته قريش إلى الخروج من مكة، وذلك حين عاد النبي حزينًا من الطائف، بعدما واجه هناك صدودًا غير مسبوق. وفي طريق عودته من الطائف التقى بزيد. والنبي يروي بنفسه قصة هذا اللقاء. قال ﷺ**: (**أقبلت من الطائف ومعي زيد بن حارثة**، وعاب عليَّ الأوثان، ونهاني عنها) **وحين رأى أن الطعام الذي دعاه النبي لتناوله كان من اللحوم، قال له**: (أتذبحون لأوثانكم؟ فقلت: نعم، فقال: **أما إنك يا ابن أخي لو سألت بنات عبد المطلب أخبرنك أني لا آكل هذه الذبائح**، فلا حاجة لي بها، ثم عاب عليَّ الأوثان ومن يعبدها ويذبح لها، وقال: إنما هي باطل لا تضر ولا تنفع)[3].

ويروي **ابن إسحاق**[4] رواية مثيرة في هذا السياق، يقول (كان **زيد** قد أجمع الخروج من مكة ليضرب في الأرض يطلب **الحنيفية دين إبراهيم** عليه السلام، فكانت امرأته **صفية** بنت الحضرمي، كلما رأته تهيأ للخروج وأراده، آذنت به

---

(1) جد عمر بن الخطاب.

(2) **أسد الغابة** 2/ 139، 140.

(3) ابن كثير، **السيرة** 2/ 389.

(4) ابن إسحاق : **السيرة** 1/ 94.

الخطاب بن نفيل، وكان الخطاب وكلّها به فقال، إذا رأيته همَّ بأمر فآذنيني به. ثم خرج يطلب دين إبراهيم ﷺ، ويسأل **الرهبان والأحبار** حتى بلغ **الموصل**، والجزيرة كلها، ثم أقبل فجال الشام كلها حتى إذا انتهى إلى **راهب** بميفعة[1] من الأرض البلقاء، كان ينتهي إليه علم **النصرانية**[2] فيما يزعمون فسأله عن الحنيفية دين إبراهيم، فقال: إنك لتطلب دينا ما أنت بواجد من يحملك عليه اليوم، ولكن قد أظلك زمان نبي، يخرج من بلادك التى خرجت منها، يبعث بدين إبراهيم الحنيفية فالحق به فإنه مبعوث الآن هذا زمانه). كان زيد في هذا الوقت رجلًا مسنًا وقد تعرّف على **اليهودية والنصرانية** فلم يرض منهما شيئًا، فخرج سريعًا يريد مكة، بعدما أخبره الراهب، حتى إذا توسط **بلاد لخم**، خرجت عصابة من اللصوص فقتلته[3].

وحسب رواية ابن إسحاق، فقد نسخ زيد **نسخة من الإنجيل** ظل يحتفظ بها، وهذه النسخة بحسب زعم الرواة تعود إلى زمن عيسى ابن مريم، وهو عصر لا نعرف عنه من المنظور التاريخي(الأركيولوجي) أي شيء دقيق. قال: **(ونسخ لهم الإنجيل من عهد عيسى ابن مريم)**[4]. أما **ابن كثير**، فهو يروي الرواية التالية عن **زيد**[5]: حدثنا عبد الله بن محمد البلوي، حدثنا عمارة بن زيد، قال: حدثني عبد الله بن العلاء، عن هشام بن عروة عن أبيه، عن جدته أسماء بنت أبي بكر، **قالت: كان زيد بن عمرو بن نفيل، وورقة بن نوفل** يذكران أنهما أتيا **النجاشي** بعد رجوع أبرهة من مكة، قالا: فلما دخلنا

---

(1) الميفعة العالي من الأرض.

(2) من الواضح أن المقصود من هذه العبارة الطويلة والمرتبكة، أن زيد ذهب إلى واحدة من الأديرة الكثيرة في منطقة الجزيرة (الرقة ودير الزور).

(3) المسعودي، **مروج الذهب** 1/ 37 : ممن كان في الفترة: زيد بن عمرو بن نُفَيْل، أبو سعيد بن زيد أحد العَشَرَة، وهو ابن عم عمر بن الخطاب لَحًّا، وكان زيد يرغب عن عبادة الأصنام، وعابها فأولع به عَمُّه الخطابُ سفَهاء مكة، وسلطهم عليه، فآفهُ، فسكن كهفًا بحراء، وكان يدخل مكة سرًا، وسار إلى الشام يبحث عن الدين، فسمته النصارى، ومات بالشام.

(4) ابن إسحاق، المصدر نفسه (كلا ورب الكعبة. ليعودن ما باد، ولئن ذهب ليعودن يومًا).

(5) المصدر نفسه.

عليه قال لنا: أصدقاني أيها القرشيان، هل ولد فيكم ـ مولود، أراد أبوه ذبحه فضرب عليه بالقداح فسلم، ونحرت عنه إبل كثيرة ؟ قلنا: نعم). وُيفهم من هذه الرواية أن قصة ولادة الإسلام في مجتمع مكة الديمقراطي لم تكن موضوعًا خلافيًا حول المسألة الدينية في الأصل، بمقدار ما كانت موضوعًا صراعيًا داخل مجتمع القرابات، وهو مجتمع متشعب البطون والفروع، وحيث تتشابك المصالح والرؤى بين الأفراد والأسر. ولأننا نتقبّل كليًّا سائر الروايات التي تناولت مسألة وجود زيارات منتظمة لرجالات قريش وساداتها إلى الحبشة المسيحية، وهذا ما تؤكده العلاقات التجارية (الإيلاف) وبالطبع بصرف النظر عن بعض المبالغات؛ فإن لمن المرجح أن مسيحيي الحبشة الذين تشبعوّا بعقيدة المسيح المخلص الموعود، كانوا يسألون بالفعل، الأعراب والتجار القادمين من مكة، سواء من قبيل الفضول أو بدوافع محض دينية، وهؤلاء نقلوا بالتواتر أبًا عن جد كل ما سمعوه من مسيحيي الحبشة والشام. ولأن زيد بن عمرو بن نفيل كان سيّدًا مطاعًا، فقد تربى ابنه سعيد في أجواء توحيد ديني أسري. كان **سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل**، يرى أباه **يذم دين قريش**، وحين بعث النبي ﷺ، وذهب إليه يطلب الإسلام فأسلم[1] طواعية، وكان والده زيد في هذه الأثناء قد أخرجته قريش من مكة، فكان يستقبل البيت ثم يقول: **لبيك حقًا حقًا، تعبدًا ورقًا، البر أرجو لا الخال، هل مهجر كمن قال.** ثم أنه كان يردد:

عذت بما عاذ به إبرهم[2] مستقبل الكعبة وهو قائم

يقول أنفي لك عان راغم مهما تجشمني فإني جاشم

وهذا البيت المنسوب لزيد بن عمرو بن نفيل، هو في جوهره تلبية من التلبيات الدينية غير المألوفة، فالرجل إذ يستقبل الكعبة بذكر إبرهم، يعلن عن أن أنفه خاضع وذليل في حضرته، وإبرهم صيغة من صيغ اسم النبي إبراهيم، ولكنها كانت تعني على نحو ما اسم إله عربي قديم (جد أعلى). والأمر الهام في هذا النطاق، أن البيت يعطي فكرة دقيقة عن **طقوس جدع الأنف،**

---

(1) **أنساب الأشراف** 1/ 197.

(2) إبراهيم النبي.

فمستقبل الكعبة يلبي، معلنًا أن أنفه، أمام الإله وفي حضرته عانٍ، أي خانع وخاضع. ولذلك، يبدو أن **جدع الأنف** ارتبط دينيًا في الجاهلية بطقس الخضوع للإله، بما أن الكبر والشعور بالقوة والغطرسة عند البشر يتلازم مع تصور الأنف كرمزٍ أو تعبير عن الشموخ (ومنه الأنفة). وحين خرج النبي لقضاء العمرة بمكة، بعد عودته من الطائف، بعث إليه **حويطب بن عبد العزى** قائلًا: إنّ أجلك قد مضى، ونقض الشرط، فأخرج من بلدنا، فقال له **سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل**: **كذبتَ، البلد بلد رسول الله وآبائه.** لقد كان سعيد وبوحي من حادثة إخراج أبيه من مكة بسبب تلبياته (التي بدت غريبة) يقف موقفًا شجاعًا في وقتٍ لم يكن فيه النبي ﷺ يملك أي إمكانية على صدّ اعتداء من هذا النوع. وفي هذا العصر كان هناك من يعتقد بالتوحيد ويؤمن بيوم الحساب، مثل **القس** (بن ساعدة الأيادي) الذي ظل يردد في مواعظه[1]:

كلا بل هو الله إله واحد ليس بمولود ولا والد

تعرّف **النبي** ﷺ إلى **القس** (قس) **بن ساعدة** بصورة غير مباشرة، فحين كان خطيب العرب المفوّه، يخطب في أسواق عكاظ وفي مواسم الحج، داعيًا إلى دين إبراهيم، كان النبي غلامًا يافعًا وقد سمع بعض مواعظه وأعجب بها، ولكنه نسي الكثير منها. وذات يوم استمع إلى أحد المسلمين، وهو يروي رواية أسطورية عن القس بن ساعدة، ولكن دون أن يبدي أي رفض لها. تقول الأسطورة التي سمعها النبي من أحد المسلمين: أن القس بن ساعدة كان يجلس تحت ظل شجرة وبيده قضيب من أراك ينكب به الأرض[2] وهو يترنم بشعر، فدنوت منه فسلمت عليه فرد علي السلام، وإذا أنا **بعين خرارة في أرض خوارة، ومسجد بين قبرين، وأسدين عظيمين** يلوذان به، **ويتمسحان بأثوابه**، فإذا أحدهما سبق الآخر إلى الماء، فتبعه الآخر يطلب الماء. فضربه بالقضيب في يده وقال: ارجع ثكلتك أمك حتى يشرب الذي ورد قبلك، فرجع ثم ورد بعده، فقلت له: **ما هذان القبران.** فقال: هذان قبرا أخوين لي، كانا يعبدان الله عز وجل معي في هذا الحال، لا يشركان بالله

---

(1) **الملل والنحل** 1/ 204.

(2) **مختصر تاريخ دمشق** 1/ 136.

عز وجل شيئًا، فأدركهما الموت فقبرتهما، وها أنا بين قبريهما حتى ألحق بهما، ثم نظر إليهما فتغرغرت عيناه بالدموع، وانكب عليهما يقول:

خليليَّ هبا طالما قد رقدتما أجدكما لا تقضيان كراكما

ألم تريا أني بسمعان[1] مفردٌ وما لي فيها من خليل سواكما

مقيمٌ على قبريكما لست بارحًا طوال الليالي أو يجيب صداكما

أبكيكما طول الحياة وما الذي يرّدُ على ذي عولةٍ إن بكاكما

فإنكما والموت أقرب غائبٍ بروحي في قبريكما قد أتاكما

أمن طول نومٍ لا تحسان داعيًا كأن الذي يسقي العقار سقاكما

فلو جعلت نفسٌ لنفسٍ وقايةً لجدت بنفسي أن تكون فداكما

فقال رسول الله ﷺ رحم الله قسًا، إني أرجو أن يبعثه الله عز وجل أمة وحده). إن رواية المسلم عن **القس بن ساعدة** والتي تدور في **دير سمعان** ـ كما يشير البيت ـ وهي رواية أصغى لها النبي ﷺ دون اعتراض أو رفض، تتضمن بعض العناصر الهامة عن نظام الدلالات والرموز في السرد الإخباري، فعين الماء وتمثالي الأسدين (وهما في الحكاية كائنين حيين يفهمان لغة القس ويطيعان أوامره) هي من الصور المحرّفة للعلاقة بين **الغزال الذهبي المدفون في زمزم والماء المقدس الذي لا ينضب.ويخيّل إليّ أن لقب القس أصبح اسمًا لابن ساعدة، وبحيث اعتاد الإخباريون على كتابة الاسم في الصورة التالية: قس بن ساعدة وليس القس بن ساعدة. وفضلًا عن وجود القس في عصر النبي** كان هناك **عامر بن الظرب العدواني**، وهو من شعراء العرب وخطبائهم، وله وصية طويلة يقول في آخرها:

ما رأيت شيئًا قط خلق نفسه، ولا رأيت موضوعًا إلا مصنوعًا، ولا جائيًا إلا ذاهبًا، ولو كان يميت الناس الداء لأحياهم الدواء. وإني أرى أمورًا شتى، وحتى؛ قيل له:

---

(1) دير سمعان شمال سورية– بلاد الشام . ومن الواضح أن هذا البيت من وضع مسلمين متأخرين.

وما حتى؟ قال: حتى يرجع الميت حيًا، ويعود لا شيء شيئًا؛ ولذلك خلقت السموات والأرض[1].

كان عامر قد حرم الخمر على نفسه، مثله مثل **النابغة الذُّبياني**[2] الذي امتاز شعره بنفحات إيمانية نالت حب وإعجاب القبائل حتى الوثنية منها. قال **أبو عبيدة معمر بن المثنى**: كان النابغة ممن فكر في الجاهلية وأنكر الخمر والسكر وهجر الأزلام واجتنب الأوثان **وذكر دين إبراهيم** وهو القائل القصيدة التي فيها:

الحمد لله لا شريك له من لم يقلها فنفسه ظلما

ومن حرمها في الجاهلية: **قيس بن عاصم التميمي، وصفوان بن أمية بن محرث الكناني، وعفيف بن معدي كرب الكندي** وقد حرم **الخمر والزنا** على نفسه، فقال:

سالمت قومي بعد طول مضاضة والسلم أبقى في الأمور وأعرف

وتركت شرب الراح وهي أثيرة والمومسات؛ وترك ذلك أشرف

و(ممن كان يؤمن بالخالق تعالى، وبخلق آدم عليه السلام: **عبد طابخة بن ثعلب ابن وبرة** من قضاعة)[3]. كل هؤلاء الشعراء والخطباء والمتنبئين والموحدين، استمعوا إلى النبي ﷺ أو استمع إليهم يوم كان غلامًا، وبعضهم دخل في نزاع معه كما هو الحال مع أمية بن أبي الصلت. وحين نَزَلَتْ ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾[4] جَاءَ **عَبْد اللَّه بْن رَوَاحَة وَحَسَّان بْن ثَابِت وَكَعْب بْن مَالِك**[5] وَهُمْ يَبْكُونَ فَقَالُوا: يَا رَسُول اللَّه، أَنْزَلَ اللَّه هَذِهِ الْآيَة

(1) **الملل والنحل**، المصدر نفسه.

(2) **الإصابة** 3/ 178.

(3) المصدر نفسه.

(4) ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري**: 17/ 337.

(5) ابن حجر العسقلاني: **فتح الباري**، 17/ 337 قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ جَاءَ عَبْد اللَّه بْن رَوَاحَة وَحَسَّان بْن ثَابِت وَكَعْب بْن مَالِك وَهُمْ يَبْكُونَ فَقَالُوا: يَا رَسُول اللَّه أَنْزَلَ اللَّه هَذِهِ الْآيَة وَهُوَ يَعْلَم أَنَّ شُعَرَاء. فَقَالَ اِقْرَأُوا مَا بَعْدهَا ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أَنْتُمْ ﴿وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟﴾[الشعراء: 224 و227] أَنْتُمْ. وَقَالَ السُّهَيْلِيُّ:

وَهُوَ يَعْلَم أَنَّا شُعَرَاء. فَقَالَ اِقْرأوا مَا بَعْدهَا ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أَنْتُمْ ﴿وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْۗ﴾ أَنْتُمْ. وَقَالَ السُّهَيْلِيُّ: نَزَلَتْ الآية فِي الثلاثة، وَإِنَّمَا وَرَدَتْ بالإبهام لِيَدْخُل مَعَهُمْ مَنْ اقْتَدَى بِهِمْ، وَذَكَرَ الثَّعْلَبِيّ مَعَ الثلاثة **كَعْب بْن زُهَيْر بِغَيْرِ إِسْنَاد**. إن الأساطير والمرويات والقصص التي سردت حكاية **نبوّة أمية**[1]، هي في نطاق هذا النزاع، لكنها في ما يتصل بصراع النبي مع أمية، اتسمت بأنها تكرر على نحو مثير للتساؤل، حادثة ارتبطت بحياة النبي ﷺ نفسه، وهي التي يعرفها كتاب السيرة النبوية بحادثة «**شق الصدر**» عندما كان صبيًا يرعى الأغنام، وجاءه ملاكان شقا صدره. تقول أساطير شق صدر أمية أنه عرف الحادث نفسه، عندما هبط ملاكان وثقبا سقف منزل شقيقته الفارعة حين عاد من سفر طويل، وسمع بنبأ مصرع ابني خالته. تقول رواية **ابن الأثير**[2] أن أمية كان راقدًا (ومعه ابنتان له إذْ فزعت إحداهما فصاحت عليه، فقال لها: ما شأنك قالت: رأيت **نسرين كشطا سقف البيت**، فنزل أحدهما إليك فشق بطنك، والآخر واقف على ظهر البيت فناداه فقال: أوعى؟ قال: نعم، قال: أزكى؟ قال: لا، فقال ـ أمية لابنتيه ـ ذاك خير أريد بأبيكما)[3]. يضيف **ابن الأثير** (وقد روي من وجه آخر بسياق آخر فقال إسحاق بن بشر عن محمد بن إسحاق عن الزهري عن سعيد بن المسيب وعثمان بن عبد الرحمن عن الزهري عن سعيد بن المسيب قال: قدمت **الفارعة أخت أمية بن أبي الصلت** على رسول ﷺ بعد

نَزَلَتْ الْآيَة فِي الثَّلَاثَة، وَإِنَّمَا وَرَدَتْ بِالْإِبْهَام لِيَدْخُل مَعَهُمْ مَنْ اقْتَدَى بِهِمْ، وَذَكَرَ الثَّعْلَبِيّ مَعَ الثَّلَاثَة كَعْب بْن زُهَيْر بِغَيْرِ إِسْنَاد، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وله: قَالَ ابْن عَبَّاس: (فِي كُلّ لَغْو يَخُوضُونَ)صَلَهُ ابْن أَبِي حَاتِم وَالطَّبَرِيّ مِنْ طَرِيق مُعَاوِيَة بْن صَالِح عَنْ عَلِيّ بْن أَبِي طَلْحَة عَنْ ابْن عَبَّاس فِي قَوْله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ﴾[الشعراء: 225] قَالَ: فِي كُلّ لَغْو، وَفِي قَوْله: ﴿يَهِيمُونَ﴾[الشعراء: 225] قَالَ: يَخُوضُونَ. وَقَالَ غَيْره يَهِيمُونَ أَيْ يَقُولُونَ فِي الْمَمْدُوح وَالْمَذْمُوم مَا لَيْسَ فِيهِ، فَهُمْ كَالْهَائِمِ عَلَى وَجْهه وَالْهَائِم الْمُخَالِف لِلْقَصْدِ.

(1) ابن عبد البر، **الإنباه على قبائل الرواة**: 1/ 2 قال: وقد وجدنا طائفة من علماء العرب تحفظ لمعد أربعين أبًا بالعربية إلى إسماعيل، وتحتج في أسمائهم بالشعر، من شعر أمية ابن أبي الصلت وغيره، من علماء الشعر بأمر الجاهلية ومطالعة الكتب.

(2) ابن الأثير، **البداية والنهاية** 2/ 282.

(3) ابن منظور، **مختصر تاريخ دمشق** 2/ 121.

فتح مكة، وكانت ذات لب وعقل وجمال، وكان رسول الله ﷺ بها معجبًا فقال لها ذات يوم: يا فارعة هل تحفظين من شعر أخيك شيئًا ؟ فقالت نعم، وأعجب من ذلك ما قد رأيت، قالت: كان أخي في سفر فلما انصرف بدأني فدخل عليّ، فرقد على سريري وأنا أحلق أديمًا في يدي، إذ **أقبل طائران أبيضان أو كالطيرين أبيضين** فوقع على الكوّة أحدهما، ودخل الآخر فوقع عليه **فشق الواقع عليه ما بين قصه إلى عانته**، ثم أدخل يده في جوفه فأخرج قلبه فوضعه في كفه، ثم شمه فقال له **الطائر الآخر: أوعى قال: وعى. قال: أزكى ؟ قال: أبى. ثم رد القلب إلى مكانه، فالتأم الجرح أسرع من طرفة عين**، ثم ذهبا فلما رأيت ذلك، دنوت منه فحركته فقلت هل تجد شيئًا ؟ قال: لا إلا توهينا في جسدي ـ وقد كنت ارتعبت مما رأيت ـ فقال: ما لي أراكِ مرتاعة؟ قالت فأخبرته الخبر فقال: **خيرٌ أريد بي ثم صرف عني**). إذا ما وضعنا أسطورة شق الصدر هذه ووجود نسرين (كركين، طائرين أو رجلين في هيئتي طائر يتكلمان العربية) في سياق سلسلة الأساطير[1] التي ارتبطت بشكل وثيق بالصراع حول آلهة مكة والعرب، ومنطلقها حكاية غزال الكعبة الذهبي، فسوف نكون أمام منظومة رموز متكاملة، فالنسر في العقائد القديمة يمثل رمزًا شموليًا من رموز الذروة والصعود إلى السماء، مثل قمة الجبل أو الصخرة الشاهقة، وهو يكثف شكل العلاقة بين الخالق والمخلوق، ونوع الرابطة الروحية بين الأبعاد الهندسية للمكان والزمان، الأسفل والأعلى، السماء والأرض، البشري والإلهي. إن هذا التوسط الرمزي الذي يلعبه النسر، كمبعوث سماوي للبشر لاستكشاف جوهر المخلوق ومعدنه (فهو يشمّ قلبه في أسطورة أمية، وفي قصة شق صدر محمد يقوم بغسله بالماء والثلج) هو توسط روحي حاسم ونهائي، يحدّد للإله صفات مبعوثه ورسوله إلى البشر، لينقل بالنيابة عنه

---

(1) عبد الرزاق الصنعاني، **تفسير القرآن** : 929 (عن الكلبي، قال : « بينما أمية بن أبي الصلت راقد ومعه ابنتان له إذ فزعت إحداهما فصاحت عليه، قال : ما شأنك ؟ قالت : رأيت نسرين كشطا سقف البيت، فنزل أحدهما إليك فشق بطنك، والآخر واقف على ظهر البيت فناداه، فقال : أوعى ؟ قال : وعى، قال : أزكى ؟، قال : أبي، قال أمية : ذلك خير أريد بأبيكما فلم يقبله).

ولصالحه، رسالته الكبرى. بيد أن رمزية النسر، إذا ما وضعت في سياق أسطورة الأسدين اللذين كانا يطيعان القس بن ساعدة في دير سمعان، يمكن أن تكون ذات قابلية عالية للتكيف مع رمزيات اللوحات والمنحوتات الآشورية في هذا العصر، وهي لوحات ومنحوتات عملاقة كانت تنتشر في نينوى (بشكل أخص في نينوى ـ الموصل وصولًا إلى الجزيرة الفراتية في بلاد الشام). كما يمكن رؤية هذا البُعد الرمزي عند التأمل في هذه المنحوتات التي تعّج بصور **الغزلان والوعول والظباء والأسود والثيران المجنحّة والنسور التي تفرد أجنحتها في الفضاء. ومن المحتمل أن تحوّل النسور إلى بشر، وبحيث تهبط في الصحراء (حين كان النبي يرعى الأغنام) أو تثقب سقف المنزل (عندما كان أمية نائمًا) يرتبط بأسطورة سومرية ـ بابلية** شهيرة من عصر سلالة كيش (قيس) عن الملك الذي صعد إلى السماء فوق ظهر نسر. إنه الرجل ـ النسر السماوي الذي أرسلته الآلهة ليختبر جوهر المخلوق الأرضي. وذكر **عمر بن شبة بسند له عن الزهري** قال: **دخل أمية على أخته فنام على سرير لها فإذا طائران فوقع أحدهما على صدره فشقه فأخرج قلبه فقال: له الآخر أوعى؟ قال: نعم قال: فقبل قال أبي فرد قلبه مكانه ثم نهض فاتبعه أمية طرفه فقال:**

لبيكما، لبيكما ها أناذا لديكما

فعادا ففعلا مثل ذلك ثلاث مرات ثم ذهبا وزاد في الثالثة:

إن تغفر اللهم تغفر جمًّا وأي عبد لك لا ألما

ثم انطبق السقف وقام أمية يمسح صدره فقالت له: يا أخي ماذا تجد قال: لا شيء إلا إني أجد حرارة في صدري. وعن الزبير عن عمه مصعب ابن عثمان عن ثابت بن الزبير قال، لما مرض أمية مرض الموت جعل يقول: **قد دنا أجلي وأنا أعلم أن الحنيفية حق ولكن الشك يداخلني في محمد.** والأمر المؤكد أن مقتل **شيبة وعتبة ابني ربيعة** في معركة بدر، بالنسبة لأمية بن أبي الصلت، كان الحدث الهلعي الأكبر في حياته، وقد يكون هزّ وجدانه وإيمانه المبدئي بنبوّة تظهر في قريش لا لأنهما ابني خاله(خالته) وحسب، وإنما لأنه كان يؤمن **بعتبة بن ربيعة كنبي** محتمل. وهذه القصة التي روتها معظم كتب الأخبار أو أشارت إليها، هي إلى حدٍّ ما، القصة ذاتها

التي سجلتها كتب **السيرة** النبوية، **بوصفها واقعة تخص النبي ﷺ. قال ابن إسحاق**[1] وهو يروي قصة مرضعة النبي، أنها كانت في دارها حين وقع حادث للنبي أثناء رعيه للأغنام مع (أخ له من الرضاعة في بهم لنا، جاءنا أخوه يشتد، فقال: ذاك أخي القرشي **قد جاءه رجلان عليهما ثياب بياض، فأضجعاه فشقا بطنه**، فخرجت أنا وأبوه نشتد نحوه، فنجده قائمًا منتقعًا لونه، فاعتنقه أبوه، وقال: أي بني، ما شأنك؟ قال: **جاءني رجلان عليهما ثياب بياض، فأضجعاني فشقا بطني، ثم استخرجا منه شيئًا فطرحاه، ثم** رداه كما كان، فرجعنا به معنا، فقال أبوه: يا حليمة لقد خشيت أن يكون ابني قد أصيب، انطلقي بنا، فنرده إلى أهله قبل أن يظهر به ما يتخوف). و(عن يحيى بن جعدة، قال: قال رسول الله ﷺ: **إن ملكين جاءاني في صورة كركيين**[2]، **معهما ثلج وماء بارد، فشرح أحدهما صدري، ومج الآخر منقاره، فغسله)**. لكن رواية الكلبي ترسم تصورًا مختلفًا لأسطورة شق صدر أميّة بن أبي الصلت، فالطائران اللذان هبطا أو سقطا فوق سقف البيت، لم يلاحظهما أمية إذ كان نائمًا بعد أن اشتد حزنه على مصرع ابني خالته. والرواية كما ينقلها الكلبي هي رواية إحدى ابنتيه لا رواية الفارعة شقيقة أمية. قال الكلبي[3] (بينا أمية راقد **ومعه ابنتان له**، إذ فزعت إحداهما فصاحت عليه، فقال لها ما شأنك قالت: **رأيت نسرين كشطا سقف البيت فنزل أحدهما إليك فشق بطنك، والآخر واقف على ظهر البيت** فناداه ـ أي نادى على الطائر الآخر ـ فقال أوعى؟ قال نعم. قال أزكى ؟ قال لا. فقال ـ أمية بعد أن أفاق ـ **ذاك خير أريد بأبيكما فلم يفعله)** وقد روي من وجه آخر، وبسياق آخر عن الزهري عن سعيد بن المسيب وعثمان بن عبد الرحمن، قال قدمت **الفارعة أخت أمية بن أبي الصلت** على النبي ﷺ بعد **فتح مكة** وكانت ذات لب وعقل وجمال وكان النبي معجبًا بها، فقال لها ذات يوم: يا فارعة هل تحفظين من شعر أخيك شيئًا ؟ فقالت نعم. وأعجب من ذلك ما قد رأيت، قالت: **كان أخي في سفر فلما انصرف بدأني فدخل**

---

(1) ابن إسحاق 1/ 29.

(2) أي طائرين.

(3) **البداية والنهاية** 2/ 282، **تاريخ دمشق** 2/ 121- 3/ 123 جدع أنف الناقة.

علي، فرقد على سريري وأنا أحلق أديمًا في يدي، إذ أقبل طائران أبيضان أو كالطيرين أبيضين، فوقع على الكوة أحدهما ودخل الآخر فوقع عليه، فشق الواقع عليه ما بين قصه إلى عانته، ثم أدخل يده في جوفه فأخرج قلبه فوضعه في كفه ثم شمه فقال له الطائر الآخر: أوعى؟ قال: وعى. قال: أزكى ؟ قال أبي .**ثم رد القلب إلى مكانه فالتأم الجرح أسرع من طرفة عين**، ثم ذهبا. فلما رأيت ذلك دنوت منه فحركته، فقلت هل تجد شيئًا. قال: لا **إلا توهينا في جسدي** ـ وقد كنت ارتعبت مما رأيت ـ فقال: ما لي أراكي مرتاعة. قالت فأخبرته الخبر، فقال خير أريد بي. ثم صرف عني.

هاتان القصتان، متماثلتان إلى حدٍّ كبير، **فثمة طائران جاءا لأمية بن أبي الصلت وللنبي**، والفارق الجوهري بين الواقعتين كما رويتا، أن الطائرين جاءا في وقتين مختلفين، فقد كان النبي صبيًا، بينما كان أمية يوشك على الموت. وفي هذا المنحى من الرواية، يتكشف المغزى الحقيقي لبزوغ عصر الإسلام وأفول عصر الأنبياء الصغار غير المرسلين، مثل أمية. كما يتكشف، بوجه آخر من الوجوه، المعطى الجوهري والتاريخي لزوال عصر الديانات الأسرية أو القبلية (فقد كاد أمية أن يكون نبي ثقيف في الطائف) وصعود الدين التاريخي العظيم. وفي هذا المنحى من تطور الصراع بين الأديان الصغيرة، والأنبياء الثانويين، حدثت معركة بدر الكبرى والفاصلة، وهي معركة كان عدد الضحايا فيها من القرابات الأسرية للنبي موازيًا تقريبًا لأعداد قتلى قريش من غير بني مناف.

وعن أبي سفيان أن أمية بن أبي الصلت[1] كان معه بغزة ـ أو قال: بإيلياء ـ فلما قفلنا قال لي أمية: يا أبا سفيان، هل لك أن نتقدم عن الرفقة فنتحدث؟ قلت: نعم. قال: ففعلنا. فقال له: يا أبا سفيان، إيهٍ عن عتبة بن ربيعة قال: كريم الطرفين ويجتنب المظالم والمحارم. قلت: نعم. قال: وشريف مِسَنّ. قال: السنّ والشرف أزريا به. فقلت له: كذبت، ما ازداد سنًّا إلا ازداد شرفًا. قال: يا أبا سفيان، إنها لكلمة ما سمعت أحدًا يقولها لي منذ تنصّرت، لا تعجل علي حتى أخبرك، قال: هات. قال: إني كنت أجد

(1) مختصر تاريخ دمشق 488-435.

في كتبي نبيًّا يبعث من حرّتنا هذه، فكنت أظن بك، كنت لا أشك أني هو. فلما دارست أهل العراق إذ هو من بني عبد مناف، فنظرت في بني عبد مناف فلم أجد أحدًا يصلح لهذا الأمر غير عتبة بن ربيعة .**فلما أخبرتني بسنه عرفت أنه ليس له حين جاوز الأربعين**، ولم يوح إليه. قال أبو سفيان: فضرب الدهر ضربه، وأوحي إلى رسول الله ﷺ. وخرجت في ركب من قريش أريد اليمن في تجارة، فمررت بأمية بن أبي الصلت فقلت له كالمستهزئ به: يا أمية، قد خرج النبي الذي كنت تنتظر، قال: أما إنه حق فاتبعه. قلت: ما يمنعك من اتباعه؟ قال: ما يمنعني إلا استحياء من نُسَيّات ثقيف. إني كنت أحدثهن أني هو، ثم يرونني تابعًا لغلام من بني عبد مناف، ثم قال أمية: وكأني بك يا أبا سفيان إن خالفته قد ربطت كما يربط الجدي حتى يؤتى بك إليه، فيحكم فيك ما يريد.

وترتبط قصص نبوّة أمية، أكثر ما ترتبط، لا بلقائه مع النبي ﷺ أو لقاء النبي بالفارعة شقيقته، وإنما كذلك، بأسطورة لقائه هو بكاهنة من كاهنات العرب. ولطالما استخدم الرواة المسلمون هذه الأسطورة لتفسير سبب استخدامه (**باسمك اللهم**). تقول الأسطورة[1]:

(1) العصامي، **سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي**: 1/ 123 وهناك نصّ موازٍ للأسطورة رواه ابن كثير في **السيرة** : ابن كثير، **السيرة** :1/ 136 وقد ذكر السهيلي في كتابه «التعريف والأعلام » أن أمية بن أبي الصلت أول من قال «باسمك اللهم» وذكر عند ذلك قصة غريبة. وهو أنهم خرجوا في جماعة من قريش في سفر، فيهم حرب بن أمية والد أبي سفيان. قال: فمروا في مسيرهم بحية فقتلوها، فلما أمسوا جاءتهم امرأة من الجان فعاتبتهم في قتل تلك الحية، ومعها قضيب فضربت به الأرض ضربة نفرت الإبل عن آخرها، فذهبت وشردت كل مذهب، وقاموا فلم يزالوا في طلبها حتى ردوها، فلما اجتمعوا جاءتهم أيضا فضربت الأرض بقضيبها فنفرت الإبل فذهبوا في طلبها، فلما أعياهم ذلك قالوا: والله هل عندك لما نحن فيه من مخرج ؟ فقال: لا والله، ولكن سأنظر في ذلك. قال: فساروا في تلك المحلة لعلهم يجدون أحدًا يسألونه عما قد حل بهم من العناء، إذا نار تلوح على بعد، فجاؤوها فإذا شيخ على باب خيمة يوقد نارًا، وإذا هو من الجان في غاية الضآلة والدمامة، فسلموا عليه فسألهم عما هم فيه، فقال: إذا جاءتكم فقل باسمك اللهم.فإنها تهرب، فلما اجتمعوا وجاءتهم الثالثة أو الرابعة قال في وجهها أمية: باسمك اللهم.

السبب في كتابة قريش واستفتاحها بقولهم: **باسمك اللهم**، هو أن **أمية بن أبي الصلت** خرج إلى الشام في نفر من **ثقيف وقريش** وغيرهم، فلما قفلوا راجعين، نزلوا منزلًا واجتمعوا لعشائهم؛ إذ أقبلت **حية صغيرة حتى دنت منهم**، فحصبها بعضهم في وجهها، فرجعت عن سفرتهم، وقاموا إلى إبلهم وارتحلوا من منزلهم، فلما برزوا من المنزل، أشرفت عليهم عجوز من كثيب رمل متوكئة على عصا لها، فقالت: ما منعكم أن تطعموا **رحيمة الجارية اليتيمة** التي جاءتكم عشية؟ قالوا: وما أنت؟ قالت: **أم العوام، أيمت منذ أعوام، أما ورب العباد لتفرقن في البلاد**، ثم ضربت بعصاها في الأرض، فأثارت الرمل، ثم قالت: أطيلي إيابهم، ونفري ركابهم. فنفرت الإبل كأن على كل **ذروة بعير شيطانًا**، ما نملك منها شيئًا حتى افترقت في الوادي، فجمعناها من آخر النهار إلى غد ولم نكد، فلما أنخنا لنركب، طلعت العجوز، فعادت بالعصر لفعلها الأول، وعادت لمقالتها: ما منعكم أن تطعموا؟ إلى آخر ما قالته أولًا، فتفرقت الإبل، فجمعناها من بكرة النهار إلى العشاء ولم نكد، فلما أنخنا لنركب، طلعت وفعلت مثل فعلها الأول والثاني فنفرت الإبل، فأمسينا في ليلة مقمرة ويئسنا من ظهرنا، فقال بعض القوم **لأمية بن أبي الصلت**: أين ما كنت تخبرنا به عن نفسك؟

ولذلك، اضطرّ أميّة إلى أن يتجه بنفسه صوب الكثيب الرملي الذي خرجت منه الكاهنة، ثم صعد كثيبًا آخر حتى هبط منه. لكنه، وما أن هبط من الكثيب حتى لاحت له **كنيسة** فيها قناديل (وإذا رجل على بابها معترض أبيض الرأس واللحية). وقد روى أمية هذه الرواية في وقت تالٍ، قال: (فلما وقفت عليه، قال ـ بعد أن رفع رأسه إليّ ـ إنه لمتبوع ؟ قلت: أجل، قال: ما حاجتك؟ فحدثه حديث العجوز وفعلها، فقال: صدقت وليست بصادقة، هي امرأة **يهودية**، هلك زوجها منذ أعوام، وإنها لم تزل تصنع بكم ذلك حتى

تهلككم إن استطاعت). قال أمية: فما الحيلة؟ قال: أجمعوا ظهركم، فإذا جاءت وفعلت ما كانت تفعله، فقولوا لها سبعًا فوق، وسبعًا أسفل: **باسمك اللهم**؛ فإنها لن تضركم شيئًا). وعندئذٍ عاد أمية إلى أصحابه، فأخبرهم بما قال له **القسّ**، فجاءت ففعلت كما كانت تفعل، فقالوا لها ما قال الرجل، فلم تضرهم، فلما رأت الإبل، قالت: (**عرفت صاحبكم، ليبيض أعلاه وليسود أسفله**) فلما أدركهم الصبح، نظروا إلى **أمية قد ابيض في عذاريه، وفي رقبته وصدره، واسود أسفله**، فلما قدموا مكة، ذكروا هذا الحديث، فكان أول ما كتب أهل مكة: **باسمك اللهم**).

إن نظام العلاقات الدلالية في أسطورة لقاء **أمية مع الأفعى** في الصحراء (**حيث توجد كنيسة وعجوز يهودية**) يقوم بإنتاج التأويل الوحيد الذي يملكه العرب عن سرّ استخدام قريش لعبارة (باسمك اللهّم) وهذا بدوره يقوم بإنتاج مفهوم ديني يتأسس على قاعدة تقول، إن عبارة باسمك اللهمّ كانت قاسمًا مشتركًا بين اليهودية والنصرانية والوثنية، وهذا أمر هام للغاية، لأنه يؤكد حقيقة أن الوثنية عند العرب لم تكن إلحادًا أو نكرانًا للخالق، وأنها وتمامًا كما وصفها القرآن (زلفى) أي توسطًا من توسطات العلاقة مع الخالق.

شجرة قرابات
أمية بن أبي الصلت[1]

قصي ابن كلاب

عبد مناف

هاشم ـــــ توأم ـــــ عبد شمس

عبد المطلب

عبد الله حبيب أمية الأكبر عبد العُزّى رقية

محمد حرب

أبو سفيان ـــــ (أم أمية بن أبي الصلت)

معاوية

ويوم سمع النبي ﷺ بيت شعر من أمية بن أبي الصلت، **يصف فيه العرش الإلهي** القائل:

(1) ولد عبد شمس بن عبد مناف: حبيب، وبه كان يكنى؛ وأمية الأكبر، وفيه البيت والعدد؛ وأمية الأصغر: وعبد أمية، ويسمى أبناؤهما العبلات؛ ونوفل وعبد العزى؛ وربيعة، كلهم أعقب؛ وعبد الله، لا عقب له؛ وبنات، منهن: رقية، أم أمية بن أبي الصلت الشاعر الثقفي.

زحلٌ وثور تحت رجل يمينه والنسر للأخرى وليثٌ مرصد

قال: صدق ـ أمية ـ هكذا **صفة العرش**[1]. لكن هذا البيت الذي تناقله الرواة المسلمون تعرض للتشويه، وربما بدا غامضًا وعسيرًا على الفهم، فقد أورده صاحب **الإصابة**[2] (زحل) بينما ورد في روايات أخرى:

رجلٌ وثور تحت رجل يمينه والنسر للأخرى وليثٌ مرصد

لقد جرى تحويل (رجل) إلى (زحل) والعكس، ولم يعد التوصيف، بسبب ذلك، دقيقًا أو مقبولًا. لكن، وبصرف النظر عن أخطاء رواة الشعر في نقل القصائد؛ فإن الصورة المدهشة التي يرسمها البيت الشعري، تحمل على الاعتقاد أن أمية شاهد، هو الآخر، مثل القس بن ساعدة، اللوحات الآشورية العملاقة للثيران المجنحّة. إن قراءة تفكيكية في بيت الشعر هذا، سوف تدلل على أن أفكار التوحيد التي انتشرت في مجتمع مكة الديمقراطي، بفضل تجارة الإيلاف والتواصل مع الحضارات الكبرى في المنطقة، كانت تتمتع بقابلية فذة على التكيف مع معتقدات التوحيد القديمة التي بزغت في قلب الجزيرة العربية؛ بل وتتعايش معها بصورة خلاقة. يقول بيت الشعر:

زُحلٌ[3] وثور تحت رجل يمينه والنسرُ للأخرى وليث مرصدُ

لكن القصيدة في ديوان أمية[4] تورد البيت في صورة مغايرة:

زحلٌ وثور تحت يمنى رجله والنسر لليسرى وليث مُرصِد

وهذه هي الصيغة الأدق للبيت، وهو يتضمن صورة شعرية نادرة ولا مثيل لها في كل الشعر العربي القديم، هي **صورة تمثال الثور المجنح (الآشوري)** -

---

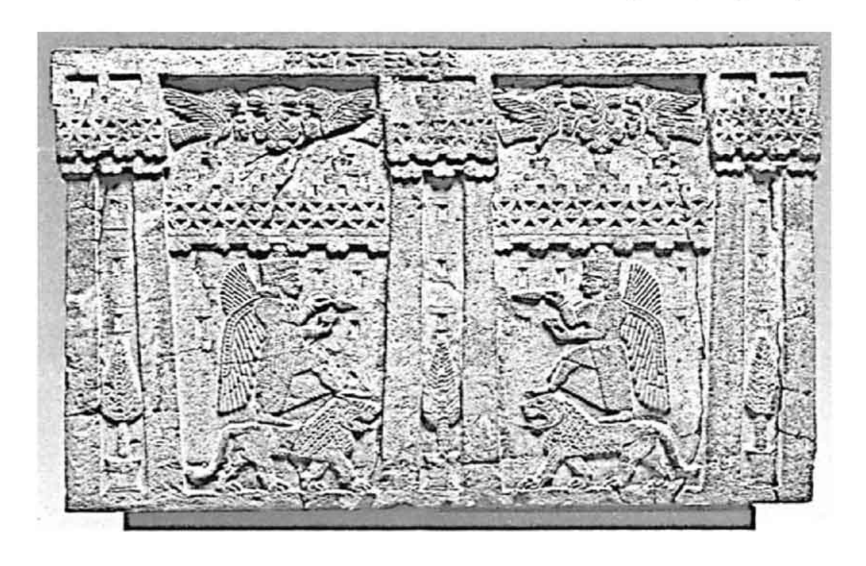
(1) أورده صاحب **الإصابة**1/ 85 في صورة (زحل) وابن عساكر في **تاريخ دمشق** 9/ 269، 270، 272 في صورة (رجل).

(2) الإصابة: 1/ 85.

(3) ألفراهيدي، **كتاب العين** 1/ 454 كَيْوان: نجم يقال له: زحل، **والمحيط في اللغة**: 1/ 71 زحل هو كيوان. كَيْوان: نجم يقال له: زحل.

(4) **شرح ديوان أمية بن أبي الصلت**، قدم له وحقق حواشيه سيف الدين الكاتب، وأحمد عصام الكاتب، دار مكتبة الحياة، بيروت، بلا سنة نشر ص: 31.

انظر الصور ـ وتحته نسر يفرد جناحيه، بينما يوجد **غزلان** يرصدهما أسد هصور. ولأن أمية كان تاجرًا يمضي معظم أوقاته متجولًا بين الشام وخصوصًا في **نينوى**، واليمن، فمن المحتمل أنه استمد صورة الإله من مشاهداته منحوتات الآشورية الضخمة في نينوى عاصمة الآشوريين، حيث انتشرت هناك تماثيل ضخمة للثيران المجنحة التي تختلط فيها هيئة البشر مع أشكال إلهية محاطة بالنسور والأسود.







برأي الجاحظ[1] في تأويل هذا البيت الشعري، أن أميّة قدّم تصورًا للملائكة في هيئة نسور. قال: إن ملائكة العرش تطير ولا يسمُّونها طيْرًا لرفْع أقدارِها عن الطير، والهمج يطير ولا يسمّى طيْرًا لوضع أقدارها عن الطَّير. وفي الرواية أنَّ النبي ﷺ أَنْشِدَ قولَ أميّةَ بن أبي الصَّلْت:

رَجُلٌ وثورٌ تَحتَ رِجْلِ يَمينِه والنَّسرُ للأُخرَى وليثٌ مُرْصِدُ

فقال: صدَق، **وقوله نسر يعني في صورة نسر**، لأنَّ الملَك لا يقال له نَسْرٌ ولا صقْرٌ ولا عُقابٌ ولا بازٍ.

والقصيدة تستحق تحليلًا خاصًا في نطاق فهم مسألة العلاقة بين النبي ﷺ وأميّة بن أبي الصلت، لأن هذه القصيدة، بشكل خاص ودون سواها من قصائده المفعمة بأفكار التوحيد، حظيت باهتمام وإعجاب النبي حتى أنه أجاز رواية شعره، باستثناء قصيدته في قتلى بدر. وعن أبي هريرة[2] قال: رخص رسول الله ﷺ في شعر الجاهلية إلا قصيدة **أمية بن أبي الصلت في أهل بدر، وقصيدة الأعشى في عامر وعلقمة**. وبذلك، لا يغدو البيت غامضًا أو عسرًا على الفهم، إذ إن معنى العرش الإلهي، يرتبط بوجود كوكبُ ـ هو زحل ـ وكان من معبودات العرب، وثور تحت يمنى رجل، بينما اليسرى يشغلها نسر يفرد جناحيه، وثمة ليث ـ أسد ـ يترصد بهما ؟ وإذا ما تقبلنا كلا الروايتين للبيت الشعري باستبدال (زحل) بـ(رجل) فسوف يكون من الصعب أن نفهم السبب الحقيقي لقول النبي ﷺ: صدق، هكذا صفة العرش؟ إن تفكيك هذه الإشكالية في رواية بيت شعر جاهلي، ليست نوعًا من الترف الفكري؛ بل هي في صلب عمل أنثروبولوجي يهدف إلى إعادة تركيب التاريخ الاجتماعي ـ الثقافي للعرب والذي لم يقرأه المؤرخون بصورة دقيقة، ربما نتيجة لتشوش واضطراب المرويات العربية، فالبيت في صورتيه الراهنتين، يختزن صورًا أسطورية عن طبيعة التصورات الدينية

(1) الجاحظ، **الحيوان**، تحقيق عبد السلام هارون،مكتبة البابي الحلبي-القاهرة 1962 -3/ 114، 115.

(2) **مختصر تاريخ دمشق** 488-435.

السائدة في مجتمع مكة. ولمّا كان **أمية** بحسب المرويات التاريخية رجلًا متألهًا موحدًا، آمن ببزوغ عصر ديانة كبرى في بلاد العرب، وذهب بنفسه لقاء النبي حين سمع بظهوره، فمن غير المنطقي تخيّل أن هذا البيت مجرد بيت شعر غامض، كما لا يجوز بأي شكل من الأشكال التشكيك بقول النبي ﷺ: صدق، هكذا هي صفة العرش. فهل كان **أمية بن أبي الصلت** يصف العرش الإلهي، وأن الرواة أخطأوا في رواية البيت على الوجه الصحيح، أم أن ثمَّة مشكلة في فهم مضمونه الحقيقي؟ سوف نقوم بتدقيق رواية **ابن عباس التي نقلها صاحب تاريخ دمشق**[1] عن الجدل الذي دار بين المسلمين حول شعر أمية بشكل عام، وحول هذه القصيدة بشكل أخص، ذلك أن هذا النقاش يلخص في أحد أوجهه الطريقة التي تلقى فيها المسلمون موقف النبي ﷺمن أمية وشعره، وهو موقف جرى التركيز فيه على إعجاب النبي بأفكاره التوحيدية وحسب. لقد دار هذا الجدل حول الصور الشيقة والأسطورية وغير المألوفة للكون، لكنه وربما من حيث لم يحتسب أي منهم، أثار مسألة عبادة الكواكب والشمس بشكل أدق، وهي عبادة شائعة في اليمن والطائف، وترتبط طقوسها وشعائرها بجملة من الرموز الطوطمية، ولعبت في إطارها رمزية الغزال (الظباء والأيائل) دورًا محوريًا. تقول رواية ابن عباس عن عمرو بن الشريد[2]، أنه أنشد رسول الله ﷺ من قول أمية بن أبي الصلت: «من الكامل»:

رجلٌ وثور تحت رجل يمينه   والنسر للأخرى وليثٌ مرصد

فقال رسول الله ﷺ: «فصدق».

وأنشد قوله:

والشمس تطلع كل آخر ليلةٍ   صفراء يصبح لونها يتورد

---

(1) **تاريخ دمشق** : 435-488.

(2) **الإصابة في معرفة الصحابة**17/ 338 وَأَخْرَجَ الْبُخَارِيّ فِي «الْأَدَب الْمُفْرَد» عَنْ عُمَر بْن الشَّرِيد عَنْ أَبِيهِ قَالَ : « اسْتَنْشَدَنِي النَّبِيّ ﷺ مِنْ شِعْر أُمَيَّة بْن أَبِي الصَّلْت فَأَنْشَدْته حَتَّى أَنْشَدْته مِائَة قَافِيَة

فقال رسول الله ﷺ: «صدق».

وأنشد قوله:

تأبى فما تطلع لنا في رسلها   إلا معذبةً وإلا تجلد

فقال رسول الله ﷺ: «صدق».

برأي ابن عباس في تأويل هذه الأبيات، فإن (الشمس تطلع كل سنة في ثلاثمائة وستين كوة، تطلع كل يوم في كوة، لا ترجع إلى تلك الكوة إلا ذلك اليوم من العام القابل، ولا تطلع إلا وهي كارهة، فتقول: **رب لا تطلعني على عبادك فإني أراهم يعصونك**، يعملون بمعاصيك. فقال: أو لم تسمعوا إلى ما قال أمية بن الصلت: حتى **تجبر وتجلد**؟) أما عكرمة، فيقول أنه قال لابن عباس: (أرأيت ما جاء عن النبي ﷺ في أمية بن أبي الصلت، آمن شعره، وكفر قلبه؟ فقال: هو حقٌّ فما أنكرتم من ذلك؟ قلت: أنكرنا قوله:

والشمس تطلع كل آخر ليلةٍ   صفراء يقبح لونها يتورد

ليست بطالعةٍ لهم في رسلها   إلا معذبةً وإلا تجلد

ما بال الشمس تجلد؟ فقال: والذي نفسي بيده، ما طلعت الشمس قط حتى ينخسها سبعون ألف ملك، فيقولون لها: اطلعي اطلعي، فتقول: **لا أطلع على قوم يعبدونني من دون الله**، فيأتيها ملكٌ، فيستقل لضياء بني آدم، فيأتيها **شيطان** يريد أن يصدها عن الطلوع، **فتطلع بين قرنيه فيحرقه** الله تحتها، وذلك قول رسول الله ﷺ: «**ما طلعت إلا بين قرني شيطان** ». وما غربت الشمس قط، إلا خرت لله ساجدة، فيأتيها شيطان يريد أن يصدها عن السجود فتغرب **بين قرنيه فيحرقه الله تحتها**. وقد قال رسول الله ﷺ: «**ولا غربت إلا بين قرني شيطان**») يقول نصّ القصيدة الذي تلاعب فيه الرواة سهوًا ما يلي:

مُستخفيًا وبنات نعشٍ حوله   وعن اليمين إذا يغيبُ الفرقدُ(1)

---

(1) من أشهر الكواكب التي عبدها اللخميّون في الحيرة واليمن.

حــالُ الــدَّراري دونــه فــتــجــنّــه — لا أن يــراه كــلّ مـــن يــتــلــدد

حُبسَ السرافيل[1] الصوافي[2] تحتهُ — لا واهــنٌ مـنــهـم ولا مُــســتـوعـدُ

زحـل وثـور تـحـت رجـل يـمـيـنـه — والـنـسـر لـلأخـرى ولـيـث مـرصـدُ

والـشـمـس تـطـلـع كـل آخـر لـيـلـةٍ — حـمـراء يـصـبـح لـونـهـا يـتـورّدُ

تـأبـى فـلا تـبـدو لـنـا فـي سـلـهـا — إلا مـــعـــذبـــة وإلا تـــجـــلـــدُ

لا تـسـتـطـيـع أن تـقـصـرّ سـاعـةً — وبــذاك تــدأبُ يــومــهــا وتــشــرّدُ

إذا كانت هذه هي صفة حملة العرش السماوي؛ فإن نصّ عبارة النبي ﷺ يجب أن تكون في هذه الحالة (صدق هذه هي صفة حملة العرش) وليس (صدق هذه صفة العرش) لأن أميّة وصف العرش الإلهي **في الكون الفسيح، حيث الكواكب السيّارة ومنها زحل، تجثو تحت عرشه. أما رواية الشريد بن عمرو[3] أن النبي ﷺ استنشده من شعر ـ أميّة ـ فتقول ردفت النبي ﷺ يومًا. فقال: هل معك من شعر أمية بن أبي الصلت شيء؟ قلت نعم. قال: هيه. فأنشدته بيتًا، فقال هيه[4]: فأنشدته بيتًا**

---

(1) الملائكة.

(2) ومن هذه الكلمة جاء تعبير صوفة وهو رتبة دينية محددة، حيث يشرف صوفة- الفرد- على رمي الجمرات في موسم الحج.

(3) **إصابة الأرب في معرفة أنساب العرب** 1/ 22 : بنو الشريد - بفتح الشين وكسر الراء المهملة - بطن من عصية من سليم من العدنانية، وهم بنو الشريد واسمه عمرو بن يقظة ابن عصية. قال في العبر: وقال ابن الشريد: اسمه عمرو بن رياح بن ثعلبة بن عصية، والشريد في اللغة الطريد فسمي به الرجل نقلًا عنه، منهم كانت الخنساء الشاعرة وأخوها معاوية وصخر أبناء الشريد، قال ابن سعيد: كان عمرو الشريد يمسك بيد ابنيه صخر ومعاوية في المواسم ويقول:

أنـــا أبـــو خـــيـــري مـــضـــر — ومـــن أنـــكـــر فـــلـــيـــعـــتـــبـــر

(4) **الإصابة في معرفة الصحابة** 1/ 86 أم أمية رقية بنت عبد شمس بن عبد مناف، فلذلك رثى أمية بن أبي الصلت قتلى بدر بقصيدته المشهورة لأنه كان من رؤوس من قتل بها عتبة وشيبة ابنا ربيعة بن عبد شمس وهما ابنا خاله. وكان أبو الصلت، والد أمية شاعرًا وكذا ابنه القاسم بن أمية.

حتى أنشدته مائة بيت[1]**، فقال: إنه كاد ليسلم في شعره وذلك لما رأى من مقاربته الاسلام في الاعتقاد.** ويفهم من هذا النقاش أن الرمزيات الدينية في الشعر والنثر وسجع الكهان ومواعظ الخطباء، إجمالًا كانت تأخذ حيّزًا ثقافيًا ـ اجتماعيًا واسعًا وحيويًا، ولم تكن مجرد رمزيات تجريدية أو مفرّغة من مضامينها الفلسفية العميقة، فهي ـ بهذا المعنى وحده ـ كانت تختزن فلسفة العرب البدئية ونظرتهم إلى الكون والحياة والبعث. وفي قلب هذه الرمزيات **لعبت الغزال** (بصلتها اللغوية والطقوسية مع **الشمس**) دورًا مركزيًا. وفضلًا عن هذا؛ فإن إعادة تركيب روايات الإخباريين المسلمين عن إيمان أمية بالخالق الأوحد، تظهر المدى الذي بلغته أفكار التوحيد من اتساع في عصر النبي ﷺ، وهو لم يظهر إلا في نطاق هذا الانتشار المذهل لأفكار التوحيد والجنوح شبه الجماعي للانتقال من الدين العائلي والقبلي إلى الدين التاريخي[2]. كان أمية آمن بالنبي فقدم الحجاز ليأخذ ماله من الطائف ويهاجر، فلما نزل بدرًا قيل له: إلى أين يا أبا عثمان، قال أريد أن أتبع

---

(1) **تحفة الأحوذي 7/ 170**أمَّا (الشَّرِيد) فَبِشِينٍ مُعْجَمَة مَفْتُوحَة ثُمَّ رَاءٍ مُخَفَّفَة مَكْسُورَة، وَهُوَ الشَّرِيد بْن سُوَيْد الثَّقَفِيّ الصَّحَابِيّ رَضِيَ اللَّه عَنْهُ :قَوْله ﷺ: (هِيهِ) كَسْرِ الْهَاء وَإِسْكَان الْيَاء وَكَسْر الْهَاء الثَّانِيَة . قَالُوا : وَالْهَاء الْأُولَى بَدَل مِنْ الْهَمْزَة، وَأَصْله (إِيه)، وَهِيَ كَلِمَة لِلِاسْتِزَادَةِ مِنْ الْحَدِيث الْمَعْهُود . قَالَ ابْن السِّكِّيت : هِيَ لِلِاسْتِزَادَةِ مِنْ حَدِيث أَوْ عَمَل مَعْهُودَيْنِ.

(2) ابن كثير : **السيرة**، 3/ 186 من بين هؤلاء الموحدين ابن الأسلت (وأبو قيس بن الأسلت هذا ذكر له ابن إسحاق أشعارًا بائية حسنة تقرب من أشعار أمية بن [أبي] الصلت الثقفي. قال ابن إسحاق: ولما انتشر أمر رسول الله ﷺ في العرب، وبلغ البلدان ذكر بالمدينة، ولم يكن حي من العرب أعلم بأمر رسول الله ﷺ حين ذكر وقبل أن يذكر، من هذا الحي من الأوس والخزرج وذلك لما كان يسمعون من أحبار يهود. فلما وقع أمره بالمدينة وتحدثوا بما بين قريش فيه من الاختلاف، قال أبو قيس بن الأسلت أخو بني واقف. قال السهيلي: هو أبو قيس صرمة بن أبي أنس، واسم أبي أنس قيس بن صرمة بن مالك بن عدي بن عمرو بن غنم بن عدي بن النجار، قال: وهو الذي أنزل فيه وفي عمر ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْۚ﴾[البقرة: 187] الآية. قال ابن إسحاق: وكان يحب قريشًا، وكان لهم صهرًا، كانت تحته أرنب بنت أسد بن عبد العزى بن قصي، وكان يقيم عندهم السنين بامرأته. قال قصيدة يعظم فيها الحرمة، وينهى قريشًا فيها عن الحرب، ويذكر فضلهم وأحلامهم ويذكرهم بلاء الله عندهم ودفعه عنهم الفيل وكيده، ويأمرهم بالكف عن رسول الله .

محمدًا فقيل له: هل تدري ما في هذا القليب؟ قال لا قيل: فيه شيبة وعتبة ابنا خالك، **فجدع أنف ناقته وشق ثوبه وبكى وذهب إلى الطائف** فمات بها، والمعروف أنه مات في السنة الثانية من الهجرة، ولم يختلف أصحاب الأخبار بإجماعهم تقريبًا أنه مات كافرًا وصحَّ أنه عاش حتى رثى أهل بدر(1)، وقيل: إنه الذي نزل فيه قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾(2) وقيل **إنه مات سنة تسع من الهجرة بالطائف** كافرًا قبل أن يسلم الثقفيون. وقال **المرزباني**: اسم أبي الصلت عبد الله بن ربيعة بن عوف بن عقدة بن غيرة بن عوف بن ثقيف ويقال: هو أبو الصلت بن وهب بن علاج بن أبي سلمة، يكنى أبا عثمان ويقال أبا القاسم. ويزعم في بعض الروايات أنه مات أيام حصار الطائف بعد حنين. وفي الطبراني الكبير عن أبي سفيان بن حرب، قال: خرجت تاجرًا في رفقة فيهم أمية بن أبي الصلت، فذكر قصة فيها أن أمية **قال إن نبيًّا يبعث بالحجاز**، وأنه كان يظن أنه هو إلى أن تبين له أنه من قريش، وأنه يبعث على رأس الأربعين، وأنه سأله ـ أي سأل أبي سفيان ـ عن **عتبة بن ربيعة**، فقال إنه جاوزها. قال: فلما رجعت إلى مكة وجدت النبي قد بعث، فلقيت أمية فقال لي: اتبعه فإنه على الحق. قلت: فأنت ؟ قال: لولا الاستحياء من صبيات ثقيف إني كنت أحدثهن إني هو، ثم يرينني تابعًا لغلام من بني عبد مناف. ولعل من بين أكثر قصائد أمية التي وطدّت فكرة كونه نبي الطائف، تلك التي يرد فيها لفظة الجلالة في مناجاة شعرية رائعة.

يا رب لا تجعلني كافرًا أبدًا   واجعل سريرة قلبي الدهر إيمانا

ولذلك قال النبي حين استمع إلى هذا المقطع: «**آمن شعره وكفر**

---

(1) تجمع سائر الروايات التي أشرنا إليها على أن أمية في الجاهلية نظر الكتب وقرأها ولبس المسوح وتعبد، أولًا بذكر إبراهيم وإسماعيل والحنيفية، وحرم الخمر وتجنب الأوثان وطمع في النبوة، لأنه قرأ في الكتب أن نبيًا يبعث بالحجاز، فرجًا أن يكون هو، فلما بعث النبي ﷺ حسده) فلم يسلم وهو الذي رثى قتلى بدر بالقصيدة التي منع النبي روايتها ويقول مطلعها:

ماذا يبدر والعقنقل   من مرازبة جحاجح

(2) سورة الأعراف، الآية: 175.

قلبه»[1]. وذكر ابن الأعرابي في «النوادر» أن أمية خرج في سفرته فذكر قصة أنه رأى شيخًا من الجن فقال: إنك متبوع فمن أين يأتيك صاحبك؟ قال من قبل أذني اليسرى، قال فما يأمرك أن تلبس، قال السواد[2]. قال خطيب الجن كدت أن تكون نبيًا فلم تكن، إن النبي يأتيه صاحبه من قبل الأذن اليمنى ويأمره بلبس البياض.

(1) شرح النووي 7/ 441 أنشد عمرو بن الشريد مائة بيت من شعر أُمَيَّة بْن أَبِي الصَّلْت، وأن النبي سأله أتحفظ شَيْئًا (قُلْت: نَعَمْ قَالَ : هِيهِ فَأَنْشَدْته بَيْتًا، فَقَالَ : هِيهِ ثُمَّ أَنْشَدْته بَيْتًا فَقَالَ : هِيهِ حَتَّى أَنْشَدْته مِائَة بَيْت قَالَ : إِنْ كَادَ لِيُسْلِم) وَفِي رِوَايَة (فَلَقَدْ كَادَ يُسْلِم فِي شِعْره).

(2) هذا تعبير رمزي عن نصرانية أمية بن أبي الصلت،فقد كان يلبس السواد(ثياب الرهبان).

معركة بدر: مصارع القرابات[1]

حدثت خلال معركة بدر، واحدة من أكثر وقائع الصراع **داخل النظام القرابي** مأسوية، فقد أصبح **أبو حذيفة** مسلمًا، بينما ظل والده **عتبة** كافرًا. وحين تجابه المعسكران في منطقة القليب بين الطائف ومكة، كان الأب **عتبة الذي رأت فيه قريشًا نبيًّا محتملًا يقود معسكر الكافرين مع أنه بلغ السبعين من عمره**، بينما كان **ابنه أبو حذيفة يقف مع النبي** ﷺ. وحين اشتدت المعارك دعا أبو حذيفة، والده عتبة بن ربيعة إلى المبارزة: فقالت **هند**[2] أخته (التي سوف تصبح زوجة أبي سفيان):

الأحول الأثعل[3] الملعون طائره أبو حذيفة شر الناس في الدين

أما شكرت أبًا ربّاك في صغرٍ حتى شببت شبابًا غير محجون

وكان عُتبة قد حمل على الخروج مع قريش، بينما تخلف أبو لهب. فقال النبي ﷺ وهو يرى **عتبة بن ربيعة: إن يكن عند أحد منهم خير فعند صاحب الجمل الأحمر.** لقد راهن النبي ﷺ على حكمة عُتبة في التراجع وتجنيب قريش سفك دماء أبنائها، بيد أن أمله سرعان ما تبدد حين رأى أن عُتبة كان أكثر المتشددين الداعين للمواجهة. واستنادًا إلى **البلاذري** نقلًا عن **الواقدي**

---

(1) الذهبي: **العبر في خبر من غبر** 1/ 2 كانت غزوة بدر يوم الجمعة سابع عشر من رمضان. فاستشهد من المسلمين أربعة عشر، وقتل من الكفار سبعون. فممن قتل: أبو جهل المخزومي، وعتبة بن ربيعة العبشمي، وهما مقدما الجيش، وكبيرا قريش. وشيبة أخو عتبة، والوليد بن عتبة، وأمية بن خلف الجمحي، وعقبة بن أبي معيط. وهلك فيها أبو لهب .

(2) أم معاوية.

(3) الحول الشديد.

فإن **عُتبة دعا النبي** إلى أن يسميّ أحدًا من الفرسان المسلمين لمبارزته، **فتعرّض أبو حذيفة للنبي** ليأمره بمبارزته. لكن النبي وهو يرى السياق المأسوي الذي كانت تسير فيه معركة بدر، وكيف أنها يمكن أن تؤدي إلى تداعي **وانهيار نظام القرابات القديم**، رفض بشدة أن يسمح **بقتال الابن المسلم لأبيه الكافر** فأعرض عنه، فلما قتل عُتبة أثناء المعركة، شاهد النبي أبا حذيفة وهو يبكي بلوعة، فقال له: ألم أرك تعرضت لمبارزته فما بالك تبكي؟ فقال: **لو أمرتني لفعلت فعلًا يعجب الناس، ولكن سمعتك تقول ما قلت فيه، وكان رجلًا عاقلًا، فلما قتل جزعت له من النار**. وتروي مصادر إخبارية[1] حادثة لها صلة وثيقة بمعركة بدر وآية ﴿تَبَّتۡ يَدَآ﴾ فعندما دعا النبي قريشًا إلى الإسلام في اجتماع الصفا، **لقي أبو لهب هند بنت عُتبة بن ربيعة**، فقال لها مفتخرًا: لقد باينتُ محمدًا يا ابنة عتبة، وأبيتُ ما جاء به، ونصرت **اللّات والعزّى وغضبت لهما**. فقالت: جزيت خيرًا يا أبا عُتبة[2]. في هذا الوقت كانت ظروف الصراع، والقوى المنخرطة فيه تتجه، بوجه الإجمال نحو الصدام العنيف، ولسوف تتفجر بقوة في معركة بدر. والمثير للاهتمام أن أبي لهب حين بدأت سحب الصراع تتلبد منذرة بالحرب، توارى عن الأنظار. وحسب رواية صاحب الأغاني فقد تجنب **أبو لهب** اللحاق بالمعركة[3]، مع أنه بدا من بين أكثر المحرضين على خوضها، وأرسل بدلًا منه **العاص بن هشام** لقاء التنازل عن مال كثير يدين به بعد أن لعبا القمار وخسر العاص. ويبدو من وقائع القصة أن العاص وتحت ضغط الشعور بالهزيمة أمام أبي لهب، طلب منه أن يكون الرهان لا على المال؛ بل أيهما يصبح عبدًا للآخر فقد (قامر أبو لهب العاص بن هشام في عشر من الإبل، فقمره أبو لهب، ثم في عشرٍ فقمره، ثم في عشرٍ فقمره، ثم في عشرٍ فقمره، إلى أن خلعه من ماله فلم يبق له شيء، فقال له: إني أرى القداح قد حالفتك يا بن المطلب فهلم أقامرك، فأينا قمر كان **عبدًا لصاحبه**، قال: افعل، ففعل، فقمره أبو

---

(1) البلاذري، **أنساب الأشراف** 1/ 51.

(2) ابنه البكر.

(3) الأصفهاني، **الأغاني** 1/ 327، 404.

لهب فكره أن يسترقه فتغضب بنو مخزوم). ولذا ذهب أبو لهب إلى بني مخزوم وأعلمهم أن العاص مدين له بعشر من الإبل، وأن عليهم أن يفتدوه بها وإلا أخزاهم وجعله عبدًا له. لكن بني مخزوم الذين كانوا في صراع مكشوف مع بني عبد المطلب، بعد أن انخرط الفريقان في حلفين(حلف المطيبين) و(حلف لعقة) الدم، فقد ردّوا على أبي لهب بصرامة، قالوا: لا والله ولا بوبرة[1].

هكذا، وعشية معركة بدر وحين تصاعدت الدعوات لمواجهة حاسمة أصبح **العاص بن هشام عبدًا لأبي لهب، فاسترقه فكان يرعى له إبلًا** إلى أن خرج المشركون إلى بدر. وتقول رواية للبلاذري إن أحدًا من قريش لم يتخلف لعلة إلا وجه مكانه رجلًا (فكان **أبو لهب** مريضًا مرضه الذي مات فيه، فوجه **العاص بن هشام بن المغيرة** على أن أبرأه من مال كان عليه)[2] ويقال إنه كان **لاعبه على امرأة مطلقة**، فقمره، فجعله عبدًا له (قينًا) يشتغل بالحديد في مكة؛ ثم لاعبه فقمره، فوجهه إلى بدر مكانه، ومات أبو لهب بعد وقعة بدر بأيام يسيرة. فلما خرج المشركون إلى بدر، أرسله بديلًا منه إلى الحرب فقتله علي بن أبي طالب[3]. ومن المؤكد أن صراع القرابات الأسرية تأجج بعد حادثة القمار ومعركة بدر، وظل لسنوات طويلة موضوعًا إشكاليًا بين الأحفاد وأبناء الأحفاد، فقد روى **البلاذري**[4] أن **أحفاد العاص وأحفاد عبد المطلب** تنابزوا وشهر بعضهم ببعض، بسبب حادثة عرضية وقعت لفارسين منهم. قال: (حدثني أبو عدنان الأعور عن **هشام بن الكلبي** عن أبيه قال: ساير **علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، الحارث بن خالد بن العاص بن هشام بن المغيرة المخزومي** فأصاب ساقه ركاب علي فقال: **يا سبحان الله ما رأيت أحدًا يساير الناس بمثل هذا الركاب، فقال علي: إنه من عمل قين كان بمكة)** وهو بذلك يعيد تذكيره بجده العاص بن هشام الذي أصبح قينًا عند أبي لهب

(1) أي ولا حتى بشعرة من جلد بعير. وفي رواية موازية: فاسترقه وجعله قينًا يعمل الحديد.

(2) **أنساب الأشراف**: 1/ 468 لاعب العاص بن هشام أبا لهب على إمرة مطاعة فقمره أبو لهب فجعله قينًا، ثم لاعبه فقمره فبعث به مكانه يوم بدر بديلًا فقتله عمر بن الخطاب.

(3) **أنساب الأشراف** : 1/ 128، 131 العاص بن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم قتله عمر بن الخطاب.

(4) البلاذري: 3/ 354.

بعد خسارته في القمار. لقد استذكر هذان المسلمان حادثة وقعت في الجاهلية جرت ذات يوم بين أسرتيهما، وغمز أحدهما من الآخر، ولكن من دون أن يؤدي ذلك بأي صورة من الصور إلى زعزعة نظام القرابات الجديدة التي جاء بها الإسلام، وجعل منها بالفعل، أخوين يقاتلان كتفًا لكتف، وهذا أمر له دلالته، فهما لم يستذكرا معركة بدر الدامية إلا لأن ذكريات وتعاليم الإسلام وعمق الإيمان به، كانت جميعًا من القوة والمتانة بحيث أنها لم تسمح لهما إلا بهذا القدر من السخرية.

حين بدأت معركة بدر، وأصبح **عُتبة بن ربيعة** في مواجهة ابنه **أبي حذيفة**، **بدا للجميع في تلك اللحظات المضمون الحقيقي لتبدل نظام القرابات القديم**[1]. كان أبو حذيفة رجلًا طوالًا، حسن الوجه، مترادف الأسنان، شهد بدرًا وأُحدًا والخندق والمشاهد كلها. وكان من مهاجرة الحبشة في المرتين. لكن حياته كمسلم لم تكن لتخلو من بعد مأسوي حتى بعد موته في معركة اليمامة، فقد خلف ابنًا صغيرًا اسمه محمد، كفله عثمان بن عفان وأنفق عليه حتى كبر، ثم ولاه ـ حين أصبح عثمان خليفة للمسلمين ـ ولاية مصر سوية مع محمد بن أبي بكر[2]. والغريب أنه سرعان ما تنكر لوالده بالتبني عثمان بن

(1) الواقدي، **المغازي**: 1/ 35 وكان عُتبة بن ربيعة حين دعا إلى البراز قام إليه ابنه أبو حذيفة يبارزه. فقال له رسول الله ﷺ: اجلس! فلما قام إليه النفر أعان أبو حذيفة بن عتبة على أبيه بضربة.

(2) **الكامل في التاريخ**: 2/ 54.
قتل محمد بن أبي حذيفة، وكان أبوه أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس قد قتل يوم اليمامة، وترك ابنه محمدًا هذا، فكفله عثمان بن عفان وأحسن تربيته، وكان فيما قيل: أصاب شرابًا فحده عثمان، ثم تنسك محمد وأقبل على العبادة وطلب من عثمان أن يوليه عملًا، فقال: لو كنت أهلًا لذلك لوليتك. فقال له: إني قد رغبت في غزو البحر فأذن لي في إتيان مصر، فأذن له وجهزه، فلما قدمها رأى الناس عبادته فلزموه وعظموه، وغزا مع عبد الله بن سعد غزوة الصواري. وكان محمد يعيبه ويعيب عثمان بتوليته ويقول: استعمل رجلًا أباح رسول الله ﷺ، دمه. فكتب عبد الله إلى عثمان: إن محمدًا قد أفسد علي البلاد هو ومحمد بن أبي بكر. فكتب إليه: أما ابن أبي بكر فإنه يوهب لأبيه ولعائشة، وأما ابن أبي حذيفة فإنه ابني وابن أخي وتربيتي وهو فرخ قريش. فكتب إليه: إن هذا الفرخ قد استوى ريشه ولم يبق إلا أن يطير.

عفان. فكتب إليه بعض المسلمين ومنهم **عبد الله بن أبي سرح** ينبهونه إلى ما يقوله محمد بن أبي حذيفة بحقه، فقال عثمان: **اللهم إني ربيته رحمة له وصلة لقرابته**، وكتب إلى عبد الله بن سعد بن أبي سرح: أما محمد بن أبي بكر فإني أدعه لأبي بكر وعائشة، **وأما ابن أبي حذيفة فإنه ابني وابن أخي، وأنا ربيته وهو فرخ قريش**، فرّد عبد الله بن سعد: **إن هذا فرخ قد استوى ريشه**، ولم يبق إلا أن يطير، فبعث عثمان إلى محمد بن أبي حذيفة بثلاثين ألف درهم وبجمل عليه كسوة. لكن محمد ما أن استلم هدية الخليفة حتى أمر بذلك فوضع في المسجد ثم قال: **يا معشر المسلمين ألا ترون إلى عثمان يخادعني عن ديني ويرشوني عليه**، فازداد **الناس طعنًا على عثمان** واجتمعوا على محمد بن أبي حذيفة فرأسوه عليهم. وكتب إليه عثمان يذكره بره به ويقول: لقد كنت **أنكث المخ على المائدة فأؤثرك به، فقد عاد ذلك بالمكروه علي أحوج ما كنت إلى شكرك**، فلم يزل ابن أبي حذيفة يحرض أهل مصر على عثمان، حتى سربهم إلى المدينة، فاجتمعوا مع أهل الأمصار إليه، فلما حوصر عثمان، وثب هو على عبد الله بن أبي سرح فطرده عن مصر وصلى بالناس.

كان ابن ربيعة صديقًا حميمًا لأمية بن أبي الصلت، وكان أمية نفسه يعتقد أن النبي القادم في الحجاز هو عُتبة وهو يكنى أبا الوليد. وذات يوم لقي النبي فقال له: إن أردت الشرف، شرفناك بأن نملكك. وإن كنت تريد المال، أعطيناك منه ما تحبه. فقال: يا أبا الوليد، اسمع. فقرأ «حم» السجدة. فقال: هذا كلام ما سمعت مثله. ثم التفت إلى جماعة من قريش، فقال: **دعوه وخلوا بينه وبين العرب**، فليس بتارك أمره. وأتى النبي ابنه يكلمه، وقد طمع فيه فشغل عنه. فأنزل الله عز وجل: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ . وقوله: ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ﴾، يعني عُتبة. ويقال: إن الذي تشاغل عنه الوليد بن المغيرة. وقتل الوليد بن عتبة يوم بدر، قتله علي بن أبي طالب. وكان لعتبة يوم قتل سبعون سنة، وكان الوليد ابن خمسين سنة. وكان أبو حذيفة بن عتبة مع النبي. لكن عتبة وشيبة ابني ربيعة، متثاقلين عن الخروج للحرب حتى أنبهما أبو جهل، فخرجا. ولذا مشت نساء قريش إلى **هند بنت عتبة، وهي أم معاوية**، فقيل لها: ألا تبكي على أبيك وأخيك وأهل بيتك ؟ فقالت: لا أبكيهم فيبلغ محمدًا ذلك، وحرمت على نفسها الدهن والكحل، وقالت: لو أعلم أن الحزن يذهبه البكاء، لبكيت. ثم قالت:

لـــلـــه عـــيـــنًـــا مـــن رأى هـــلـــكًـــا كـــهـــلـــك رجـــالـــيـــه
يـــا ربّ بـــــاكٍ لـــــي غـــــدًا فـــي الـــنـــائـــحـــات وبـــاكـــيـــه
كـــم غـــادروا يـــوم الـــقـــلـــيـــب بـــغـــداةٍ تـــلـــك الـــواعـــيـــه

في هذا الوقت راجت قصة هي في صميم نظام القرابات الجديدة(1)، فقد تبنى النبي زيد (بن حارثة). ثم إنّ قومًا من كلاب حجوا، فرأوا زيدًا فعرفوه وعرفهم. فلما قدموا بلادهم، أعلموا حارثة بمكانه، وأخبروه خبره. في هذا الوقت تبنى النبي زيد (بن حارثة) علنًا. لكن حارثة سرعان ما وصل مكة مع وفد من القبائل يطالب باسترداد ابنه، فسألا عن النبي، فقيل لهم: هو في المسجد. فدخلا عليه، فقالا له: **يا بن عبد الله وابن عبد المطلب وابن هاشم، ثم سيّد قومه**، أنتم أهل حرم الله بجيرانه، تفكون العاني، وتطعمون الضيف، **جئناك في ابننا عندك**، فامنن به علينا وأحسن في فدائه إلينا. فقال النبي ﷺ فهلا غير ذلك؟ أدعوه، فأخيره. فإن اختاركم فهو لكم بغير فداء. وإن اختارني، فو الله ما أنا بالذي أختار على من اختارني شيئًا قالوا: قد زدتنا على النَّصَف، وأحسنت. فدعا زيدًا، فقال له: أتعرف هؤلاء؟ قال: **نعم أبي وعمي وأخي**. فقال: أنا من قد علمت؛ فاخترني أو اخترهم. فقال: **ما أنا بمختار عليك أحدًا**. فقال له أبوه: ويحك يا زيد، أتختار **العبودية على الحرية**؟ قال: نعم، قد رأيتُ من هذا الرجل شيئًا ما أنا بالمختار عليه معه أحدًا. فلما رأى النبي ذلك من زيد، أخرجه إلى الحجر، فقال لمن حضر: اشهدوا أن **زيدًا ابني أرثه ويرثني**. فطابت أنفسهم. فكان زيد **يدعى زيد بن محمد** حتى جاء الله بالإسلام، فزوّجه زينب بنت جحش، وهي ابنة عمته.

في هذا الإطار، سوف نلاحظ أن كلًّا من **أمية بن أبي الصلت وورقة بن نوفل وعُتبة بن ربيعة**، وهم أكثر ثلاثة في العرب، نُظر إليهم على أنهم يمكن أن يكونوا «أنبياء» في هذا العصر، يرتبطون **بقرابة أسرية من جهة الأم. كان أمية يشكك بأن يصبح عُتبة بن ربيعة** نبيًّا لأنه تجاوز السبعين من عمره، ورأى أنها لا تكون إلا في قريش لرجل في الأربعين، كما تقول روايات الإخباريين

(1) أنساب الأشراف 1/ 208.

العرب. وهؤلاء رووا أسطورة رحلته إلى الشام مع أبي سفيان، وأنه اختلى به ذات يوم وسأله عن عتبة. لكن أمية لم يقل أي شيء بشأن ورقة بن نوفل، وكان يرى إليه كنصراني مثله قرأ في الكتب أن نبيًّا سوف يظهر في بلاد العرب. ومع أن أمية عاش في الطائف، لكنه ينتسب إلى البيت القرشي نفسه من هذه الجهة، فهند زوجة أبي سفيان (أم معاوية الخليفة) هي ابنة خالته. وذلك ما يفسر لنا سرّ العلاقة الحميمة التي جمعته مع أبي سفيان. وإلى جانب هؤلاء، كان هناك **النضر بن الحارث** (انظر نسبه أدناه) الذي قصد مملكة الحيرة وتنصرّ وتعلم الغناء الديني الكنسي، وسعى بكل الوسائل لنشره في مكة. وكان يقول لما سمع بذكر النبي وحضور وقت مبعثه: **والله لئن جاءنا نذير لنكونن أهدى من إحدى الأمم**، فنزلت فيه آيات كثيرة منها: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾(1). وكـــان يحدث قريش كلما سمع أن النبي قرأ القرآن أمامهم، ثم يقول: **أينا أحسن حديثًا، أنا أم محمد** ؟ ويقول: إنما **يأتيكم محمد بأساطير الأولين**. فنزلت فيه آيـة: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾(2)، وآية: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾(3) وآية: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا

---

(1) ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ [سورة فاطر: 42].

(2) ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[الأنفال: 31].

(3) **تفسير الطبري** 15985 - حدثنا أحمد بن إسحاق قال، حدثنا أبو أحمد قال، حدثنا طلحة بن عمرو، عن عطاء قال: قال رجل من بني عبد الدار، يقال له النضر بن كلدة: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ . **الطبري، تفسير**: 15843- حدثني يونس قال، أخبرنا ابن وهب قال، قال ابن زيد في قوله:(إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح)، قال: إن تستفتحوا العذاب، فعُذِّبوا يوم بدر. قال: وكان استفتاحهم بمكة، قالوا:﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، [سورة الأنفال: 32]. قال: فجاءهم العذاب يوم بدر. وأخبر عن يوم أحد:(وإن تعودوا نعد ولن نغني عنكم فئتكم شيئًا ولو كثرت وأن الله مع المؤمنين) . تفسير الطبري 12/ 453.

﴿قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾[1]، وأخرى: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾[2]. ثم آية أخرى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[3]، وآية ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾[4]، **وكان النضر قدم الحيرة، فتعلم ضرب البربط**[5]، **وغنى غناء أهل الحيرة**، وهو غناء ديني كان القساوسة ينشدونه في كنائس الحيرة، **وعلم ذلك قومًا من أهل مكة. وكان غناؤهم قبل ذلك النصب** (نوع من الغناء الديني المرتبط بالطواف حول الكعبة)، **واشترى قينتين، فنزلت فيه آية**: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[6]. ولقي النبي، فقال: **أنت الذي تزعم أنك ستوقع بقريش عن قليل، وأن الله قد أوحى إليك بذلك ؟** فقال: نعم، وأنت منهم، فنزلت فيه آية: ﴿وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾[7]. وسأل النبي: متى تنقضي الدنيا ؟ فنزلت فيه آية: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾[8]. وكان يقول: **إنما يعينه على ما يأتي به في كتابه هذا جبر، غلام الأسود بن المطلب؛ وعداس، غلام عتبة بن ربيعة**، وغيرهما. فأنزل الله بحقه آية ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾[9] وآية: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ

---

(1) الطبري، المصدر نفسه ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ [سورة ص: 16]، وقال: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [سورة الأنعام: 94]، وقال: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۞ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [سورة المعارج: 1-2]. قال عطاء: لقد نزل فيه بضعَ عشرة آية من كتاب الله.

(2) سورة المعارج، الآية: 1.

(3) سورة الحج، الآية: 3.

(4) سورة الشعراء، الآية: 204.

(5) ابن سيده، **المخصص**3/ 122 ابن السّكيت: الصنج فارسي مُعَرّب وبه سمي أعشى بني قيس صَنَّاجة العرب لجودة شعره. صاحب العين: الكِران: الصَّنْج والكَرينة: الضّاربة للصنج والعود فأما أبو عُبَيْد فقال الكرينة المغنية والكِران العود. ابن دريد: وجمعه أكْرِنة. أبو عُبَيْد: وهو المِزْهَر. الأصمعي: ويسمى أيضًا البَرْبَط .

(6) سورة لقمان، الآية: 6.

(7) سورة الأعراف، الآية: 185.

(8) سورة النازعات: الآية: 42.

(9) الطبري : **تفسير**، 12/ 26 قال أبو جعفر: وأولى القراءات في ذلك عندي بالصواب، قراءة من قرأه:(وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ)، بتأويل: قرأتَ وتعلمت؛ لأن المشركين كذلك كانوا يقولون للنبي ﷺ، وقد أخبر الله عن قيلهم ذلك بقوله: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا

قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا ۞ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا﴾[1]. **وأسره المقداد يوم بدر.** فأمر النبي بضرب عنقه، **فضرب علي بن أبي طالب عنقه صبرًا**[2]. وأثناء معركة بدر الدامية وقعت مشادة كلامية بين بعض المسلمين **وأبي حذيفة**[3]، كان موضوعها وقوع العباس عمّ النبي في أسر المسلمين، إذ طلب النبي أن لا يضرب عنقه. وكان العباس جسيمًا، فقيل لآسره ويدعى أبو اليسر: كيف أسرته ؟ قال: أعانني عليه رجلٌ ما رأيته قبل ذلك فقال النبي ﷺ لقد أعانك عليه **ملكٌ كريم**). وكانت هذه مناسبة أخرى ليتأكد المسلمون أنه الملائكة كانوا يقاتلون معهم. لكن النبي ومع حلول المساء وبعد أن تناهت إليه أخبار المشادة الكلامية حول العباس، بدا متضايقًا ولم ينم الليل كله وظل ساهرًا (فقال له أصحابه: يا رسول الله ما لك لا تنام ؟ فقال: سمعت تضّور العباس في وثاقه فُمنع مني النوم). فقاموا إليه فأطلقوه، وعندئذٍ ذهب النبي لينام، وكان قال لأصحابه

يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞۗ لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيّٞ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيّٞ مُّبِينٌ﴾ [سورة النحل: 103]. فهذا خبرٌ من الله ينبئ عنهم أنهم كانوا يقولون: إنما يتعلم محمد ما يأتيكم به من غيره . فإذ كان ذلك كذلك، فقراءة:(وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ)، يا محمد، بمعنى: تعلمت من أهل الكتاب، أشبهُ . الطبري : 12/ 26.

(1) سورة الفرقان، الآيتان: 4 و5.

(2) أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله، **أساس البلاغة**، دار صادر، بيروت- لبنان 1992 مادة ص-ب-ر 1/ 254 وكل من حبس لقتل أو حلف فقد صبر، وهو قتل صبرٍ ويمين صبرٍ.

(3) **الكامل في التاريخ** 1/ 286 : كان عدد المسلمين أقل بكثير من عدد المشركين، وكان الانتصار في هذه المعركة معجزة. ولذا راح كل مسلم من المشاركين فيها يروي كيف أن الملائكة هي التي ساعدته على قتل خصمه. حتى اللصوص الذين كانوا يراقبون سير المعركة من فوق الجبل، انتابهم مثل هذا الإحساس (فقال رجل من بني غفار: أقبلت أنا وابن عم لي فصعدنا جبلًا يشرف بنا على بدر، ونحن مشركان، ننظر لمن تكون الدائرة فننتهب، فدنت منا سحابةٌ فسمعت فيها حمحمة الخيل وسمعت قائلًا يقول: أقدم حيزوم، قال: فأما ابن عمي فمات مكانه، وأما أنا فكدت أهلك فتماسكت). و(قال أبو داود المازني: إني لأتبع رجلًا من المشركين لأضربه إذ وقع رأسه قبل أن يصل سيفي إليه، فعرفت أنه قتله غيري. وقال سهل بن حنيف: كان أحدنا يشير بسيفه إلى المشرك فيقع رأسه عن جسده قبل أن يصل إليه السيف).

يومئذ: قد عرفت رجالًا من بني هاشم وغيرهم أخرجوا كرهًا، فمن لقي منكم أحدًا من بني هاشم فلا يقتله، ومن لقي **العباس بن عبد المطلب** فلا يقتله فإنه أخرج كرهًا). وعندئذٍ قال **أبو حذيفة بن عُتبة بن ربيعة**: **أنقتل أبناءنا وآباءنا وإخواننا ونترك العباس؟ والله لئن لقيته لألحمنه بالسيف.** فبلغ النبي ما قاله أبو حذيفه الذي صُرع والده وعمّه للتو،، فقال لعمر بن الخطاب: يا أبا حفص أما تسمع قول أبي حذيفة؟ أيضرب وجه عم رسول الله بالسيف؟ بعد ذلك شعر أبو حذيفة بالندم لغضبه وظل يردد طوال حياته حتى مصرعه يوم اليمامة (لا أزال خائفًا من تلك الكلمة ولا يكفرها عني إلا الشهادة. فقتل يوم اليمامة شهيدًا). وتجلت خلال **معركة بدر**، أفظع صورة يمكن تخيلها عن قسوة وحدة صراع القرابات في النظام القديم، فقد وقعت حادثة مرّوعة هزّت وجدان المسلمين والعرب واستحل نسيانها حتى اليوم، وذلك عندما طلبت **هند أم معاوية** وبعد مصرع والدها وعمها وشقيها، الانتقام بأي ثمن من النبي ﷺ. وتزعم رواية **للبلاذري**[1] أن وحشيًا- قاتل حمزة عمّ النبي ـ كان عبدًا لابنة **الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف**، وأن هندًا ذهبت إليه بنفسها وطلبت منه الانتقام لقاء كل ما تملك من حلي ونقود (فقالت له: إن قتلت أحد هؤلاء الثلاثة ـ وتعني علي بن أبي طالب أو حمزة بشكل خاص ـ فأنت عتيق). فلما قتل حمزة، أعتقته وأصبح حرًا. ويقال إن (هند بنت **عتبة أم معاوية** ـ بن أبي سفيان ـ هي التي قالت لوحشي: إن قتلت حمزة أم عليًّا، فلك حكمك، فلما قتل حمزة أعطته سلبها وما كان عليها من حلي، وزادته على ذلك، وكانت في رجليها خواتيم فدفعتها إليه). وروي أيضًا أن حمزة وأثناء القتال سقط في جرف رملي، فرماه وحشي بمزراقة ـ رمحه ـ فوقع في خاصرته (ثم شق **بطنه وأخرج كبده فجاء بها إلى هند**، فمضغتها ثم لفظتها، وجاءت فمثلت به واتخذت مما قطعت منه مسكتين ومعضدين وخدمتين **فقدمت بذلك وبكبده إلى مكة**، فسميت آكلة الأكباد. وعمد **معاوية بن المغيرة بن أبي العاص بن أمية إلى حمزة فجدع أنفه)**[2]. إثر معركة بدر، توارى

---

(1) **أنساب الأشراف**: 3/ 65.

(2) علي بن أحمد بن سعيد بن حزم، الأندلسي، الظاهري: **جوامع السيرة وخمس رسائل أخرى لابن حزم**، المحقق : إحسان عباس، الناشر: دار المعارف - مصر، الطبعة: 1، 1900م

معاوية بن المغيرة بن أبي العاص الذي جدع أنف حمزة[1] عن الأنظار، وكان يشعر أنه قام بعمل وحشي مريع، وأنه لن يفلت منه العقاب (فبات قريبًا من المدينة. فلما أصبح، دخل المدينة، فأتى منزل **عثمان بن عفان بن أبي العاص** فضرب بابه، فقالت له امرأته أم كلثوم بنت رسول الله ﷺ: ليس هو ها هنا. فقال: ابعثي إليه، فإن له عندي ثمن بعير ابتعته عام أول وقد جئته به)[2]. فأرسلت إليه وهو عند رسول الله ﷺ. فلما جاء (قال لمعاوية: أهلكتني ونفسك؛ ما جاء بك ؟ قال: يا ابن عم، لم يكن أحد أقرب إليّ ولا أمس رحمًا بي منك، فجئتك لتجيرني). فأدخله عثمان داره، وصيره في ناحية منها، ثم خرج إلى النبي ﷺ ليأخذ له منه أمانًا. وعندما علم النبي أن الله عليه وسلم يقول: إن معاوية بالمدينة وقد أصبح بها، طلب من المسلمين ملاحقته وإلقاء القبض عليه (فقال بعضهم: ما كان ليعدو منزل عثمان، فاطلبوه فيه. فدخل منزل عثمان، فأشارت أم كلثوم إلى الموضع الذي صيره عثمان فيه. فاستخرجوه من تحت حمارة لهم، فانطلقوا به إلى النبي) فقال عثمان حين رآه (والذي بعثك بالحق، ما جئت إلا لأطلب له الأمان منك، فهبه لي). فوهبه له، وأجله ثلاثًا أن يخرج من المدينة. لكن النبي أقسم (لئن وجد بعدها بشيء من أرض المدينة وما حولها، ليقتلن). وخرج عثمان، فجهزه واشترى له بعيرًا، ثم قال له: ارتحل. وحدث أن النبي وبعد ثلاثة أيام فقط، وهي المهلة التي أعطاها لمعاوية، كان يجهز حملته الجديدة لمعركة أحد، فوصل إلى منطقة تعرف باسم حمراء الأسد، وكان معاوية في هذا الوقت يتقصى أخبار النبي ويبعث بها إلى قريش محرضًا على قتاله. وفي اليوم التالي للانتهاء المهلة (اليوم الرابع) علم النبي أن معاوية كان يتجسس عليه، فقال مخاطبًا المسلمين بما فيهم عثمان، إن معاوية أصبح قريبًا ولم ينفذ، فاطلبوه، واقتلوه. وكان اللذان أسرعا في طلبه **زيد بن حارثة وعمار بن ياسر**، فأخذاه (فلم يزل زيد

1/ 361 (أمه: عائشة بنت معاوية بن المغيرة بن أبي العاصي بن أمية بن عبد شمس، قتله النبي ﷺ صبرًا). وكان عمره يوم مات اثنان وخمسون سنة. ومعاوية هذا هو أبو عائشة أم الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان.

(1) **أنساب الأشراف**، 1/ 149-150.

(2) **أنساب الأشراف**، 3/ 66 وابن كثير، **السيرة**، 3/ 104.

وعمار يرميانه بالنبل حتى مات) .وقال الكلبي: **جدع معاوية بن المغيرة أنف حمزة وهو قتيل**، ويقال إن الذي قتل معاوية بن المغيرة: علي بن أبي طالب.

قرابة النبي من قتلة عمه الحمزة

(معركة بدر)

قصي بن كلاب

عبد مناف **عبد العزّى**

هاشم **أسد**

عبد المطلب **نوفل**

عبد الله **عدي** [1] **ورقة** **صفوان** **بُسرة** **عبد مناف**

النبي **(أم معاوية بن المغيرة** **عامر**

ابن أبي العاص بن أمية) **الحارث**

---

(1) أمه هي شقيقة الشاعر الجاهلي تأبط شرًا.

نسب عُتبة بن ربيعة

قصي بن كلاب (جد النبي)

عبد الدار	عبد العزى	عبد مناف	
عبد مناف	عبد شمس	عبد شمس	عبد العزى
كلدة	أمية الأكبر[1]	ربيعة	أسد
علقمة	حرب سفيان	عتبة شيبة	نوفل
الحارث	أبو سفيان الحصين طليق	أبو حذيفة	ورقة
النضر[2]	معاوية حكيم	محمد	

أبناء أمية الأكبر[3]

أبو العاص	العيص	رقية	العاص	هند	أمية [4]	حبيب
صفية (عمة عثمان[5])	الحكم	(أم أمية بن أبي الصلت)	سعيد أبو أحيحة[6]	(أم معاوية)		

(1) 12 ولدًا منهم.

(2) وكان أشد قريش مبادأة للنبي بالتكذيب والأذى، وكان صاحب أحاديث، ونظر في كتب الفرس، ومخالطة النصارى واليهود.

(3) سمى أربعة من أولاده باسم العاص وأبي العاص (والعيص وعويص وهذان لا عقب لهما).

(4) أمية الأصغر - انقرض.

(5) الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه.

(6) كان أبو أحيحة سعيد بن العاص بن أمية الأكبر، يقول: دعوا محمدًا ولا تعرضوا له، فإن كان ما يقول حقًا، كان فينا دون غيرنا من قريش. وإن كان كاذبًا، قامت قريش به دونكم.

أبناء قصي

عبد العُزّى	عبد مناف	عبد الدار	عبد قصي
أسد			أبو كبير
نوفل			هند (تزوجها نوفل)
ورقة			صفوان

(أمهما هند بنت أبي كبير بن عبد قصي بن قصي بن كلاب)

قصي

عبد الدار

عبد مناف

عبد شمس كلدة أمية الأكبر

علقمة حرب أبو العاص العاص

الحارث عمر أبو سفيان عفان سعيد

فكان النبي ﷺ يمر به. فيقول: إنه ليكلم من السماء، حتى أتاه النضر بن الحارث. فقال له: إنه يبلغني أنك تحسن القول في محمد؛ وكيف ذلك وهو يسب الآلهة، ويزعم أن آباءنا في النار، ويتوعد من لم يتبعه بالعذاب ؟ فأظهر أبو أحيحة عداوة رسول الله ﷺ، وذمه، وعيب ما جاء به، وجعل يقول: ما سمعنا بمثل ما جاء به، لا في يهودية ولا نصرانية. وكان أبو أحيحة ذا شرف بمكة، وقويت أنفس المشركين حين رجع عن قوله الأول، وأتاه النضر شاكرًا له على ذلك، لإعظام قريش إياه، وكان إذا اعتم، لم يعتم أحد بمكة بعمامة على لون عمامته إعظامًا له، فكان يدعى ذا التاج.

(أولاد عبد شمس) النضر [1] معاوية عثمان أبو أحيحة[2]

ربيعة

شيبة[3] عتبة[4] هند

(زوجة أبي سفيان وأم معاوية)

(1) يكنى أبا فائد، وكان أشد قريش مبادأة للنبي ﷺ بالتكذيب والأذى، وكان صاحب أحاديث، ونظر في كتب الفرس، ومخالطة النصارى واليهود، وكان لما سمع بذكر النبي ﷺ وحضور وقت مبعثه، يقول: والله لئن جاءنا نذير لنكونن أهدى من إحدى الأمم، فنزلت فيه: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ﴾ [فاطر: 42].

(2) وكان أبو أحيحة ذا شرف بمكة، وقويت أنفس المشركين حين رجع عن قوله الأول، وأتاه النضر شاكرًا له على ذلك، لإعظام قريش إياه، وكان إذا اعتم، لم يعتم أحد بمكة بعمامة على لون عمامته إعظامًا له، فكان يدعى ذا التاج. وكان أبو أحيحة سعيد بن العاص بن أمية يقول: دعوا محمدًا ولا تعرضوا له، فإن كان ما يقول حقًا، كان فينا دون غيرنا من قريش. وإن كان كاذبًا، قامت قريش به دونكم. فكان النبي ﷺ يمر به. فيقول: إنه ليكلم من السماء، حتى أتاه النضر بن الحارث. فقال له: إنه يبلغني أنك تحسن القول في محمد؛ وكيف ذلك وهو يسب الآلهة، ويزعم أن آباءنا في النار، ويتوعد من لم يتبعه بالعذاب ؟ فأظهر أبو أحيحة عداوة رسول الله ﷺ، وذمه، وعيب ما جاء به، وجعل يقول: ما سمعنا بمثل ما جاء به، لا في يهودية ولا نصرانية.

(3) شيبة بن ربيعة بن عبد شمس ويكنى أبا هاشم. وكان شيبة يقف بعرفة إذا حج، بخلاف سائر قريش وكان يجتمع مع قريش فيما تكيده للنبي من الأذى له، غير أنه كان لا يتولى ذلك بيده. وقتل يوم بدر، قتله عبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف، وشيبة أسن من عتبة بثلاث سنين.

(4) كان عمره نحو سبعين عامًا عندما ظهر النبي قتله الحمزة . وكان لعتبة غلام نصراني يدعى عداس وهو القائل: قدوس(قدوس وما ذكر جبريل في هذا البلد الذي أهله عبدة أوثان؟ جبريل ناموس الله الأكبر، ولم يأت قط إلا إلى نبي).

أبناء عتبة بن ربيعة

أبو حذيفة [1] الوليد[2] هند فاطمة[3] أبو هاشم

محمد[4] عاصم[5] (أم معاوية) (تزوجها عقيل بن أبي طالب) فاختة (تزوجها يزيد بن معاوية)

---

(1) أسلم وأصبح في معسكر النبي خلال معركة بدر واستشهد يوم اليمامة سنة اثنتي عشرة وهو ابن ثلاث أو أربع وخمسين سنة.

(2) قتل وعمره نحو خمسين عامًا في معركة بدر.

(3) وكان علي خطبها فأبته فشكا ذلك إلى عثمان فعاتبها عثمان فقال: رددت عليًا وتزوجت عقيلًا ؟ فقالت: إن عليًا قتل الأحبة يوم بدر، وإن عقيلًا كان معهم يومئذ .أنساب 3/ 263.

(4) لما قتل أبو حذيفة كفل ابنه محمد، عثمان بن عفان وأحسن إليه وأنفق عليه، فلما خرج عبد الله بن سعد بن أبي سرح إلى مصر واليًا عليها من قبل عثمان، خرج محمد بن أبي بكر ومحمد بن أبي حذيفة إلى مصر. فغزوا في البحر سنة أربع وثمانين.

(5) أمه سهلة بنت عمر بن حرب بن أمية.

المصادر والمراجع

1: ابن حبيب، محمد بن حبيب البغدادي: المنمق في أخبار قريش، صححّه وعلق عليه خورشيد أحمد فارق، دار عالم الكتب، بيروت 1985ـ لبنان، وكذلك طبعة حيدر آباد الدكن 1964.

2: ابن كثير، الامام أبي الفداء إسماعيل، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى عبد الواحد: الجزء الأول، 1976.

2: الزبيري، أبو عبد الله بن المُصعّب بن عبد الله بن المُصّعب: نسب قريش، نشرة إ. ليفي بروفينسال، دار المعارف المصرية، دون تاريخ نشر.

3: السهيلي، عبد الرحمن بن عبد الله، الروض الآنف: ط/ القاهرة ـ مصر 1914.

4: الفاكهي، الإمام أبي عبد الله محمد بن إسحاق بن العباس المكيّ: أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه، دراسة وتحقيق د. عبد الملك بن عبد الله بن دهيش، دار خضر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1994.

5: ابن حمدون، محمد بن الحسن بن محمد بن علي، التذكرة الحمدونية، تحقيق: إحسان عباس وبكر عباس، دار صامد، بيروت 1996.

6: الطبري محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، جامع البيان في تأويل القرآن، المحقق، أحمد محمد شاكر، الناشر: مؤسسة الرسالة الطبعة: الأولى، 1420 هـ ـ 2000 م.

7: الثعالبي النيسابوري، أبو منصور عبد الملك بن محمد إسماعيل: ثمار القلوب في المُضاف والمنسوب، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف - مصر بلا سنة نشر.

8: كريسنو لوكسنبرغ، معاني القرآن في ضوء علم اللسان، دار الكتاب العرب، برلين 2000.

9: البلاذري، الإمام أحمد بن يحيى بن جابر: أنساب الأشراف، حققه وقدّم له: الأستاذ الدكتور سهيل زكار، والدكتور رياض زكار، دار الفكر ـ دمشق، سورية 1996.

10: الميداني، مجمّع الأمثال.

11: الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسن بن محمّد: الأغاني، دار الكتب المصرية ـ القاهرة 1923.

12: ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، دراسة وتحقيق محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، راجعه وصححه نعيم زرزور، دار الكتب العلمية . لبنان الطبعة الأولى 1992.

13: مطهر علي الإرياني: نقوش مسندية وتعليقات، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء 1990.

14: ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد، مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، تحقيق زينب إبراهيم القاروط، أعاد تحقيقه حلمي بن إسماعيل 1966، دار الكتب العلمية، بيروت.

15: النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب، نهاية الأرب في فنون الأدب، دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ 1424 هجرية ـ 2004 م، تحقيق: مفيد قمحية وجماعة.

16: ابن هشام، السيرة النبوية، حققها وضبطها وشرحها مصطفى السقا، وإبراهيم الأبياري، وعبد الحفيظ شلبي، القاهرة دون تاريخ نشر.

17: الأزرقي، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، تحقيق رشدي الصالح ملحسن، دار الأندلس، بيروت 1993، و ط / قم - إيران، دار انتشارات بلا سنة نشر.

18: ابن عساكر، الإمام العالم الحافظ أبي القاسم: تاريخ مدينة دمشق، دراسة وتحقيق: علي شيري، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت دمشق 1995 .

19: ابن الأثير، عز الدين: أسد الغابة في معرفة الصحابة، تحقيق د. محمد البناء ومحمد عاشور، دار الشعب، القاهرة 1393 هجرية.

20: ابن الأثير، عز الدين، الكامل في التاريخ، دار صادر ـ بيروت 1966.

21: ابن كثير، إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، البداية والنهاية، دار الفكر ـ دمشق 1986.

22: المبرد، الكامل في اللغة والأدب، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ط/ القاهرة 1956، وكذلك / طبعة بيروت، الكامل، تحقيق د. محمد أحمد الدالي، مؤسسة الرسالة - بيروت 1986.

23: أبو هلال العسكري، جمهرة الأمثال، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم -عبد المجيد قطامش، طبعة المؤسسة العربية الحديثة، القاهرة 1964.

24: ابن سعد، محمد بن سعد بن منيع أبو عبد الله البصري الزهري: الطبقات الكبرى، المحقق، إحسان عباس، دار صادر - بيروت، الطبعة: 1 ـ 1968 م.

25: الواقدي، محمد بن عمر بن واقد، المغازي: تحقيق الدكتور مارسون جونس، عالم الكتب 1984.

26: محمد بن حبيب، المحبرّ: اعتنى بتصحيح الكتاب د. إيلزه ليختن شتيتر، دار الآفاق الجديدة ـ بيروت، دون سنة نشر.

27: المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي، مروج الذهب ومعادن الجواهر، اعتنى به الدكتور يوسف البقاعي، دار إحياء التراث العربي . بيروت . لبنان. وطبعة القاهرة: تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد - المكتبة التجارية 1994.

28: المقدسي، المطهر بن طاهر، البدء والتاريخ http:// www.alwarraq.com

29: الربيعي، فاضل، القدس ليست أورشليم، بيروت ـ رياش الريس للنشر 2009.

30: نولدكه تاريخ القرآن، تعديل فريدريش شفالي 2000/ دار نشر جورج ألمز، هيلدسهايم ـ زوريخ ـ نيويورك، نقله إلى العربية د. جورج تامر(عن طبعة لايبزغ 1909.

31: جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: ساعدت جامعة بغداد على طبعه 1993.

32: أبو البقاء الحلي، المناقب الزيدية في أخبار الملوك الأسدية، تحقيق د.موسى درراكة، د. محمد عبد القادر خريسات، مكتبة الرسالة الحديثة، دون تاريخ نشر.

33: ابن منظور، لسان العرب، دار صادر۔ بيروت 1994.

34: القلقشندي: قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان، تحقيق إبراهيم الإبياري، دار الكتب الحديثة 1963.

35: القزويني، زكريا بن محمد بن محمود، آثار البلاد وأخبار العباد، بيروت، دار صادر - بلا سنة نشر.

36: الحلبي، علي بن إبراهيم، السيرة الحلبية (المسمى إنسان العيون في سيرة المأمون) تحقيق: عبد الله محمد الخليلي - دار الكتب العلمية، بيروت 2002 .

37: ابن إسحاق، محمد بن يسار المطلبي، السيرة النبوية (المسماة المبتدأ والخبر) تحقيق محمد حميد الله-معهد الدراسات والأبحاث ـ الرباط1979.

وانظره في موقع الوراق http://www.alwarraq.com

38: شرح ديوان أمية بن أبي الصلت، قدم له وعلق على حواشيه سيف الدين الكاتب، وأحمد عصام الكاتب، دار مكتبة الحياة، بلا سنة نشر.

39: أبو هلال العسكري، الأوائل، تحقيق محمد المصري - وليد قصاب، ط/ وزارة الثقافة السورية ـ دمشق 1985.

40: الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان: تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام - مكتبة القدس ـ القاهرة 1367.

41: ابن دريد، الاشتقاق، تحقيق عبد السلام محمد هارون، بيروت - دار الجيل 1991.

42: أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبي: الأصنام، تحقيق أحمد زكي باشا، دار الكتب المصرية 1995.

43: العصامي، سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، القاهرة سنة 1379هـ بعناية قاسم درويش فخرو، اعتمادًا على نسخة دار الكتب بمصر 1135هـ.

44: القرآن الكريم.

45: النابغة الذبيّاني، الديوان، شرح وتعليق: د. حنا نصرّ الحتيّ، دار الكتاب اللبناني ـ بيروت 1991.

46: القاضي التنوخي: المُستجاد من فعلات الأجواد، تحقيق محمد كرد علي 1946 .

47: الصاحب بن عباد، المحيط في اللغة: مصدر الكتاب: موقع الوراق

http://www.alwarraq.com

48: الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر، مختار الصحاح: تحقيق محمود خاطر - مكتبة لبنان، بيروت 1995.

49: ابن شبة: تاريخ المدينة المنورة، تحقيق الأستاذ فهيم محمد شلتوت. وضع فهارسه د. بكري شيخ أمين، طبعة جدة 1403هـ.

50: ابن شيبة ـ أبي بكر بن عبد الله بن محمد ـ المغازي، درسه وحققه وخرّج آثاره د. عبد العزيز بن إبراهيم العمري، دار إشبيلية، المملكة العربية السعودية 1999.

51: الزَّبيدي محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، تاج العروس من جواهر القاموس، طبعة بيروت 1966.

52: الخطيب البغدادي، أحمد بن علي، تاريخ بغداد، مطبعة السعادة مصر 1967 .

53: عبد القادر البغدادي، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، شرح وتحقيق عبد السلام هارون، طبعة الخانجي - القاهرة 1979.

54: ابن عبد البر، أبو عمر يوسف النمري، الاستيعاب في معرفة الأصحاب تحقيق محمد علي البجاوي، طبعة القاهرة، مطبعة نهضة مصر، بلا تاريخ نشر.

55: ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل: بيروت، دار العلم للملايين 1982.

56: ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار المعارف، 1973.

57: ابن بكار، أبو عبد الله الزبير، جمهرة نسب قريش وأخبارها، تحقيق محمود محمد شاكر - مطبعة المدني، القاهرة 1381 هجرية.

58: التوراة ـ النص العربي.

59: اليعقوبي، أحمد بن إسحاق بن جعفر بن وهب اليعقوبي البغدادي، تاريخ اليعقوبي، علق عليه ووضع حواشيه خليل منصور، دار الكتب العلمية - بيروت1999.

60: جلال الملوك، نصوص حبشية قديمة، ترجمة مجدي عبد الرزاق سليمان، القاهرة المجلس الأعلى للثقافة 2002.

61: التوراة ـ النص العبري תורה נביאים כתובים בערבית ונגלית

والإنجليزي: THE SOCIETY FOR DISTRUTING HEBREW

SCRIPTURES 1Rectory Lane. Edward. Middles H A87LF ENGLAND U.

62: Canon Edward Sell -The Development Of the Quran-1869-1932

63: التوراة ـ النص العربي -ط/ بيروت.

64: البيهقي: محمد بن الحسين بن علي، لباب الأنساب والألقاب والأعقاب.

65: ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق أدكي باشا دار الكتب المصرية 1964.

66: الإمام محمد بن عبد الوهاب، مختصر سيرة الرسول، الطبعة: الأولى الناشر: وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد ـ المملكة العربية السعودية 1418م.

67: الخليل بن أحمد الفراهيدي: العين ـ بغداد 1967.

68: المقدسي البشاري، محمد بن أحمد، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ـ ط/ بريل لايدن ـ هولندا 1909.

69: أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، دراسة وتحقيق محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، ، راجعه وصححه نعيم زرزور، دار الكتب العلمية . لبنان الطبعة الأولى 1992.

70: ابن قتيبة الدينوري،عيون الأخبار، دار الكتب المصرية 1930.

71: ابن حجر العسقلاني، فتح الباري http://www.al-islam.com

72: ابن سيده، المخصص، تحقيق محمد محمود الشنقيطي - الشيخ عبد الغني محمود - بولاق - مصر 1321 هجرية.

73: الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد،أساس البلاغة، ط/ دار الكتب المصرية 1922.

74:

75: الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر بن أحمد: ربيع الأبرار ونصوص الأخبار، تحقيق سليم النعيمي، دار الذخائر للمطبوعات، قم ـ طهران ـ نسخة مصورة.

76: ابن حجر، العسقلاني،الإصابة في معرفة الصحابة، تحقيق محمد البجاوي، دار الكتب العلمية ـ بيروت 1995.

77: ابن ماكولا: الإكمال تحقيق الشيخ المعلمي اليماني، نسخة مصورة عن طبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد 1967.

78: الشهرستاني، الملل والنحل، طبعة لايبزغ 1923.

79: ابن عبد ربه الأندلسي، أحمد بن محمد، العقد الفريد، تحقيق د. محمد مفيد قميحة، دار الكتب العلمية - بيروت 1983.

80: ابن حبيب، المحبر،رواية أبي سعد الحسن بن الحسين السكري، تصحيح الكتاب الدكتورة إيلزه ليختن شتينر، دار الآفاق الجديدة، بلا سنة نشر.

81: الفيروز آبادي ـ القاموس المحيط دار صادر ـ بيروت 1966.

82: ابن الأثير، عز الدين، اللباب في تهذيب الأنساب، دار صادر ـ بيروت ـ بلا تاريخ نشر.

82: الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد النيسابوري الميداني،مجمع الأمثال، تحقيق الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد ـ مطبعة السعادة، مصر 1959.

82: ابن خلكان، وفيات الأعيان وإبناء أبناء الزمان، تحقيق د. إحسان عباس، بيروت، دار صادر، بلا سنة نشر.

83: الطبري، تاريخ الملوك والرسل، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، دار المعارف - مصر 1968.

84: الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، تحقيق د. مهدي المخزومي، د. إبراهيم السامرائي، بغداد 1985.

85: ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق، دار الفكر، دمشق، بلا سنة نشر.

86: البقاعي، إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، موقع التفاسير http://.www.altafsir.com.

87: الواحدي، علي بن أحمد أبو الحسن، الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، موقع التفاسير

http://www.altafsir.com.

88: ابن قيم الجوزية، زاد المعاد في هدي خير العباد ـ تحقيق محمد حامد الفقي، دار الكتب المصرية، بلا تاريخ نشر.

89: ابن شيبة ـ أبي بكر بن عبد الله بن محمد ـ المغازي، درسه وحققه وخرّج آثاره د. عبد العزيز بن إبراهيم العمري، دار إشبيلية، المملكة العربية السعودية 1999.

90: ابن عبد البر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب، مصدر الكتاب: موقع الوراق

http://www.alwarraq.com.

91: العصامي: سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، مصدر الكتاب: موقع الوراق http://www.alwarraq.com.

92: أبو عيسى محمد بن سورة الترمذي: مختصر الشمائل المحمدية، اختصره وحققه محمد ناصر الدين الألباني، المكتبة الإسلامية ـ عمان - الأردن، بلا تاريخ نشر.

93: البيضاوي، ناصر الدين أبو الخير عبد الله بن عمر بن محمد: أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ط/ مكة المكرمة 1358 هجرية.

94: سبل الهدى والرشاد.

95: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي [700 ـ774 هـ] تفسير القرآن العظيم، تحقيق، سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية 1420هـ ـ 1999 م.

96: البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي: محيي السنة، حققه وخرج أحاديثه محمد عبد الله النمر ـ عثمان جمعة ضميرية ـ سليمان مسلم الحرش، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الرابعة، 1417 هـ ـ 1997 م.

97: الماوردي أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي: النكت والعيون مصدر الكتاب: موقع التفاسير http:// www.altafsir.com.

98: ابن عادل، تفسير اللباب، موقع التفاسير، http:// www.altafsir.com.

99: السمرقندي، بحر العلوم، موقع التفاسير http://www.altafsir.com

100: ابن الجوزي، زاد المسير، موقع التفاسير، http:// www.altafsir.com.

101: أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيّان، تفسير البحر المحيط، موقع التفاسير http://www.altafsir.com.

102: القرطبي، محمد بن أحمد الأنصاري: الجامع لأحكام القرآن.

103: الواحدي علي بن أحمد أبو الحسن: الوجيز في تفسير العزيز.

104: السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين، الدر المنثور في التأويل بالمأثور مصدر الكتاب:

موقع التفاسير http://www.altafsir.com.

105: القلقشندي، إصابة الأرب في معرفة أنساب العرب، دار الكتب العلمية بيروت 1984.

106: ابن شبة: تاريخ المدينة المنورة، تحقيق الأستاذ فهيم محمد شلتوت. وضع فهارسه د.بكري شيخ أمين، طبعة جدة 1403هـ.

107: علي بن أحمد بن سعيد بن حزم، الأندلسي، الظاهري: جوامع السيرة وخمس رسائل أخرى لابن حزم، المحقق: إحسان عباس، الناشر: دار المعارف - مصر، الطبعة: 1، 1900م.

108: النيسابوري: تفسير النيسابوري.

109: الترمذي، أبو عيسى محمد بن سورة: مختصر الشمائل المحمدية [مختصر الشمائل ـ الترمذي] اختصره وحققه محمد ناصر الدين الألبان، المكتبة الإسلامية ـ عمان - الأردن، بلا تاريخ نشر.

110: الشوكاني، محمد بن علي، فتح القدير، دار الحديث - القاهرة 1993.

111: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن[224 ـ 310 هـ] المحقق: أحمد محمد شاكر، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، 1420 هـ ـ 2000م.

112: الصفدي، نصرة الثائر على المثل السائر: 1/ 79.

موقع الوراق http://www.alwarraq.com.

113: الفسوي، المعرفة والتاريخ، مصدر الكتاب: موقع الوراق.

http://www.alwarraq.com.

114: ابن قيم الجوزية (691 ـ 751هـ، 1292ـ 1350م). زاد المعاد:

http://www.altafsir.com.

115: الزمخشري، جار الله محمود بن عمر، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، وعلي محمد البجاوي، دار الفكر ـ القاهرة 1979 الفائق في غريب الحديث والأثر.

116: أبو عبيدة، القاسم بن سلام الهروي، غريب الحديث، تحقيق د. عبد الله الجبوري، مطبعة العاني ـ بغداد 1979.

117: الصاغاني، العباب الزاخر http://www.alwarraq.com.

118: شرح الرضي على الكافية شرح الرضي على الكافية، مصدر الكتاب: موقع يعسوب.

119: أبو نعيم الأصبهاني، تاريخ أصبهان، مطبعة بريل ـ ليدن ـ هولندا، 1931 .

120: ابن المعتز، البديع، حققه المستشرق كراتشكو فسكي، لندن 1933.

121: ابن عبد البر، الإنباه على قبائل الرواة.

122: السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين: المزهر، تحقيق أبو الفضل إبراهيم،المطبعة السنية 1282 هجرية.

123: اليافعي، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان، تحقيق عبد الله الجبوري، الجزء الأول دمشق 1984.

124: الجاحظ، الحيوان، تحقيق عبد السلام هارون ـ القاهرة 1945.

125: الربيعي، فاضل، المسيح العربي: النصرانية في الجزيرة العربية، والصراع البيزنطي ـ الفارسي، الريس للنشر 2009.

126: الصفدي، نصرة الثائر على المثل السائر، موقع الوراق http://www.alwarraq.com.

127: Canon Edward Sell -The Development Of the Quran- 1869-1932-

128: تيودور نولدكه Theodor Noldeka تاريخ القرآن، تعديل فريدريش شفالي 2000/ دار نشر جورج ألمز، هيلدسهايم، زوريخ ـ نيويورك، نقله إلى العربية د. جورج تامر(عن طبعة لايبزغ 1909).

129: ثقات ابن حيان.